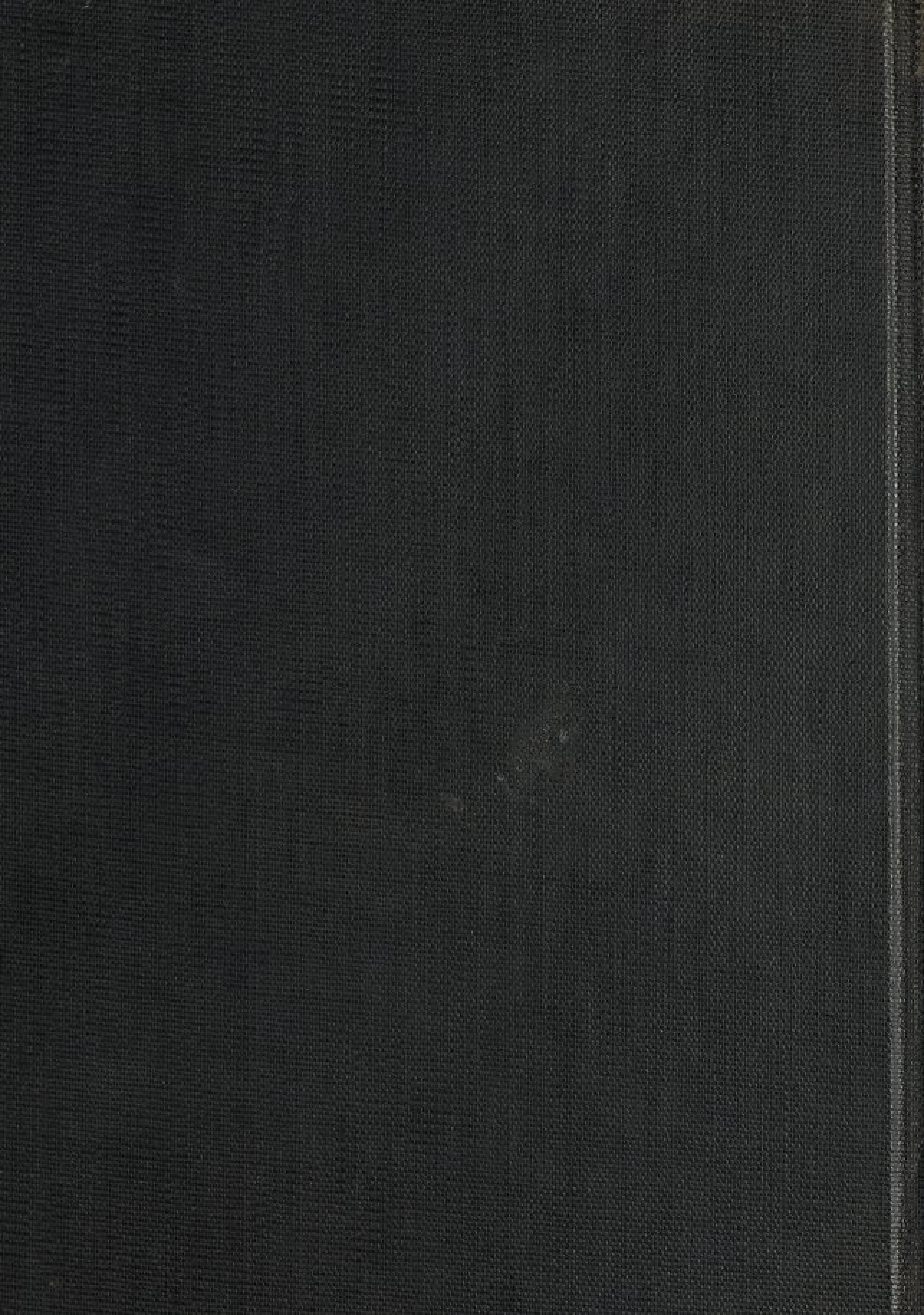
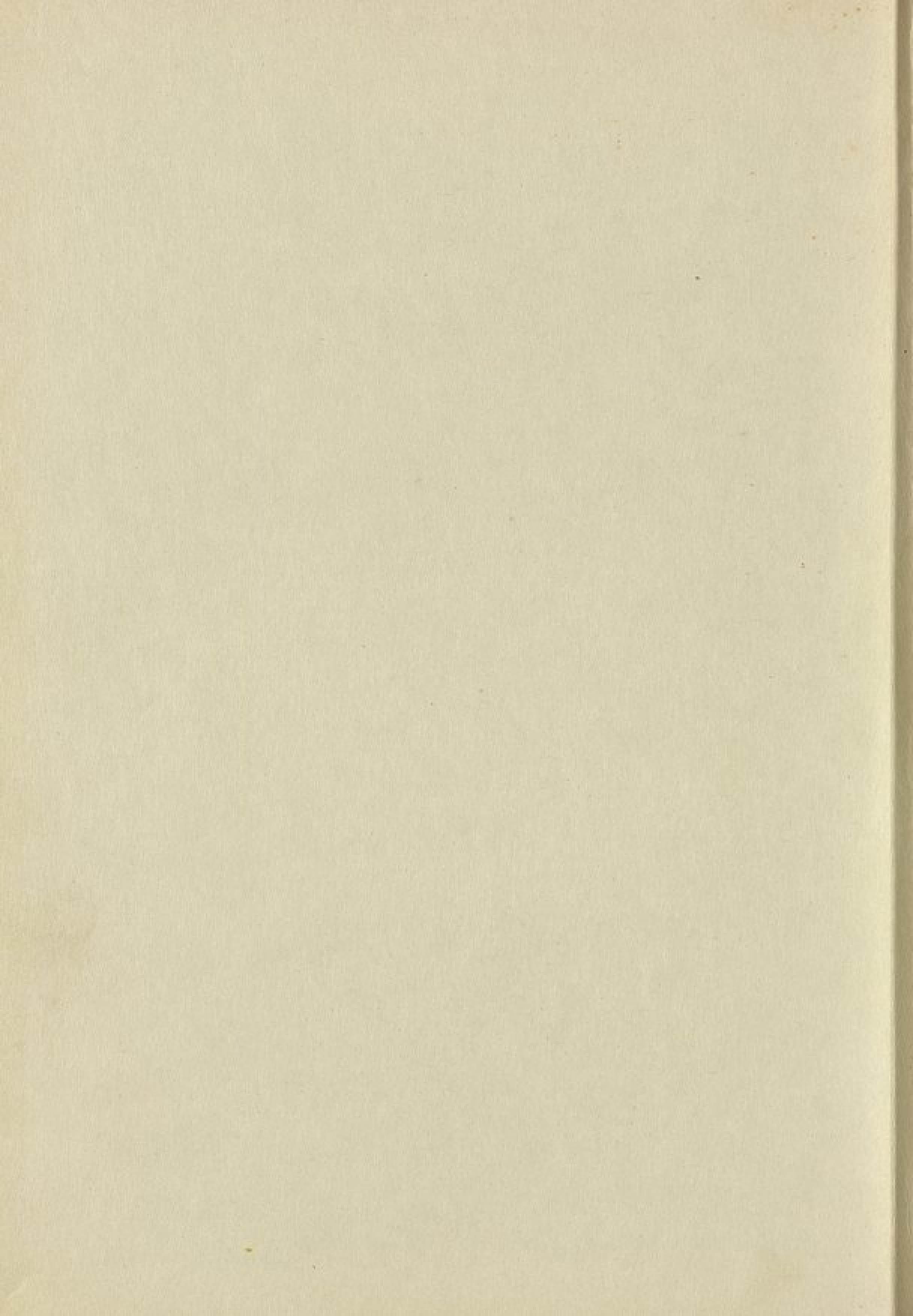
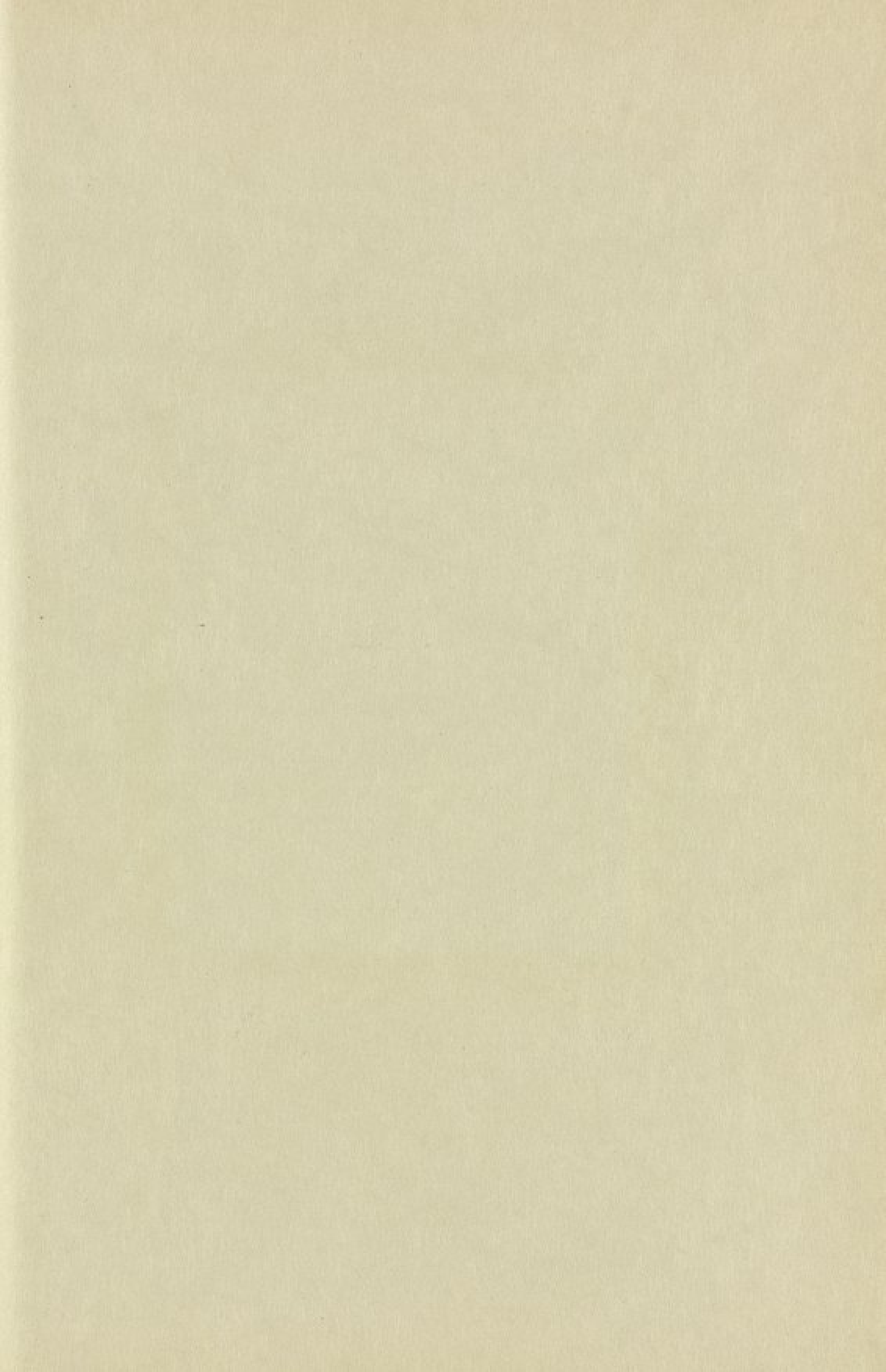
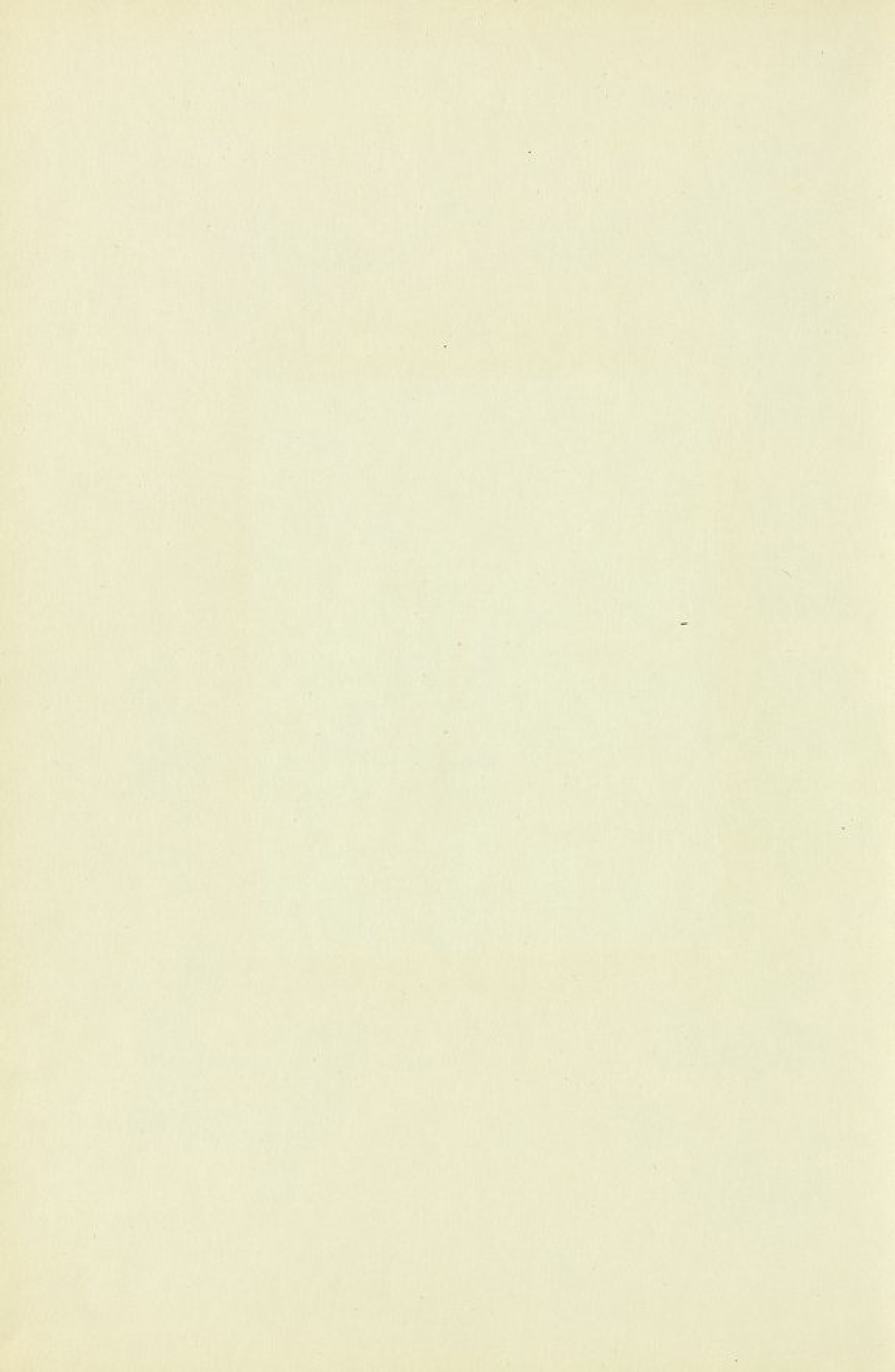
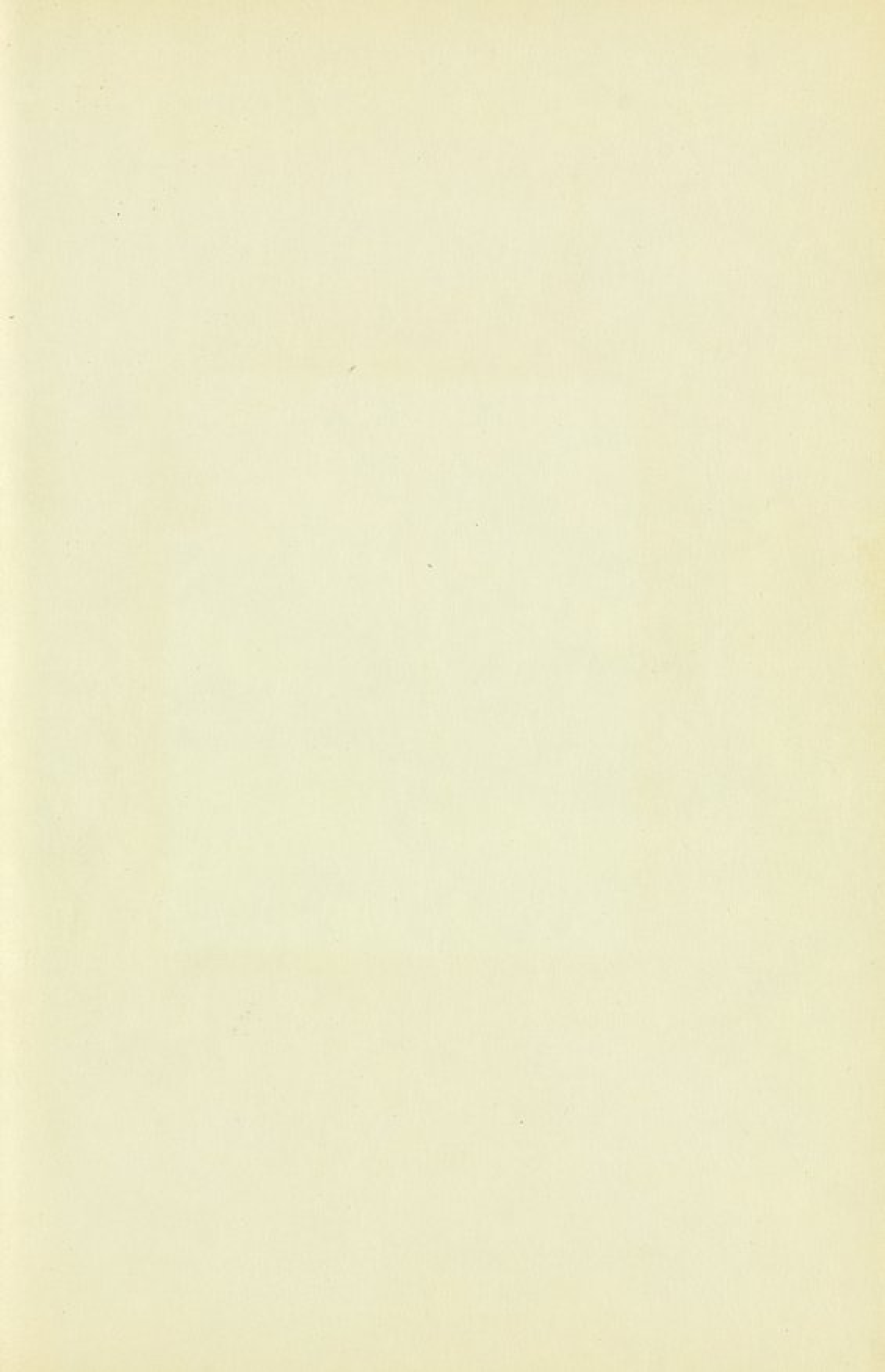










مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



تراجم الأعيان

من أبناء الزمان

تأليف

الحسن بن محمد البوريني

١٠٢٤ / ١٦١٥

الجزء الأول

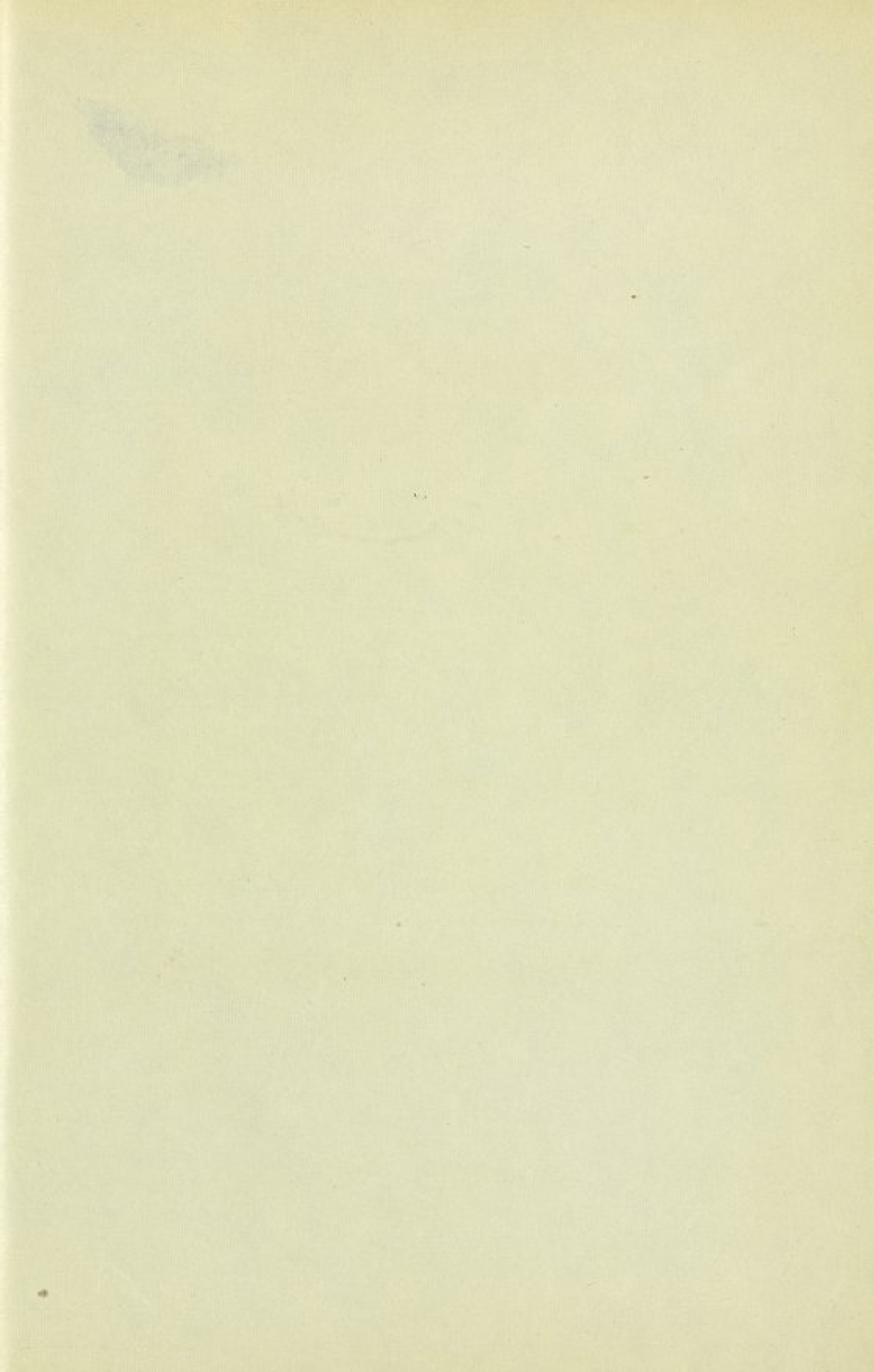
تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٩٥٩

المقدّمة



تمهيـــد

مصادر ترجمة البوريني

هذه هي المصادر التي تفيد في الترجمة للبوريني ورجعنا اليها .

أً – مصادر كتبها البوريني نفسه

١ – « تراجم الأعيان من أبناء الزمان »

وهو الذي ننشره أول نشرة . تحدّث فيه كثيراً عن نفسه وشيوخه ومعاصريه وعصره .

٢ – « منتخبات البوريني »

كنّاش مهم كان البوريني يسجّل فيه ما ينتقيه أثناء مطالعاته من كتب شتّى ، وما كان يقع له من الحوادث اليومية ، وما كان ينظم من الشعر ، وما كان يرد اليه من رسائل ...

٣ – « ديوان شعره »

أحسن مصدر لدراسة البوريني الأديب . وهو يوضح نواحي كثيرة من سيرته ، وصِلاته مع معاصريه [١] .

بً – مصادر أُلِّفت في عصر البوريني

١ – الغزّي ، النجم (– ١٠٦١ ﻫ) ، في « لطف السمر وقطف الثمر في تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر » . مخطوط .

---

(١) انظر مخطوطات هذه التواليف ، في كلامنا على ثقافة البوريني ، تحت .

٢ – الخفاجي ، محمود (– ١٠٦٩ هـ) ، في « ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا » مطبوع

٣ – البديعي ، يوسف (– ١٠٧٣ هـ) ، في « ذكرى حبيب » نقل منه المحبّي في خلاصة الأثر عند الترجمة للبوريني .

٣ً – مصادر ودراسات كتبت بعد عصر البوريني .

١ – المحبّي ، محمد الأمين (– ١١١١ هـ) ، في « خلاصة الأثر في تراجم أهل القرن الحادي عشر » مطبوع .

٢ – الأنصاري الشرواني ، احمد بن محمد (– ١٢٥٣ هـ) ، في « حديقة الأفراح لإزالة الأتراح » مطبوع .

٣ – كرد علي ، محمد (– ١٩٥٣ م) في كلامه على تراجم الأعيان بمجلة المجمع العلمي العربي .

٤ – كحّالة ، عمر ، في « معجم المؤلفين » – مطبوع .

٥ – المنجد ، صلاح الدين ، في « المؤرخون الدمشقيّون في العهد العثماني » .

محاضرات ألقيت ، عام ١٩٥٨ ، على طلبة قسم التاريخ بمعهد الدراسات العربية العليا . جامعة الدول العربية .

٦ – الزركلي ، خير الدين . في « الأعلام » مطبوع .

٤ً – فهارس الكتب والمخطوطات

يُرجع الى :

« كشف الظنون » لحاجي خليفة

و « إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون » لاسماعيل باشا البغدادي .

و « هدية العارفين » له أيضاً .

و « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » لادوار ڤانديك
و « فهرست الخديوية »
و « فهرست دار الكتب المصرية »
و « الكشاف عن مخطوطات خزائن الأوقاف » لأسعد طلس
و « كوبريلي زاده محمد پاشا كتبخانه »
و « فهرس مخطوطات برلين »
و « فهرس مخطوطات ڤينّا »
و « فهرس مخطوطات غوطا »

فهذه كلها ورد فيها أسماء تواليف البوريني ، المطبوعة منها والمخطوطة .

٥ً ـ مصادر غربيّة

Brockelmann, GAL, II, 374 — S 2, 401 (1942)
» , al Būrīni (dans Encycl. de l'Islam)

٦ً ـ المجلاّت العلمية

مجلّة المجمع العلمي العـربي (المجلد الثالث ، ١٩٢٣)
مجلّة معهد المخطوطات العربية (المجلد الرابع ، ١٩٥٨)

ترجمة جديدة للبوريني

ولد الحسن بن محمد البوريني في صفورية سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م ، من أمٍّ صفورية وأبٍ بوريني . وصفورية وبورين قريتان في فلسطين [١] . فقضى أيام طفولته في قرية أمّه . فلما بلغ سنّ التمييز أخذه أبوه إلى زاوية القرية ليتعلم بها القرآن . وكانت أسرة عبد الهادي ذات شأن في القرية ، قد أقامت فيها زاوية لنشر العلم ودراسة القرآن . فقرأ الصبيّ القرآن على شيخها الشيخ نبهان من المبتدأ الى الختام [٢] .

فلما بلغ العاشرة أو أتمّها سنة ٩٧٣ هـ/١٥٦٦ م تحوّل به أبوه محمد الى دمشق [٣] . وكانت دمشق مقصداً لأهل فلسطين يلجأون اليها كلّما ضاق بهم العيش أو نكبهم الزمان . آوتهم عندما هاجروا اليها فارّين بدينهم من الصليبيّين في أوائل القرن السادس الهجري [٤] ، وآوتهم عندما أُخرجوا من ديارهم وغصب اليهود بلادهم عام ١٩٤٨ م . وتردّدوا اليها ما بين النكبتَيْن ، نكبة الصليبين ونكبة الاسرائيليين ، يلتمسون فيها العيش أو يطلبون العلم . فليس عجباً أن يرحل محمد البوريني ، أبو الحسن ، اليها ، ومعه زوجه وابنه ، فينزلون في محلّة ميدان الحصا ،

---

(١) تقع صفورية على بضعة أميال الى الشمال من مدينة الناصرة . وتقع بورين على بضعة كيلو مترات جنوب نابلس ، غربيّ الطريق الذاهب الى القدس . (انظر خريطة فلسطين وجنوب سورية . نشرة فيليب - ستانفورد) .

(٢) تراجم الأعيان ص ١٢٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٤

(٤) انظر أخبار هذه الهجرة في القلائد الجوهرية لابن طولون

خارج دمشق من الجنوب ، ويعمل الأب منجداً ثم عطّاراً ، ويدفع ابنه ليقرأ القرآن في مسجد المحلّة [١] .

وقرأ الحسن القرآن في جامع المحلّة ـ وهو جامع منجك ـ على الشيخ قريحة [٢] ، وهو شيخ لا ندري الكثير عنه . كما قرأ الحساب على محمد التنوري [٣] . ثم ما لبث أن انتقل من جنوب دمشق إلى شمالها : من ميدان الحصا الى الصالحية ، ومن جامع منجك الى المدرسة العمرية . وكانت الصالحية مركزاً للمقادسة . وكانت المدرسة العمرية نفسها أنشأها فلسطينيٌ من بني قدامة . فاتخذ الحسن بها حجرة [٤] ، وأخذ يقرأ على الشيخ ابراهيم بن الأحدب ، ـ نزيل دمشق ، وشيخ حلب في الفرائض والحساب ـ « النزهة » في الحساب ، وبعض مقدمات النحو والفرائض [٥] . ثم قرأ ، بعد سنة ٩٧٥ هـ ، على إمامها الشيخ أبي بكر الذباح « الأذكار » للنووي [٦] .

ويبدو أنّ أباه كان يدفعه الى القرآن . فحمله ذات يوم إلى شيخ المقرئين بدمشق ، وإمام الجامع الأمويّ ، الشيخ أحمد الطيبي ، ليقرأ عليه . ويحدّثنا البوريني عن اللقاء الأوّل مع الشيخ فيقول :

---

(١) ذكر الغزّي في لطف السمر أنه نزل في محلّة ميدان الحصا عند مجيئه ، وأرسل ابنه يقرأ القرآن في مسجدها . لكنّ المحبّي ـ المتوفى بعد قرابة قرن من وفاة البوريني ـ يذكر أن البوريني نزل في ميدان الحصا سنة ٨٩٠ ـ أي في السابعة عشرة من عمره ـ بعد عودته من القدس . ونعتقد أن هذا خطأ من المحي . فالغزّي كان مُعاصراً للبوريني ولعله أدرى بأموره .

(٢) الغزّي ، لطف السمر

(٣) تراجم الأعيان (ترجمة محمد التنوري)

(٤) المحي ، خلاصة الأثر ٥١/٢

(٥) تراجم الأعيان ، ص ٣٠٤ . ويذكر البوريني أنه لازم الشيخ الأحدب ما يزيد على خمس سنين

(٦) المصدر السابق ص ٢٧٩

«... فنظر إليّ (الشيخ) نظر الشفقة . وقال لأبي : احرص على ولدك هذا فإنه سيصير من أهل العلم ... فقبل والدي يده . ثم إنه سأل والدي عن بلدته . فقال له : أنا من قرية بورين ، وهي ملاصقة لأرض نابلس . فقال الشيخ لأبي : أنت حينئذٍ من بلادنا . فقال له والدي : أنتم من أيّ قرية ؟ فقال له : نحن من الفندقوميّة[١] . وتعارفا . وأمرني بملازمته . فشرعتُ في القراءة عليه من أوّل القرآن العظيم الى آخر سورة النساء تجويداً لأبي عمرو . وشرعتُ مع ذلك في قـــراءة « المنهاج » الى باب « صلاة المسافر »[٢] .

ويذكر المحبي أنّه حصل بدمشق سنة ٩٧٥ هـ قحط ، فانتقل البوريني مع أبيه الى بيت المقدس فقضى فيه الى حدود سنة تسع وسبعين[٣] . ولا يذكر ابن جمعة شيئاً عن هذا القحط الذي ذكره المحبي ، على شدّة عنايته بذكر أشباه هذه الأمور[٤] . ثم إنّ البوريني نفسه يذكر في تراجمه أشخاصاً اجتمع بهم بدمشق خلال المدة التي ذكر المحبي أنه كان فيها في القدس . فقد اجتمع بالعيثاوي سنة سبع وسبعين[٥] . كل هذا يدفعنا الى الشك بالتاريخ الذي ذكره المحبي . والمؤكد أنه سافر الى القدس . فهو يذكر أن سفره كان مع والده للزيارة . وأنه عاد منها سنة ٩٨٠ هـ[٦] .

---

(١) تقع في الشمال الغربي من نابلس ، في منتصف الطريق بينها وبين جنين .

(٢) تراجم الأعيان ص ١٠ - ١١

(٣) المحبي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥١

(٤) الفلك ولاة دمشق في العهد العثماني ص ١٦

(٥) تراجم الأعيان ، ص ٤٦

(٦) المصدر السابق ص ٤٣ يقول : « ولما قدمتُ مع أبي من زيارة بيت المقدس في سنة ثمانين وتسع مئة »

وسكن بعد عودته بالخانقاه السُّمَيْساطِيّة وأخذ يتصل بكبار الشيوخ اتصل بالطيبي الصغير أحمد بن أحمد وكان على قوله « أفقه من أبيه » . وكان فقيهاً محدثاً مفسّراً مقرئاً عروضياً حاسباً فرضيا . يقول البوريني : « وأكثر ما قرأتُ على هذا الصغير [١] . . . قرأتُ عليه الارشاد للمولى اسماعيل . وكان يهتم بمطالعته ، ولازمتُه سنين عديدة ليلاً ونهارا . وأحبّني وجذبني اليه . وكان يصحبني في نزهته . . وكنت أبيت عنده [٢] . . »

وكذلك اتصل بمفتي دمشق وخطيبها العيثاوي . « ولما قدمتُ مع أبي من زيارة بيت المقدس سنة ٩٨٠ هـ حضرتُ اليه طالباً قراءة الفقه عليه . فقال لي : اقرأ المنهاج . فقرأناه . وكانت القراءة بالمدرسة الظاهرية [٣] »

واتصل بشيخه العماد الحنفي سنة ٩٨٤ « قرأتُ عليه شرح التلخيص المختصر ، وشرعتُ في الشرح المطوّل . . . وكان سبب اتصالي به والقراءة عليه أنه كان يوماً في صحن الجامع الأموي بين العشاءين . فتباحثنا مع بعض الفضلاء في إعراب شيء من كلام العرب ، واختلفنا في شيء من اصطلاحات الإعراب . فتحاكمنا اليه ، وهو سائر بصحن الجامع المذكور فيما اختلفنا فيه . . وطال الكلام معه في تحقيق ذلك . فقال لي : أين مكانك ؟ فقلت : في الخانقاه الشميساطية . فقال لي : إن أردتَ السكنى عندنا في الناصرية الجوّانية كنّا في مساعدتك علماً ومعيشة وغير ذلك . فأجبتُه الى سؤاله ، وجئتُ اليه في اليوم الثاني الى المدرسة الناصرية الجوّانية ، فأخلى لي حجرة ، وهي الوسطى من الصف الشرقي وكنّسها لي ففرشتُها . وشرعتُ أقرأ عليه الشرح المختصر على التلخيص للمولى السعد التفتازاني . . ولم أزل اقرأ عليه الكتاب الى أن أتممتُه . . .

---

(١) تراجم الأعيان ص ١٦

(٢) المصدر السابق ص ١٧

(٣) المصدر السابق ص ٤٣ – ٤٤

وكان اتمامه في النصف من شعبان سنة أربع وثمانين وتسع مئة بالجامع الأموي . وحضر الختم طائفة من الأفاضل [١] »

وثمة شيخ كبير اتصل به ايضاً هو اسماعيل النابلسي « قرأتُ عليه في منزله عند باب الجامع الأموي (الجنوبي) ، شرح جمع الجوامع في الاصول للمحلّي ، وحضرتُ عنده شرح المفتاح للجرجاني في جامع درويش باشا [٢] » .

مضى البوريني يشدو ألوان العلم ، دائباً على القراءة والتحصيل ، حتى نجده يتصدّر سنة ٩٨٨ هـ بقعة للتدريس في الجامع الأموي ، يملي فيها دروساً فقهيّة وغير فقهيــــة . ويبدو أنه كان موفّقاً في دروسه ، يحدثنا هو عن ذلك فيقول :

« وكنت أدرّس الفقه على مذهب الامام الشافعي عند شبّاك الكامليّة بالحائط الشمالي . فوقف (عبد الرحمن الفرفوري) لحظة يسمع إلقائي . فلما ذهب الى بيته قال لولديْه : رأيتُ اليوم رجلاً يدرّس في الجامع الأمويّ في فقه الشافعيّ ، وأظنه قدسياً ، ما رأيتُ أفصح من لهجته ولا أبلغ من عبارته » [٣] .

وكانت دروسه هذه سبباً لاتصاله بأديب فارسي اسمه حسين الحافظ الشيرازي . حضر دروسه في الأموي سنة ٩٨٨ فاتصل الودّ بينهما « فكان صاحبي وصديقي ، وأنيسي ورفيقي . . . وألفتُ هذا الرجل الى أن كنت أزوره فأمكث عنده في حجرته ثلاثة أيّام بلياليها ليلاً ونهاراً ، على المذاكرة والمحاضرة » . ولم يدع البوريني هذه الصداقة تمضي دون

---

(١) المصدر السابق (ترجمة العماد الحنفي)

(٢) تراجم الأعيان (ترجمة اسماعيل النابلسي)

(٣) تراجم الأعيان (ترجمة عبد الرحمن الفرفوري)

فائدة « فتعلّمتُ منه لسان الفارسية ، وكنتُ اعرفه قبل صحبته في الجملة ، لكني ما استكملتُ تعلمه إلاّ منه [١] . »

ولما بلغ التاسعة والعشرين من عمره ، سنة ٩٩٢ تزوج . وكان زواجه ثمرة اتصاله بشيخه العيثاوي . يحدثنا عن ذلك فيقول :

« . . اطلع على أبي طالب للإحصان ، فقال لي : عندي حَصان وهي أخت أم أولادي ، وهما بنتا الشيخ محمود الصناديقي . فإن رُمْت أن تكون عديلي كما أنك خليلي فاعزم على ذلك . فأجبتُه الى سؤآله ، وعقد نكاحي على أخت زوجته . وكان ذلك من فضله وفي بيته . وبنَيْتُ بها في سنة اثنتيْن وتسعين وتسع مئة . وجعل لي عرساً عظيما ، وكان بي في الكلفة رحيما ، لا يكلّفني سوى الطاقة ولا يجعل في مطلوب صَعْب عليَّ عاقة ، بل كان يزنُ من كيسه ، مظهراً البشاشة لا التعبيسة . وكان العرس في بيته القديم في حكر كمال الدين ، ثم سكنتُ في أهلي بمحلة النحّاسين » [٢] .

ويحدثنا الغزّي أنه حُملت اليه هدايا كثيرة في عرسه هذا . وأنّ الخواجا فخر الدين بن زريق اتجر له بما حُمل اليه حتى نما . وكان ابن زريق صديقاً للبوريني « يقوم بأكثر مصرفه قبل أن يلي الوظائف » [٣]

وكان زواجه خيراً وبركة . اذ ما لبثت الوظائف أن توالت عليه . توفي أواخر سنة ٩٩٣ شيخه اسماعيل النابلسي . وكان يدرّس في الدرويشية فطلبها البوريني من قاضي القضاة مصطفى افندي ابن بستان « فوجهها اليّ مع كثرة الطالبين لها . » [٤] وأقرأ شرح منهاج النووي للمحقق المحلّي .

---

(١) المصدر السابق (ترجمة حسين الحافظ الشيرازي)

(٢) تراجم الأعيان ، ص ٤٤

(٣) لطف السمر

(٤) تراجم الأعيان (ترجمة اسماعيل النابلسي) ، وانظر لطف السمر

وفي سنة ٩٩٤ تولّى خطابة جامع جرّاح . « فكان يخطب من انشائه »[١] وتوفي شيخه الطيبي الصغير فولي تدريس العادلية الصغرى . ثم وجّهت اليه الناصرية الجوّانية ، فنزل عن العادلية[٢] . وبدأ نجمه يلمع ، وصيته يذيع ، فدرّس في الفارسيّة ، والكلاسة ، ووعظ بالسليمانية[٣] ، وفتحت له الشاميّة البرّانية صدرها ليدرّس بها « وأخذتها بشرط واقفها لأنها لِأعلم علماء الشافعيّة[٤] » .

وما كاد القرن الحادي عشر يهلّ حتى كان البوريني ملء الأسماع . أقبل عليه الحكّام ، وقدّمه القضاة والأكابر والأمراء ، لفضله ولسانه ، وهيئته وطيلسانه . وتقدّم في التدريس والمناصب والمجالس . لا يكون في مجلس « إلاّ كان بلبله[٥] » . ورزق القبول عند الخاصّة والعامة . وخالط أهل الأدب وخالطوه ، ولجأ اليه الناس يتوسطونه لدى القضاة والحكّام ، وعرض عليه العلماء والأدباء تواليفهم وأشعارهم يسألونه رأيه فيها . فكان يتوسّط لمن لجأ اليه ، ويقرّظ التواليف والرسائل والأشعار إذا عُرضت عليه . وصار مفتياً للشافعية . وأوتي في الوعظ أكبر نصيب فبرع فيه وأجاد[٦] . كلّ هذا التقدّم والجاه مع السعة والثراء . بعد الفقر والاملاق . حتى إنّ أباه انقطع عن عمله ، وأخذ يحضر دروس ابنه . وكان الحسن بأبيه برّاً[٧] . يعظّمه أنّى كان ويقبل يده[٨] .

---

(١) لطف السمر

(٢) لطف السمر

(٣) المحبي ٢ / ٥٢

(٤) تراجم الأعيان (ترجمة عبد اللطيف المحبي)

(٥) الغزي ، لطف السمر

(٦) المحبي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥٣ نقلاً عن البديعي

(٧) الغزي ، لطف السمر

(٨) المحبي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥٢

واتيح للبوريني أن يرحل ثلاث رحلات ، الأولى في سنة ١٠٠٨ ﻫ الى طرابلس . فرحّب به علماؤها ونزل عند أحد أمرائها [١] .

والثانية الى حلب سنة ١٠١٧ ﻫ . وجّهه اليها أهل دمشق لإخبار الوزير مراد باشا بما صدر من علي بك ابن جانبلاد وما وقع بينه وبين العسكر بدمشق من خلاف . فنزل في المدرسة البهرامية ولقي كثيرين من علماء حلب [٢] .

وألّف بعد عودته من طرابلس الرحلة الطرابلسية ، وبعد عودته من حلب الرحلة الحلبيّة .

أمّا الرحلة الثالثة فكانت الى الحجاز سنة ١٠٢٠ ﻫ . فقد بلغ من الشأن أن وُلّي – وهو شافعي – قضاء الركب الى الحجّ في تلك السنة [٣] . وكان لا يتولّى ذلك إلا حنفي ، إذ كان المذهب الحنفي هو مذهب الدولة الرسمي .

وكان ازدياد فضله ، وعلوّ شأنه ، وزيوع صيته ، وتقدمه ، من أسباب كثرة حُسّاده . فحسده سخفاء العلماء والأعيان . والحسد خُلق ليكون بين هؤلاء . طعنوا عليه بالاستجداء ، وإدمان الراح لمخالطته الأمراء ، وبذاءة اللسان ، ونسبوه الى النفاق ونسيان مَنْ أحسن اليه . وربما أوقعوه في مكروهات من القول والفعل ، وازدروا به ، وسعوا في توهينه ، على أنه كان كثير التيقظ لمكائدهم . وما ذلك كله إلا لأنهم ما أدركوا ما بلغه من ثراء وغنى ، ولا استطاعوا غشيان مجالس الأمراء والكبار ، ولا أوتوا سعة ثقافته ، وحلاوة حديثه ، وعذوبة

---

(١) تراجم الأعيان (ترجمة يوسف بن سيفا)

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤

(٣) تراجم الأعيان ص ٢٣٣ ، ولطف السمر

منطقه ، وتوقد ذكائه ، ولا عرفوا كيف تكتسب النفوس وتستدر الصِلات [١] . وقد اعترف النجم الغزّي بذلك فقال : « وكان أكثر مَنْ يؤذيه يؤذيه حسداً لفضيلته » .

بقي البوريني متألّق النجم حتى توفي سنة ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م وقد تخطّى الستين من عمره . فشُيّع تشييعاً حافلاً . صلّى عليه شيخ الاسلام أحمد العيثاوي ، ودُفن بمقبرة الفراديس . ورثاه كثيرون ، وكان أحسنهم رثاءً تلميذه مفتي الشام عبد الرحمن العمادي [٢] .

---

(١) المحبي ، خلاصة الأثر ٢ / ٥٥ . وقد ذكر من مكائد علماء الشام له أن بعض الوزراء أقبل على البوريني واتخذه نديم مجلسه ، وكان يُبالغ في توقيره وتعظيمه . فقصدوا توهينه عنده . فاجتمعوا يوماً في دار الحكومـــة والبوريني معهم ، فأرسلوا الى والده يتطلبوه الى الوزير بناء على أنّ الوزير استدعاه . وكان رثّ الهيئة في زيّ عوام السوقة . فلم يشعر البوريني إلاّ وأبوه مقبل . فنهض من مقعده مُسْرعاً واستقبله وقبّل يده . ثم جاء الى الوزير وقال له : حلّت عليكم البركة بقدوم والدي ، فإنه بركةُ هذا الوقت ، الصوّام القوّام ، الكذا ، الكذا . فنهض الوزير وقبّل يده ، وأجلسه . وبالغ في تعظيمه . فانقلب أعيان أولئك ولم يعودوا الى مثلها . اهـ .

(٢) المحبي ، خلاصة الأثر ٢ / ٦٠ ، وقد ساق بعض رثائه . وكذلك ذكر الغزّي ما قيل فيه من الرثاء . وقد تخاصم علماء عصره بعد وفاته على وظائفه خصاماً شديداً . وأصاب بعضهم الأذى . ونظم النجم الغزي في هذه الواقعة قصيدة عينية تدلّ على أخلاق العلماء في ذلك العصر (انظر : لطف السمر ، والمحبي ٢ / ٦٢) .

ثقافة البوريني

كان القرن الحادي عشر عصر نهضة علمية في دمشق ، هيأها رجال عاشوا في أواخر القرن العاشر . فأتيح للبوريني أن يُوافق هذه النهضة العلمية وأن يكون من رجالها ، ويأخذ عن بُناتها كالشيوخ من آل الطيبي والغزّي ، والنابلسي ، والعيثاوي ، والمنقار ، والعماد وغيرهم . وكان كلٌ منهم إماماً في فنّه . فأفاد منهم جميعاً . أتقن القراءات ، والفقه الشافعيّ ، والأصول ، والفرائض . وبرع في العربيّة وآلاتها ، وقرأ كتب التاريخ والادب ودواوين الشعراء ، ونظم ونثر . ثم تعلّم الفارسيّة حتى صار يتكلّم بها — على قول النجم الغزّي — كأنه أعجمي . فأتاح له ذلك أن يطلع على الأدب الفارسي ويقتبس من معانيه في شعره العربي . ثم أضاف الى ذلك معرفة اللغة التركية . وكانت يومئذ لغة الدولة والوزراء والأمراء . وقلّ أن نجد عالماً فقيهاً — حتى في عهود الازدهار — يتقن اللغات الثلاث : العربية والفارسية والتركية ، معاً ، وأن يحيط بالأدب والشعر والتاريخ .

كان البوريني — كما يبدو من تصفح آثاره — كثير القرآءة والمطالعة . وكان يسجّل ما يروقه من قرآءاته في كنّاش اتخذه لذلك . ولم يفقد هذا الكنّاش . وهو يدلّنا على الكتب التي كان يقرأها والشعراء واللغويين الذي كان يلتقط منهم . ففي الكنّاش نقول من تاريخ الذهبيّ ، وتاريخ بغداد ، وعيون التواريخ لابن شاكر ، ووفيات الأعيان لابن خلّكان ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ، وتاريخ حلب لابن العديم . وفيه ذكر لحياة الحيوان للدميري ، وكتاب الفلاحة لابن وحشيّة ، والمفتاح للسكّاكي .

وفيه منتخبات شعرية لأكابر الشعراء المعروفين من مثل : المتنبي ، والشريف الرضيّ ، وأبي فراس ، وعليّ بن الجهم ، وديك الجن ، وأبي تمّام ، وابن سكّرة الهاشميّ ، وابن الخياط ، وابن سناء الملك ، ومحمد بن أميّة ، والعرجي ، وابن خفاجة ، والبهاء زهير ، والسَرِيّ الموصليّ ، والمعتمد ابن عبّاد ، وكشاجم ، وابن المستوفي الاربلي ، ومسلم بن الوليد ، وابن حمديس الصقليّ ، والعبّاس بن الأحنف ، وأبي بكر بن الجنّان المريسي ، ومهيار ، وابن هانيء الأندلسي ، وابن عُنَيْن ، والشاب الظريف ، وابن منير الطرابلسي ، وأبي العتاهية ، ولبيد ، والأرّجاني ، وابن دُريد .

وكذلك نجد فيه نقولاً من العقد الفريد ، ومقامات الزمخشري ، ورسائل القاضي الفاضل ، وخريدة العماد .

فالذي يقرأ هذه التواليف وينتقي منها ، ويُصاحب هؤلاء الشعراء ويذوق شعرهم ، لا بدّ أن يؤتى ثقافة واسعة رفيعة ناعمة . وقد ذكر المحبي أن البوريني حفظ من الشعر والآثار والأخبار والأنساب ... ما لم ير قط مَنْ يحفظ مثله ؛ وأنه حفظ علوماً أخرى كاللغة والنحو والسير والمغازي ، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً . فأتاحت له هذه الثقافة الملوّنة أن يتصدّر المجالس فيكون بلبلها . وجعلته طلاقة اللسان ، وفصاحة العبارة ، وجودة الحفظ ، وعذوبة المفاكهة ، وحسن الحديث أميراً للمجالس ، مجالس العلماء والأمراء والأدباء والعوام . ولا شك أن ثقافته الأدبية والتاريخية أبعدتاه عن جمود الفقهاء وعن سماجات بعضهم . وجعله ذكاؤه الحادّ يعرف أهواء الناس ، وضعف نفوسهم ، فعامل بعضهم بطول اللسان ، وعامل الآخرين بالمديح والإطراء . فخافه أولئك ، وأحبّه هؤلاء . والنفوس البشرية تخاف السبّ وتعشق المديح . وقد كسب البوريني بلسانه الأصدقاء والأعداء ، كما كسب الصلات والأموال . على أنّ مديحه

الناس كان أكثر بكثير من ذمّه لهم . حتى صار مدحه عند حاسديه موضع تندّر وسخرية ، وحتى نُسب الى النفاق للكبار .

ولعلّ إقامته بدمشق ساعدته على استثمار ثقافته . فهو فلسطينيّ الأصل . ودمشق معروفة منذ القديم بحب الغريب عنهـا . شهد بذلك ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما . وكم فتحت صدرها للغرباء عنها ، وكم لقي هؤلاء فيها من التكريم والتقديم ما لم يلقه أبناؤها .

وقد صبغت تلك الثقافة الواسعة صاحبنا بصبغة العالم الحق . يذكر الغزّي أنّ البوريني كان « منصفاً في البحث ، معترفاً لأهل الفضيلة ، ليس في مباحثته غيظ ولا حقدٌ ولا تغليظ ، بل مباحثتُه نظيفة لا تخلو من فائدة . » وهذه صفات المثقف العالم حقاً . وبرغم سعة ثقافته كان « لا يملُّ المذاكرة مع العلماء » ، وبرغم ذيوع صيته « كان يرجع الى شيخه » في كثير من المسائل .

★

ماذا كانت الثمار العلميّة لهذه الثقافة ؟ لقد أخذ كثيراً من الكتب ومن الشيوخ فماذا أعطى ؟

١ً ـ لقد أُتيح له أن يُقرىء كثيراً من الطلاّب أصولاً هامة . فنحن نرى من خلال تراجم الأعيان أنه أقرأ « مقامات الحريري » و « الشرح المختصر للتفتازاني على متن التلخيص » و « الآجرّوميـة » في النحو ، و « شرح ابن عقيل » على ألفية ابن مالك ، و « شرح الشذور » لابن هشام ، و « متن العزي » في التصريف و « جمع الجوامع » في الأصول للمحلّي ، و « شرح منهاج النووي » في الفقه ، و « شرح المواقف » للجرجاني ،

و « شرح الحسام الكاتي » للايساغوجي ، و « الغاية القصوى » في الفقه للبيضاوي و « الأربعين النووية » ، وغير ذلك .

وهذه الكتب التي أقرأها تدلنا على أن البوريني كان يُقصد للأدب واللغة وعلومها ، وأنه كان يُقرىء ذلك أكثر من إقرائه سائر العلوم من فقه وأصول ومنطق ... وهذا ما يؤكد قول الغزّي من أن بضاعة البوريني في الفقه كانت مزجاة وأن براعته كانت في العربية وغيرها من المعقولات .

٢ً ـ وأتيح له أن يؤلّف في التفسير والأدب والتاريخ تآليف مختلفة .

أما في التفسير فقد ألّف حاشية على أنوار التنزيل للبيضـــاوي . ولم أهتد إلى وجود أيّ نسخة منها .

أمّا في الأدب فقد ترك لنا

آ ـ شرحاً لديوان ابن الفارض سمّاه « البحر الفائض في شرح ديوان ابن الفارض » . وقد طبع مرّات ، ومنه نسخ مخطوطة كثيرة (١) .

ب ـ ديوان شعر . ذكر المحبّي انه « سائر متداول بين الناس » وما يزال مخطوطاً (٢) .

ج ـ رسائل ادبيّة مختلفة . منها رسالة « مزج الصواب بالمجون في حلّ سلسلة المجنون » وهي شرح قصيدة القرم حشدية لحسين الشامي . ولا تزال مخطوطة (٣) .

---

(١) انظر طبعاته في معجم المطبوعات ٦٠٢/١ ، ومخطوطاته في بروكلمن . واضف اليها ثلاث نسخ مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد ذكرها أسعـــد طلس في الكشّاف ص ١٦١ .

(٢) منه نسخة في برلين برقم 1079 ؛ ونسخة ثانية في كوبريلي برقم 1257 (انظر كوبريلي زاده محمد باشا كتبخانه س ٨١) .

(٣) منها نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٣٥ ادب .

ومن رسائله ايضاً رسالة أرسلها الى أسعد بن معين الدين التبريزي . ومنها نسخة مخطوطة في غوطا [1] .

ورسالة في الاعتذار عن معاقرة الراح ذكرها البديعي ونقلها المحبي عنه [2].

هذا ما عرفناه من رسائله ، وهي كثيرة على قول المحبي .

ج – منتخبات شعرية ونثرية . في كنّاش تقدّم الكلام عليه [3] .

وليس هنا مجال التحدث عن البوريني الأديب بأكثر من هذا .

أما في التاريخ فقد ترك لنا تاريخه المسمّى « تراجم الأعيان من ابناء الزمان » وما يزال مخطوطاً . ونحن ننشره اول مرّة . ورحلتين الى طرابلس وحلب وهما مفقودتان .

---

(١) انظر فهرس مخطوطات غوطا . رقم ٤٤ / ٢٣

(٢) في خلاصة الأثر ٢ / ٥٣ قال البديعي : ومما وقفتُ عليه من آثاره هذه الرسالة جواباً عن رسالة أرسلها اليه بعض أحبابه ، موشحة بعتابه ، يذكره تراضع الكاس في أيام الايناس فأجابه ... »

(٣) محفوظ بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤١٥٩ أدب . ونرجّح أنه ترك كنّاشات أخرى لم تصل الينا .

البوريني المؤرخ

وكتابه تراجم الأعيان

كانت ثقافة البوريني التاريخيّة نتيجة مطالعات خاصة في كتب التاريخ والسِّيَر والأنساب . وكان ينتقي من مطالعاته فوائد تاريخية كثيرة سجّلها في كنّاشه الذي وصل الينا ، أخذها من ابن خلّكان ، وابن العديم ، والخطيب البغدادي ، والذهبي ، وغيرهم .

وقد أثّر المؤرخون القُدامى في البوريني ، فكانت تواليفهم سبب تأليفه « التاريخ » . فهو يحدّثنا في مقدمة تراجم الأعيان أنه لما رأى ابن كثير وابن الأثير وابن خلّكان وابن شدّاد وأبي شامة وابن حجر قد ألّفوا بعلم الأخبار ، ودوّنوا في الكتب محاسن الأخيار ، بعثه ذلك على تأليف كتاب يجمع فيه من كان موجوداً من الأعيان ، من ابتداء ولادته ، سنة ٩٦٣ ﻫ الى قبيـل وفاته . فهو اذن مقلد من سبقه من المؤرخين وسالك على آثارهم .

وكان لصاحب الدفاتر السلطانية بدمشق أمين افندي الدفتري الفضل في حثّه على تنفيذ رغبته في التأليف . فبدأ بتدوين كتابه سنة ١٠٠٩ ﻫ ، أي بعد عودته من رحلته الطرابلسية .

ترجم البورينيّ لمعاصريه . وقد حدّد لهذه التراجم زمناً . بدأه من سنة ولادته وهي سنة ٩٦٣ ﻫ وظلّ يضيف اليها الى سنة وفاته ، وهي

سنة ١٠٢٤ [1] . فالمدّة الزمنية التي ضمّت المترجم لهم كانت نحواً من ستين عاما ، بعضها في القرن العاشر وبعضها في القرن الحادي عشر . فتراجم الأعيان يتمّم ، من هذه الناحية ، الكواكب السائرة ، ولطف السمر للغزّي ، وخلاصة الأثر للمحبي ، وكتباً أخرى .

أما من ناحية البلاد فلم يقف البوريني عند دمشق ، بل ترجم لرجال من مصر والمغرب ، ومكة واليمن وحضرموت ، وفلسطين وحلب ، وإيران وتبريز واستامبول . فكتابه يشمل رجالاً من العالم الاسلاميّ كله ، لا دمشق وحدها .

ولم يقصر البوريني تراجمه على طائفة دون أخرى . فترجم للعلماء والفقهاء والأدباء ، كما ترجم للملوك العثمانيين والمغرب ومكة واليمن ، وترجم للقضاة والوزراء والأمراء الأتراك الواردين على دمشق . فكتابه يجمع أصنافاً من الناس مختلفة .

ورتّب التراجم على حروف المعجم في الأسماء . ونلاحظ أنه أهمل الترتيب في أسماء الآباء . فإن علم المنشأ والوفاة ذكرهما وما شكّ فيه تركه وأهمله .

وذكر أنه شرط على نفسه أن لا يذكر من أوصاف الناس إلاّ الوصف الحسن المحمود . وقد خرج عن شرطه هذا في أحايين كثيرة .

ولا ندري عدد الرجال الذين ترجم لهم البوريني على الضبط . فعددهم يختلف باختلاف نسخ المخطوطات التي وصلت الينا . على أنه بلغ في نسختي الهند والمدينة معاً مئة وأربع عشرة ترجمة .

*

(١) صحّح ما ذكره السيد رشاد عبد المطلب في مقاله عن تراجم الأعيان (مجلة معهد المخطوطات . المجلد ٤ (١٩٥٨) ص ١٥٣) أن البوريني ترجم لمن عاصره من تاريخ ميلاده في سنة ٩٦٠ هـ الى سنة ١٠٤٠ . فهذا خطأ .

ليست التراجم بالشيء الجديد الذي ابتكره البوريني . فقد سبقه في هذا الفن كثيرون كابن خلكان الذي بلغ فيه الذروة في التحرير والتنقيح ، وكالذهبي والصفدي وابن حجر والسخاوي وابن طولون الدمشقي . وتبعه كثيرون ايضاً كالغزي والمحبي والمرادي فكيف كانت طريقته في الترجمة ؟

لقد تفرد البوريني بشيء ما نحسب أن أحداً شاركه فيه ، هو أن شخصيته كانت مركز التراجم كلها . فلقد ترجم على الأغلب لأناس عاصروه . خالطهم وخالطوه ، وكاتبهم وكاتبوه ، وحدثهم وحدثوه . فسجل الأمور التي رآها وسمعها وعاش فيها وخص بالعناية منها ما اتصل بشخصه هو . فكان يترجم لهم لكنه في الحقيقة يترجم لنفسه ايضا . كل ترجمة تنعكس فيها صورتان . وكلما كانت صلاته بالمترجم له قوية متينة رأينا الصورتين واضحتين . لذلك كانت تراجمه ، في رأينا ، مملوءة بالحياة ، قريبة الى النفس ، رغم السجع الممل أحيانا ، أكسبتها (أنا) حرارة ودفئاً . على حين نجد تراجم الماضين من المؤرخين جافة أحياناً ، باردة ثقيلة الظل أحياناً أخرى . نقرأها بمشقة ولا نحس أي اتصال بيننا وبينها .

ويكاد المرء يخيل اليه ، في أحيان كثيرة ، أنه يقرأ في تراجم البوريني مذكرات شخصية عن الناس والحوادث .

فقد كان البوريني لا يكتب الترجمة مرة واحدة ، بل مرات ، وعلى فترات متباعدة . ومن هنا جاء تشبيهنا إياها بالمذكرات . لقد بدأها في سنة ١٠٠٩ كما ذكرنا . وكان يضيف الى بعض تراجمها ما يستجد من الحوادث أو الأخبار المتصلة بصاحبها ، كما كان يضيف تراجم جديدة لمن كان يعرفه أو يتصل به . ونجد كثيراً من تاريخ الحوادث المثبتة ، أو الأخبار المضافة مثبتاً .

ويبدو أنه كان يكتب بعض تراجمه من رأس القلم كما يقولون وعفو الخاطر ، لذلك لم يلتزم السجع فيها . ثم عاد فنقّحها ، فحذف وأضاف وسجع . وتقدّم لنا مخطوطة الهند ـ التي سنصفها ـ النماذج الأولى للتراجم قبل الحذف والتنقيح .

وتتفاوت التراجم في سعتها وضيقها ، حسب صلة المترجم له بالمؤلف وشأنه . فنجد تراجم زادت على عشر صفحات . وأخرى لا تكاد تتم صفحة واحدة .

★

صوّر البوريني في تراجمه رجال عصره ، كما صوّر عصره أيضا . فهي تراجم غنيّة سجّلها شاهد عيان . وقد ساعده على تصوير الرجال كثرة مخالطته إياهم وتحدثه اليهم ، وغشيانه المجالس العامة والخاصة . وساعده على تصوير حوادث عصره أنّه كان يخالط الأمراء والولاة والقضاة ، فيسمع منهم ما يحدث ويجري . وإن سرده الحوادث الكبرى التي وقعت بين طائفة السكبانية وولاة السلطنة ، وتصويره حالة لبنان وأمرائه الإقطاعيين لمن أهم ما كُتب في هذا الموضوع . ولقد سبق البورينيُّ ، مؤرخَ مصر الجبرتيَّ ، بقرنين الى الاهتمام بالحوادث المعاصرة له وسردها سرداً تاريخياً حيّاً . ويصوّر بعض المؤرخين المصريين المعاصرين الجبرتيَّ على أنه المؤرخ الوحيد الذي سجّل حوادث أيّامه في الشرق العربي في القرون الأخيرة . ولعل سبب ذلك عدم اطلاعهم على آثار مؤرخي دمشق في العهد العثماني . وكذلك فاق البوريني صاحبنا الجبرتي بثقافته الواسعة واطلاعه على مصادر التاريخ ، واستقائه الأخبار من مراجعها . فبينا نجد البوريني يصاحب آثار المؤرخين القدامى وينتفع بها ، يعترف الجبرتي أنه ما أُتيح له أن

يطلع على أيّ تاريخ من تواريخ الماضين ويقول عنها « هذه صارت أسماء من غير مسميات » .

وقد قدّم لنا البوريني بوصفه معاصريه ، ووصفه حوادث عصره ، مواد كثيرة لدراسة الحياة العلمية والاجتماعية والاخلاقية بدمشق في أيامه . وسيبقى تراجم الأعيان من أهم المصادر لدراسة دمشق في القرن العاشر والقرن الحادي عشر ، في نواحيها المختلفة . وقد استمد المحبّي منه كثيراً في تراجمه لأهل القرن الحادي عشر .

مخطوطات تراجم الأعيان

النسخ المخطوطة التي عرفناها من تراجم الأعيان هي :

١ً ـ مخطوطة عارف حكمة بالمدينة المنوّرة

٢ً ـ مخطوطة الجمعية الآسيوية بكلكتا ـ الهند

٣ً ـ مخطوطة برلين

٤ً ـ مخطوطة فينا

٥ً ـ مخطوطة دار الكتب المصرية

مخطوطة عارف حكمة

أما المخطوطة الأولى فمحفوظة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنوّرة برقم ١٨٨ تاريخ . ولدى معهد المخطوطات العربية فيلم عنها اعتمدنا عليه في نشرتنا . تقع في ٣٠٠ ورقة تقريباً . كتبت سنة ١٠٧٨ ﻫ بيد فضل الله بن محب الله بن محب الدين الشامي .

على الورقة الأولى منها ما يلي :

كتاب تراجم الأعيان في ابناء الزمان
تأليف العلامة الفاضل الفهامة بحر العلوم
والعالم بطرق المنطوق والمفهوم فخر
المتأخرين وزبدة المتقدّمين
مولانا ابو (كذا) الضياء حسن البدري
بدر الدين البوريني الشافعي
الأشعري القاري (كذا)
لطف الله به

ويبدأ النص فيها بعد البسملة بما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ..

أما خاتمتها فهي :

« يقول العبدُ الفقير فضل الله بن محب الله بن محب الدين الشامي كان الله تعالى له حافظاً وحامي (كذا) :

هذه خدمة تضاعف عليه بها مزيد النعمة . ولعمري هي شرف خادمها وفخر جامع هذه التراجم وراقمها . كيف لا وهي بأمر وحيد دهره سؤددا وعُلا . نسيج وحده اشتمالاً على الفضائل واستيلا . الذي يضيق نطاق كلّ بليغ عن إحصاء بعض أوصافه وعلومه . بل كلّ منطيق على أن يعبر بعبارة تفصح عن منطوق كلامه ومفهومه . فرد الوجود في الفضل والجود . وليّ نعمتي . المولى شيخ محمد عزّتي . حفيد شيخ الاسلام المرحوم زكريا ابن بيرام . بلّغه الله تعالى أطول الأعمار . وحرسه بالملائكة الأبرار . وقد قابلت ما أُمرتُ به بالقبول . وبذلتُ فيه مجهودي . ولم آل جهدا في تحصيله وجعلتُهُ مقصودي . ولو قدرتُ جعلتُ الورق من جلدي . بل من صحن خدّي . والقلم من بناني . والمداد من ماء أجفاني . لـكان ذلك قليلاً في جنب ما أمر به وطلبه . ومن عبده وداعيه تطلّبه . وقد تقيّدتُ بجمعه من سبع مجاميع ، ولم يتيسّر جمع الجميع . فإنه مفقود . بل ليس له وجود . فإنّ بعض الأعيـــان . لم يترجمهم المؤلف المرحوم الشيخ الحسن البوريني الشامي علاّمة الزمان . والبعض كان في هذه السنين . بزوايا الجبايا (كذا) كمين . فأبقى الله تعالى مدى الأيام مَنْ كُتبتْ هذه النسخة باسمه ، ووسمتْ بشريف وسمه . كما كان السبب في إحياء اسماء هذه الساده . ونشر ما انطوى من أخبار تلك القاده . بجاه خاتم الانبياء . ومبلّغ الانباء . ما ختم كتاب . وسحّ سحاب .

وكان الفراغ من مباشرة ترتيبه وكتابته وتهذيبه في أوائل رجب المرجّب سنة ثمان وسبعين وألف من هجرة سيد الأنام . عليه أفضل الصلاة والسلام . آمين .

فيتبيّن أنّ النسخة قد جمعها من سبع مجاميع فضل الله المحبّي .

وفضل الله هذا هو أبو الأمين المحبّي صاحب خلاصة الأثر . وكان له معرفة بالأدب والتاريخ . ترجم له ابنه ترجمة طويلة [1] . وقد ذيّل على تراجم الأعيان . ولم نطّلع على ذيله . وتوفي سنة ١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م ، أي بعد أربع سنوات من جمعه تراجم الأعيان .

ولم يذكر بروكلمن نسخة المدينة هذه .

مخطوطة الهند

أما المخطوطة الثانيـــة فهي محفوظة في خزانة الجمعيّة الآسيوية « Asiatic Society » بالهند ـ كلكتّا . ولدى معهد المخطوطات فلم عنها كان اشتغالنا عليه . وتقع في ٢٣٥ ورقة . كتبت في القرن الحادي عشر تقريباً ، وليس عليها اسم الناسخ .

على الورقة الأولى منها ما يلي :

تراجم الأعيان من أبناء الزمان

للشيخ الفاضل والجهبذ الكامل ، أديب عصره

ووحيد دهره أبي الضيـــاء الحسن

بدر الدين ابن محمد البوريني

الشافعي رحمه

تعالى

---

(١) المحبي ، خلاصة الأثر ٣/٢٧٧ .

ويبدأ النص فيها بعد البسملة بما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ...
أما خاتمتها فهي :

هذا آخر ما وُجـد من تاريخ العلاّمة الأديب الشيخ بدر الدين حسن البوريني الشافعي المسمّى بتراجم الأعيان من أبناء الزمان . ملفقاً من مسوّدتي التاريخ المذكور المؤلف احداهما برسم محمد باشا المنجكي ، والأخرى برسم محمد أمين الدفتري . فربما وجد فيه مخالفة لما يقع منقولاً في بعض المجاميع عن التاريخ المذكور لكونه منقولاً عن إحدى مسوّدتيه فقط . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم » .

فيظهر انّ هذه النسخة جمعها كاتبهـا من مسوّدتين للتاريخ كتبت الأولى برسم الدفتري الذي ذكر البوريني اسمه في مقدمة كتابه ، والثانية برسم محمد المنجكي . وكان أحد الأمراء الذين اتصل البوريني بهم وأفاد منهم . وقد ترجم له ترجمة طويلة وأثنى عليه .

ولم يذكر بروكلمن هذه النسخة أيضاً .

مخطوطة برلين

والمخطوطة الثالثة كانت محفوظة في مكتبة الأمّة في برلين برقم 9889 وكان المغفور له الأستاذ محمد كرد علي صوّر منهـا نسخة لخزانة المجمع العلمي العربي قابلنا عليها . وتقع في ٣٨٠ صفحة . كتبت سنة ١٠٧٨ ﻫ بيد ناسخ المخطوطة الأولى فضل الله بن محب الله بن محب الدين .

على الورقة الأولى منها :

«تراجم الأعيان من أبناء الزمان
لعلاّمة دهره وأوانه وفهّامة عصره
وزمانه الحسن البوريني الشافعي
الأشعري القادري تغمّده الله
تعالى برحمته وأسكنه بكرمه
فسيح جنّته . جمع الفقير فضل
الله ابن محب الله ابن
محب الدين عفى الله
تعالى عنهم بفضله
أجمعين
آمين

ويبدأ النص فيها بعد البسملة بما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ...

أما خاتمتها فهي كخاتمة نسخة عارف حكمة تماماً :

« يقولُ العبد الفقير فضل الله بن محب الله بن محب الدين الشامي ، كان الله تعالى حافظاً له وحامي (كذا) ...

« ... وقد تقيّدتُ بجمعه من سبع مجاميع ، ولم يتيسّر جمع الجميع ، فإنه مفقود ، بل ليس له وجود ...

« ... وكان الفراغ من مباشرة ترتيبه ، وكتابته وتهذيبه ، في أوائل رجب المرجّب سنة ثمان وسبعين وألف من هجرة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام . »

وكُتب في آخره :

« الحمد لله على جزيل نعمائه . هـذا التاريخ اللطيف من جملة كتب الفقير مصطفى بن السيد علي الحموي الدفتري بدمشق الشام . »

مخطوطة ڤينّـــا

أما المخطوطة الرابعة فهي محفوظة بمكتبة ڤينّا برقم 1190 ولم نطّلع عليها . وقد جاء وصفها في فهرس مخطوطات ڤينّا كما يلي :

تقع في ١٥٥ ورقة . كتبت بخط نسخي . كتبها مصطفى بن محمد ابن أحمد الكنجي . برسم نقيب السادة الأشراف السيد حمـــزة افندي العجلاني بتاريخ ١٢ جمادى الثانيـة سنة ١١٨٥ هـ / ٢٢ ايلول ١٧٧١ م

والنص فيهـــا يبتدىء كما يلي : الحمد لله الباقي وما سواه فان ... وعدد التراجم فيها ١٩٤ ترجمة [١] .

مخطوطة دار الكتب بالقاهرة

والمخطوطة الخامسة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٧٦ تاريخ . تقع في ٣٩٦ صحيفة . كتبها السيد احمد بن احمد الجزائري ، ونقلهـــا من النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينـــة المنورة . وليس على النسخة تاريخ النسخ . ومن المرجح أنها من أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الرابع عشر . وقـــد توفي شيخ الإسلام سنة ١٢٧٥ هـ .

---

(١) انظر :

Flügel. G, *Die arabischen, persischen und türkischen Hanschriften der K. K. Hofbibliothek zu Wien*, Vienne, 1865 — 1867, No 1190

دراسة المخطوطات

إن دراسة مخطوطات تراجم الأعيان تثير بعض المشكلات وكثيراً ما تظهر هذه المشكلات عامة لدى المحققين أثناء اشتغالهم بالنشر، لكنهم يتغافلون عنها أكثر الأحايين .

فخواتم النسختين المخطوطتين في المدينة والهند ـ وهما أقدم النسخ الموجودة لدينا ، كتبتا في عصر المؤلف نفسه ـ تدلنا كيف جمع تاريخ البوريني بشكله الذي وصل الينا . فقد جمع نسخة المدينة ورتبها المحبّي من سبع مجاميع ، لا ندري عنها شيئاً . وهذه المجاميع السبع لم تشتمل على التراجم كلها ، لأن المحبّي يقول : « ولم يتيسّر جمع الجميع فإنه مفقود » . أما نسخة الهند فلا نعرف مَن الذي جمعها ، ولكن نعلم من خاتمتها أنها جُمعت من مسوّدتيْ التاريخ المكتوبتين بوسم المنجكيّ والدفتري . ويظهر أن البوريني كتب مسوّدتين : واحدة لهذا ، وثانية لذاك . وجعل كلّ مسوّدة تزيد أو تنقص عن الأخرى . لكنّ مخطوطة الهند تضمّ ما في المسوّدتين معا .

وهكذا نرى أنّ كلاً من الجمعَيْن ليس من عمل البوريني نفسه .

إنّ اختلاف مصدر هاتين النسختين : نسخة المدينة ونسخة الهند ، سبّب اختلاف شكل التراجم فيها ، وزيادة بعض التراجم في الواحدة ونقصها في الأخرى كما سبب اختلاف ترتيب التراجم ايضاً .

فنحن نرجح أنّ نسخة الهند تضمّ التراجم كما كتبها البوريني أوّل مرّة . فأسلوب التراجم فيها ـ أحياناً ـ مرسلٌ غير مسجّع . وطريقة

كتابة العصر كانت السجع . في حين نجد هذه التراجم نفسها في نسخة المدينة مسجّعة قد نمقت ألفاظها .

ونلاحظ كذلك أن في تراجم نسخة المدينة زيادات قد يكون البوريني أضافها فيما بعد ، كما نجد أخباراً في نسخة الهند ، بعضها في الطعن على المترجم لهم ـ قد أسقطت من نسخة المدينة .

ونلاحظ ان التواريخ تختلف احياناً في النسختين ايضاً .

الأمر الذي يدفع الى الاعتقاد أنّ البوريني عاد ، بعد كتابة مسوّدتي التاريخ ، فنظر في تاريخه . فنقّح وأضاف وحذف ونمّق وصحّح ، وأنه أعاد كتابة بعض التراجم كلّها ، كترجمة العيثاوي ، أو بعضها ، فوقع كاتب نسخة الهند على مسوّدات التاريخ قبل التنقيح ، ووقع المحبّي على مجاميع بعضها أو كلّها منقح .

ولتوضيح الاختلاف بين النسختين نقدم بعض الأمثلة :

نسخة الهند	نسخة المدينة

ترجمة العيثاوي

« وقد عادلتُه في تزوج أخت زوجته ، والأختان بنتا الرجل الصالح الشيخ محمود ابن الشيخ احمد الصناديقي وكان ذلك بإشارته . وصدر العقد بمنزله المعمور بدمشق في محلة حكر كمال الدين . وحصلت جمعية العرس بمنزله المذكور ايضا

« وصدرت منه لطيفة . ذلك أنه اطلع على أني طالب للاحصان ، فقال لي عندي حَصان . وهي أخت أم اولادي . وهما بنتا الشيخ محمود الصناديقي . فإن رُمْتَ أن تكون عديلي ، كما انك خليلي ، فاعزم على ذلك ، واجزم بما هنالك . فأجبتُه الى سؤآله ، وتقرّبتُ الى كماله

نسخة الهند	نسخة المدينة

ترجمة أحمد العجمي

تبدأ الترجمة في نسخة الهند بما يلي :

« كان هذا الرجل في مبتدأ أمره قصّاباً . وكان والده من أرباب الصنائع ونشأ له اولاد منهم احمد المذكور ، هنا . ولما اشتهر امرهم بالقصابة بجمل لحم العمارة السليمانية والسليمية فحملوا ذلك . فنتج حالهم . . .

وتبدأ في نسخة المدينة كما يلي :

« هو رجل من الأعيان ، والكرماء ذوي الشان . جمع مالاً غزيرا ، وعقارا كثيرا . اشترى بيتاً عظيماً كان للأمير قانصوه الغزّاوي ، واستمر على ذلك الى أن دخل الى الشام أمير الأمراء مراد باشا حاكما بها ، فولاّه أمانة البهار . . .

ترجمة ابراهيم بن محب الدين

العنوان : ابراهيم بن محمد بن منصور

العنوان : صاحبنا المرحوم سيدي الشيخ ابراهيم بن محب الدين الدمشقي الاصل والمنشأ والوفاة .

ترجمة ابراهيم الحلبي

هو ابراهيم الذي ورث الفضائل ، كابراً عن كابر . وروى خبر الفتوى عن جهابذة أكابر ، حجّ في سنة عشرين بعد الألف . . .

هو الشيخ الفاضل ، جامع اشتات الفضائل ، الأصيل العريق ، وارث علوم الأسلاف بالتحقيق ، نتيجة البيت القديم ، صاحب الفضل الجسيم. اجتمعتُ به لما وردتُ الى حلب المحروسة في سنة سبع عشرة بعد الألف . . .

نسخة الهند | نسخة المدينة

ترجمة أسد الدين التبريزي

نسخة الهند:

الشيخ العلاّمة ، الكامل الفهّامة ، فريد زمانه ووحيد أقرانه . . . ورد دمشق مع والده معين الدين المذكور من تبريز الى ديار بكر ثم الى حلب ثم الى دمشق واستوطنها . وسار والده الى قسطنطينية . . . فجرى عليه امر اقتضى صلبه ، ولم يجد خلاصة من هاتيك النكبة الصعبة واستمر ولده أسد الدين المذكور بدمشق الشام . . .

نسخة المدينة:

قدم من تبريز مع والده الخواجا معين الدين التبريزي الى ديار بكر ثم الى دمشق الشام . فسكن مع والده في صالحية دمشق مدة . وترك ولده في دمشق وسافر الى باب السلطنة قسطنطينية . فصدرت من ابيه احوال مخالفة لقانون الاستقامة من تلبيس في المعاملة ، وتزوير في المكاتبة في زمن وزارة الوزير الأعظم رستم باشا . فلزم أن الوزير المذكور عرض أمره على حضرة السلطان فأمر بصلبه . فصلب في قسطنطينيّة . . .

ترجمة أحمد ابن الأكرم

نسخة الهند:

وكان قبل هدم المدرسة كما سبق ذكره يلبس العمامة البيضاء الحسنة . فلما هدمت المدرسة عدل عن لبس العمامة البيضاء الى لبس المئزر الصوف الذي يلبسه صوفية زماننا ، وترك له ذوائب شعر من جانبي رأسه ، فبقي من أعاجيب المخلوقات . رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

نسخة المدينة:

ولما هدم القاضي احمد الانصاري البناء الذي أحدثه في المدرسة القدّمية الجوّانية غيّر عمامته البيضاء الحسنة بعمامة من الصوف المسمّى بالمئزر وترك شعر رأسه ، وربّى له ذوائب من الشعر الأبيض . وكانت بارزة من جانبي رأسه . وكلّ ذلك من صلاحه وعدم تقيّده باصطلاح الناس . فرحمه الله رحمة واسعة .

فهذه الاختلافات تدلّ دلالة قاطعة على أنّ البوريني قد أعاد النظر في مسوّداته الأولى .

والى هذا يُضاف التنقيح الكثير الذي نجده في الألفاظ مما تكشف عنه مقابلات النسخ التي أجريناها . وهذا التنقيح يبدو في قصائد البوريني التي ساقها في كتابه .

هذا حال النسختين القديمتين المتصلتين بالأصول الأولى للتراجم .

على أن حال نسخة برلين يثير مشكلة جديدة لم نستطع حلّها .

فالمتوقع أن تكون هذه النسخة اختاً لنسخة عارف حكمة فكاتبها وجامعها واحد ، وقد جمعتا من المجاميع السبع ، وتاريخها واحد ، وخطها واحد . لكن الواقع أن نسخة برلين تتفق في زياداتها او نقصها أو عباراتها مع نسخة الهند في كثير من الاحايين ، كما تتفق في أحايين أخرى مع نسخة عارف حكمة . بل هي اقرب الى نسخة الهند منها الى نسخة المدينة .

ولو أن خطّ النسختين كان مختلفاً لجزمنا أن الناسخ لنسخة برلين نقل خاتمة النسخة الاولى ، دون أن يذكر تاريخ نسخه هو .

وقد قلّبنا الامر على وجوه كثيرة فلم نجد له حلاً .

نهج التحقيق

اسقطنا في مقابلات النسخ نسخة دار الكتب لحداثتها ولوجود الأصل الذي نقلت عنه .

واعتمدنا على ثلاث مخطوطات : نسخة المدينة ، ونسخة الهند ، ونسخة برلين .

١ - فاتخذنا نسخة المدينة أماً

٢ - عارضناها بنسخة الهند ونسخة برلين

٣ - أضفنا التراجم الساقطة من نسخة المدينة ونبهنا الى ذلك

٤ - ما حذف من عبارات في نسخة المدينة وُجد في نسخة الهند أو برلين أضفناه بين [ ] وأشرنا اليه .

٥ - ما كان ساقطاً من نسخة الهند ونسخة برلين وكان موجوداً في نسخة المدينة جعلناه بين خطين قائمين | | ليُعرف ما أضافه البوريني بعد كتابه مسوّدة التاريخ .

٦ - اذا اختلفت التراجم تماماً أثبتنا نصّ نسخة المدينة ، واردفنا به بحرف أدقّ نص نسخة الهند .

٧ - اذا اختلفت عبارات بعينها أثبتنا نص نسخة المدينة وذكرنا في الحاشية عبارة نسخة الهند .

٨ - اذا اختلف ترتيب النص في النسخ ، اثبتنا ترتيب نسخة المدينة ونبهنا أن في الترتيب اختلافاً .

٩ً – اذا اختلفت الألفاظ في النسخ اثبتنا أصوبها وأحسنها موقعاً ، وراعينا أن نحافظ أغلب الأحيان على نص نسخة المدينة .

١٠ً – لمّا كان ترتيب التراجم يختلف في نسخة الهند ونسخة المدينة فقد اثبتنا ترتيب نسخة المدينة .

١١ً – صححنا بعض أخطاء الرسم دون أن نشير الى ذلك .

١٢ً – اثبتنا اختلاف النسخ . وكثير منه لا يرجع الى النسّاخ بل جاء كما نعتقد من المؤلف نفسه .

١٣ً – عُنينا بالأماكن المتعلّقة بدمشق ، التي وردت في النص ، فدللنا عليها أو أحلنا على المراجع التي تحدّدها .

١٤ً – اتبعنا النص بملاحق وفهارس متنوّعة .

شكر

ونختم هذه المقدمة بشكر معالي الاستاذ الجليل خليل بك مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي الذي اهتم بهذا الكتاب ، وقدّره حق قدره ، وتكرّم فجعله في مطبوعات المجمع . وقد تلطّف فعرضنا عليه القصائد الواردة في هذا الجزء وأفدنا من ملاحظاته .

والشكر للصديق الاستاذ عبد الهادي هاشم الذي بذل لهذا الكتاب الكثير من عنايته ، وأشرف على تصحيح تجارب طبعه ، بسبب غيابنا في القاهرة .

ولئن استطعنا اخراج هذا الكتاب ، فالفضل في ذلك راجع الى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية الذي وجدنا فيه مخطوطتي المدينة والهند ، ولولاهما لما استطعنا أن نعمل شيئاً .

الرموز

م نسخة المدينة (خزانة عارف حكمة) . وقد نرمز اليها بحرف «ص»

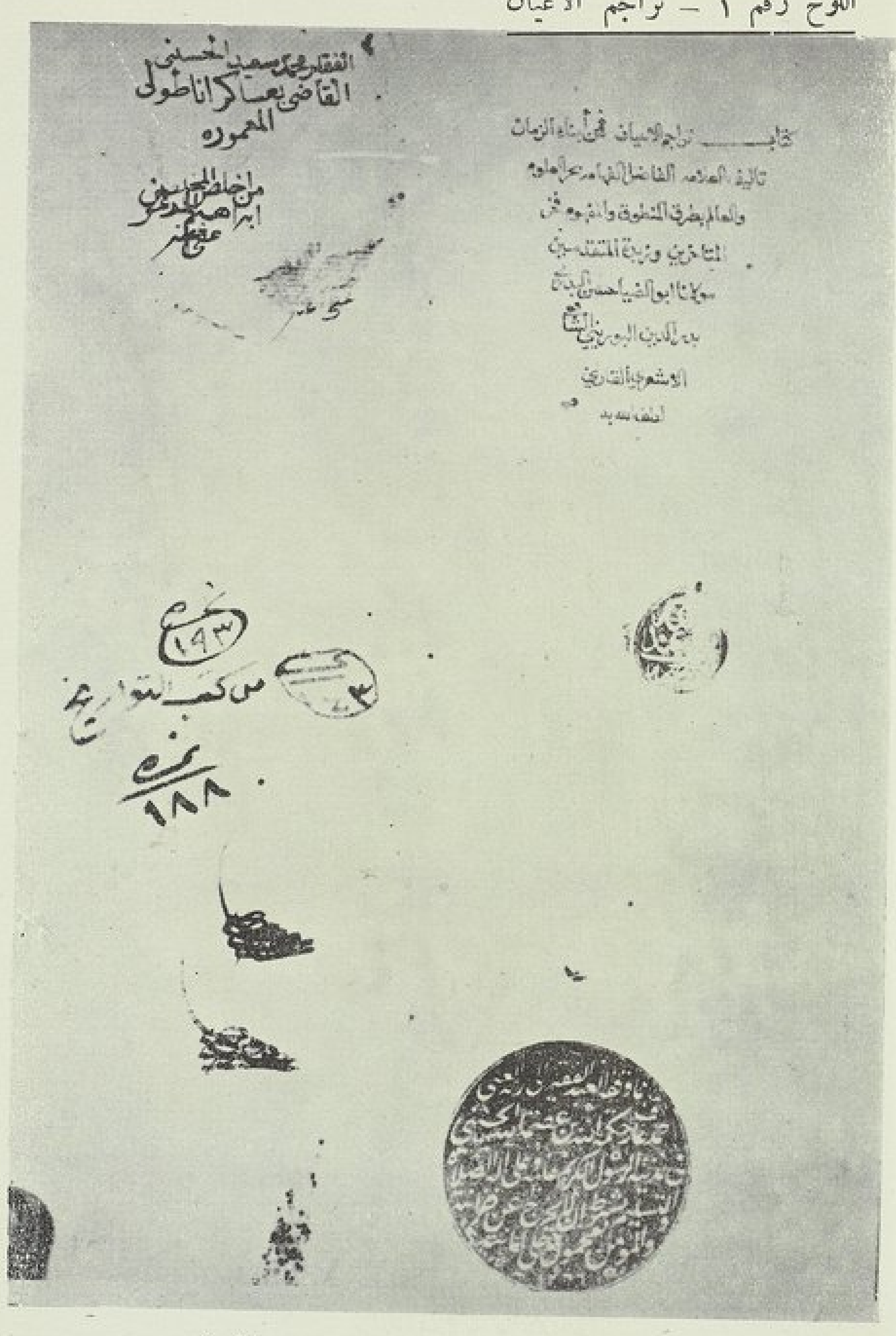
هـ نسخة الهند (مكتبة الجمعية الآسيوية)

ب نسخة برلين (مكتبة الأمّة)

[ ] بينهما ما أضيف الى نسخة المدينة من النسخ الأخرى

| | بينهما ما سقط من نسختي الهند وبرلين

< > بينهما ما أضفناه من عندنا من حرف او لفظ أسقطه الناسخ سهواً .



كتاب تراجم الأعيان من أبناء الزمان
تأليف العلامة الفاضل الفهامة [illegible] العلوم
والعالم بطرق المنطوق والمفهوم [illegible]
المتأخرين وزبدة المتقدمين
مولانا أبو الضيا حسن [illegible]
بن محمد البوريني [illegible]
الأشعري [illegible]
لطف الله به

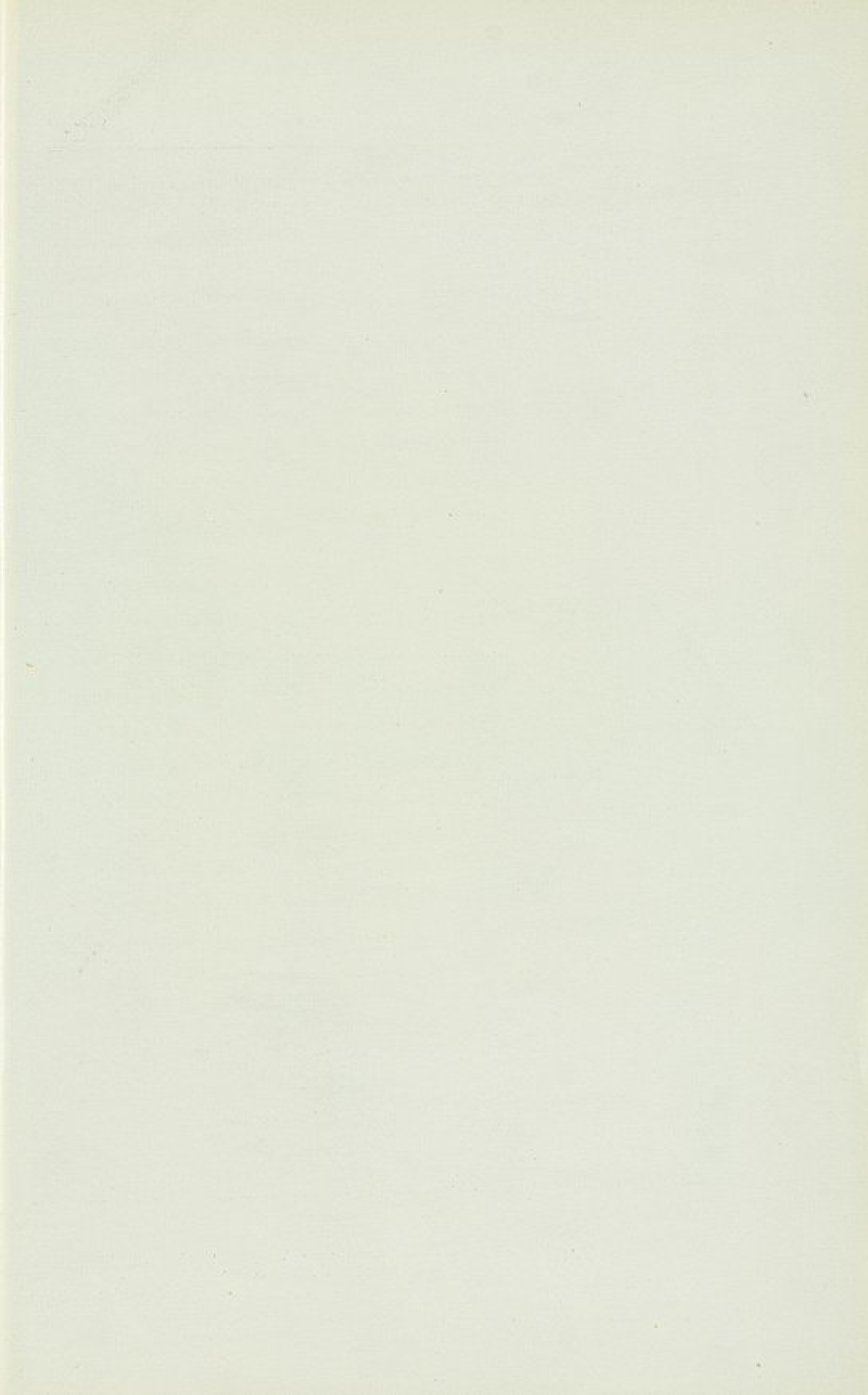
الفقير محمد سعيد الحسيني
القاضي بعساكر اناطولي
المعمورة

من كتب التواريخ

١٩٣

١٨٨

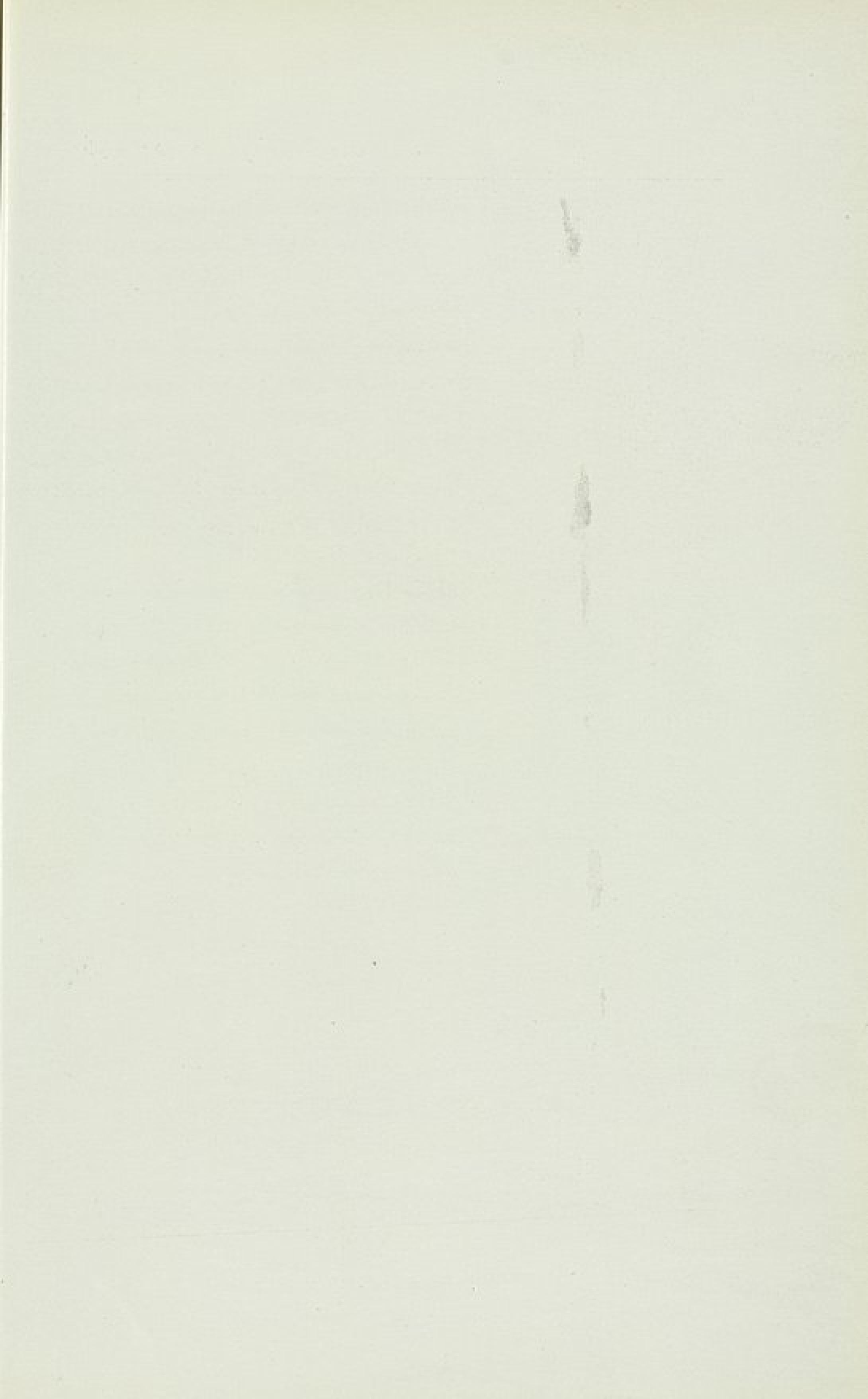
الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة عارف حكمة بالمدينة

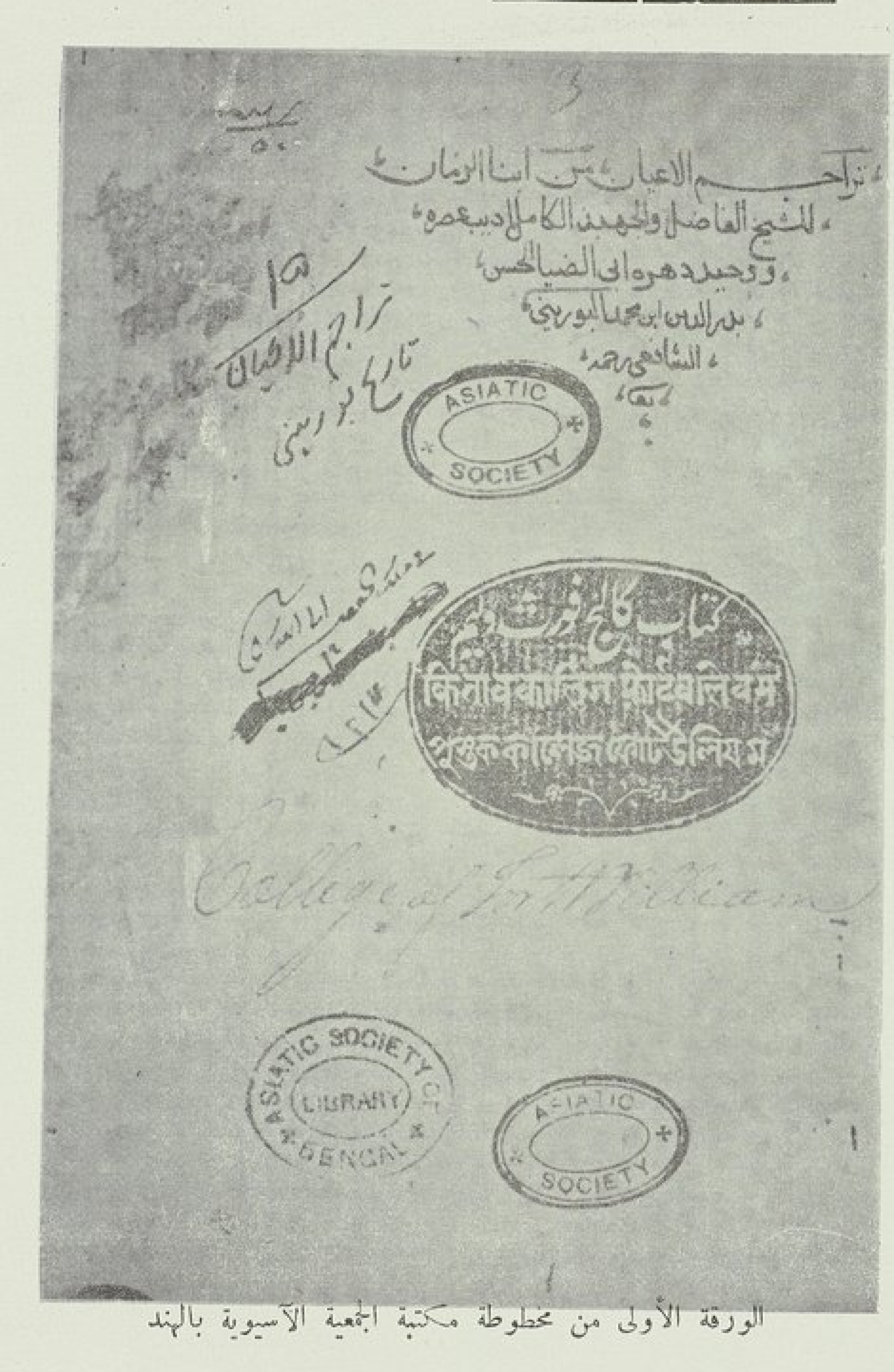


يقول العبد الفقير فضل الله بن محب الله ابن محب الدين الشامي
كان الله تعالى له حافظا وحاميا هذه خدمة تتضاعف عليه بها مزيد
النعمة ولعمري هي شرف خادمها وفخر جامع هذه التراجم وراقمها
كيف لا وهو باسم وحيد دهره سوددا وعلاء ونسيج وحده اشتمالا
على الفضائل واستيلاء الذي يضيق نطاق كل بليغ عن احصا بعض
اوصافه وعلومه بل كل منطيق على انه عبير عبارة تفصح عن منطوق
كلامه ومفهومه فرد الوجود في الفضل والجودة مولانا المحقق المولى شيخ
محمد عزتي حفيد المولى شيخ الاسلام المرحوم زكريا ابن بيرام اطال
الله تعالى له طول الاعمار وحرسه بالملائكة الابرار وقد قابلت
ما امرت به بالقبول وبذلت فيه مجهودي ولم آل جهدا في تحصيله

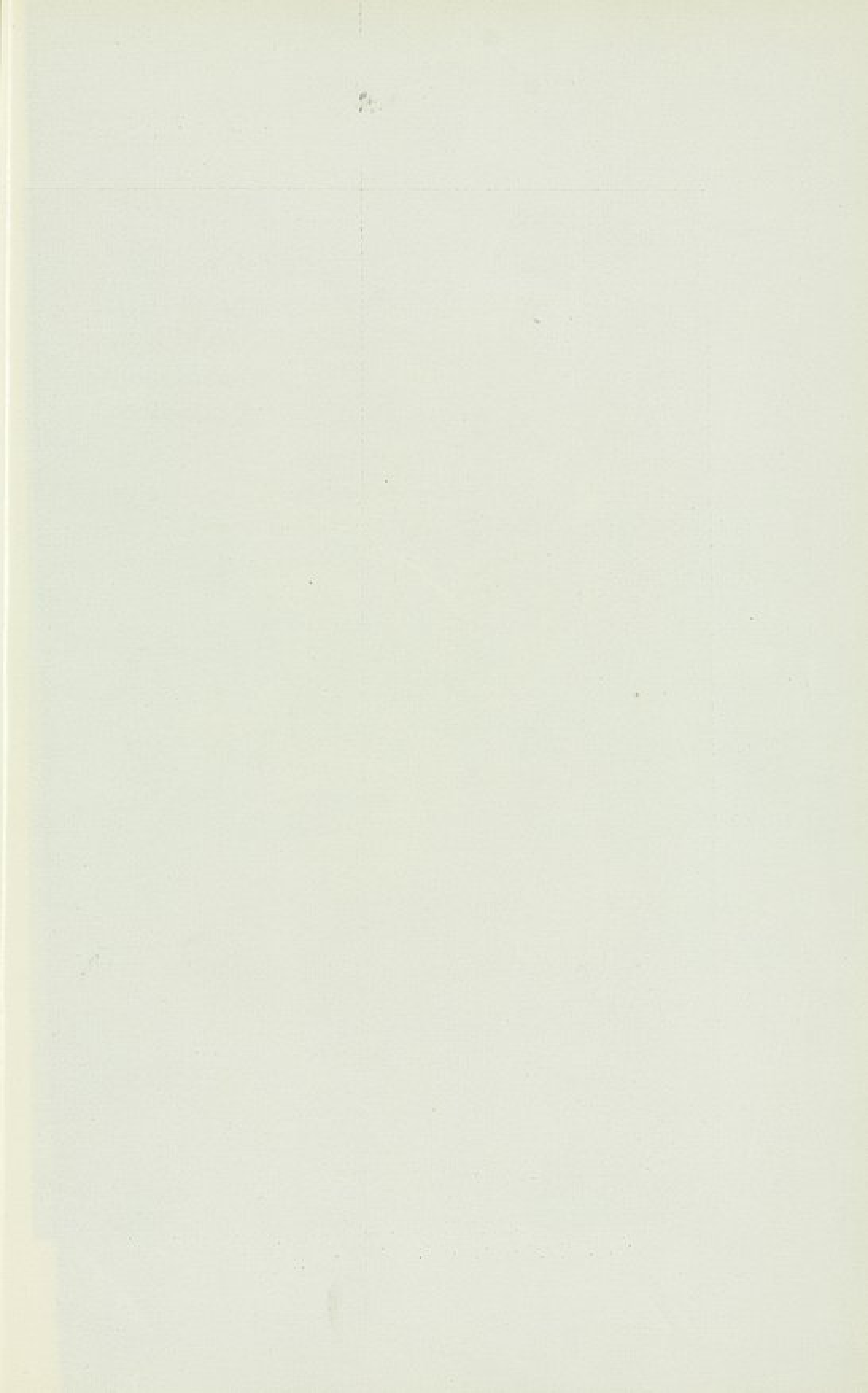
وجعلته مقصودي ولو قدرت جعلت الورق من جلدي بل من صحن
خدي والقلم من بناني والمداد من ما احفاني لكان ذلك قليلا
في جنب ما امر به وطلبه ومن عبده وداعيه نطلبه وقد تقيدت
بجمعه من سبع مجاميع ولم يتيسر جمع الجميع فانه مفقود بل ليس
له وجود فان بعض الاعيان لم يترجمهم المولف المرحوم الشيخ
الحسن البوريني الشامي علامة الزمان والبعض كان في هذه
السنين بزوايا الخبايا كمين فابقى الله تعالى مدى الايام من
كتبت هذه النسخة باسمه ووسمت بشريف وسمه كما كان
السبب في احيا اسما هذه السادة ونشر ما انطوى
من اخبار تلك القادة بجاه خاتم الانبياء
ومبلغ الانباء تم اختتم كتابة هذا الكتاب
وكان الفراغ من مباشرة ترتيبه
وكتابته وتهذيبه في اوايل
رجب المرجب سنة
ثمان وتسعين والف
من هجرة سيد الانام
عليه افضل الصلاة
والسلام

خاتمة نسخة عارف حكمة بالمدينة



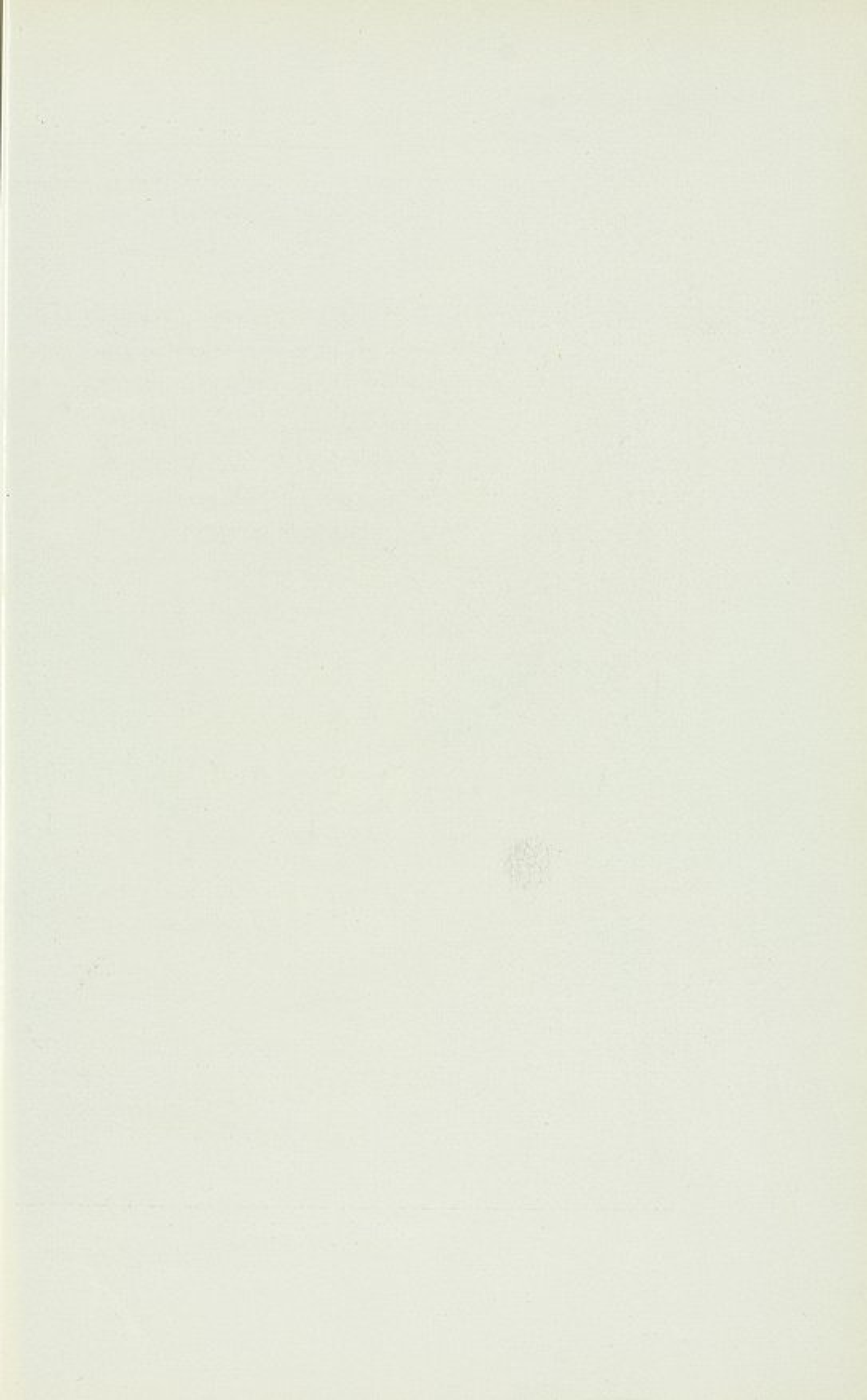


الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة الجمعية الآسيوية بالهند



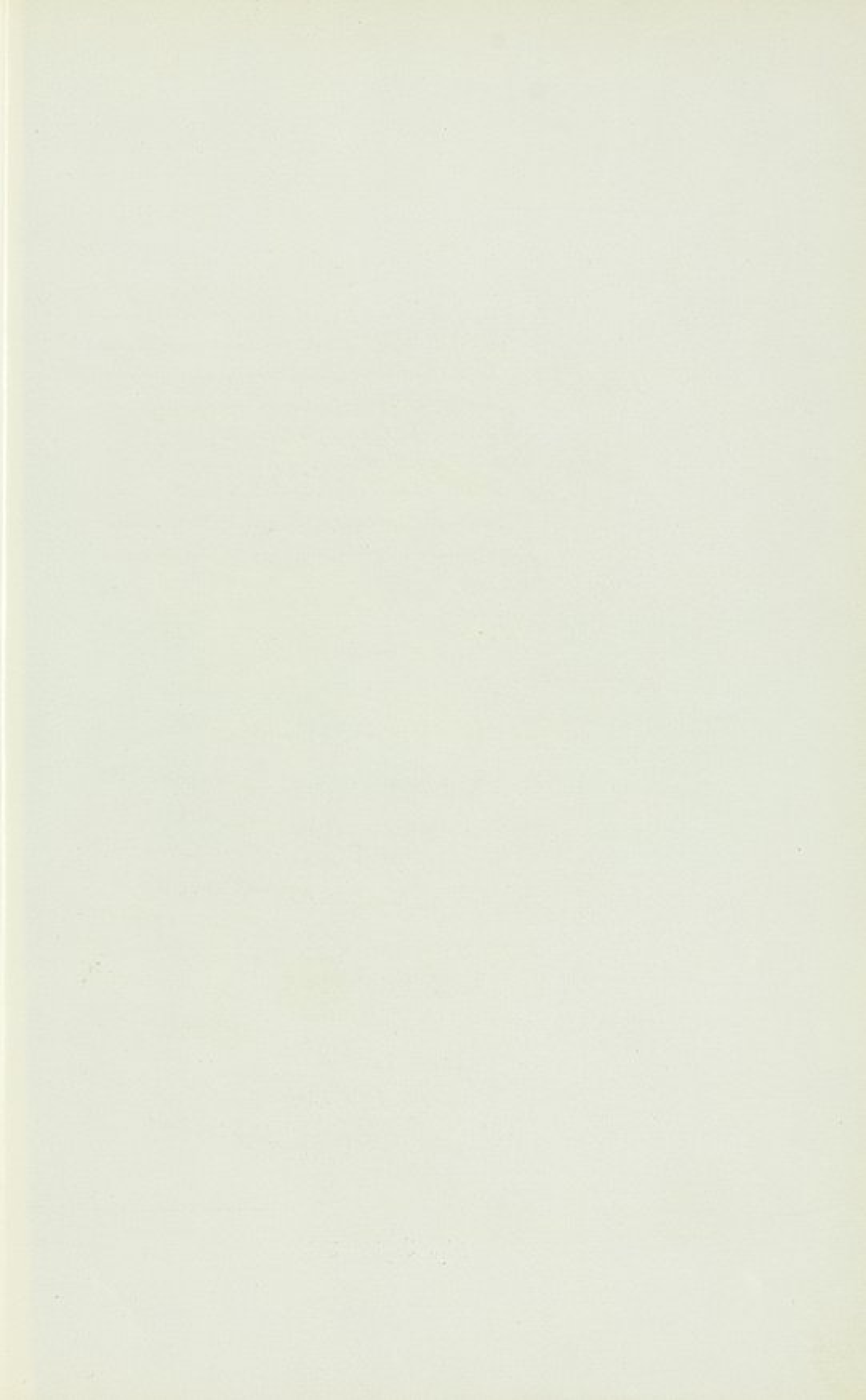
اتى فى قتله تاريخ صحيح دم الدجال اهلكه الشريف
هذا اخر ما وجد من تاريخ العلامة الاديب الشيخ
بدر الدين حسن البوريني الشافعي المسمى بتراجم
الاعيان من ابناء الزمان ملفقا من مسودتي
التاريخ المذكور المؤلف احدهما برسم
محمد باشا المنجكي والاخرى برسم
محمد امين الدفترى عنها
وجد فيه مخالفة لما
يقع منقولا فى
بعض المواضع
عن التاريخ
المذكور
لكونه منقولا عن احدى
مسودتيه فقط
والحمد لله وحده
وصلى الله على
سيدنا محمد
واله وصحبه
وسلم

خاتمة مخطوطة الهند

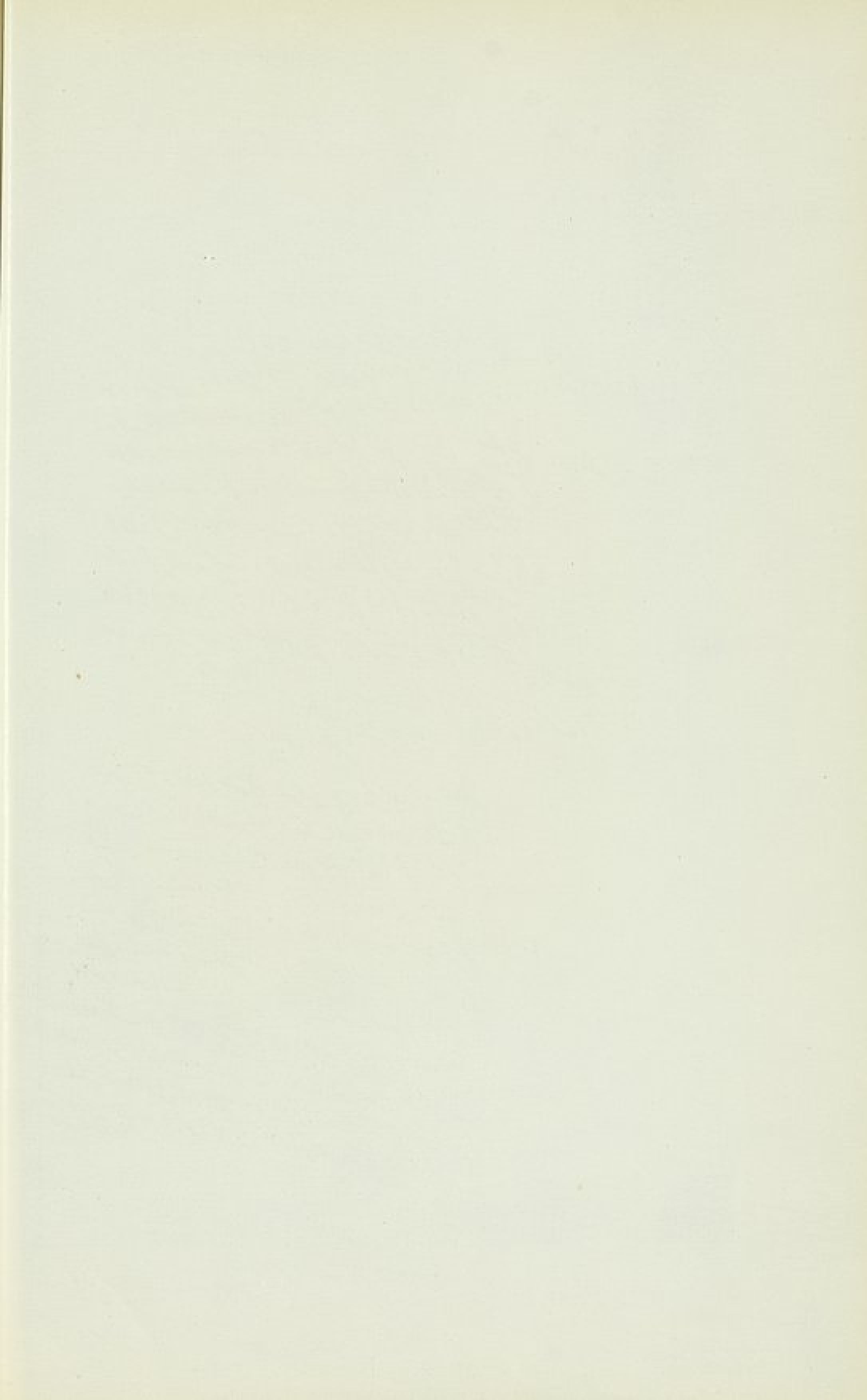


اللوح رقم ٥ – تراجم الأعيان

خاتمة مخطوطة برلين

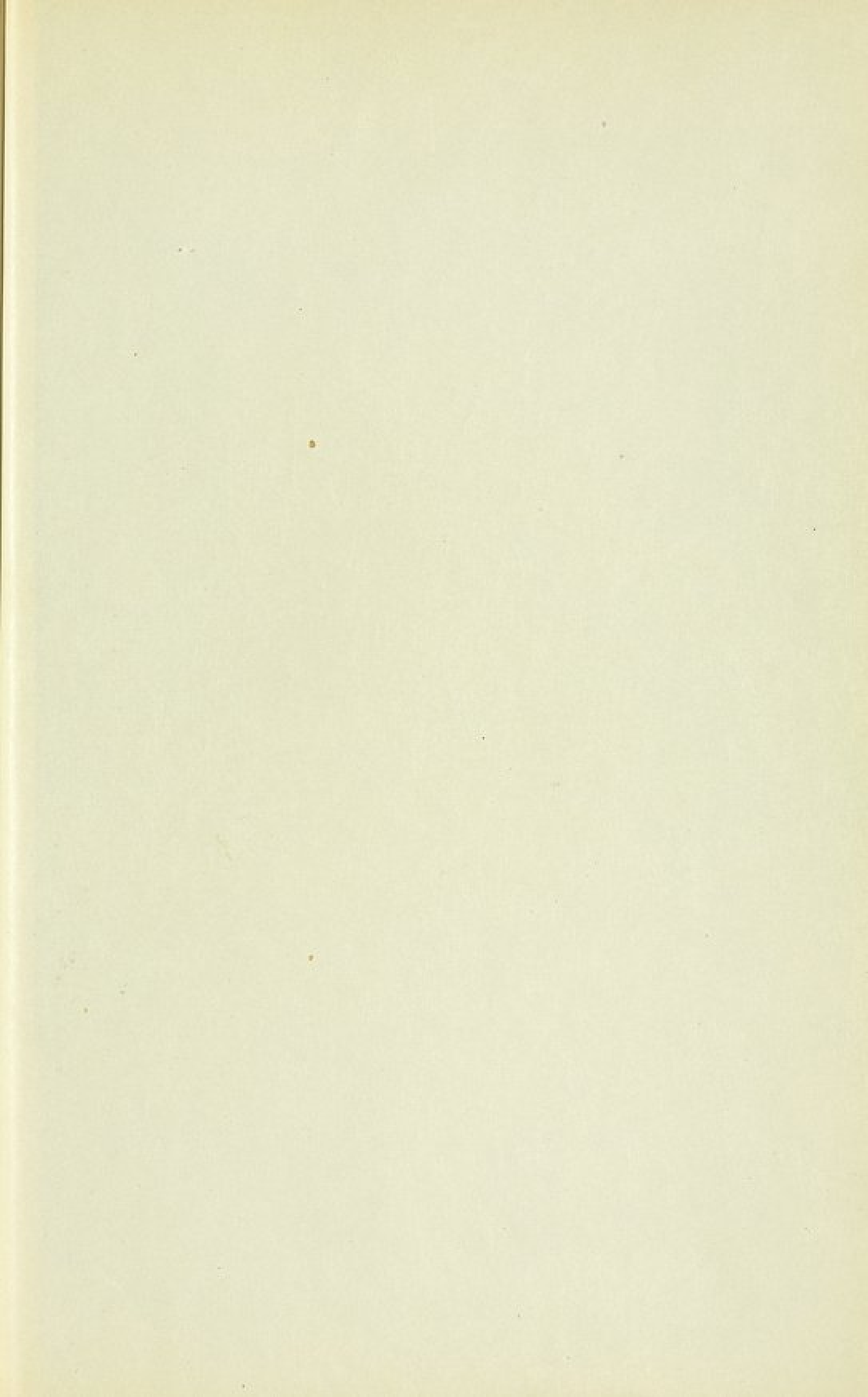


انموذج من خط الحسن البوريني مأخوذ من كناشه





من أبناء الزمان



[مقدمة المؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الباقي وماسواه فان ، الدائمِ وغيره معدوم بحوادث الحدثان . تعالى عن الزّوال ، وتقدّس عن التحوّل[1] والانتقال . حكم على طوائف الأمم بما حكم به من العدَم ، واختُص بالبقاء والدوام والقِدَم . فسبحانه من إلهٍ تنزهتْ ذاتُه ، وتقدستْ أسماؤه وصفاتُه ، أحمدُه حمدَ مَنْ ذَكَرَ وشكر ، وأشكرُه على نعمٍ لايحيطُ بها النظر ، ولا تحصيها الخواطر ولا الفِكَر .

وأشهدُ أن لا إله إلاّ الله وحده . وأشهدُ أنّ سيدنا محمداً الذي جعله الله خاتماً للأنبياء وما أرسَل أحداً بعده . صلّى الله وسلّم على ذاته الطاهرة ، وعلى آله وأصحابه الذين هم النجومُ الزاهرة . وعلى التابعين لهم في الآداب ، إلى يوم البعث والحساب .

أما بعدُ : فإني قد رأيتُ كثيراً من العلماء الأعلام ، الذين بهم افتخار الليالي والأيام ، قد اشتغلوا بعلم الأخبار ، ودوّنوا في الكتب محاسن الأخيار ، لاسيّما علماء الحديث ، فإنّهم اجتهدُوا على ذلك في القديم والحديث . وأنت عالم بما صنّفه ابن كثير[2] ، وبما ألفه في ذلك

---

(١) هـ ، ب « التحويل »

(٢) يشير الى كتابه « البداية والنهاية » . توفي ابن كثير سنة ٧٧٤ هـ . انظر كتابنا المؤرخون الدمشقيون ص ٥٥

العلاّمة العزُّ ابن الاثير[١] . وإن نظرت إلى الشهاب بن خلّكان[٢] رأيتَ من ذلك مالايحتاج إلى البيان . وهذا العلامةُ يوسف بن شدّاد[٣]، الذي كان في زمنه من العلماء الأمجاد ، قد ألّف أيضاً في ذلك . والعلامةُ أبو شامة[٣] سلك من ذلك أقوم المسالك . وأما الشهابُ ابن حَجَر[٤] شيخُ الاسلام ، فإنّه قد جمع من ذلك ما[٥] هو مشهور بين الخاصِ والعام . وذلك أمرٌ معلومٌ ، واضحٌ غير مكتوم .

وقد كنتُ عزمتُ من مدّةٍ مديدة ، وأعوامٍ عديدة ، على أن أجمع تراجم مَنْ كان موجوداً منَ الأعيان ، من ابتداء ولادتي وإلى هذا الآن . من عالمٍ عامل ، أو فاضلٍ كامل ، ومن سلطانٍ أو أمير ، أو صاحب فنٍ هو به شهير . سواء رأيتُه أو سمعتُ بأخباره من ثقاتِ الدهرِ وأخياره . فإن علمتُ المولدَ والوفاه ، ذكرتُ ماعلمتُه مِن ذلك بلا اشتباه . وما شككتُ فيه تركتُه (٢ ب) وأهملتُه وما ذكرتُه . ومَنْ كان عند ذكره في الحياة موجوداً ، جعلتُ الاقتصار على أوصافه مقصوداً . ولكن كان يعوقُني عن ذلك المرام ، ما يعتري أمثالي من حوادث الأيّام ، التي تشغل الانسانَ عن نفسه ، وتُفسد عليه ما استقام من فكرِه وحَدْسِه . فتغافلتُ عن ذلك

---

(١) يشير الى كتابه « الكامل في التاريخ » . توفي ابن الأثير سنة ٦٣٠ هـ . انظر وفيات الأعيان ٣ : ٣٣

(٢) ألّف ابن خلّكان كتابه الجيد « وفيات الأعيان » . توفى سنة ٦٨١ هـ . انظر المورخون الدمشقيون ص ٣٧

(٣) ألّف أبو شامة كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » . وتوفى سنة ٦٦٥ هـ . انظر المؤرخون الدمشقيون ص ٣٣

(٤) ألف ابن حجر « الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » وكتباً أخرى . توفى سنة ٨٥٢ هـ . انظر الضوء اللامع للسخاوي ٢ : ٣٦ ؛ ومعجم المؤلفين ٢ : ٢٠

(٥) هـ ، ب « مما » .

أعواماً عديدة ، وما ملتُ إليه من مدةٍ مديدة ، إلى أن اتفق اجتماعي في دمشق المحروسة ، بصاحب الذات المأنوسة ، الكاملِ في ذاته ، الممدوحِ في جميع صفاته ، صاحبِ الكمالات الظاهرة ، والفضائل الشهيرة الباهرة ، مَنْ جمع بين المحاسن المتباعدة ، وحصّل المناقبَ الجميلةَ المتزايدة ، سيدنا ومولانا محمد أمين أفندي ، السابقيّ الجعفريّ ، الطيّاريّ ، صاحبِ الدفاتر السلطانيّة ، بدمشق المحمية ، حماها ربّ البرية ، من طوارق البليّة . وكان ذلك الاجتماع في أوائل سنة ثمانٍ بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله أفضلُ الصلاة والسلام . فتذاكرتُ معه ما كنتُ قصدتُه من الجمع المذكور ، وقلتُ له : هذا أثرٌ يبقى على ممرّ الدهور . فحثّني على الشروع ، فيما كنت قصدتُه من الجمع . وقال لي : بادِرْ إلى مطلوبك فإنه يصير بعون الله لذةً للنظر والسمع . وذكر لي أنه خطَرَ في باله فيما مضى من الزمن ، أن يطلب مني تأليف مثلَ هذا الجمع الحسن ، فبادرتُ إلى امتثال أمره ، ولازمتُ الدعاءَ له مع حمده وشكره . لأنّه الباعثُ لي على إبرازِ ما نويتُه الى الوجود ، والسبب الداعي إلى تصفية هذا الحوض المورود .

ثم اعلم أنّ ولادتي كانت في شهر رمضان المبارك من سنة ثلاثٍ وستين وتسع مئة ، وقد ابتديتُ في تدوين هذا الكتاب في شعبان المعظم من سنة تسعٍ بعد الألف من هجرة خير الأنام . عليه من الله أفضل الصلاة وأتم السلام ، وعلى آله وأصحابه الكرام ، وعلى التابعين لهم بإحسانٍ الى يوم القيام .

واعلم أني قصدتُ ترتيب هذا الديوان على حروف المعجم ، إيضاحاً للكشف على ما هو مُبْهَم . ومَنْ كان مشهوراً بلقبه أكثر من شهرته باسمه ، داعيتُ في ذلك الشهرةَ قصداً لتسهيل علمه .

واعلم أني لا أذكرُ من أوصاف أحدٍ في الغالب إلاّ الوصف المحمود، طلباً للثواب يوم تنقسم الوجوه إلى بيضٍ وسُود . وقلّ أن يخلو رجل من تخليط . ومَنْ هو المعتدِلُ بين الإفراطِ والتفريْط ؟

وأنا أستقيلُ الله العثرةَ إنْ زَلّت القدم ، فيما يُوجبُ في القيامة النـدم . فإن الانسان محلُّ الزَّلل ، في القول والعمَل . وإلى الله الالتجاءُ في أن يوّفق للاتمام ، وأن يسهّل بلطفه الختام . بعونه وحوله ، وفضله وطوله . إنه تعـالى إذا دُعي أجاب . وإذا (٣ آ) نودي سمع الخطاب . وسميتُه :

تراجم الأعيان ، في أبناء الزمان

[حرف الهمزة][1]

الأحمدون الطيّبون الثلاثة

فأوّلهم :

١

أحمد الطيبي الأكبر

هو الشيخُ الصالح ، العالمُ الفالح ، الوليُّ العارف ، صاحبُ المعارف ، المقريءُ بالقرآءات المختلفة ، الموصوفُ من القنع والصلاح بأكمل[2] صِفَة .

ورد والدُه الى دمشق الشام[3] ، وكان ولده هذا معه فوق سنّ الاحتلام ، فقرأ على مشايخ دمشق[4] وتفقّه عليهم على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، ومهر في الفنّيْن المذكورين ، ولكنه كان على سنن السّلف الماضين في عدم التكلّف والتصلّف . فلذلك جلس في دكان الطّيّبِ بباب البَرِيد[5] . وكانت معيشته من ذلك . وكان في الغالب لا يتناول من الوظائف شيئاً . وكان ضيّقَ الخلق جداً حتى إنه كان يضرب من يغلط من تلامذته في القرآءات المختلفة وغيرها . واقتنى بيتاً في محلة

---

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) م « بالحمل » ، اثبتنا ما في ه ، ب

(٣) ه « ورد دمشق الشام »

(٤) ه « دمشق الشام »

(٥) يعني السوق الذي أمام باب الجامع الأموي الغربي المسمّى بباب البريد

مدرسة القيمرية[١] . ولم يزل مواظبـاً على ذلك الى أن مات في شيء وستين وتسع مئة ، ولا أعرف الوقت بالتعيين في وفاته رحمه الله تعالى ، ودُفن في تربة مرج الدحـداح[٢] بالقرب من مزار الشيخ أبي شـامة رضي الله عنه . وقبره عند قبور أولادهِ وأحفادهِ مشهورٌ هناك .

ونشأ ولده :

---

(١) تقع محلة القيمرية في شرق الجامع الأموي . عن المدرسة القيمرية انظر النعيمي ١ : ٤٤١

(٢) في الناحية الشمالية من دمشق ، خارج باب الفراديس . انظر كتابنا خطط دمشق ، ص ١١٨ ؛ ومخطط دمشق القديمة لنا .

٢
أحمد بن أحمد الطيبي الكبير

|هو جمالُ الزمان ديناً وعِلماً ، وابتهـاجُ الأيام شَرَفاً وفهماً|(١) الشيخُ العالمُ العاملُ ، الفاضـلُ الصالحُ الكاملُ ، فخرُ أيامه ، ومَن اشتهر في الفضل قبل احتلامه ، صَاحبُ التصانيف المفيـدة ، والتحقيقات الفريدة ، والدرر النضيدة ، والصلاحِ الشهير ، والزهدِ الكثير . كان ممن يُستَسقى به الغيثُ في زمانه ، وممّن يُقاس بالحسَن البصريّ بين أقرانه .

قرأ القرآن على والده ، وحازَ به من الفضل طريق المجد كتالده . وقرأ عليه بالقرآءات المختلفة ، وتفقّه عليه حتى تمرّن به وعَرَفه . ثم شرع يقرأ على الشمس الكَفرسُوسي ، والشيخ تقي الدين القاري ، وعلى الشيخ تقيّ الدين البلاطُنُسي ، وعلى بقية مشايخ زمـانه ، حتى تفرّد بالكمال بـين خلاّنه ، وسلك مسالك الصّلاح ، وظهر عليه نورُ الولاية ولاح .

تولّى إمامة جامـع الأموي دهراً طويلاً ، وخطب به عمراً ليسَ قليلاً . وصنّف الخطبَ الفصيحةَ ، وحبّر النصائح المليحة ، ونقلها عنه الخطباء ، ورواها أكابرُ النجباء . وتولّى تدريس |المدرسة|(٢) العادلية

( ) انظر ابن العماد ، شذرات ٨ : ٣٩٣

(١) مابين الخطين ساقط من هـ ، ب

(٢) ساقط من هـ

الصُغرى[١] ، وتدريس بقعة ٍ بالجامع الأموي للإقرا . وكان مع ذلك يكتب أوقاف الأمراء بني منجك في دمشق الشام ، ويُدرك بالكتابة المذكورة الرزقَ التام . وكان يُدَرِّس بالجامع المنجكي في محلة مسجد الأقصاب[٢] ، ويُعلِّم هناك جميعَ الطُّلاب . وكانت له الشفقةُ الكاملة ، والألطافُ الوافرة (٣ ب) الشاملة ، على الطلبة لا سيما الغربا ، وبالجملة فإنه ما تقاعس عن الوصف الجميل ولا أبى ، بل كان عامرَ الأوقات ، بالعبادات والبركات . لا يفتر ساعةً عن فعل خيرٍ أو طاعة .

قرأ عليه فضلاءُ دهره ، ونال بذلك نهاية فخره . فممن قرأ عليه ، وجلس دهراً بين يديه : الشيخُ الفاضلُ العلّامة ، جامع أشتات الفضائل والكرامة ، شيخنا بل شيخ الشام ، الذي شاع فضله بين الأنام ، المفتي الجليل ، المرحوم الشيخ اسماعيل ، مفتي الشافعية في زمانه ، وحائز مرتبةَ الصدر بَيْنَ أقرانه ، الشهيرُ بالنابلسي . وستأتي ترجمته عن قريب ، بعون لطف | الله |[٣] السميع المجيب . وكان يفتخر بالقرآءة عليه في مجالس فخره ، ويرى أنه أدرك بذلك صدارةَ دهره .

وممن قرأ عليه ، ونال الفخر بانتسابه اليه . شيخُنا المحقّق ، وأستاذُنا المدقق ، العمادُ بن العماد ، مَنْ عليه في تحقيق المشكلات الاعتماد ، الشيخُ عماد الدين محمد الحنفي . سقى الله ثراه ، وبلّغه في الجنّة ما يتمنّاه . وستأتي ترجمته في حرف العين ، صدقاً من غير مَيْن[٤] .

وقد قرأتُ عليه . رحمه الله تعالى ، وأنا ولدٌ صغير ، فنظر إليّ نظر الشَفقة وقال لأبي : احرصْ على ولدك هذا فإنه سيصيرُ من أهل العلم .

---

(١) انظر عنها النعيمي ، ١ : ٣٦٨

(٢) محلة معروفة تقع خارج باب السلامه . انظر عن المسجد ذيل ثمار المقاصد ٢٢٢

(٣) ساقط من ه

(٤) ه « صدقاً مني من غير مين »

فقبَّل والدي يَده . ثم إنه سأل والدي عن بلدته ، فقال له والدي : أنا من قرية بورين[١] وهي ملاصقة لأرضِ مدينة نابلس[٢] . فقال الشيخ المذكور لأبي : أنت حينئذ من بلادنا . فقال له والدي : أنتم من أي قرية ؟ فقال له : نحن من القَنْدَقوميَّة[٣] . وتعارفا ، وأمرني بملازمته ، فشرعتُ في القراءة عليه من أول القرآن العظيم الى آخر سورة النساء تجويداً لأبي عمرو . وشرعتُ مع ذلك في قراءةِ « المنهـاج » إلى باب صلاة المسافر .

وكان الشيخُ أحمدُ بن المرزنات المقري الصالحي يقرأ عليه وقت قراءتي عليه « النَّشْر » لابن الجزري في القرآءات العشر . وسيأتي ترجمة الشيخ أحمد هذا إن شاء الله تعالى .

والشيخُ الطيبيّ هذا علَّم[٤] الناس في زمنه تجويدَ[٥] القرآن والقرآءات العشر ، وكان في زمنه يُقال له الحسنُ البصري . ولقد حضر مرةً ختم التفسير المنظوم الذي نظمه شيخ الاسلام البدر الغزي العامري ، وكان البدر المذكورُ قد عقد له المجلس وراء مزارِ رأسِ يحيى بن زكريا عليهما | الصّلاة و |[٦] السّلام ، وحضر علماءُ البلدة وقاضيها ومفتيها ، فكان من جملة مادار في المجلس أنّه قال البدرُ المذكور : أنا رددتُ على صاحب القاموس في سبعة مواضع منه ، وذكر منها أنه

---

(١) قرية مشهورة في فلسطين قريبة من نابلس ، ما تزال قائمة .

(٢) مدينة مشهورة في فلسطين انظر (معجم البلدان)

(٣) قرية في فلسطين بين نابلس والقدس .

(٤) ﻫ « أعلم »

(٥) ﻫ « في تجويد »

(٦) ساقط من ﻫ

جعل الخزل [١] بالخاء المعجمة والجزل بالجيم في علم العروض بمعنى واحد ، والحالُ أنَّ كلًا منهما بمعنى مستقلٍّ غيرِ معنى [٢] الآخر . وفي اليوم الثاني أرسل إليه الشيخ أحمد الطيبي المذكور صاحب الترجمة ورقةً ينتصر فيها لصاحب القاموس ويقولُ | له | [٣] فيها : إنَّ الدماميني قد نصَّ على ذلك ولم ينفرد به صاحبُ القاموس . فأرسل البدر الغزيّ أبياتا الى الشيخ الطيبي المذكور يقول منها :

أمَوْلى شهاب الدين يافاضلَ العصرِ ويامَنْ رَقى فوقَ السَّماكَيْنِ والنَّسرِ

زعمتَ بأنَ الجَزْلَ والخَزْلَ واحدٌ كما قاله القاموسُ ذوالمجد والفخرِ

وَقلتَ الدمامينيُّ قال بقوله وحَققهُ بالنَّقْلِ عن فِتيةٍ غُرِّ

وَإن الدمامينيَّ تلميذُ ربِّه وإحسانُ ظنٍ بالشيوخِ مِن البرِّ

وما بالتساوي نرتضي ولعلَّنا نردُّ على القاموس ردًّا بلا حَصْرِ

وقد كان الشيخ الطيبيّ ينظِمُ العلومَ . نظم « مناسك الحجّ » رجزًا كالماء الزُلال من رقته . وصنّف في « أشكال المنطق الأربعة » تأليفاً خاصاً ، وجعل لكل شكلٍ جداولَ للأشكال المنتجة والأشكال العقيمة . وهو تأليفٌ حسَن . وصَنّف « المفيد في علم التجويد » . وشرحه الشيخ أحمد بن المرزنات المذكور آنفاً شرحاً حسناً . وللشيخ الطيبي المذكور « ديوان خطب » في غاية الحسن .

---

(١) ذكر في القاموس أن الخزل سقوط الألف وسكون التاء من متفاعلن كالخزل بالفتح . ثم جاء في مادة « جزل » : والجزل اسقاط الرابع من متفاعلن (أي الالف) واسكان ثانية (أي التاء) في زحاف الكامل .

(٢) ه « المعنى »

(٣) ساقط من ه

وكان يعظ بدمشق .

ولقد أدركتُه وهو شيخٌ كبير قد حناه الزمان ، وهصر [١] قامته تخالفُ أحوالِ الحدثان ، وهو ينشد قول القائل :

وعهدي بالشبابِ وغُصنُ قدّي ... حكى ألِفَ ابنِ مُقلَةَ في الكتابِ
فصرتُ اليوم منحنياً كأنّي ... أفتّشُ في التراب على شبابي

★

[وله من النظم قوله] [٢] :

إنْ كنتَ تبغي نَيلَ كلّ المُنى ... وراحةَ القلبِ مع الأُنسِ
فكنْ مَع الحقّ بلا خَلقهِ [٣] ... وكنْ مع الخلقِ بلا نَفسِ

وله في بيان «يكونَ» [٤] لجماعة الذكور — من وكى [٥] دعاءه إذا ربطه — فإنّ صيغتها تُشابه في اللفظ صيغة يكون الذي هو [٦] مُضارع كان قال :

أيكونُ قومٌ لا يكُونَ سقاءهُم ... في أزمةٍ مثلَ الذين يكونَا
قدضَلّ مَنْ بالفضلِ ضَنّ وظلّ في ... طرْدٍ ومَن بالعهْد ليس يَفُونا

وكان يكتب الخطّ الحسن . ورأيت بخطّه دفاتر كثيرة عند الأمير

---

(١) ه « غصن »
(٢) الزيادة من ه ، ب
(٣) ه « كلفة »
(٤) وكى القربة يكيها اذا شدّها بالوكاء اي الرباط ، ويكونّ هنا المضارع لحقته واو جماعة الذكور
(٥) م « وكان » ه ، ب « من وكن »

|الكبير|[١] محمد بن منجك في « بيان أوقاف الجوامع التي بدمشق من بناء بني منجك » .

وكان قليل الأكل في آخر عمره . قال لي ولده شيخنا الشيخ أحمد الطيبي الصغير : إن والده المذكور كان يقتصرُ في آخر عمره على بيضة نيمرشت[٢] يأكلها بعد صلاة العشاء .

وكان يكرم الطلبة الغرباء الذين يَرِدون من الآفاق ، ويتلطّف بهم في التعليم ، وإن كان الرجل منهم مبتدئاً .

وكان الشيخ أحمد القابوني الآتي (٤ ب) ذكره في هذا الكتاب[٣]، إن شاء الله تعالى ، تلميذه الخاص به . وكان يأتي له من بيته بالمأكولات الطيّبة في الصباح والمساء . وكان إذا لم يجده يضع له الأكل في خزانةٍ له بالمشهَد المنسوب لابن قيصر الملاصق لحجرة الشيخ الطيبي المذكور ، بينها وبين مأذنة عيسى عليه الصلاة والسلام . ولقد أخبرني الشيخُ القابوني المذكور أنّه جاءه يوماً بحمّصٍ مُتَبّل على الصّباح وكان بائتاً . فكتب له ورقةً صغيرةً ووضعها الى جانب إناء الحمّص وفيها :

الأخ العزيز الشيخ أحمد يتفضّل ويتناول هذا الحمّص فإن أهل الشام يقولُونَ : « من أطيب الطيباتْ ، الحمص إذا باتْ » .

وله من الدين والورع والزهد والتقشّف في العبادة مالا يُدرك . وكان يُذكّر السّلف الماضين بزهده وورعه . وكان لايفتي في الفقه أصلاً ويقول : إنّ البدر الغزي أولى بالفتوى مني ، وهو يُغني عني . وبالله لقد

---

(١) ساقط من ه

(٢) أي نصف مسلوق وهو ما يسمّى بالفرنسية à la coque . ويعرف الناس الكلمة في أيامنا فيقولون « بيض برشت »

(٣) انظر الترجمة ذات الرقم ٦

رأيته بعيني يدلُّ رجلاً على حجرة الشيخ الغزّي المذكور ويقول له : اذهب الى تلك الحجرة ودقّها فإنّ المفتي ساكن فيها . نعم كان يُفتي في مشكلات الفرائض لانفراده بها في زمانه وبين أقرانه .

ولم يزل قائماً بالحق قائلاً بالصدق ، لايرى في الله لومة لائم ، ولا يسكت عنْ مقالة الحق بإكثار اللوائم ، إلى أن تُوفي في سنة إحـــدى وثمانين وتسع مئة ، ودُفن في تربة مرج الدَّحْدَاح بالقرب من مزار الشيخ أبي شامة . وكانت جنازته من أحفل الجنائز وأعظمها . رحمه الله تعالى[1].

---

(١) هـ ، ب « تعالى رحمة واسعة »

٣

ولده

أحمد بن أحمد بن أحمد الطيبي الصغير

وَلَدُ الذي قبله شيخِنا شيخِ الاسلام أحمد بن أحمد بن أحمد . وهؤلاء الثلاثة مذكورُون في هذا التاريخ على الولاء من غير فاصلة . وقد قرأتُ على الأوسط وهو الكبيرُ وعلى هذا وهو الصغيرُ ، والأول هو الأكبر لم أدركه ، غير أنّ قراءتي على الكبير قليلة[١] ، وأكثر ما قرأتُ على هذا الصّغير .

ماتَ أبوه في التاريخ المذكور . ونشأ ولده هذا في أيام أبيه على عِزّةٍ وقَدْرٍ رفيع ونعمة واسعَة . وتولّى مناصبَ أبيه بعده فصار مدرساً بالعادلية الصغرى ، وببقعة مشيخةِ الإقراء بالجامع الأموى ، وتولّى إمامة الجامع الأموي . وكان أفقه من أبيه . أفتى بدمشق نحو عشرة أعوام ، وسلّم له أقرانُه ومَنْ قبله أيضاً . وكان فقيهاً محدّثاً مفسّراً مقرئاً عروضيّا حاسباً فرضيّا . قرأ هذه العلوم على أبيه ، إلاّ الفقه فإنه قرأه على النور السنني المصرى ، ولازمه حتى أجازه بالفتوى والتدريس. وأجازه بالفتوى أيضاً شيخُ الاسلام البدرُ الغزّي . شهدتُه يوماً وقد كتب صورة استفتاء وأرسله مع رجل إلى (٥ آ) شيخ الاسلام المذكور ليُفتي عليه . فعرف الشيخ خطّه فأرسله من غير إفتاء ، وقال للرجل : خذ هذا الاستفتاء إلى كاتبه وقل له : يقول لك الشيخ : أفتِ أنتَ على هذا الاستفتاء ، فانّ الشيخ قد أجازكَ بذلك .

---

(١) م « غير أني قرأتُ على الكبير قليله » أثبتنا ما في هـ ، ب

فلما جاءه الرجلُ ذهب إليَّ الشيخ وقال لي : اذهب معي يا فلان . فذهبتُ معه . فاستأذن على الشيخ . فلما رآه قال له : يا شهاب الدين ! أفتِ ، فقد اذنتُ لك في الافتاء . فقبّل الطيبي يدَ الشيخ وبكى ، وقال : يا سيدي ! جعل الله في عمرك البركة . أيُفتَى وأنت في المدينة حيٌّ تُرْزق ؟ فقال له : والله يا شهابَ الدين إنّ نفسي لتطيبُ بفتواك . فأفْتِ ، فقد أذنتُ لك في ذلك . فتوقف الطيبيُّ المذكورُ . فألزمه الشيخُ بالكتابة على الاستفتاء بحضرته . فكتب عليه امتثالاً لأمر الشيخ ، وعرض ما كتب على الشيخ ، فقال له : أحسنتَ وأصبتَ في ما كتبتَ .

وخرج من عنده ، وشرع في الإفتاءِ بعد ذلك من غير توقف .

وكان رحمه الله تعالى يباشرُ الدرس [تحت][1] القبة بالجامع الأموي كلّ يوم بعد الظهر إلى قريب العصْر .

وكنتُ قَدْ قرأتُ عليه « الارشاد » للموْلى العلاّمة اسماعيل بن المقري . وكان يهتمّ بمطالعته الى الغاية . ولازمتُه سنين عديدة ليلاً ونهاراً . وأحبّني وجذَبَني اليْه . وكان يصحبني في نزهته وعند الذهاب الى بعض قُرى دمشق للتنزّه . وكنتُ أبيت عنده في بيته الكائن في محلّة القيمرية . وكان ينظم الشعر كثيراً . وكان قد أحبّ بعض أحداثِ دمشق وحصل له بسببه ضررٌ عظيم ، حتى قيل إنه كان سبباً لتلافه ، وإنه سقاه مسمُوماً فلم يزل يتمرّض حتّى صار كالطفلِ الصغير . وكان يُحمل الى الحمام فيُرى كالطفل الصغير الذي يحمله أبوه الى الحمّام . وباع غالب كتبه في مرضه . وبالجملة فهو ممّن تشرفتْ به دمشقُ . غير أنه لم تَطُل به أعوامُه ، ولم تصفُ له أيّامه .

وكان له قريبٌ من أولادِ عفيف الدين يُقال له محمد بن عفيف الدين .

---

(١) الزيادة من ه ، ب

وكان محمد المذكور قد شهد شهادةً نُسب فيها الى الزور واختفى ، فطُلب من الشيخ المذكور ، ولم يكن له به علم . وكان حاكم دمشق حسن [١] باشا ابن الوزير محمد باشا ، ولم يكنْ عارفاً بالشيخ أحمد المذكور . فلما طُلب إليه زجره وطلب منه الرجل المذكور بإزعاج. وكان الشيخُ اسماعيل النابلسي رئيسَ الجماعة حينئذ ، ولم يكن محبّاً للشيخ المذكور . فقال لحسن باشا : إنه لو حلّ إزاره لسقط محمد بن عفيف الدّين منه . ونال بذلك مكروهاً . وخرجَ للتفتيش على الرّجل المذكور في قرى جبّة العسال [٢] فلم يجده .

وكان يكتب اليَّ الشعر الكثير ، وكنت أجيبه عنه . وسأذكر منه حصّةً إن شاء الله تعالى .

ولقد قال لي مرةً : لا تتغدَّ فانَّ (٥ ب) عندي سمكاً مقليّاً ، وسأرسلُ لك منه . فذهبَ الى البيت فلم يرَ من السمك إلاّ قليلاً ، وكان يظنُّ أكثر من ذلك . فأرسل اليَّ الموجود وكتب اليّ هذه الأبيات [٣] :

أقسمتُ بالذي السمواتِ سمكْ ... لم ألْقَ في المنزل غير ذا السَّمكْ

لكنْ في العشرِ الأخيرِ من رجبْ ... نسيرَ للمعدن كي ترى العجبْ

وَربُّنا يرزُقنا من كرَمِهْ ... فإنَّــهُ عوّدنا بنعمــه

وما يُصادُ السمكُ الطَّرِيُّ ... إلاَّ إذا ما ساقــه الوَليُّ

ونحْنُ منه نرتجي الألطافا ... ونطلبُ الإسعــاد والإسعافا

---

(١) انظر كتابنا : ولاة دمشق في العهد العثماني ، ص ١٨

(٢) » « جبة عسال » . وهي قرية في جبل قلمون المعروف قديماً بسنير

(٣) » « هذه الأبيات شعراً »

لازلتَ بحراً قاذفاً بالدُرِّ عَذْباً نَمِيراً دافعاً للضُرِّ
مَا غرّدَتْ فَوْقَ الغُصُونِ وُرْقُ ولاح من أرض الحبيبِ بَرْقُ

وكان رحمه الله تعالى قد وعدني بشيء فما تيسّر انجازه . فكتب اليّ معتذراً عن عدم الاتمام وأجاد في النظام :

ياسيّدي لستُ والرحمن أنساكا فإنّ في خاطري الولهان مَثْواكا
ولم أكنْ تاركاً ما قدوَعدتُ به فكيف وهْو سبيلٌ |لي|[1] لِلُقْيا كا
فأسمحْ فديتُكَ من خِلِّ ألوذُ به ولا تَكُنْ حاقداً حاشاكا حاشاكا

وكنتُ قد سرتُ الى قرية منين [2] ، في سنة تسع مئة وتسعين ، فكتب اليّ قصيدة يتشوّقُ بها اليّ ، ويتشوّفُ بضمونها عليّ . وقصيدتُه كانت عندي ففقدتُها ، وبالغتُ في التفتيش عليها فما وجدتُها . وبلغني أنها عند زوجته بنت شيخ الاسلام الشهاب الفلّوجي ، فإنّها تقرأ وتكتب ، غير أنّ جوابي له من نظمي عندي مضبوطٌ . فمن ذلك جوابي له عن قصيدته التي أرسلها إلى قرية منين | قولي |[3] :

واهاً لوجدٍ ماله من براحْ ومُغْرَمٍ عانٍ كثيرِ النواحْ
وحرِّ [4] شوقٍ ثائرٍ زائدٍ إنْ غرّدَتْ ورقاء عند الصباحْ
شوقاً الى سكّان قلبي وإنْ غابوا عن العين وزادوا [5] انتزاحْ

---

(١) ساقط من ه
(٢) بالفتح والكسر . قرية مشهورة في جبل سنير ، قريبة من دمشق . انظر (معجم البلدان)
(٣) ساقط من ه
(٤) في الاصول « حيّ »
(٥) ه « زاد »

كم لي إليهم من حنينٍ إذا بَرْقٌ من الغورِ ترآى ولاحْ
ياليت شعري والمنى ضلة هل لي إليهم من رجوعٍ يُتاحْ
وهل سميري بربوع الحمى يذكُرُني عند الوجوه الصِّباحْ
لا صبرَ لي عنهم وإن[1] اثخنوا قلبي بأسيافِ التنائي جراحْ
ياحادياً يطوي الفلا سائقاً بجيبهم[2] تلك المطيّ الطّلاحْ (٦ آ)
يَمِّمْ ربوعاً قد سقاها الهدى فأطلعتْ نبتَ النجا والنجاحْ
ربوع شيخِ العصر مَنْ لم يزلْ يهدي البرايا لسبيلِ[3] الفلاحْ
شهاب أفقِ الفضلِ مَنْ قد غدَتْ به دياجي البحثِ ذاتَ اتضاحْ
وقل له خلّفتُ صبّاً له شوقٌ[4] البكم ماله من براحْ
وقلْ له خلّفتُه باكياً يسقي بدمع العين تُربَ البطاحْ
شوقاً لمن لم يرقبوا ذمّةً كأنّ نقضَ العهد منهم مُباحْ
يُطيعُني قلبي إذا سُمتُه شوقاً وفي السّلوان يُبدي الجماحْ
كيف احتيالي في حبيبٍ يرى قتلي مُباحاً بَعْدَ رَمْي السلاحْ
قَصَّ جناحَ القلبِ صدّاً وقد طار إليه بعد قصِّ الجناحْ
دُم ياوحيدَ الدهر في نِعمةٍ ماهيّج الوجدَ هبوبُ الرّياحْ

---

(١) ه، ب « ولو »
(٢) ه « لجيبهم »، ب « لحيهم »
(٣) ه « لسبل »
(٤) م، ب، ه « شوقاً »

وما تغنّتْ ذاتُ طوقٍ على أغصانِ دَوْحٍ في ضُحى أو رواحَ[1]

قلتُ : وقد كنت يوماً في بستانٍ مع بعض الخلاّن في سنة ثمان وثمانين وتسع مئة ، فأرسل | اليّ | [2] الشيخُ المذكورُ ، عليه رحمة الملك الغفور ، أبياتاً وضمّن فيها قول الشاعر :

أيها الماطلُ دَيْني أغنيٌ وتماطلْ ؟

عَلِّلِ القلبَ فإني قانعٌ منك بباطلْ

شكاية من خلٍّ كان يهواه ويطلب هواه ، ويُعرّضُ بعِدَة وصال ، نقضَها [3] المطال . مع القدرة عليها ، والوصول اليْها .

واستدعى الجواب مربعاً ، ولم يكن رسوله لعذر التأخير سميعاً . فأجبتُه مرتجِلا ، واعتذرتُ اليه منه خجِلا :

مَنْ لدمعٍ فيك سائلْ وفؤادٍ منك ذاهلْ

ياغـزَالاً صَرَعَ الـقلبَ بألحاظٍ قواتلْ

طرْفُك الفتّاكُ سيْفٌ وعذاركَ[4] الحمائلْ

إنّ في طَرْفِكَ سحْراً سَحَرَ السِّحْرَ ببابِلْ

قَدُّكَ العسّالُ[5] رُمْحٌ وله لحظُكَ عاملْ

مَنْ لقلبٍ فيك مُضنى مَنْ لحالٍ فيك حائلْ

---

(١) م « راح »

(٢) ساقط من ه

(٣) ه « نقصها »

(٤) م ، ه « عذراك »

(٥) عسل الرمحُ عَسْلاً فهو عسّال اذا اشتدّ اهتزازه (القاموس)

أسهرُ الليلَ وحِبّي راقدٌ في الليل غافِلْ
هَلْ إلى رَدِّ رُقادي بعد أن غابَ وسائِلْ
غابَ عن عَيْني ولكنْ لم يزلْ في القلبِ نازلْ
هَدَمَ القلبَ نواهُ وهو بالأشواقِ آهِلْ
فَسَقَى اللهُ زمانِي بالحِمى غيثَ الهواطِلْ
حيثُ مَنْ أهوى مُوافِ والذي أرضاهُ حاصلْ
يا عشيّاتِ التصابي هل زماني بك آيلْ
زِلْتِ عنّي وغرامي وسقامي غيرُ زائلْ
قَسَمًا لولا وُثوقي بوفا صَدْرِ الأفاضلْ
بَعْدَهم مُتُّ عذابًا[1] حيثُ لم تُغْنِ الرّسائلْ
يا وحيدَ الدّهرِ يامَنْ جُمِعَتْ فيه الفضائلْ
لكَ يامولايَ نَظْمٌ دونه زَهْرُ الخمائلْ (٦ ب)
قد أتى عقدًا يُحلّي جيدَ نظمي وهو عاطلْ
مَنْ لمثلي أن يُساوي نَظْمَكُمْ أو أن يُماثلْ
فاعذُرَنْ إنّ بقلبي شُغُلاً لِلْهَمِّ شاغلْ
مِنْ زَمانٍ قَدْ تَرَقّى في عُلاه كلُّ سافلْ
وغدا الفاضلُ فيه ساقطَ الرتبةِ خاملْ

---

(١) ه، ب «غراما»

فاسْلَمَنْ يا فخرَ[1] دهري ... في ذيولِ العزّ رَافلْ
حائـزًا ما ترتجيـه ... عاليَ الرتبةِ كامـلْ
ما تغنّتْ ذاتُ طوق ... في ضحًى أو في أصائلْ

قلتُ : وقد خلّف بنتين ولم يترك ذكرًا . وعمّر بيتَ أبيه الذي في [محلّة][2] القيمرية ، وأجرى اليه الماء . وأخذ حصّةً من الأرض إلى جانب البيت وجعلها جُنَيْنَةً ، وزرع فيهَا غالب الفواكه اللطيفة . وعمّر مصنع مـاء في جانب الجُنَيْنَة ، وتأنّق [في][3] البيت بالدهانِ والماءِ والغرَاس ، حتى صار نزهةً للعيُونْ وفرحة الفؤاد المحزون . ثم إنه تأثّل وشرى فرساً أصيلا وبغلةً تنظرُ بعينيْ باز . ولما ارتفعتْ له العلامات عُلّامات . ولما مرّت اليه الدنيا باعَها باعها . ولم يزل يتمرّض ، ولحفرته يميل ويتعرّض ، حتى وقع في شبكة المرض ، وفوّقتْ اليه سهامُ المِحَنِ كالغرَض . ولم يزل ينقصُ جسمُه ، ويقلّ من العافيـة سهمُه ، حتى أخذتْه الدنيا بأظافرِها ، وساقتْه الى حفرةٍ لم يكن بحافرِهَا . وتُوفي الى رحمة الله تعالى في أوّل سنة أربع وتسعين وتسع مئة .

وكنتُ قد أخذتُ تدريس الشافعية ، في المدرسة الدرويشية[4] ، في أواخر سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة . وكان المرحُوم صَاحب الترجمة يقول لي في مرضه : لاتَبدأ بالدرس[5] حتى يزول مرضي ، وتحضر صحتي ،

---

(١) م « يافخري »
(٢) الزيادة من ﻫ ، ب
(٣) ساقط من ﻫ ، ب
(٤) هي جامع الدرويشية الذي بناه درويش باشا والي الشام . والجامع معروف جداً وما يزال قائماً . انظر كتابنا ولاة دمشق في العهد العثماني ص ١٦ ؛ وذيل ثمار المقاصد لأسعد طلس ص ٢١٦
(٥) ﻫ ، ب « الدرس »

وأحضر معك في درس الدرويشية ، وأجعـــلُ سماطاً عظيما لابتداء درسك . فكان يظنُّ أنَّ الحياةَ له عائدة ، وأنه يرى زائرَه ويتفقد[1] عائدَه . ولم يعرف أنَّ الدهرْ قد غيَّر أحوْاله ، وأنه قد تسلّط على لونه فأحاله . ودُفن في تربة مرج الدحداح عند أبيه وجدِّه . ولم يكن ذا معارضة حتى يكون موته فرحا لضدِّه .

وكان رحمه الله تعـــالى حليماً كريماً لطيفاً سليماً ، يعفو عن الظالم ويتباعد عن المظالم ، ويرى العفو مغنماً والعقاب مغرماً . وتعطلت بموته الدروس ، وتوحشت بوفاته النفوس . فعليه رحمة الله على الدوام ، وسقاه من رحيق مسكه ختام والسلام .

(١) هـ ، ب « يفقد »

٤

شيخ الاسلام أحمد الفلوجي

شيخُ الاسلام على الاطلاق، وحافظُ الشام بالاتفاق. مَنْ طار صيتُه في الآفاق، وتناقلتْ أحاديثُ فضله الرفاق. كان قد ارتحل أوائل أمره إلى مصر المحروسة هو وأخوه شيخ الاسلام الشيخ محمد الفلوجي، وطلب وأدرك درجة الفتوى، وركب كرسيَّ الوعْظ، ورمقه (٧ آ) كلّ لحظ. وجرت له وقائعُ مع علماء مصر حتى انهم رموه مرةً عن كرسي الوعظ. نزل رجل أعمى تحت كرسيّه وقام به. وكان الغالبُ عليه حفظ المسائل دون التحقيق. ولم يكن بارعاً في العربيّة الى الغاية، بل كان الغالبُ عليه معرفةَ متون الأحاديث، وحفظ المسائل الفقهيّة، وضبطَ أحوال السِّير، إلى غير ذلك. وكان إليه مرجعُ الفتوى، ويقول للحاضرين من العوامّ وغيرهم: تعلمون أنّ هذه المسئلة لايعرفُها في البلدة غيري. ويحلفُ على ذلك يميناً مغلّظةً.

ومرّةً قال[1]: أنا أعلمُ علماءِ الشافعية الآن.

فإن قلتَ: لانسلّمُ بذلك، وما الدليل على ذلك؟

قلتُ: لأني مدرّس الشافعيّة بالشاميّة البرانيّة[2]، وهي مشرُوطةٌ لأعلم علماءِ الشافعية. فلو لم أكن أعلمهم لما تولّيتُها.

وكان إماماً بالجامع الأمويّ، يقرأ بالقرآءات السبع، ويدّعي معرفة النغمات المختلفة. وكان يخيّل لنفسه أنه يعرفُها معرفة تامة.

---

(١) هـ «وقال مرة»

(٢) انظر النعيمي ١ : ٢٧٧ ؛ وخطط دمشق ص ٧٣ .

وكان يكتبُ على حواشي كتبه كلمات غريبة : منها أنه كتبَ مرة على حواشي « شرح الروض » قوله : قلتُ وهذه مسئلة تقتضي ان بيتنا مُعاف [١] من العوارض . وكتب في مكان آخر : قلت وهذه مسئلة تردُ على خصمي ابن عبد الحق المصري وهي التي |كانت| [٢] سبباً لإلقائي عن الكرسي بمصر في سنة كذا .

وحاصل الأمر أنّه كان في أيامه بركة للمسلمين وهدايةَ الضالين .

دُفن في تربة باب الصغير في سنة إحدى وثمانين وتسع مئة . رحمه الله رحمة واسعة . وكانت جنازته في غاية الوجاهة والعظمة [٣] . رحمه الله تعالى .

---

(١) ه « معارف » .
(٢) ساقط من ه .
(٣) ه « العظم » .

٥

الشيخ أحمد شهاب الدين الغزّي

شيخ الاسلام ابن شيخ الاسلام ابن شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد ابن بدر الدين محمد بن رضيّ الدين محمد الغزّي العامري القرشي . ولدُ شيخ الاسلام البدر الغزي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

شيخٌ درج من حِجْرِ العلوم ، ورضع من ثديها درَّ المنطوقِ والمفهوم ، تحنّك بالفصاحة عندما كان طِفْلاً ، وارتدى برداءِ الكمالاتِ يافعاً وكهْلاً .

كان رحمه الله تعالى قد نشأ في حجر والده ، وأنفق عليه ماملكته يده من طريفه وتالده ، الى أن صار في العلم عَلَماً ، وأصبح لِحُجّاج كعْبةِ الفضلِ حرما . ودرّس بعدّة مدارس ، ورَبْعُ كماله بالتقوى ليسَ بدارس ، حتى إنه مَات وهو مدرسٌ بالمدرسة الشاميّة الجوّانية [١] . وعنه أُعطيتْ لوالده ضميمة الى المدرسة التقويّة [٢] . كما ذكرنا ذلك في ترجمته . وكان الغالبُ عليه طريقَ الانطراح وعدمَ التكلّف . كان يجالسُ الفقراء الذين لايؤبه بهم . وكانت دمعتُه سريعة . كان فقيهاً أصُولياً فرضياً (٧ ب) عالماً بموادّ التفسير . وله الشعرُ الحسنُ والكلماتُ المقبولة . وقرأ على والده جميع مصنّفاته . وله في آخر كلّ كتابٍ منها اجازة خاصة .

ولقد رأيتُه مرّة خرج من عند أبيه من حجرته الحلبيّة وبيـــده كتابٌ وهو يضحك . فسأله الحاضرون عن سبب الضحك فقال : أضحك

---

(١) انظر عنها النعيمي ١ : ٣٠١

(٢) انظر عنها النعيمي ١ : ٢١٦

فرحاً برضى سيّدي ووالدي عليّ . كتب لي إجازةً في آخر مؤلّفه هذا وصرّح فيها بالرضى عني ، والحمدُ لله على ذلك .

وأعطاني الكتاب في يدي فنظرْتُ إليه فإذا هو نظمُ « جمع الجوامع » المسمّى « بهَمْعِ الهَوَامِع » ، نظم جدّ صاحب الترجمة . هو القاضي رضيّ الدين . وشرحه ولده البدرُ الغزيّ . وقرأ الشرْح على مؤلّفه البدرِ ولدُه الشهابُ صاحب الترجمة وكتَب له بذلك إجازةً بخطّه منظومة ، وصرّح فيها بالرضى عنه . وكان فرحه لذلك .

وبالله لقد سمعتُه في حال حيّاته يقول : اللهمّ أمِتْني في حياة سيّدي . يريد والده . فاستجاب الله تعالى دعاءه ومات قبله في سنة ثلاث وثمانين وتسع مئة . وكان أمير الأمراء بالشام جعفر باشا مربي[1] السلطان . فحضر الى الجامع الأموى ، وصلّى على الشهاب الغزي المذكور . ولم يتمكّن والدُه الكبيرُ الغزّي من التوجّه الى المقبرة مع الجنازة لِزَمَانةٍ كانت قد لحقتْهُ في آخر عمره . فحمله الناسُ الى جهة باب الزياده بالجامع[2] . فصلّى على ولده هناك ورجع ، والناسُ يحفّون[3] به ويقبلّون يده ويعزّونه ، وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿ إنا لله وإنّا إليه راجعون[4]، حسبي الله ونعم الوكيل[5]، ماشاء الله لاقوة إلاّ بالله[6] ﴾ .

ورأيتُ جعفر باشا المذكور يقبّل يد الشيخ كثيراً الى أن وقعت تقبيلة على يد رجل صالح من حاملي الشيخ .

---

(١) م « مري » خطأ . وكان هذا الأمير يسمّي لالا جعفر باشا . انظر كتابنا : ولاة دمشق في العهد العثماني ص ١٧ ، ١٨

(٢) هو الباب الجنوبي لجامع دمشق . انظر كتابنا مسجد دمشق

(٣) « ، م « يحتفون »

(٤) سورة البقرة ، ٢ : الآية ١٥٦

(٥) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٧٣

(٦) سورة الكهف ، ١٨ ، الآية ٤٠

وكان الشهابُ المذكور صاحبَ أحوالٍ ظاهرة وكمالاتٍ باهرة . كان كثير الزياراتِ للصالحين أحياءً وأمواتاً . وكان يحضر مجالس[1] الذكر ويبكي بها ويتواجد . وكان ضعيفَ الجسد ، قليلَ الأكل إلى الغاية . وكان متقللاً من ملاذّ الدنيا . وكان قد أمرني والدُه البدرُ الغزّي أن أقرأ عليه ، فقرأتُ عليه بإشارته « شرح الورقات في الأصول » لابن خطيب الكاملية .

وله الشعرُ الحسن . فمنه قوله :

مُطورُ التمر سُنّه رسولُ الله سَنّه

ينالُ الأجرَ شخصٌ يُحَلّي منه سِنّه

وله أيضاً | رحمه الله تعالى |[2]:

إماتةُ نفسي في مطالعة الإحيا[3] واحياءُ روحي في مشاهدة المحيا[4]

فيارِبّ هذا دأبُ عبدِكَ دائماً ودَيْدَنُه مادام في هذه الدنيا

وهكذا كان في دنياه ملازماً لمطالعة الإحياء وملازمة المحيا .

ولقد كانَ يتعهّدُ (٨ آ) زيارة مسجدٍ بمحلة السليمانية[5] شمالي باب الفراديس . وكان قديماً أخبرني أنّ والده أخبره عن والده القاضي رضيّ الدين أنه رأى القطب في ذلك المسجد . وكان ناظرُ المسجد كثيراً مايقفله ويتركه معطّلاً[6] . فذهبنا مع الشيخ يوماً لزيارة المسجد المذكور ، فدخلنا إليه ،

---

(١) م « مجلس »

(٢) ساقط من هـ ، ب

(٣) يعني احياء علوم الدين للغزّالي

(٤) يعني مزار النبي يحيى بن زكريا في المسجد الأموي

(٥) هذه المحلة بقرب العقيبة . انظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق .

(٦) هـ « مقفولا »

فوجد الشيخ حالَه مضمحِلا . فقال الشيخُ لناظره : هلاَّ عمَرت هذا المسجد الذي تأكلُ وقفه وتخرب سقفه ؟ فقال له الناظر : ياسيدي أنا خنزرتُ . يريدُ بنيتُ سنادة[1] للحائط . وهم يسمّونها خنزرة . وتكرّر هذا الجواب من الناظر مرّات . فقال الشيخ رحمه الله تعالى هذين البيتين وكتبها على حائط المسجد :

ومانِعِ مسجدٍ ذِكراً عليه الظلمَ أنكرتُ
إذا ماقلتُ عمِّرْهُ يقولُ الكلبُ خنزرتُ

ومن لطائفه أنه رأى يوماً جمال الدين الجمال الفرفوريّ الآتي ذكره إن شاء تعالى وفي يده كتاب . وكان الجمالُ المذكور صاحبَ الجمال الذي يُبهر الأقمارَ بأنواره ، والروضَ عندما يتجلّى بنوّاره ، حسناً وجمالاً ، ولطفاً وكمالاً . فقال له : ياسيدي ماكتابُك ؟

فقالَ : « ألفيّة ابن مالك » في النحو .

فقال : في أيّ باب تقرأ ؟

فقال : في أفعال القلوب .

فقال له : كم لك في القلوب أفعال !

ومن لطائفه أيضاً أنّ صاحبنا الشيخ مصطفى العجمي الحلبي ، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، طلب من الشيخ إعادة « شرح المرادي على ألفيّة ابن مالك » . وكان به يَعِدُه ، وهو بالطلب يتعهّدُه . فقال له عند تكرر الطلب في النادي : مرادي منك نسيانُ المرادي . فعلم الإشارة من قوله هذا .

وآخرُ لفظٍ سمعته [منه][2] حديثٌ شريف . وذلك اني كنت

---

(١) ه ، ب « ستارة »

(٢) زيادة من ه

جالساً قريباً من باب السلسلة[١] من جانب الإيوان الشرقي ، فرأيته مقبلاً من جهـة حجرة أبيه منفرداً ، وعليه آثارُ الضعف . فاستقبلته وقبّلتُ يده . فدعا لي وقال لي : رَوَيْنا بالسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : تعلّموا العلمَ والحِلْم ، وتأدّبوا مع مَنْ تتعلمون منه . ومضى .

في اليوم الثـاني دخل حمّامَ السلسلة الكبير[٢] وَقْفَ الخانقاه الشميْصَاتِيّة[٣] ، فما خرج منه إلا ميتاً . فمات رحمه الله تعالى متطهّراً متنوّراً ، ودُفن في تربة حضرة سيدي الشيخ رسلان[٤] رضي الله عنه . وقبر أبيه هناك أيضاً . ولم تنظر عيناي مثل جنازته أبداً لا قبله ولا بعده . رحمه الله تعالى .

ورثاه الشيخُ محمد الصالحي الهلالي ، حفظه الله تعالى ، بقصيدة قافية حسنة ومطلعها :

سفحنا لِدُرِّ[٥] الدمعِ قبل عقيقه الى أن جرى الوادي وسفحَ عقيقه

(٨ ب) وهي قصيدةٌ لطيفة في بابها . رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وأنشدني هذين البيتين ولا أدري هل هما له أم تمثّل بهما وهما :

---

(١) هو الباب الشمالي في الجامع الأموي . انظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق

(٢) في المنارة الجوانية ، شرق المدرسة الاخنائية ، في الطريق الآخذة الى المدرسة الشريفية الحنبلية . انظر كتابنا حمامات دمشق ص ٢٠

(٣) انظر عنها النعيمي ٢ : ١٥١

(٤) تربة تقع أمام باب توما ، الى الشرق . (انظر خطط دمشق) تنسب الى الشيخ أرسلان الدمشقي من كبار الصوفية الدماشقة في القرن السادس .

(٥) كذا بإدخال اللام على درّ .

قصدتُ أبا المحاسن كي أراه　　بشوق كاد يجذبني إليه

فلما أنْ رأيتُ رأيتُ فَرْداً　　ولَم أرَ من بنيه أبناً لديه[١]

وله في مدحِ صاحبه وتلميذه الأمير عبد اللطيف بن منجك رحمه الله تعالى :

الاسْمُ عينُ المسمّى　　دليلُ قولي لمن شكّْ

لطفٌ وظرْفٌ حواهُ　　عبدُ اللطيف بن مَنْجَكْ

رحمه الله ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين .

---

(١) أي لم يجد لديه محاسن .

٦
الشيخ أحمد شهاب الدين القابوني

هو الشيخُ الصالح ، الفاضلُ الفالح ، المقرئ الفقيه ، الكاملُ النبيه ، تلميذُ شيخ الاسلام الطيبي الكبير ، المذكور بين الأكبر والصغير [١] .

| كان من القابون الأعلى [٢] بالقرب من دمشق . فطلبَ العلم وتفقّه على مذهب الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه . وغالب قراءته على الشيخ الطيبي المذكور | [٣] .

قرأ عليه القرآءاتِ والفقهَ والنحوَ والفرائضَ والحسَاب ، ولازمه مايزيد [٤] على ثلاثين سنة . وكان غايةً في الصلاح . والعجبُ أنه كان يؤمُّ في مسجد القابون الأعلى مـدةً ويحضرُ الى دمشق كلّ يوم لقراءة الدرس على شيخه المذكور ، ويطلع الى القابون بالقبقاب ويعودُ الى دمشق . ولم يزل على ذلك حتّى انقطع عن القابون ، واستقلّ بخدمة شيخه المذكور وبمطالعة الدروس . الى أن درّس بالمدرسة الكلاّسة [٥] بدمشق . وصَارت له بقعةُ تدريسٍ بالجامع الأمويّ ، وأمّ بالمدرسـة المسماريّة [٦] بمحلة القيمرية ، وأعاد عند شيخ الاسلام البدر الغزي الآتي ذكره بالمدرسة التقويّة [٧] ، واستمر مُعيداً بها الى أن مات .

---

(١) ب ، ﻫ « المتقدّم ذكره » بدلاً من « المذكور بين الأكبر والصغير »
(٢) قرية مشهورة من قرى غوطة دمشق . انظر : غوطة دمشق لكرد علي
(٣) مابين الخطين القائمين ساقط من ﻫ
(٤) ب ، م « ولازمه على مايزيد »
(٥) انظر النعيمي ١ : ٤٤٧
(٦) انظر النعيمي ٢ : ١١٤
(٧) المصدر السابق ١ : ٢١٦

وكان دائماً يخاطبُ الشيخ المذكور بعد تمام درس التفسير بقوله : أجزتم رضي الله تعالى عنكم لمنْ حضر وسمع أن يرويه عنكم ، وجميع ما تجوز لكم روايته بشروطه عند أهله ؟

فيقول له الشيخُ : نعم .

وكان دائماً يتلو محاسن شيخه الطيبي المذكور حتى كأنها وِردُه . وكان يبكي عند ذكره .

حكى لي من لفظه أنه كانت له خزانةٌ صغيرة بالجامع الأموي . وكان الشيخ دائماً يجعل له الطعام من بيته بمحلّة القيمرية الى الخزانة . فيأتي من القابون فيجد الطعام فيأكله . ففي يوم من الأيام لم يكن عند الشيخ طعام سوى الحِمّص المتبّل ، فأحضر له منه حصّةً الى الخزانة وكتب له ورقة صغيرة يقول فيها :

الأخ الأمجد ، الشيخ أحمد [1] ، يتصرف في الطعام ويعذر ، فإنّ أهل الشام يقولون : أطيب الطيباتْ ، الحِمّص إذا باتْ .

وسار شيخنا العمادُ الحنفي رضي الله عنه الى قرية بالمرج [2] وصرْنا معَه ، وسار معنا الشيخ الشهاب القابوني . وكانت الجماعةُ يتذاكرون الأشعار الحسنة . وكان (٩ آ) الشيخ القابوني المذكور ساكتاً لأنه كان بالنسبة الى الشعر من قوم لايشعرون . فقال له شيخُنا : ياشيخ شهاب الدين ! مابالك ساكتاً ؟ فقال : اسمعوا لي ما أحفظهُ للبهاء زُهَيْر ، فأنشد :

مالي أراكَ أضَعْتَني وحَفِظْتَ غيري كلَّ حِفْظِ
فَظٌّ عَليَّ ولم تَكُنْ يوماً على أحدٍ بِفَظٍّ
هذا لَعَمْرُ أبيك مِنْ جَورِ الزّمان وسوءِ حَظي

---

(١) وردت هذه العبارة من قبل في الترجمة الثانية هكذا « الأخ العزيز الشيخ احمد »

(٢) يقصد المرج الملاصق لغوطة دمشق .

فاستحسن الحاضرونَ منه ذلك ، وتعجّبوا من كونه يروي مثل هذا الشعر ، مع أنه كانَ دائماً يقول : أنا فقيهُ جبلٍ . وكان شيخنا يقول له : نعم ، أنت جبَلٌ من حجر .

وكان يفرحُ بذلك ويقول : استغفر الله يامولانا .

الى غير ذلك من مكارم أخلاقه ، لازال فائزاً بالرحمة من خلاّقه .

دُفن رحمه الله تعالى بتربة مرج الدَحْدَاح رحمه الله تعالى .

٧

الشيخ الصالح المسلك الفالح الشيخ
أحمد بن سُليمان[١] الدمشقي الصوفيّ القادري

كان والد المذكور الشيخ سليمان رجلاً صالحاً يتقوّت من كسب يمينه في نسج الصوف . وكان تشرّف بدين الاسلام . وكان ولده الشيخ أحمد المذكور ينقل عنه كراماتٍ عجيبة يعلمُ الله تعالى حقيقتها . ونشأ ولدُه هذا على مجاهداتٍ وعباداتٍ . واستمر في محلة الشلاّحة[٢] بدمشق . وانتقل الى القليجيّة[٣] بدمشق . وعزّل الترابَ الذي كان بها من بقايا الخراب في فتنة اللنك ، وقطن بها ، وأسكن في حجراتها[٤] عدةً من الفقراء .

وكانَ عاقلاً راسخاً ، قليل التردّد الى الحكّام . وكان يُقيمُ حلقة الذكر بالجامع الأمويّ يوم الجمعة بعد الصلاة عند باب الخطابة[٥] . وكان يقيمها بالمدرسة المذكورة يوم الاثنين بعد العصْر .

والمدرسةُ المذكورة تُعرفُ الآن بمزار سيدي سيف الدين . وسيف الدين هذا هو الأمير سيف الدين الاسفهسلار الأمير الكبير المجاهد المرابط .

---

(١) انظر المحبّي ، خلاصة ١ : ٢٠٧

(٢) محلّة تقع اليوم من شمال قبر السيدة رابعة الى قرب باب السلامة . انظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق . وقد ذكرها ابن طولون في حارات دمشق .

(٣) انظر النعيمي ١ : ٤٣٤

(٤) م « حجرتها »

(٥) انظر كتابنا مسجد دمشق

كان من الأمراء النورية . وكانت له فضيلة زائدة . ويطل على تربته شباكان ، على رأس كل واحد منهما حجر فيه أسطر منقوشة . فأما الأول فعليه من الكتابة هكذا : « قال [1] الأمير الكبير المجاهد المرابط الاسفهسلار [السعيد الشهيد] [2] سيف الدين بن علي بن قليج [بن عبد الله] [2] رحمه الله تعالى هذه الأبيات وأمر أن تكتب على قبره » .

وعلى الحجر الثاني الأبيات وهي :

هذه دارُنا التي نحن فيها　　دارُ حقٍّ وما سواها يزولُ

فاعْتَمِرْ ما استطعت داراً اليها　　عن قريب يُفضي بك التحويلُ

واعْتَمِدْ صالحاً يُؤانسك فيها　　مثلما يؤنسُ الخليلَ الخليلُ

(٩ ب) واستمر الشيخُ أحمد المذكور بالمدرسة المذكورة مدة عمره . وكان يتعاطى الاصلاح بين النـاس . وكانت له حَفَدَة [3] يأخذون ممَّنْ يحضر عندهم بعض دراهم ويقولون : لأجل زيتِ الزاوية . وخلف الشيخُ ولداً صغيراً يُقال له عبد القادر . وهو من بنت قاضي القضاة ابن الفرفور . فإنَّ الشيخ المذكور قد تزوج ثنتين من بنات الفرفور ، فأعقب من الثانية الولد المذكور . وهو الآن مقيم مع والدته وبعض أتباعهم بالمدرسة المذكورة . ويتعاطى الذكر على عادة أبيه .

وحاصل الأمر أنه كان من محاسن دمشق . وكانت له كلمات في

---

(١) انظـــر *Répertoire d'épigraphie arabe* الجزء الحادي عشر : ١٧٨ ؛ وذيل ثمار المقـاصد ص ٢٤٦ ؛ وخطط دمشق ص ٩٦ والمصادر المذكورة فيه .

(٢) الزيادة من الكتابة نفسها التي رجعنا اليها . وانظر المصادر السابقة .

(٣) م « حضرة »

التصوف رائقة ، وعبادات رشيقة فائقة . ودُفن في مدفن الأمير سيف الدين بالمدرسة المذكورة .

ولقد شاهدتُ له واقعة ربّما تدلّ على كرامة . وهي أنّه كان له مريدٌ ملازمٌ له مدةً طويلةً يُقال له ناصرُ بنُ عبدان . وكان ناصرٌ هذا دنيءَ المقام في أوّل أمره . فلما اختصّ بخدمة الشيخ المذكور صارت له وجاهةٌ بين الناسِ . فكان يُغلظ الكلام على بعضهم بسبب حضورهم للمصالحة . فأثّر ذلك في خواطر بعض النّاس حتى إن الشيخ نفسَه كان ينصحه في ذلك فلم ينتصح . فلزم أنّ خاطر الشيخ تغيّر عليه ، فوقع بينهما كلامٌ أدّى الى سوء أدبٍ من ناصرٍ في حقّ شيخه . فقال له الشيخُ كلاماً معناه : ياناصر ! أنت في حياتي ماعليك خوفٌ ، وإنّما أخافُ عليك بعد وفاتي . فقال له ناصر المذكور : أنا بعدك ماأجلس في دمشق .

فلما انتقل الشيخُ بالوفاة الى رحمة الله تعالى أقلع ناصرٌ عن بعض وقوعه في الناس ، ، ولكنّ الطبعَ أغلب . فصدرت ماجرية بين الشيخ عمر القاري والسيد محمد بن المرحومِ السيد حسين بن حمزةَ بسبب وقف بني مزلّق أدّت الى مخاصمةٍ بينهُما . وكان ناصر من أتباع السيّد محمد المذكور . فلم تزل نار هذه الفتنة تشتعل لأمورٍ يطولُ شرحُها حتى أدّت الى القبض على ناصر المذكور . وجُعل القاضي محبّ الدّين قاضياً ، وصدرت[1] الدعوى على ناصر بأنّه مفسدٌ في الأرض . وأبرز المدّعي عليه حُكمَين سلطانيَّين بصلبه . وكَتب عليه ما شهدت به الشهود الذين أحضروا للشهادة . فصلبه الباشا المذكور تحت قلعة[2] دمشق في سنة ثمان بعد الألف . فخطر للناس ماحذره به شيخه في حال حياته ، بل أخبرني بعضُ

---

(١) م « صارت »

(٢) انظر عن « تحت القلعة » نزهة الانام للبدري ، ص ٦٢ – ٦٣ ؛ ومعجم الاماكن الطبوغرافية لنا .

الناس أنه أخبره بهذه الواقعة على الصورة التي حصلت ، فدَلّ ذلك على كرامة الشيخ .

وبالجملة لقد طالت خدمتُه لطريق الله جلّ وعلا . وكان يلازم الاصلاح بين الناس ، وعظم صيتُه وارتفع قدرُه ، الى أن صارت الأمراء والحكام يقصدونه للزيارة . وكان رحمه الله تعالى من أحسن أهل الطريق في زمانه . رحمه الله رحمة وافية ، وأسكنه الجنة العالية (١٠ آ) ، بمنّه وكرمه آمين .

وكانت وفاة الشيخ أحمد المذكور في رمضان من سنة خمسٍ بعد الألف . رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وسقى قبره سحائب الرحمة الهامعة . آمين .

٨

الشيخ الصالح أحمد ابن الشيخ حسين ابن الشيخ حسن الشهير بابن سعد الدين الجباوي الحوراني

كانوا أولاً في قرية جَبا[١] تبعاً لجدّهم الأعلى الشيخ سعد الدين الجباوي قدّس |الله|[٢] سره العزيز ، فارتحل الشيخ حسن المذكور الى قرية يقال عنها بيت جِنّ[٣] : ثم ارتحل إلى دمشق فسكن في محلة القُبَيْبات[٤] وعمر هناك زاوية[٥] وقطن بها .

فلما توفي الشيخ حسن المذكور جلس على سجادته ولدُه الشيخ حسين المذكور فطالت مُدّته ، وحمدت سيرته .

ثم لما توفي الشيخ حسين المذكور جلس على سجادته ولده الشيخ أحمد صَاحب الترجمة . فنشأ غايةً في الدين والصلاح ، والكرم والفلاح . واشتهرت له كراماتٌ بين الناس، وكان في الكرم حاتم زمانه ، وفريد أقرانه .

أخبرني عنه غير واحدٍ ممن رآه أنه كان يتعرّى من قميصه ويتصدّق به . وكان متقللاً من اللباس إلى الغاية . وطالت مدته وهو شيخ على طريقة أسلافه . ومن طريقتهم أنّ الشيخ منهم يحضر إليه مَنْ يُريد الإنابةَ

---

(١) قرية في حوران

(٢) ساقطة من ه

(٣) ناحية في جبل حرمون المعروف الآن بجبل الشيخ . انظر كتاب الريف السوري

(٤) محلة تقع اليوم في الميدان الفوقاني . انظر كتابنا معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق

(٥) انظر عنها : ذيل ثمار المقاصد ، ص ٢٥٣ ؛ و
Sauvaget. *Monuments Historiques de Damas*, p. 81
والنعيمي ٢ : ٢٢١

بين يديه فيُجلسُه أمامه ويقصّ له خصلةً من شعرِ رأسه ويقولُ له : أعاهدُك عهدَ الله تعالى على أنْ تكون فقير الشيخ سعد الدين ، قدّس | الله |[١] روحَه ، على الدّين والتقوى ، والخائنُ يخونُه الله تعالى . فيقول المريدُ : نعم . ثم إنّ المريدَ يتواجدُ . وقد يقع على الأرض بعد التواجد كالخشبة . فيأتي اليه نقيبان يقولان له : قم على بركات الشيخ سعد الدين قدس اللهُ روحه . فيستغفرُ الله تعالى ويقوم . وهكذا يفعل كلُّ مريد لهؤلاء الطائفة عند الوقوع والتواجد .

ومن طريقهم أنّ الشيخ منهم يخطّ خطوطاً في ورقة لا يعلم منها حروفٌ في الظاهر ، ويدفعُها للمريض فيأخذها معتقداً ، ويأمره الشيخُ بالحِمْيَة . وقد يقصّ له الورقة على مقادير صغيرة ويأمره بأن يشربَ كلّ يوم واحدة . وفي الغالب تنتج أوراقه ببركة السّلف .

ويقال إنّ مَنْ كان ملموساً من الجن يكتبون له ويحمونه من الزّفر[٢] فيشفى .

وكذا يُقال عن بعض المُقعدِين أنه يقوم بتعويذاتهم كما يأمرونه في شروطها .

وحاصلُ الأمر أن طريقتهم شائعة في بلاد الشام .

واستمرّ الشيخُ أحمد المذكور ملازماً على الجلوس بزاويتهم بمحلة القُبَيْبات خارج دمشق الى أن توفّاه الله تعالى في سنة ثلاث وستين وتسع مئة . ودفن خارج (١٠ ب) باب الله بتربة[٣] القُبَيْبات . وقبرهُ هناك معروف يُزار ويُتبرّك به .

---

(١) ساقط من ه

(٢) تطلق هذه الكلمة في اصطلاح الدماشقة على المآكل الدسمة .

(٣) انظر كتابنا خطط دمشق ص ١١٨

وحكى عنه أهل زمانه كراماتٍ عجيبة وأحوالاً غريبة ، تدلّ على أنه كان والياً على مصر (كذا) الولاية ، بالغاً الى رتبة العناية .

فمن جملة ما نُقل عنه من الكرامات مارأيتُه في الكتاب المسمّى « بالمحمّدية(١) في أحوال الفقراء السعدية » . قال مؤلفُها : مررنا معه الى بيت المقدس في سنة شيء وخمسين ، فبينما نحن سائرون في القرب من طبريّة وإذا بغزالٍ كبيرٍ مطرود دخل بينَ الجماعة فمسكوه . وإذا بعبدٍ أسود في يده خنجر مسلول ، وهو يقول : اين الغزال ؟ فتقدّم ليأخذه قهراً . فقال الشيخ أحمد لبعض جماعته : اضربه على يده التي بها السكّين . فضربه ، فوقعت السكّين من يده . ويبستْ يدُه حتى مايستطيع تحريكها . فبكى وذهب الى قريته وأتى بأهلها . وكان سيّده شيخ القرية المذكورة . فطلبوا من حضرة الشيخ أن يرضى عن العبد . فقال : في الذكر . فطبخوا الغزال وأكلوا منه . وقام الذكر فدخل العبدُ الحلقة . ولما حمي الذكر كبَسَ الشيخُ يد العبد فرجعتْ الى ما كانت عليه . ووقع كبقية الفقراء . وصار من أصحابهم . فاعلم ذلك .

ثم جلس بعده على سجّادته أخوه الشيخ سعد الدين الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) « « المحدية »

٩

شيخ الإسلام مفتي الأنام أحمد بن يونس العيثاوي [1]

هو [2] الشيخُ الذي ظهر فقهُه كالشمس في رابعة النهار ، وبهر صَلاحُه حتى علم به غالبُ أهل الأقطار . وهو مفتي دمشق وابنُ مفتيها ، وخطيبُها وابن خطيبها . ووالده الشيخ يونس العيثاوي ، وسنذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى .

ورد أبوه من قرية عيثا – وهي من قُرى بقاعِ العزيز – من نواحي دمشق الشام . ونشأ في بعض مدارسها ، ونشأ ولده صاحبُ الترجمة أحمد كاسمه ، مستقيماً كفهمه .

قرأ الفقه على والده ، وحاز به طارف المجْد كتالده . ثم قرأ أيضاً القرآءات وغيرهَا عَلى الشيخ أحمد الطيبي الكبير . ولازم درس الشيخ النور السنفي المصري بتقديم السين ، حتى اجازه بالفتوى . ولما قدمتُ مع أبي من زيارة بيت المقدس في سنة ثمانين وتسع مئة حضرتُ اليه طالباً قرآءة الفقه عليه . فقال لي : اقرأ « المنهاج » تقسيماً مع الإخوان ، وبذلك يحصُل المرام بالعجلة من غير توان .

فقلتُ له : سمعاً وطاعهْ ، لامخالفة لأمرك ولا إضاعهْ .

فشَرَعْنا في القرآءة على أربعة أقسام ، وكانت حصتي الربع الأخير

---

(١) انظر المحبي ، خلاصة الاثر ١ : ٣٧١

(٢) يوجد اختلاف كبير في نص هذه الترجمة هنا ونصّها في ب ، ه . اثبتنا نص ه ، ب في ذيل هذه الترجمة ، للموازنة بينها .

من « منهاج النووي » الإمام . فأتممناه في مدّةٍ قصيرة ، وحصلنا بقرآءته فوائد كثيرة . وكانت القراءةُ بالمدرسةِ الظاهريّة[١] ، المشروطة للشافعية . وكان صاحبُنا (١١ آ) البدر بن الموصليّ يحضر الدرس ، وله قسمٌ خاص ، بل هو من أكبر القراء الخواص ، لأنه ابن أخت الشيخ أحمد المذكور . وسيأتي ذكره بلطف الملك الغفور . وهو اليوم في هذا التاريخ — وهو سنة تسع عشرة بعد الألف — مفتي دمشق على مذهب الإمام محمد ابن إدريس ، وواعظُها وصاحبُ نصيحتها بالتحقيق من غير تلبيس . وقد أجازني بالفتوى من سنة ألف من الهجرة . ولن أنسى لطفه في ذلك ولا جبره . فإنّه خاطبني بذلك غير طالب ، وعدّ ذلك في اهتمامه به من أعظم المطالب . وصدرت منه لي لطيفةٌ ، وذلك أنه اطّلع على أني طالبٌ للإحصان ، فقال لي : عندي حَصَانِ . وهي أختُ أمّ أولادي ، وهما بنتا الشيخ محمود الصناديقي . فإن رمتَ أن تكونَ عديلي ، كما انكَ خليلي ، فاعزم على ذلك ، واجزم بما هنالك . فأجبتُه على سؤاله ، وتقرّبتُ الى كماله . وعقد نكاحي على أخت زوجته ، وكان ذلك من فضله وفي بيته . وبنيتُ بها في سنة اثنتين وتسعين وتسع مئة ، وجعل لي عرساً عظيما ، وكان بي في الكلفة رحيما . لايكلفني سوى الطاقة ، ولا يجعلُ في مطلوبٍ صَعْبَ عليّ عاقة ، بل كان يزن من كيسه مُظهراً البشاشة لا التعبيسة . وكان العرسُ في بيته القديم في حكر كمال الدين[٢] . ثم سكنتُ في بيت أهلي بمحلة النحّاسين[٣] . وحصل بقربه البركة ، في السكون والحركة . وكان قد ضعف واعتلّ ، وطالت ملازمته للفراش حتى ملّ . فأعدْنا عِيادته ،

---

(١) انظر النعيمي ، ١ : ٣٤٨

(٢) لم أهتد الى معرفة مكان هذا الحكر اليوم .

(٣) كانت محلّة النحاسين مكان زقاق النقيب شمال المدرسة المقدّمية الجوّانية بالعمارة . انظر معجم الاماكن الطبوغرافية .

وطلبنا من الله سلامته . فلمّا ظهرت عليه امارات الشفا ، حمدنا الله الذي أعطاه الصحة وشفى . وأرسلتُ إليه هذين البيتين وهما :

شهابَ المعالي وبدرَ[1] الهدى ومَنْ منه كلُّ الورى يستفيدْ
نذرتُ الصيامَ ليَوْمِ الشفا وكيف يصومُ الفتى يومَ عيدْ

وقد قرأ عليه كثيرٌ من الفقهاء واستفادوا منه ، بل كلُّ مَنْ يطلب الفقه على مذهب الامام الشافعيّ رضي الله عنه فإنه يأخذ عنه .

أخذ عنه الشمسُ الميداني أحدُ مَنْ يُفتي الآن بدمشق على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وأخذ عنه أيضا صاحبُنا البدرُ الموصليّ ، وهو ابن اخته ، وهو الآن مدرس بالمدرسة الجوزية[2] .

وأخذ عنه أيضاً صاحبُنا الشمسُ الجوخي المدرّس بالمدرسة الغزالية[3] .

وأخذ عنه كاتب الحروف الفقير حسن البوريني المدرّس بالمدرسة الناصرية الجوّانيّة[4] .

وأخذ عنه بلديُّه الكمال العيثاوي الشافعيّ . وهو أيضا يتعرّض للفتوى على مذهب الشافعي .

وبالجملة فهو مفتي دمشق وواعظُها ، وبركتُها وإمامُها ، ومرجعُ أهلها في الأمور الدّينية . وإذا أجدب أهلُ دمشق فهو الذي يصلّي بهم صلاة الاستسقاء ، ويخطب (١١ ب) خطبة الاستسقاء . وهو اليوم قاطنٌ بالتربة

---

(١) م « وبٌ »
(٢) انظر النعيمي ، ٢ : ٢٩
(٣) انظر المصدر السابق ١ : ٤١٣
(٤) انظر المصدر السابق ١ : ٤٥٩

الأشرفية[١] . الملاصقة لجامع بني أميّة من الجهة الشمالية . جعل الله في عمره البركة ، وأعطاه التوفيق في السكون والحركة ، إنه سبحانه سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات[٢] .

(١) انظر النعيمي ٢ : ٢٩١ .

(٢) وها هو ذا نصّ الترجمة كما ورد في هـ ، ب . انظر ماذكرناه في مقدمتنا عن الاختلاف بينها :

شيخ الاسلام احمد العيثاوي

هو أحمد بن الشيخ العلاّمة شيخ الإسلام يونس العيثاوي ، نسبة الى عيثا ، قرية من قرى البقاع العزيز من نواحي دمشق الشام . كان والده المذكور قدم من قريته المذكورة كما سيأتي تفصيل حاله إن شاء الله تعالى . وولد له أولادٌ منهم الشيخ أحمد المذكور . وهو حيّ إلى يوم تاريخه . فتفقّه على والده ، ولازم درسه كثيراً ، ثم قرأ في الفقه على شيخ الاسلام النور السنفي المصريّ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . ولازمه مدة طويلة حتى برع في الفقه ، وأجازه بالفتوى . وقرأ على شيخ الاسلام الشهاب الطيبي الكبير المتقدّم ذكره . ودرّس بعدّة مدارس منها : العمرية بصالحية دمشق ، ومنهـا العزيزية بالقرب من الجامع الأموي ، ودرّس آخراً بالظاهرية الشافعية وبجامع بني أميّة .

وهو أحد الوعّاظ بدمشق بالجامع الأمويّ . ويغلب على وعظه تعليم الفروع الفقهية ، وتقرير الأحكام الضرورية .

اجتمعت به في سنة سبع وسبعين وتسع مئة . ولازمته في تقسيم المنهـاج في الظاهرية مع جماعة من الفضلاء وانتفعت بدرسه . وانتفع به خلق كثير ، سيأتي ذكرُ بعضهم إن شاء الله تعالى .

والغالب عليه السكون ومكارم الأخلاق والحلم والشفقة على الفقراء .

وله من نحو سنة أربع وثمانين وتسع مئة الى سنة تاريخه ، وهي سنة تسع بعد الألف ، يُفتي على مذهب الامام الشافعيّ . وفتواه مقبولة ، وإلى الآفاق منقولة ، وإلى الحكام محمولة .

وهو من محاسن العصر . وقُدّم مرة إلى خطبة الاستسقاء بدمشق في زمن الأمير حسن باشا ابن الوزير الأعظم محمد باشا . فخطبها في جامع المصلّى خارج دمشق . وحضره الأمير المذكور بثياب ليست مُكَلَّفَة . وحضره أهل دمشق . وخطب أيضاً -

- خطبة استسقاء في سنة ثمان بعد الألف في سطح المزّة ، وفي مسجد المصلى حصلت الإغاثة بعون الله تعالى .

وإليه مرجع الفتوى يومئذ بدمشق .

وقد عادلتُه في تزوّج أخت زوجته . والأختان بنتا الرجل الصالح الشيخ محمود ابن الشيخ أحمد الصناديقي رحمها الله تعالى . وكان ذلك بإشارته . وصدر العقدُ بمنزله المعمور بدمشق ، في محلّة حكر كمال الدين • وحصلت جمعية العرس بمنزله المذكور أيضاً ، وكان سعيه في ذلك مشكوراً . شكر الله سعيه في الدارين .

ومرض مرة مرضاً شديداً ، ورجف الناس به . واتفق أن الله شفاه وعافاه ، فكتبتُ إليه مهنئاً شعراً :

شهـــاب المعالي وربّ الهـــدى	ومَنْ منه كل الورى يستفيد
نذرت الصيـــام ليوم الشفا	وكيف يصوم الفتى يوم عيد

وهو اليوم مفتي دمشق وامامها وواعظها وناصحها ومعتقدها .

١٠

شيخ[١] الاسلام الشيخ أحمد
ابن أبي الوفا ابن مفلح الحنبلي الدمشقي

هو الشيخُ الفاضل ، والعالمُ الكامل ، بركةُ الأنام ، ومُقتَدى[٢] أهل الشام . له السكونُ والحلم ، والعبادةُ والعلم . وله الآثارُ الحِسَان ، وتلاوةُ القرآن .

اشتغل على عدة مشايخ بدمشق منهم شيخُنا شيخُ الاسلام الشيخُ أبو الفداء اسماعيل النابلسي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى | وقرأ في الفقه على شيخ الاسلام الشيخ موسى الحجازي صاحب « الاقناع » ، وعلى بقيّة تلك الطبقة من ذوي الانتفاع |[٣] . وبرع في أنواع العلوم ، وأحاط بفنون المنطوق والمفهوم ، مع السيرة التي تُذكّر[٤] الحسَنَ البصريَّ وأمثاله ، وتُحسّن من كل موفّقٍ أحواله . متقلّلٌ من اللباس ، متجنّبٌ غالب الناس . لم يمل إلاّ الى عبادة ، ولا تراه إلاّ في محرابٍ أو على سجّادة .

وهو من بيت مفلح البيت الشهير بالعلم الكثير ، المعروف بالتصنيف والتأليف بين الكبير والصغير . من أجداده شيخ الاسلام البرهان بن مُفلح صاحب « الفروع » وغيره من بني مفلح المفلحين ، والعلماء العاملين ، والقضاة

---

(١) في ب « مولانا وسيدنا شيخ الاسلام ... »

(٢) ب « معتقد »

(٣) مابين الخطّين القائمين ساقط من ه ، ب .

(٤) ه ، ب « تذكر الانسان بالحسن »

العادلين . لم تُعرف له صبوةٌ ، ولا نُقِلَتْ عنه كبوة . ملازمٌ على تعليم العلوم بأنواعِها ، وتفهيم الفنون بأوضاعها . له المتانةُ الجيّدة في علمي الفرائض والحسَاب ، والإحاطةُ الشاملةُ في الفقه بلا ارتياب . مع المهارة في علم العربيّة ، وحفظ التواريخ النقلية ، وغير ذلك من بقية العلوم .

وبالجملة فهو مفتي الحنابلة في هذا الزّمان ، واليه مرجع المشكلات في مذهب الامام أحمد عليه الرضوان .

درّس بعدّة مدارس بالشام . وهو الآن مدرّس بدار الحديث [١] بصالحية دمشق بالقرب من المدرسة الأتابكية [٢] . وله بقعة تدريس بجامع بني أمية . وله مصاهرةٌ مع الشهاب العيثاوي المذكور قبله . وما تأهل من نسله إلا لكونه أهله . وبالجملة فهما الأحمدان المحمودان . لهما الدين الكاملُ ، والعلمُ الشامل ، والفلاحُ الشهير ، والعلم الغزير .

ولقد شهدتُ له مجلساً يفتخر به زمانه ، ويبتهج به أقرانُه ، وذلك أنه لما انتقل بالوفاة القاضي محمد سبْط الرُجَيْحي الحنبلي ، وكان أكبر قضاة الحنابلة بدمشق ، انحلّ مكانه وبقي زماناً بغير قاض . وكان قاضي القضاة بدمشق مولانا مصْطفى افندي ابن مولانا حُسَيْن افندي [ابن مولانا سنان افندي] [٣] صاحب « حاشية التفسير » . فاستدعى الشيخ احمد صاحب الترجمة ليجعله قاضيـاً في منزلة سبط الرُجَيْحي المذكور . (١٢ آ) وكنتُ أحد الحاضرين بالمجلس . فبالغ في ملاطفته ليقبلَ منصب القضاءِ فامتنع ، وألحّ عليه القاضي فتبرّم وما انخدع . وبالغ الحاضرون في الطلب ، وبالغ هو في الهرب ، حتى إنه قال آخراً :

---

(١) هي دار الحديث الأشرفية البرّانية ، انظر النعيمي ، تنبيه ١ : ١٢٩

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ١٢٩

(٣) الزيادة من هـ ، ب

يامولانا ! أنا رجل ثقيل السمع لا أسمع ما يقول المتداعيان بسهولة وذلك يقتضي صعوبة فصل الأحكام ، بين الأخصام . ولم يزل يتلطّف بالقاضي حتى عفا عنْ ذلك الطلب ، وقضى من امتناعه العجب . وخرج من عنده خائفاً من تكرار طلب القضاء . فأيّد الله عليه الرضاء وأحياه وحيّاه ، وأعطاه وإيانا في الجنة مناه .

|⁽¹⁾ ولعمري إنّه شيخُ المذهب والمتحلّي من التقوى والعبادة بالطراز المذهّب ، السالكُ من طريق الصّلاح في أقوم مَذهب ، الذي عطر الكون نسيم لطفه مُذْ هَبّ . قد علا قدره ، وسما فخره ، ومع ذلك يتواضع للكبير والصغير ، ولا يقيم في الغالب إلاّ بأمور الآخرة . وهو مع ذلك واسعُ الانفاق ، موصوفٌ بالإرفاق ، من أوقافٍ نالها ، وأدرك منالها . وذلك لامرأةٍ تزوجها من بنات ذوي الأوقاف ، واستولدَها فأدركته بذلك الألطاف . وصار يقسم غلتّها ، وبسدّ من نفسه خلتّها ، لطفاً من الله بعباده الصّالحين ، وإحسانا منه لحزبه المفلحين .

وهو الآن مفتي المذهب الأحمديّ ، والقائمُ بفروض البيت المفلحي .

وله شعرٌ قليلٌ أنشدني ولده سيدي عبد اللطيف منه هذه الأبيات :

شبيهةَ بدرِ التمِّ بالله انجِزي ... وفاءٌ لمشتاقٍ به الضّنكُ والبَلْوى

لقد ضاق ذَرْعاً بالعباد ومَنْ يكن ... مُحباً لليلَى لا تليقُ به الشكوى

رَعَى اللهُ أيامَ الوصالِ وعَطفَها ... عليّ فما أحْلَى سناهَا ومَا أشْهى

أخبرني الشيخ أحمد المذكور من لفظه أنه ولد في سنة خمسين تقريباً . كذا أخبرني بذلك في غرّة سنة اثنتين وعشرين وألف في منزلي بمحلّة النحّاسين | .

---

(١) كل ماسيأتي ساقط من ه ، ب . يبدو أن هذه الزيادة أضيفت بعد سنة ١٠٢٢ﻫ كما سترى .

١١

الشيخ أحمد الشويكي

هو الشيخ الفاضل ، العالم الكامل ، القاضي شهاب الدين أحمد الشويكي الحنبليّ . وهو من بيت نجابَة ، وفتوى وخطابة .

وُلد بصالحيّة دمشق الشام وكان يحفظ القرآن العظيم ، وحفظ « المقنع » أيضاً على مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه ، واستمر نحو ستين سنة يُفتي على مذهب الإمام المذكور فما عُرفتْ له زَلّةٌ ، ولا أبطل أحدٌ نقله . وتولّى القضاء نيابة بدمشق مدّةً مديدة ، وأعواماً عديدة . وترك الصالحية في أواخر عمره (١٢ ب) وقطن بدمشق قريباً من الجامع الأموي ، وخطب مدة طويلة بجامع منجك[١] بمحلة ميدان الحصا . وكان صوتُه حسناً وتلاوته حسنةً . وامتُحن في عمره مرّات . وسافر إلى قسطنطينيّة في بعضها ، وسُرقت ثيابُه وما كان يملك غالباً في منزله بدمشق ، ويُقال إنّ ذلك بسعاية صبيٍ روميّ يُقال له أحمد العقّاد . كان الشيخ المذكور مال اليه ثم تركه . وكان رحمَه الله تعالى يُنسب إلى نوعِ مساهلةٍ في الدين ، والى قلّةِ عفّةٍ في الفتوى والقضاء . فذاق بذلك ماضاق به صدره ، ونقص بين الناس قدره . ولقد صار مَثَلاً مشهوراً بتجويز بقاء التزويج بعد الطلاق الثلاث . وقرّر بعد ذلك لأزواجهنّ كثيراً من الاناث . وكان يحكم ببيع الأوقاف ، ويرتكب في ذلك طريق

(١) هو في الميدان الفوقاني . انظر النعيمي ٢ : ٤٤٤ وذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٥ .

الاعتساف . فصار آخر عمره مذموماً ، متروكاً مصروما . ولقد كان العوام يضربون المثل بردّه الطلاق البائن ، ويعدّون له ذلك من جملة المحاسن . غير أنّه كان غزير العلم ، سريع الفهم ، فصيح العبارة ، جميل الشّارة[١] . يتوقدُ ذكاؤه ، وينفجّر سخاؤه . سلّم له فقهاءُ مذهب أحمد ، ورأوا الانقياد لما يقوله فيه أولى وأحمد . رحل[٢] الى مصر فاستفاد بها ماأراد . ورجع منها فايزاً من العلوم بالمراد .

كان ابتداءُ اجتماعي به في المدرسة الحاجبيّة[٣] بالصالحية المحميّة . وهو إمامُها في سنة خمس وسبعين وتسع مئة . ورأيتُه يُقرِيء بعضَ الحنابلة متن « المقنع » إقراءً حسناً . وأظهر للحاضرين فصاحةً ولَسَنا . وتقلّبتْ به الأحوالُ وأحاطت به الأهوال ، حتى فارق وطنه بالصالحيّة ، وقطن بدمشق طالباً أن يسْلم من البريّة .

ولقد اجتمعتُ به على إثر محنةٍ صدرت له من بعض الأعداء فشكا ، وحكى وبكى . وأنشدني لأبي تمام معدّ أخي[٤] الملك العزيز (كذا) العلويّ الفاطميّ قوله :

أما والذي لايعلمُ الأمرَ غيرُه ... ومَنْ هو بالسر المكتّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ السرائرِ مؤلماً ... لَإِعلانُها عِندي أشدُّ وآلمُ
وبي كلُّ مايُصبي الحليمَ أقلّه ... وإن كنتُ منه دائماً أتكتّمُ

وتوفي في ستة بعد الألف في يوم عرفة من السنة المذكورة عن نحو سبعين سنة ، ودُفن بصالحيّة الشام رحمه الله تعالى .

---

(١) ب ، ه « الاشارة »
(٢) ه « دخل »
(٣) انظر النعيمي ١ : ٥٠١
(٣) ه ، م « اخو »

١٢
الشيخ أحمد ابن الأكرم

هو مولانا وسيدنا العريقُ الاصيلُ، صاحبُ المجد الأثيل، والمكارم العميمة، والألطاف الغزيرة الجسيمة، الذي كان له من شهرته بالأكرمية أوفى نصيب . ومن السماء كما قيل تنزلُ التسميةُ والتلقيب، (١٣ آ) فهو الكريمُ ابنُ الأكارم، والعظيم ابن الأعاظم .

كان والده الشيخ محمد بن كريم[١] الدين بن الأكرم، في أواخر دولة الجراكسة أميراً من أمرائهم، وكبيراً من كبرائهم، فلما ذهبتْ دولةُ الجراكسة وجاءت دولة الأروام أعطاه السلطان سليم الفاتح لبلاد العرب زعامةً بأربعين ألف عثماني فاستمر مباشراً لزعامته، ومؤدّياً لما يلزم من خدمته . الى أن عيّنوه خادماً للسلطنة في جميع أموال العرب فكتب مكتوباً الى حضرة الشيخ العارف الشيخ علوان الحموي قدس الله سره العزيز يذكر فيه اشتياقه اليه بعبارات حسنة، وإشارات مستحسنة . ولوّح في المكتوب المذكور الى ماهو مبتلىً به من خدمة السلطنة، وأشار الى استفهامه عن هذه الأحوال هل يخلص صاحبها عند الله تعالى . فكتب اليه الشيخ علوان الحموي روّح الله روحه مكتوباً يقول فيه : ولا بأس بخدمة السلطان إذا كانتْ على طريق الاستقامة وأيضاً فإن الرأيَ أن تكونَ حيث أنزلك . حتى يكون الله عنه نقلك . [وايضاً فإن الله

(١) « د بن القاضي كريم ... »

لو لم يُرد لك هذا الأمر الذي أنت فيه ماسهّله لك . وساق من ذلك فصلاً . وكتب بعده في حاشية المكتوب][1]

ومع ذلك فإني أقول :

سُجِنُوا لطيبِ لُغاتهم ياليتهم كانوا صموتْ

موتُ النفوس حياتُها من رام أن يحيى يموتْ

فلما وقف على هذين البيتين علم الإشارة ، فنزع ثيابه كلّها وعتق مماليكه . ودخل في عدلٍ ثخين لبسه ، وجلس في محلّة العنّابة[2] في مسجد العين[3] ثلاثة أيام لايكلم أحداً ، ولا يأكل ولا يشرب ، وترك الزعامة والدولة .

واستمر في بيته بمحلة العنابة جالساً منفرداً عن الناس لابساً ثيابَ الصوفية ، الى أن توفّاه الله سعيداً ، ولكنه قصد السلطان سليمان ، عليه الرحمة والرضوان ، لما قدم الى مدينة حلب . فأعطاه في جوالي دمشق أربعين عثمانياً . واستمر يتناولها الى أن مات .

وكانت طريقتُه في التصوّف علوانيةً بشكوى الخواطر[4] من المريد والجواب عنها من الشيخ .

أخبرني صاحب الترجمـــة الشيخ أحمد أنّ والده اجتمع بالشيخ عمر العُقَيبي عند الشيخ علوان ، وكان الشيخ عمر خليفةً للشيخ علوان . فقدّم الشيخ علوان ابن الاكرم على الشيخ عمر وقال له : ياولدي ياعمر ! لايكن عندك في القلب شيء من تقديم ابن الأكرم فإنّه خرج عن أربعين مملوكاً

---

(١) الزيادة من ه ، ب

(٢) تقع هذه المحلّة خارج باب السلامة ، ويوصف هواؤها بالجودة .

(٣) لعل هذا المسجد هو المسمى بمسجد العنابة الذي ذكره ثمار المقاصد ص ١٤١ .

(٤) ه « بشكو الخاطر » ، ب « بشكوى الخاطر »

بجوائص الفضّة . وأما أنت فإنكَ خرجتَ عن قطعةِ خشبٍ ، وهي التي كنت تقطع عليها المداسات . فهمّتُه أعلى من همّتك .

ونشأ ولده هذا أحمد شهاب الدين سالكاً في طريق أرباب العلوم ، باحثاً عما يبحثون عنه من منطوقٍ ومفهوم ، فدرّس بالمدرسة الجقمقيّة [١] بدمشق المحمية ، شمالي جامع بني أمية . ودرّس آخراً بالمدرسة المقدّمية الجوّانية [٢] ، المنسوبة الى مَنْ هو منتسبٌ اليه . وهو أمير الأمراء شمس الدولة بن المقدّم ، الذي كان من كبراء أمراء الملك العادل نور الدين الشهيد [ثم صار من كبار الأمراء الصلاحية . وحجّ فوقع بينه وبين أمير الحجّ العراقي طاشْتِكين . فضرب ابنَ المقدم بسهم وقع في عينه فمات من غده .] [٣]

وكان الشهاب هذا ساكناً بمحلّة القيمرية ، في بيوت ابن الحارة . ثم عَنّ له آخراً أن يسكن بالمدرسة المقدمية المذكورة [لأنه كان يُدعى الشهاب الأكرمي ، هذا لأن تدريسه بالمقدمية كان عن وراثة وشرط واقف ، وأنه من الذريّة . وأظهر على ما ادّعاه عدّة تمسّكات . وولده الشيخ محمد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الميم مدرّس بها اليوم بالمشروطية أيضاً . فلما ثبت تدريس المقدّمية بيد الشهاب المذكور ، شرع يعمّر لنفسه وأولاده بها مساكن ، لأنه لم يكن مالكاً في دمشق بيتاً ، لكون بيوتهم كانت بمحلة العنابة كما سبق ذكره] [٤] فغير صيغتها [٥] في الجملة لما في كتاب الوقف الذي بيده ، أنّ المتوليّ على الوقف من

(١) انظر النعيمي ١ : ٤٨٩ .
(٢) انظر المصدر السابق ١ : ٥٩٤
(٣) الزيادة من ه ، ب
(٤) الزيادة من ه ، ب
(٥) ه « صفتها »

الدريّة يتصرّف في ذات المدرسة وفي أوقافها وجهاتها كما يريد . وكان تغيير الصيغة المذكورة في زمان قضاء مولانا أحمد افندي الأنصاري . فسمع بتغييرها فأرسل نائبه مصطفى أفندي ، وهدم منها ماثبت أنه تغيّر عن الترتيب السابق . وقد حضرتُ الكشف على البناء المذكور ، ورأيتُ صُنّاع البناء وهم يهدمون بعض جدرانها . والشيخ أحمد المذكور يلومه في ذلك ويقول له : اصبر . تَأَنَّ يا مصطفى افندي !. وهو لا يُبالي بذلك .

ثم دخل الناسُ بينه وبين القاضي المذكور فرضي أن تكون العمارة المذكورة وقفاً على المقدمية أيضاً ، يتصرّف فيهـــا مَنْ يأتي بعده من المدرّسين والمتولّين كما يتصرّفون في بقية أوقافها . وكُتب بذلك تمسّك شرعي . وشُرع في البناء كما أراد ثانياً . [فعمر بها قاعة داخلة وقصراً منيفاً على دهليز المدرسة . وفعل مافعل . وسكن بها مدة دون السنة .

[وكان في نفس الأمر من عجائب الدنيا ، لانه كان مع هذه الصفة التي وصفناه بها من العلم يتزيّا بزيّ أكابر العلماء الرؤساء . وكانت له همة | عالية |[1] .

[ومن لطائفه أنّه كان حاضراً مرّة في جمعية عرس . وكان حافلاً جامعاً للعلماء وغيرهم . فقرأ الشيخ بعث الله الأعمى المصريّ ، قارىء الموالد بدمشق ، قوله : فظهرتْ أنوار سيدَ المرسلين ، بنصب سيد المضاف اليه ، مع وجوب خفضه . فقال الشيخ يوسف العلوي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى : انوار سيدِ المرسلين ، بجر سيّد ، لكونه مضافاً اليه ، والنصبُ لحنٌ من القارىء . فقال له الشيخ أحمد صاحب الترجمـــة : اسكت ! لفظ سيّد هنا منصوب على العظمة . وسمع ذلك غالب الحاضرين من العلماء .

(١) ساقط من ب

وكان ذلك سبباً لانبساط نفوسهم وذهاب كدرهم وبؤسهم فسمّاه علماء عصره بعد ذلك : المنصوب على العظمة .

[وله لطائف من هذا النوع كثيرة .

[وكان مع ذلك من أكرم الناس نفساً ، له مكارم أخلاق وافرة ، وتجملات فائضة متكاثرة ، مع الحشمة الزائدة والأنفة المتزايدة .

[وكان قد تولّى الخطابة بجامع السلطان سليم بصالحية دمشق فلما وضع رجله اليمنى على الدرجة الأولى سقطت وساخت تحت رجله وسُمع لها صوتٌ عالٍ سمعه كلّ من بالمكان . وتحدّث الناس بذلك ، واشتهر وانتشر ، حتى كان سبباً لانفصاله عن منصب الخطابة . فنظم كلّ واحد من فضلاء دمشق في ذلك ابياتاً يخبرون فيها بالواقعة ، فمنهم الشيخ شمس الدين ابن المنقـــار الآتي ذكره ، إن شاء الله تعالى ، فإنه قال في ذلك شعراً :

خُسِفَ الجامعُ السليمِيُّ لمّا حلّ فيه الخطيبُ جهلاً بِشاشه

وغدا قائلاً وينشد جبراً هدّني جهلهُ وجرُّ قماشه

والأولى السكوت عن بقية ما كُتب في هذه القصه من واقعة الحال وحال الواقعة ، لأنّ بعض أبياتها يوحش لفحشه سامعه ، ويقتضي أنه يسدّ مسامعه . ومثلُ ذلك لايُنقص مقداره ، ولا يطفىء انواره ، فمازالت الأشراف تُهجى وتمدح .] (١)

ولقد رأيتُ عجيبة (٢) من الشهاب أحمد المذكور . وذلك أنّ قاضي القضاة أحمد افندي الأنصاري المذكور طلب منه أصلَ كتابِ الوقف

---

(١) الزيادات من ه ، ب

(٢) ه « عجباً »

الذي يتعلّق بالمدرسة المقدّميّة . فقال له : سأحضرُه . ثم حضر اليه بعد أيّام .

فقال له : اين كتاب الوقف ؟

فقال له : يامولانا : لنا قريب يُقال له الشيخ أبو البقـاء ، وهو مجذوب في الجملة ، وكان كتابُ الوقف عنده فوضعه في إناءٍ به قَطْرُ نبات . فلم يزل في الإناء حتى امتزج بالقطر وصار بمنزلة التُفّاح الذي يتربّى في القطر فكان يأكلُ منه كلّ يوم حصة حتى أتى على آخره أكلاً . فهو في باطن الرجل المجذوب . وما عنده إلاّ نسخٌ منقولة من أصل كتاب الوقف المذكور الذي صار ممتزجاً بالقطر .

فضحك القاضي من هذه القصّة .

وكان رحمه الله تعالى كريم الاخلاق جداً ، كنت جالساً عنـده في الحجرة الحلبيّة التي كانت سكن الشيخ بدر الدين الغزّي ، في الجانب الشرقي من جامع بني أميّة . وأُذّن لصلاة العصر وأُقيمت الصلاة .

فقلت له : يامولانا قـد أُقيمت الصلاة ، أفلا نطلع الى الصلاة مع الجماعة ؟

فقال لي : اسمعْ ، الشيخ ابراهيم فقة المؤذّن يشتمني ويدعو عليّ ، وهو يظن أني لستُ بالحجرة . (١٤ آ) فإن طلعنا في هذا الوقت رآنا فيحصل عنده حجاب ، فالأولى أنْ نصبر الى أن يذهب ونصلّي بعد ذلك مع الجماعة الثانية .

فقلت له : يامولانا هذا غاية مكارم الاخلاق .

فقال لي : هو رجلٌ كبير والأولى الإعراض عن مايصدرُ منه مطلقاً .

واتفقتْ لي معه في ذلك المجلس لطيفةٌ . وهي أنّ الشيخ ابراهيم ابن شيخ الاسلام البدر الغزّي حضر عنده في الحجرة المذكورة فجاء يجلس

من تحتي فجذبتُه من كمّه وأجلسته فوقي . فنظر إليّ الشيخ الشهابي المذكور وتبسّم ، وأنشده [١] :

وأُكرِمُ أحداقَ الحدائقِ منشداً لعينٍ تُجازى ألفُ عينٍ وتُكْرَمُ

كأنّه يُشيرُ بذلك إلى أنّ إكرامَ الشيخ ابراهيم المذكور لأجل والده شيخ الاسلام البدر الغزي .

| ولما هدم القاضي أحمد الأنصاري البناء الذي أحدثه في المدرسة المقدّمية الجوّانية غيّر عمامته البيضاء الحسنة بعمامة من الصُّوفِ المسمى بالمئزر ، وتركَ شعر رأسه ، وربّى له ذوائب من الشعر الأبيض ، وكانت بارزة من جانبي رأسه . وكلُّ ذلك كان من صلاحه وعدم تقيّده باصطلاح الناس . فرحمه الله رحمةً واسعة [٢] |

وتوفي رحمه الله تعالى في سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة ، ودُفن عند تربة أبيه بمرج الدَّحداح في الجانب الغربي من قبر أبي شامة . رحمه الله تعالى وأعطاه في الدنيا [٣] الكرامة . آمين .

---

(١) هـ « وأنشد »

(٢) من قوله : ولما هدم الى هنا يختلف عما ورد في هـ . وهذا نصّ هـ : « وكان قبل هدم المدرسة كما سبق ذكره يلبس العمامة البيضاء الحسنة . فلما هدمت المدرسة عدل عن لبس العمامة البيضاء الى لبس المئزر الصوف الذي يلبسه صوفية زماننا وترك له ذوائب شعر من جانبي رأسه . فبقي من أعاجيب المخلوقات . رحمه الله تعالى رحمة واسعة » اهـ

(٣) هـ « الدارين »

١٣

الشيخ[1] أحمد بن عبد القادر بن المعمار الدمشقي الشاغوري العوفي -نسبة إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه ـ الشافعي

هو الشيخُ الصالحُ ، الكاملُ الفالح . العالم الفاضل ، الفقيه النبيه . كان والده الخواجا عبد القادر من أغنياء دمشق ومن ذوي الثروة . ونشأ الشيخُ أحمد هذا طالب علمٍ . قرأ في الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه على الشيخ تقيّ الدين القاري الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . وحصّل فيه طرفاً صالحا ، لكن توفي والدُه وسنّه سبع عشرة سنة . وهو في قلب الاشتغال بالعلم . فاشتغل بعائلتهم ، وكانت كثيرة . فلزم أن خفّ اشتغاله ففاته ما كان يرجوه من الارتقاء الى الدرجة العالية من العلم .

أخبرني ولدُه المرحوم الخواجا محمد بن المعمار أنّه كان يقوم غالب الليل في العبادة ، وأنه عاشره مايزيد على خمسين سنة فما علم له كبيرة ولا صغيرة .

ومن فضائله أنّ قاضي القضاة محمد بن شيخ الاسلام المفتي أبي السعود رضي الله عنه الآتي ذكره إن شاء الله تعالى لمّا كان قاضياً بدمشق دعا الشيخ أحمد المذكور والتمس منه أن يكونَ نائباً[2] في القضاء على مذهبه . فامتنع ، (١٤ ب) وألحّ عليه فما انغرّ بالدنيا ولا انخدع .

(١) ﻫ ، ب « مولانا الشيخ ... »
(٢) ﻫ « قاضياً »

وأخبرني سبط الوَجَيْحِي القاضي محمد الحنبلي أنه ذهب الى بيت الشيخ أحمد المذكور مع القاضي كمال الدين الحمزاوي وجماعة من أعيان دمشق وألحّوا عليه في قبول القضاء من قاضي القضاة المذكور ، فاعتذر اليهم وصمّم على الامتناع رحمه الله تعالى .

توفي في شهر رمضان سنة أربعٍ وثمانين وتسع مئة . وأولادُ أولادِه ونسله الى الآن بمحلّة الشاغور [1] بدمشق وهم من أعيانها كثّر الله منهم ومن المسلمين أجمعين آمين .

(١) محلّة بالباب الصغير بدمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة (معجم البلدان)

١٤

الشيخ أحمد بن قاسم المصري

شيخُ الاسلام على الاطلاق ، وعالم العصر بالاتفاق ، الجامعُ بين العلم والدين ، المعدودُ من أهل الوصول بيقين . الأسعد الأمجد ، مولانا الشيخ أحمَد بن قاسم المصري .

المحقّق المدقق المقرّر المحرّر ، مَنْ قاسه أهلُ زمانه بالسعد[(١)] والشريف . وكان زمانه بسعد شرفه متّصِفا بغاية التشريف .

رجلٌ كان غالبُ أوقاته مصروفة في تحصيل الثواب ، إما بالبحث عن العلم أو بطلب الرضوان من الملك الوهاب .

نشأ بمصر وبهَا ُولد وطلب العلم بها وتصدّر للإقراءِ والتأليف ، والتحرير والتصنيف ، وعمّر |عُمراً |[(٢)] طويلاً . نال بـه خيراً جزيلاً . كيف لا وهو لا يصرفه إلاّ في مدارَسةٍ أو مؤانسة ، أو إفادة أصلٍ أو مقايَسة . كان غايةً في العلم والعمل . ونهايةً في أوصافٍ تبتهج بها الدول . ما قدم أحد من مصر إلى الشام إلاّ وصفه بأنّه مفردُ الأنام ، وابتهاج الأيّام ،وعلم العلماء الأعلام . كان — مع أنّه كان في المكان الأعلى من التحقيق ، وفي المحلّ الأسنى من مراتبِ التدقيق — يحضر إلى مجلس الاستاذ البكريّ في التصوّف ، من غير تجنّبٍ ولا توقّف ، ويرى فوت ذلك سبباً للتأسّف ، وداعياً إلى عظيم التلهّف . وكان أيضاً يحضر في

(١) يعني السعد التفتازاني والشريف الجرجاني . وفي ب « السعد الشريف »
(٢) ساقطة من ه

حلقة الشمس الرملي" فقيه الزمان ، وشافعي" الدوران . وكان جلوسه خلفه للتعظيم ، ويلتفت إليه عند الخطاب والتكليم ، ولقد صنّف « حاشية" على شرح جمع الجوامع في الأصول » . جمع فيها بين تحقيق المعقول وتحرير المنقول . سمّاها « الآيات البيّنات » . يجمع فيها بين الحاشيتين للكمال ابن أبي شريف وللقاضي زكريا . وله بينها المحاكمـات العادلـة ، والإفادات الشاملة .

واجتمعتُ بالمولى الفاضل ، العالم الكامل ، مولانا توفيق أفندي ، العالم الربّاني المنسوب إلى بلدة سيدي عبد القادر الكيلاني . وكان اجتماعي به بدمشق في منزل المولى محمّد أمين أفندي الدفتري بدمشق ، فتذاكرنا تعريف المسألة وطال الكلام في أنّها هل يجب أن تكون أمراً (١٥ آ) كليّاً أم يجوز أن تكون أمراً جزئياً ، وكنتُ ذاهباً إلى الثاني ، وكان المولى المذكور ذاهباً إلى الأوّل . وقال : المسئلة مما يجب أن يبرهن عنه في العلم . وقد شرطوا في البرهان إيجاب الصّغرى وكليّة الكبرى فلم نجد نقل المسئلة في كتاب من الكتب المشهورة ، إلاّ في الحاشية المذكورة المسماة بالآيات البيّنات . وحاصل ماذكره فيها أنّ اصطلاح أرباب المعقول يقتضي وجوب كونها كليّةً كما ذهبَ إليه المولى المذكور . وأما اصطلاحُ أهلِ العربيّة ، والأصُوليّين وما شابههم فيجوّز أن تكون جزئيّة ، كما ذهبنا إليه . والمقامُ يحتاج الى زيادة تفصيل في الكلام . والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال .

ولصاحب الترجمة أيضاً حاشيةٌ عظيمةُ المنافع ، تسرّ النواظر وتطرب المسامع ، على شرح « المنهج » للعلامة شيخ الاسلام قاضي القضاة زين الدين زكرّيا [1] . جمع فيها كل فائدة ، وحشد اليها كل عائدة . وله غير ذلك مما أفاد فيه وأجاد ، واستحسنه الفكر واستجاد .

---

(١) في « د » زكريا الانصاري »

وأظنُّ أنه قرأ صغيراً على شيخ الاسلام القاضي زكريّا ، لكن لستُ على يقين من ذلك .

وكان يحجّ كثيراً : حجّ في سنةٍ من السنين وهي سنة اثنتين وتسعين وتسع مئة ، وجاور تلك السنة بمكة ، فمات بها في السنة المذكورة رحمه الله تعالى وعطّر مثواه ، ونوّر مرقده ومأواه .

وبالجملة فلقد كان بهاءَ زمانه ، ووحيد أمثاله وأقرانه . لم يخلّف له مثيلاً ، ولم يترك له عديلاً . وتأسّف عليه المصريّون أسفاً كبيراً ، ورأوا لموته حزناً كثيراً والحمد لله وحده .

١٥

أحمد [١] بن عبد القادر الشهير بابن التينة المؤدب

كان يؤدّب الأطفال بمسجد المجاهدين [٢] عند باب الفراديس . اشتغل وتفقه على التقي القاري . وقرأ التجويد والقراءات على الشيخ عليّ القيمري . وكان فاضلاً صالحاً ورعاً زاهداً .

وكان نَفَسُه مباركاً على من يقرأ عليه .

وكانت فراسته في الأولاد عجيبة . وكان يقول : هذا يصير شيخ الإسلام ، وهذا صاحب حرفة ، وهذا لاينتفع بشيء . فكان الأمر يصير كما يقول .

وكان الولدُ يخرجُ من عنده حافظاً للشاطبية ، والأجرومية ، والجزرية .

وكان كثير التلاوة والتهجّد . وكان من أولاد العلماء وبيتُهم بيت وعظ وقرآن . وتوفي سنة تسع وسبعين وتسعمائة ودفن بمقبرة الشيخ أرسلان قدس الله سرّه العزيز .

---

(١) ﻫ ، ب ، « الشيخ شهاب الدين أحمد »

(٢) هو في المدرسة المجاهدية البرّانية (النعيمي ١ : ٥٥٤) ومسجد المجاهدية حرف فجعل مسجد المجاهدين . وباب الفراديس هو باب العمارة ، من شمال المدينة (انظر كتابنا : دمشق ، أسوارها ، أبوابها ، أبراجها)

١٦

أحمد أفندي الشهير بابن حسن بك قاضي دمشق

هو الفاضل الأديب ، الحافظ اللبيب . وَرَدَ دمشق قاضيا بها في سنة أربع وتسعين وتسع مئه ، بعد أن (١٥ب) تولّى القضاءَ بمدينة حلب . وكان محمودَ السيرة في المدينتَيْن . حلف لي يميناً مغلّظة أنه ما ارتشى في مدة قضائه قطّ .

كان والده حسن قاضياً مشهوراً من قُضاة الرّوم وتولى قضاء الشام ومصر وقسطنطينيّة ، وقضاءَ العسكر .

ونشأ ولده هذا صاحبُ الترجمة مخدوماً ، كريماً حليما . ولم يزل يتنقل في مدارس السلاطين بقسطنطينيّه حتى ترشّح للقضاءِ فوّلي قضاء حلب ، ثم قضاء الشام ، في زمن سلطنة السلطان مراد بن سليم رحمهما الله تعالى . لكن قدم الى دمشق ضعيف المزاج ، محتاجاً الى العلاج . فلم يزل كذلك يتعلّل ويتملّل الى أن توفي الى رحمة الله تعالى وهو قاض بدمشق الشام ، سقى الله ثراه قطر الغمام .

وكانت وفاته في سنة خمس وتسعين وتسع مئة . ودُفن بالقرب من مدفن المرحوم السلطان نور الدين الشهيد [١] [تجاهه من جهة الشمال] [٢] وقبرُه الآن معروف بدمشق . وتأسّف الناس عليه كثيراً . وحضر جنازتَه الوزيرُ الأعظمُ المرحوم سنان باشا حين كان محافظاً لبلاد الشام .

---

(١) دُفن نور الدين محمود بن زنكي في تربته في المدرسة النورية الكبرى . انظر النعيمي ١ : ٦٠٦

(٢) الزيادة من ب ، ه

وكنا نسمع به قبل قدومه قاضياً الى دمشق بنحو عشر سنين ، وأنه عارفٌ بالعربيّات ، وحافظٌ للقصائد البليغات ، وأنه ربما زاد حفظهُ على عشرين ألف بيت من كلام العرب العرباء ، فضلاً عن المولّدين . ولمّا رأيناه بدمشق وصاحبناه رأينا منه بعض آثارٍ من معرفة العربية ، لكن لم نره كما سمعنا . واعتذر لنا عنه بعضُ أصحابه بأنّه ضعيفُ المزاج ، وأنّ ضعف مزاجه قطعه عن الحفظ والتحفظ ، بل عن التكلم والتلفظ .

دخلتُ عليه يوماً والسماءُ قد سمحت بالغيث ، من غير رَيْث . فقلت له : الحمدُ لله حصل مطرٌ ، من غير ضَرَر . وبوارقُ من غير صواعق . فقال لي : نعم . وأنشد قول القائل :

فسَقى ديارك غَيْرَ مفسدِها   صَوْبُ الربيع وديمـةٌ تَهْمي

وأطال في هذا المجال ، من غير إخلال .

وكان عنده من الكتب مالم نره عند غيره من كبار الموالي ، في سالف الأيام والليالي . رأيتُ عنده « إحياءَ علوم الدين » للامام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه ، في جلدٍ واحدٍ بتمامه وكماله . ورأيتُ عنده « روضةَ » الإمام النوويّ رضي الله عنه في مجلدة واحدة أيضاً بتمامها مع حُسْن الخطّ ، ولطف الضبط . وأمّا دواوينُ العرب فقد كان عنده منها نهاية الأدب .

كان والدُه المرحوم حسن أفندي من قسم المماليك والموالي ، فترقّت به الحال حتى صار من أعظم الموالي . سمعتُ أنه صار قاضياً بالعساكر المنصورة العثمانية . فتحاكم لديه خصمان أحدُهما وكيلٌ عن سيّدته بنت رُستم باشا الذي هو من مماليكه . فحكم على سيّدته لكون الحقّ في جانب (٦٦ آ) خصمها . فقيل له في ذلك فأنشد :

وإذا السّعادةُ لاحظتْ عبدَ الشرى   نَفَذَتْ على ساداته أحكامُه

وكان حسن بك المذكور محباً لأولاد العرب جداً، حتى أنه كان يقلّدهم في لبسهم، ويلبس الفرجيّة بالأكمام الكبيرة الطويلة على طريقة موالي العرب. ولذلك اجتهد على أن حفظ ولده هذا كلام العرب كثيراً.

ولقد مدحتُ أحمد أفندي صاحب هذه الترجمة بقصيدةٍ عند قدومه إلى دمشق، مشيراً إلى نَفاق سوق الفضائل والآداب في زمانه لكونه فاضلاً فقلتُ:

اليومَ قد سمحَ الدهرُ الذي بخلا ... وأنجز الوعْدَ خصمٌ طالما مَطَلا

اليومَ أصبحَ ثغرُ الدّهرِ مُبْتَسِماً ... وأقبلَ العدْلُ يثني عِطْفَه جَذَلا

اليومَ قامتْ لأهلِ الفضلِ سُوقُهمُ ... ولم تُبقِ لهم أيامُهم أملا

اليومَ جادَ سَحابُ الأنس مُنْسَجِماً ... واليومَ أقبل بدرُ الجودِ مكتملا

هذا الزمانُ الذي قد كنتُ أرقُبُه ... ولم أزلْ فيه للرحمن مُبتهِلا

هذا الزمانُ الذي راقتْ مشاربُه ... وهبّ فيه نسيمُ الوَصْل متّصلا

كأنَّ أيامَنا من طيبها سَحَرٌ ... كأنّ جِمّ الليالي عاد مُكْتَحِلا

صفا لأهل دمشق الشام موردهمُ ... ولم يزلْ وقتهم باللّطفِ مُعْتدلا

غنّى الحَمامُ على أدْواحِها سَحَراً ... ومال غُصْنُ الرُّبا من شوقه جذلا

أضحى لساكنها من نفسِه طربٌ ... كأنّه من سُلافِ الرّاحِ قد ثَمِلا

شكراً فبدرُ الهدى لاحتْ أشعّتُه ... من بعد ما كان عن أفلاله أفَلا

أضحى جديداً لباسُ الكاملين وقد ... مضى عليه زمانٌ لم يَزلْ سملا

قد انجلت ظلماتُ الظلم حين بَدا ... بدرُ العدالة مَنْ فاق السِّماكَ عُلا

مولى الموالي إمامُ الدهر أحمدُ مَنْ | قد ألبس الدّهرَ من أفضاله حُللا
قاضي القضاة ابنُ قاضيها الذي شملت | ◦واطفُ الفضلِ منه السّهْلَ والجَبَلا
مولىً تجمّع فيه ما تفرّق في | كلّ الورى مِنْ صنوف الفوقة الفضلا
من قال إنّ له في عدله شبهاً | فإنه عن طريقِ الصدقِ قد عدلا
عن أشبّهه في الناس ممتدحاً | وهو الذي فِي جميع العالمين علا
عِلْ من فلة الراجين أنعمه | وليس يُظهر في بذل اللّهى[1] مللا
لاتطلبنْ غيرَه في كلّ مُعضلة | فالبحرُ يغنيك عن أن تقصد الوَشَلا
ياصاحبيّ اكتبا في عدلِه سِيَراً | وسَيِّرا فضلَه بين الورى مثلا
فليس يشبهُهُ في جودهِ أحدٌ | هذا يقيني وإنْ شككتما فلا
فإنّ ذلك حكمٌ ليس يجهلُه | إلاّ الذي طرفُه بالنور ما اكتحلا
مَنْ فاز منه بتقبيلِ لراحته | فقد علا في ترقّي قدره زُحلا
ما روضةٌ ضحكت أزهارها سحراً | لما بكاها سحابُ الأنس مُنْهِملا
وصافحتها الصَّبا تسعى[2] بساحتها | كذي دلالٍ بدتْ في مِشْيَةِ الخُيَلا
والطيرُ غنّى على أفنان دوحتِها | كأنه عاشقٌ قد رتّل الغزَلا
وللمياهِ اطّرادٌ في جوانبها | كالأيم أسرع لما شاهد الوجلا[3]
يوماً بألطفَ من ذِكرى فضائله | ونشرِه في جموع العصبة الفُضَلا

---

(١) م « النهى » ، واللهى العطايا .
(٢) م ، ه ب : « تسقي » .
(٣) كذا في النسخ ، ولعلها « الوعلا » .

هذا الهمامُ الذي من عِزِّ سطوتِه   أمسى الذي دام ظُلم الخلقِ مُبتذلا
هذا الذي مُذْ بدا في الشام صافحها   كفُّ السرور وعنها الهمُّ قد رحلا
هذا الذي يُبلِغُ الراجي مكارمه   وجود راحته من قبل ما سئلا
من دُرِّ منطقه أو نورِ طلعته   طول الزمان يحلِّي السمع والمقلا
قد انجلتْ عنده كلُّ الأمور كما   عن الرعايا ظلام الظالمين جلا
بالله بالله يامولى الأنام ومَنْ   في كلِّ فنٍّ على كلِّ الورى كملا
ياأحسن الناس يامن أصله[1] حَسَنٌ   قاضي العساكر من للخلد قد وصلا
انظر إلى كبدٍ ذابتْ عليك جوًى   ومقلةٍ دمعُها من بعدكم هملا
مازلتُ أطلبُ من مولايَ قربكمُ   والحمدُ لله ماقد رمتُه حصلا
مولاي جار عليَّ الدهرُ واتصلتْ   منه العوادي على صَبرٍ قد انفصلا
قد احتملتُ قديماً جورَ سطوتِهِ   والآن يا سيِّدي لم يبق محتملا
حَملتُ منه على ضعفي نوائبه   فأيُّ جسم لما حمَّلتُه حملا
هذا وأصعبُ مايلقاه ذو أدبٍ   سقوطه عن مقامِ الفرقةِ الجُهلا
يُبدون صَمتاً إذا أبديتُ مسئلةً   كأنَّ غيلانَ ميٍّ يسألُ الطَّللا
بأيِّ حكمِ زمانٍ صار مُرتقِياً   مَنْ ليس يَعرِفُ لا علماً ولا عملا
لكن إذا كنتَ يا فخر الكرام لنا   فالهمُّ عن حيِّنا ما زال مرتحِلا

---

(١) م « أمه ».

مَنْ كان مِثلك يامولاي ذا فطرٍ وفِطْنَةٍ أظهرتْ ألحاظه الزَّغلا

فانظرْ إليَّ بعينٍ منك تجعلني من التراب إلى الأفلاك منتقلا

وأغنِ كفي إني اليوم مفتقرٌ يامَنْ إذا وَهبَ الدنيا فقد بخلا

وأسقِ غرسيَ سحا من نداك فقدْ أربى على سأكب الأنواء إذهطلا

وقد أتيتُك عبداً علّ تقبلني فكُنْ بحقّك يامولاي مَنْ قبِلا

لازلتَ ماو خدتْ وجناءُ سارية وسار حادي المطايا مُنْشِداً رملا

ترقى على هام فَرْقِ الفرقدين عُلاً والدّهرُ يُنشدفيك المدحَ مرتجلا

ولا تزالُ لك الأيامُ خادمةً ودام أمرُك طولَ الدهر مُمْتَثلا

ولمّا أنشدتُه هذه القصيدة بالغ في امتداحها ، وصرّح بابتهاج ساحة ألطافها وانفساحها . وعطف عليّ ، والتفت إليّ ، وقال مامعناه : أنتم قصدتم إظهارَ رُتْبَتِكم في الشعر ، وإلا فنحن ، مانحن أهلاً لهذا المقام ، ولا نستحق المدْح بهذا النظام .

فقلتُ له : أستغفر الله ! أنتم تشرّفون المديح والمادح . وما أنتم إلاّ من باب قول القائل :

وما أنتمُ مِمّنْ يُهنّى بمنصبٍ ولكن بكم حقا تُهنّى المناصبُ

وبالجملة فقد كان من محاسن قضاةِ الزمان حتى إن الله يسّر له الدفنَ في الأرض المقدسة ، وبالقرب من تربة هذا الوليّ الكبير سيدي نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى

وكان رحمه الله تعالى حسَنَ الشكل إلى الغاية ، وكان حسن المحاضرة إلى النهاية .

حكى لي مرة عنْ والده واقعة تدل على كمال دينه وصلاحه ، وهي

أن والده مرّة كان جالساً في بيته بقسطنطينيّة . فدخلتْ عليه امرأةٌ معها كتابٌ تعرضُه للبيع . قال : فنظر إلى الكتاب فاذا هو « المثنوي (١٧ آ) الفارسي » للشيخ جلال الدين الرومي ابن سلطان العلماء . ووجده نسخةً لانظير لها خطّاً وضبْطاً ولطفاً . فسامه من صاحبته فقالت :أطلبُ فيه ألف عثماني فأعطاها وخرجتْ من عنده . فتأمل الكتابَ فوجده نفيساً يساوي أكثر من ذلك . فطلب المرأة ثانياً فرجعتْ . وقال لها : كتابُك يُساوي أكثر من ذلك . فأعطاها ألفاً أخرى فخرجتْ . ثم تأمّل الكتاب أيضاً فوجده يساوي أكثر من ألفين فطلبَ المرأة أيضاً وقال لها : كتابُك يُساوي أكثر من ذلك . وأعطاها ألفاً ثالثة .

وهذه الحكاية تدل على كمال دينه وصحة يقينه .

ومدحه صاحبُنا الشيخ عبد الحق ابن الشيخ محمد الحجازي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى بقصيدة | بائية نفيسة و | [1] مطلعها :

سقى الرَّبعَ هطّالٌ من الدمع ساكبُ وجادت عليه الساريات السّوارِب

وصدر تاريخ قدومه الى دمشق في سنة أربع وتسعين وتسعمئة كما سبق وكان ذلك بحساب الجُمّل : هكذا خير مقدم . ونظمناه في قولنا :

أتيْتَ دمشقَ الشام كالغيثِ هاطلاً فأهلاً وسهلاً بالوفا والتكرّمِ
ولما منحتَ الخيرَ للناس كُلّهم قدومُك قد أرّخْتُهُ خير مَقْدَمِ

فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأنزل على قبره سحائب الألطاف الهامعة . بمنه ولطفه آمين .

---

(١) مابين الخطين ساقط من ه

١٧

مولانا أحمد أفندي

الشهير بطاش كُبْري زاده ، بلغه الله الحسنى وزياده

وهو الإمامُ المشهورُ ، المحمود المشكور ، الذي هو بلسان الدهر مذكور ، وعلى أحزاب أعداءِ الله منصور . هو الفاضل الذي طنّت حصاته وشرُفَتْ صفاته ، وعمرت أوقاته ، وطابت أقواته . طلب العلم طفلًا وكهلا ، وقال له لسانُ القبول : أهلًا وسهلا . فاشتهر اشتهارَ الشمس في رابعة النهار . وظهر ظهور [قطر] [1] السحاب [2] في سائر الأقطار . أدرك من العلوم مطلوبه ، وحاز من التحقيق محبوبه . وتولّى تدريس مدارس كثيرة في بلاد الروم . وبحث فيها مع الطلبة عن [3] أسرار المنطوقِ والمفهوم . وصنّف وألّف . وحصّل وأصّل . وتفضّل وأفضل . وتكمّل وأكمل . فمن جملة ماألّف كتابه المسمّى « موضوعات العلوم » [4] ، الذي حارت في محاسنه راسخاتُ الفهوم ، وتناقلتْه أيدي الرفاق في الآفاق ، وفاقَتْ بسببه جميع معاصريه وفاق . ولقد حضر الكتاب المذكور مع ولد المؤلف ، هو المولى كمال الدين محمد بن أحمد ، الى دمشق الشام حين قدم اليها قاضياً ، وطلبتُه منه لأنظر فيه ، فوجدتُه نمطاً عجيباً ، وأسلوباً (١٧ ب) غريبا . يتضمن فوائد فرائد ، وعرائس زيّنتها القلائد . ونقلتُ منه مطالبَ

---

(١) ساقطة من هـ ، ب

(٢) هـ ، ب « لسحايب »

(٣) ب ، هـ « على »

(٤) هو المسمى ايضاً بمفتاح السعادة

عزيزة ، تُوَخّص عند الذهبي إبريزه . من ذلك مانقله عن بعضهم أنّ كلّ نبي من الأنبياء إنما يُوحى إليه بالعربيّة ويعود بعد ذلك النبي يترجمُه لقومه بلسانهم الذي به يفهمُون وله يفقهون . وتولّى قضاء بروسة المحروسة فاتّفق أنّه ضرب فيها رجلًا من عسكر السلطان ، وأظنّه من حاملي السلاح للسُلطان . فثار الجندُ عليه وقصدوا قتْلَه ، فما نجا مِنهم إلاّ بعد جهدٍ جهيد ، ورأى رحمه الله تعالى أنّ المبادرة الى ضرب الجندي المذكور كانت من ضيق عطنه بسبب أكلِه للتركيب المشهور المسمّى يومئذ بالبرش[1] لأنّه عند انفصال حرارته يوجب للمرء ضيقاً عجيباً الى الغاية . فحلف يميناً مغلّظةً أنه لا يأكل البرش بعد ذلك اليوم . وهذا أمرٌ مخالف للقاعدة العقلية . وما ذاك إلاّ أنّ عادة البرش توجبُ المداوَمة على أكله ويتكلّف آكلُه كلفةً كبيرة ، حتى يستطيع تركه . وأغلب مايكون ذلك بالتناقص من غير ضرر .

وأنشد له بعضهم متمثلًا :

انْ تكن عازماً على قَبْضِ روحي   نترفّقْ بها قليلاً قليلا

فما طاوع على أكله بعد اليمين أبداً . فلزم من ذلك نزول الموادّ الرطوبيّة على عينيْه ، لأنّ أكل البرش كان يحبس الموادَ عن النزول لما فيه من التجفيف . فلم يزل ذلك يتزايدُ إلى أن أوجب له العمى ، وهو قاضٍ حينئذ بقسطنطينية المحميّة . فلزم بيته مسلّماً لأمر القضا ، تاركا منصب الحكم والقضا . وعاش بعد ذلك مدة طويلة ، صنّف فيها كتباً جليلة .

---

(١) تركيب مخدّر كالأفيون ، وأفادني الأمير جعفر الحسني أن الصيّادين كانوا يمزجونه مع الطعام ويقدمونه للطيور لتخديرها وصيدها . وانظر :

Dozy, *Sup. Dict. Arabe* I, 71

ولم أجد الكلمة في كتب المفردات .

كلّها على طريق الإملاء . ومن ذلك كتابه المسمى « بالشقائق النعمانيّة ، في أحوال الدولة العثمانيـــة » ، وله تصانيف تتعلق بعلم الكلام والمنطق والحكمة . تضمّنتْ تحقيقاتٍ سديدة وتدقيقات عديدة ، تُظهر أنّ مؤلفها قد ملك عنان الفضائل ، وحاز في الزمن الأخير مالم تحزْه الأوائل ، وكان له في العربيّة الباعُ الطويل ، والمعرفةُ التي أذعن لها الخليل . وكانَ مع ذلك كلّه ينظم الشعر العربي المليح ، ويُنشيء الإنشاء البديع الفصيح .

أخبرني ولدُه المولى العلامة الكامل كمال الدين محمد بدمشق حين كان قاضي القضاة بها في أوائل سنة | خمسٍ |[1] بعد الألف أنّ المولى المفتي أبا السعود الآتي ذكره نقح في تفسيره الكلام على قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم ﴾[2] وبالغ هنا في الردّ على جار الله الزمخشَرِيّ مافرط منه في تفسير هذه الآية الكريمة من سوء الأدب بالنسبة الى الجناب الرفيع ، وأرسل كلامه في هذا المحل الى والده أحمد أفندي صاحب هذه الترجمة . فنظر فيه ، من قوادمه الى خوافيه ، واستحسن ماحقّقه في الردّ على جار الله الزّمخشري . فكتب الى المفتي هذه الابيات يمدحه بها ويشير الى الردّ المذكور ، في النظم المسطور . وهي :

بنفسي جناباً حاز كلَّ فضيلةٍ	وصارَ لإظهار الحقائقِ ضامنا
وأيد رُوحُ القُدْسِ حسّانَ طبعه	فجلّى من الأسرارِ ما كان كامنا
ونافح عن عِرض النبيّ تأدّبا	ففي الحشر تلقاهُ من الخوف آمنا
بك المِلّةُ الزهراءُ أضحتْ مُنيرَةً	وفي الكوْكبِ السيّارقدصِرْتَ ثامنا

وقال لي مولانا الكمال المذكوز : قرأتُ الموضع المذكور على حضرة

---

(١) ساقطة من ه ، ب

(٢) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٤٣

المفتي : فقلت له : هذا هو الموضع الذي عُرض على والدي ؟ فقال المفتي : نعم . وما أحسن البيت الرابع المختوم بثامن . انتهى .

وفي نفس الأمر كان صاحب هذه الترجمة من محاسن علماء الزمان ، ولو لم يُرْمَ بالعمى لأظهر من الفضلِ ما يكلّ عن وصفه اللسان .

وخلّف ثلاثة أولاد : كمال الدين ، وشمس الدين ، وحامد .

فأما شمس الدين فإنّه صار من قُضاة القَصَبات ، ومات بحماة ودُفن بها .

وكذلك حامدٌ فإنه صار قاضياً بصَفد ، وأظنّه مات بحلب .

وليس فيهم نجيبٌ إلاّ العلاّمةُ الكمال . فإنه قد تطابق فيه الاسمُ والمسمّى ، ووصل من الفضائل الى المحلّ الأسمى . وستأتي ترجمته في حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

وقد توفي والدُ صاحب هذه الترجمة في قسطنطينيّة ، ولا أعرف سنةَ موته .

وولده أحمد أفندي صاحب هذه الترجمة في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وتسع مئة كما نقل ذلك من خطه ، لكنّه ذكر في كتابه المسمّى « بالشقائق النعمانية » أنه أتمّه في سنة خمس وستين وتسع مئة .

١٨

صاحبنا أحمد جلبي ابن اسكندر الرومي

نزيلُ دمشق . ورد اليها في سنة ثمانٍ وثمانين وتسع مئة مع قاضي القضاة مصطفى [افندي] [١] بن بستان . وكان أحد جماعته الذين ينوبون عنه في القضاء ، ويُقال لهم دانِشْمَنْدِيّة بدال مهملة ونون مكسورة وشين ساكنة وميم مفتوحة ونون ساكنة فدال مكسورة وياء مشدّدة للنسب . والمفرد دانشمند أي صاحب الدانش ، والدانش بلغة الفرس معناه المعرفة ، ومَنْد بمعنى صاحب ، ومعناه صاحب المعرفة . فلذلك يُسمّي الأروامُ تلامذتهم بذلك .

ولكن كان أحمد بن اسكندر هذا مقرباً لديه تقريباً تاماً ، ونال منه حظّاً وافراً عامّاً ، بحيث أنه كان يمضي غالب الأمور (١٨ ب) بإشارته ويجيبُ غالبَ الفضلاء بعبارته . وكان يعتمد عليه اعتماداً صادقا ، لأنه لم يزلْ بصداقته واثقاً .

وكان مع ذلك كله كاتب عرْضه . ومعنى كاتب العرض في اصطلاح قضاة الأروام وحكّامهم أنّ كل صاحب منصبٍ من إمارة أو قضاء أو وكالة عن حضرة السلطان أيّده الله تعالى أن يكون له كاتبٌ عارفٌ بالإنشاء والكتابة بلغة الرومية يكتب له المهمّات التي يلزم إرسالُها إلى عتبة حضرة الملك لتُعْرَضَ على عتبته العلية ، ويُمضي فيها ماتقتضيه آراؤه السلطانية من عزل وقبولٍ وردٍّ ، غير أنّ الغالب فيها القبول ، لأنهم

---

(١) الزيادة من ه ، ب

عرفوا من عادة من يعرض لحضرة السلطان إنّما يذكر الصدق المعقول ، الذي تشهد بلطفٍ موقعه العقول . ويكتبون في أوائلها ألفاظاً مفخّمةً تليقُ بجانب السلطنة العثمانية ، ويكونُ معنى تلك الألفاظ أنّ العبد الداعي على الدّوام يعرض بذلك الباب الذي له من السعادة والسطوة مايشابه دوران الأفلاك ، ويقارب مرتبة الثريّا والسماك ، ماهو كذا وكذا ، ويشرحُونَ مايريدون ويختمون بما معناه : والباقي مرسوم الباب الموصوف بالسعادة العظمى . ولكن وصل أحمد بن اسكندر هذا في فن كتابة العرض الى مرتبة مالحقها أحد غيره فيا أعلم . أخبرني عبد الكريم أفندي الذي كان يتولّى أوقاف العمارة السليمانيّة بدمشق المحميّة ، وكان عارفـــاً بأحوال الإنشاء التركيّ مشهوراً بذلك ، أنه لم يظفر حاكم بكاتب عرض مثل هذا . ويشير الى أحمد بن اسكندر صاحب هـذه الترجمة وفي نفس الأمر حصل منها النصيب الأوفر [١] الأوفى ، والمقام الأزهر الأزهى .

ولقد شاهدتُه غير مرة يكتب العروض المهمّة من رأس القلم من غير تسويدٍ ، ويكون مقبُولاً عند العارفين بهذا الفن . وذلك معَ حسن الخطّ الذي لانظير له حلاوةً وحسناً .

وسببُ مهارته في هذه الصناعة أنّه أتقن الألسنَ الثلاثة العربيّ والفارسي والتركيّ اتقاناً كاملاً . والمقبولُ الآن من انشاء التركيّة ماكان مرصّعاً من الألسن الثلاثة ، مع ذلك الذكاء الكامل والاجتهاد الشامل .

ولقد قرأ [عليّ] [٢] مقامات الحريريّ رحمه الله تعالى رواية الحارث ابن همّام عن أبي زيد السروجي كاملة ونصف مرّة قراءة متقنَة محرّرةً معنعنةً وأجزتُه بها وبما تجوز لي روايته بشرطه . وقرأ عليّ حصةً من أوائل « الشرح المختصر » للمحقق التفتازاني على « متن التلخيص » للامام

---

(١) هـ « الوافر »

(٢) الزيادة من هـ ، ب

جمال الدين القزويني رحمه الله تعالى . وروى عني كثيراً من الأشعار البليغة الحسنة . ولازم صاحبنا العلامة محمد البغدادي المدرس الحنفي بالمدرسة الدرويشية وقرأ عليه علم الهيئة (١٩ آ) وعلم الكلام وغير ذلك . ومهر في فنون العلوم ، وبحث عما تضمنته من منطوق ومفهوم . فصار من أعلام زمانه ، ومن مفردات عصره وأوانه . درّس بالمدرسة الجوهرية[1] . وابتنى بيتاً في مقابلة الأشرفية[2] ، دار الحديث بالقرب من قلعة دمشق . غير أنه قد خاض في شيء لايعنيه ، وقصد مالا يلزمه أن يخوض فيه . وذلك التنقيب على كلمات القوم الدقيقة ، والاعتراض على عباراتهم الرشيقة . وجعل نفسَه غَرَضاً لسهام الأغراض[3] . ورام أن يطفيء الخواطر الروحانية بالأقوال المِراض . فقال : إن ابن الفارض وابن عربي ومَنْ حذا حذوهما | وذاق من الطعوم حلوهما |[4] قد حاد في عبارته عن طريق الحقّ والصّواب وخالف الحقّ فيما اعتقده من صفات ربّ الأرباب . وصرّح بذلك في الملأ العام . وعُرف بذلك واشتهر بين أهل الشام ، من الخَواصّ والعوام . ولعله بَعُد بذلك عن بعض القلوب ، والعلمُ في ذلك لعلاّم الغيوب . ولكنه هو لاينوي إلاّ خيراً ولا يدفع في اعتقاده الا ضَيْرا . ولكن الأولى لمثله ومثلي من المقصّرين أن يُسَلّم للقوم الواصلين . وما أحسن مارأيتُه ببعض المجاميع :

لاتكنْ مُنكِراً فثَمّ أمورٌ لكبار | الرجال |[5] لا للصّغار

---

(١) انظر النعيمي ١ : ٤٩٨

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ١٩

(٣) ه « الاعتراض »

(٤) مابين الخطين ساقط من ه ، ب

(٥) ساقط من ه ، ب

وإذا لم تَرَ الهلال فسلّم لأناسٍ رأوه بالأبصار

[وأيضاً :] [١]

أتيتَ بيوتاً لم تُنَلْ مِنْ ظُهورِهَا وأبوابُها عَنْ قَرْعِ مثلِك سُدّتِ

ولعمري لو أقصر عن هذا لكان أسلم ، والله تعالى أعلم ، بغيبه وأحكم .

ولقد كتب أحمد بن اسكندر صاحب هذه الترجمة رسالة على لسان المرحوم الشيخ شرف الدين الخطيب الشهير بابن الحكيم رحمه الله تعالى تتضمن بالنسبة الى الشيخ شرف الدين المذكور تعريضات ، بقبيحٍ أو تلميحات ، أو إشارات أو تلويحات . وعرضها عليّ ، وقرأها لديّ ، وقال : أحبّ أن تقرّظها بشيء من كلامك ، تمزجه بقليل من نظامك . فقلتُ مجيباً لإرادته ومحققاً لإشارته :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي جعـل ذوي الفصاحة أمراء الكلام في الأنام ، وأعلى أعلام أولي البلاغة على رؤس العلماء الأعلام ، وجعل العلماء ورثةَ الأنبياء . فبلّغها الأبناء لمن زاغ عن سبيل الرشاد ، وملّكهم من الحجج القواطع سيوفاً قوامع لأرباب البغي والعناد .

والصّلاة والسلام على مَنْ بلغَتْ كلماته البليغة شرقاً وغرباً ، ففلّت من سيوف | ألسُن | [٢] المعاندين حدّاً وقطعت لهم غرْباً . وعلى آله الذين أنار بآثارِ علومهم الكون بعد الظلام ، وأصحابِه الذين كانوا ابتساماً في ثغور الليالي والأيّام . ماانجلى ليل الجهالة بإشراق شمس المعارف ، وارتوى ظمآن الفؤاد من غيث الأدب (١٩ ب) الواكف .

---

(١) من ھ ، ب

(٢) ساقطة من ھ

هذا وقد وقفتُ على هذه الرسالة وقوفَ وامقٍ على مرابع عذراء ، وأجلتُ طرْفَ طَرفي في مضمار بلاغتها إجـالة ابن عباد[1] لحظه في مراتع الزهراء ، ونادمتُها والليلُ مُرخٍ ستوره . كأني جميلٌ زَارَ ربع بُثَيْنَه . فما زلتُ اغترف من حياضها واقتطفُ من رياضها ، راوياً عنها غيث الأدب الذي انسجم ، ناقلاً عنها لفصحاء العَرب ما يُزري بلامية العجم قائلاً لله درُّ مؤلفها : فلقد فتح من البلاغة باباً مقفلاً ، ومنح من صحاح ألفاظه لأهل الأدب مجملاً ومُفصّلا . وسلك طريقاً بديعاً يعجز عن سلوكه البديع ، واستباح بجيشِ أفكاره من معاقل البلاغة الحمى المنيع . ودخل باباً منَ الأدب ما لأحـدٍ به طاقة . وامتطى صهوةَ جوادٍ ما أدرك الفاضل لحاقَه .

له الكَلِمُ الغُرُّ التي لو تجسمَتْ   لكانت لوجه الدهر عَيناً وحاجِبا

فلله ما اشتملتْ عليه من التلميح الذي ينقص عنده أبو تمام ، وما تضمّنته من التمليح الذي يعبّس منه ابن بسّام . بيْدَ أنّها ترجمتْ عن أوصاف صادقة على موصوف ، وحدّثتْ عن اعتراف مَنْ هو بالمنكر معروف . فتعجبتُ من بُعد المبْنى عنه مع قرب المعنى . وأفكرتُ في كمالٍ يجتمعُ مع النقص ، في منزلٍ ومغنى . فقلتُ : أمّا الأوصافُ فإنّها عليه صادقهْ ، وأما الألفاظ فانّها بفضيلته غير لائقهْ . فعلمتُ أنّ ذلك كما يُحكى عن أبي زيد . الذي كان تعارجُه لكيدٍ وصَيْد . ومن أيْن هذه التراكيب لمن انحل تركيبه ، واختل ما بين أهلِ الكمال ترتيبه .

وأينَ الثُرَيّا وأيْنَ الثرى   وأينَ الحسامُ من المِنْجَلِ

ولعمري لقد حدّث عنه لسانُ الرسالة فأبان من الكثير قليـلاً ،

---

(١) يعني المعتمد بن عبّاد الأندلسي

واختصر في إيضاح بيانه والمتنُ يحتمل شرحاً طويلاً . على أنّ في اعتذار المؤلف عن عدم التكثير ، بقوله — والقطرة تنبيء عن الغدير — إعلاماً بأن البَعْرَةَ تدلُّ على البعير ، وإشارةً إلى وفور السقطاتِ ، وكثرةِ المخازي والجهالات .

فمن ذلك روايتُه للحديث من غيرِ معرفةِ كلام العرب ودخوله في قوله ﷺ مَنْ كَذب[1] . هذا مع عدم الاجازة المجوّزة لرواية الحديث لافي زمنه السابق ولافي وقته الحديث .

ومنها أنّه يدّعي الوعظ وليس متّعظاً . ويزعم الحفظ وليس مُحتفظاً[2] وما أحسن قول مَنْ قال ، وأجاد في المقال :

يا قومُ مَنْ أظْلَمُ مِن واعظٍ خالفَ ما قد قاله في الملا
أظهرَ بين الناس إحْسانَهُ وبارزَ الرحمن لما خلا

ومنها مداومتُه على اغتياب مَنْ شمالُه أندى من يمينه . وغشّه مازال أنفعَ منْ سمينه (٢٠ آ)

فإلى متى يقرض الأعراض السليمة ؟ وهلاّ اشتغل بأحواله الحائلة السقيمة ؟ ليت شعري أيّ باب من الذّلّلِ مادخل اليه ؟ وأيّ نوعٍ من الخَطَلِ ما اقام عاكفاً عليه ؟ على أنّ مَنْ يغتابه من المذمة سليمٌ خالص ، ومازال يتمثل بقول الشاعر :

« واذا اتتكَ مذمّتي من ناقص »

ومنها جلوسُه بين زعنفةٍ لم تحنكهم التجارب ، ولم يزيدوا في الفضل على صبيان المكاتب . موهماً أنه انتظم في سلك الأفاضل ، مخيّلاً أنه ورد

(١) يشير الى الحديث النبويّ « من كذب عليّ عامداً فليتبوّأ مقعده من النار »
(٢) « « متحفظا »

من مياه الفضل أعذبَ المناهل ، مفاخراً بالأشعار التي لو أنصف لدفعها الى أهلها ، ولما تكلفَ ، من غير انتفاع بها ، مشقة حملها . فهو كجالسٍ بين القبور طالباً للنزال ، أو كملهوف الى الورْد قانعاً بالآل لا الزلال .

وإذا ماخلا الجبانُ بأرضٍ طَلَبَ الطّعْنَ وَحدَهُ والنّزالا

ومنها أنه يشمخُ بأنفه على عصابة هم جمالُ الأنام ، وبمثلهم تفخرُ الليالي والأيام ، مع حقارةِ متاعه ، وقِصَر باعه . فيالله العجب ممّن سقط عن مرتبة[1] الطلب ، كيف يترقى الى معالي الرُتب .

ما لمن ينصِبُ الحبائلَ أرضاً ثم يرجو أن يصيدَ الهلالا

فيا أيها الناكبُ عن طريق الصواب ، الذاهب في غير مذاهب أولي الألباب . ويحك الى متى تتوكأ على العكّاز ؟ وتدّعي بين الناس أنك من أهل البراز . ويلك هلاّ وقفت في مجازك ، وما تعدّيتَ عن حقيقتك الى مجازك ؟

ومَنْ جهلتْ نفسُه قدرَه رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

ولعمري لقد كاد زَيفُكَ أن يروج ، وتقرّبت على عرجك من العروج لكن قيّض الله لك ناقداً بصيراً ، وعالماً كاملاً خبيراً . فأظهرَ عوارك الذي كنت تُخفيه ، وأبدى منْ حالِك مالم تكن تبديه . وذلك | مَنْ هو | [2] علاّمة المحققين بلا نزاع ، وخاتمة المدققين | من غير دفاع | [2] مَنْ طلع في سماء المعالي فأصبح بدرها الكامل ، وأروى قلوب المتلهّفين بغيث فهمه الوابل ، ونصبَ شِباكَ الأفكار فاقتنص شواردَ المسائل[3] من

(١) « « رتبة »
(٢) مابين الخطين ساقط من «
(٣) « « المصائد »

مكامنها[١] ، وغاصَ لُجَجَ بِحار العلوم فاستخرج دررَ المعاني من معادنها . هو مَنْ أقول فيه ، من غير شك ولا تمويه :

هذا الهمام الذي مِنْ عِزّ سَطوَتِهِ ... أمسى الذي رام ظُلْمَ الخلق مبتذلا

هذا الذي مُذْ بدا في الشام صافحها ... كفُّ السرور وعنها الهمُّ قد رحلا

قاضي القُضاة ابن بستان الذي شملتْ ... عواطفُ الفَضْلِ منه السّهلَ والجَبلا

قد انجلتْ عنده كلُّ الأمور كما ... عن البرية ظُلْمَ الظالمين جلا

من دُرّ منطقهِ أو نورِ طَلْعَتِهِ ... طولَ الزمان يحلّي السّمعَ والمُقلا (٣٠

فيا شيخ الاسلام ، وعلم العلماء الأعلام ، وقاضي القضاة بدمشق الشام ، ومصطفى الأفاضل الكرام ، أدِمْ إبعاده عن منازل القرب ، فقد قيل : تعدي الصّحاح[٢] مبارِكُ الجُرْب . لازال حكمك نافذاً في القضايا ، ولابرح علمُ علمك منشوراً بين البرايا . وبقيت قامعاً لأهل العدوان ، واصلاً الى ماتريد بفضل الرحيم الرحمن . ماكرّ الجديدان ، واختلف الملوان ، وانتقل الدهرُ من آنٍ الى آنٍ . والحمدُ لله على كل حال ، والمفزع اليه في سائر الأهوال .

---

(١) م « مكانها »

(٢) م « الصحاص » خطأ .

١٩

القاضي أحمد افندي الأياشيّ

بهمزة مفتوحة وشين معجمة وياء مشددة للنسب

هو قاضي القضاة أحمد بن سليمان الأياشي قاضي حلب ، ثم قاضي دمشق . ورد الى دمشق في سنة سبع بعد الألف قاضياً بها خلفاً عنْ مولانا القاضي عبد الوهّاب فما حمدت سيرُته ، لاسيّما وقد كان مولانا عبد الوهاب في غاية | من |[1] الاستقامة ، فورد هذا بعده في غاية السقامة . فكانا في طرَفيْ نقيض ، وكم بين صحيح ومريض . وبضدّها تتميز الأشياء . ولقد اشتهر في أيامه أكل الرُشا ، وظهر التزويرُ وفشا . فلزم أنّ العوام قد رجمتْه عند خندق القلعة بين سوق الأروام[2] ومدرسة أحمد باشا شمسي[3] الآتي ذكره ، وأفحشوا في رجمه ، ولولا مدافعة بعض الجلاوزة عنه بالسيْف ، لنال منه العوام[4] غاية الأذى والحيف . ولقد بلغني أنّ بعض الناس رجمه ببيض فكان بعد كسره في عمامته يسيل بياضه وصفاره على عمامته وعلى أكتافه . وحاصل الأمر أنّه وصل الى غاية النكاية ، وصار في العالم أشهر حكاية . ولم يستقم حاله بعد الرجم أبداً . وكان رجمه يوم دخول أمير الأمراء

---

(١) ساقطة من ه ، ب

(٢) سوق الأروام هو أول سوق الحميدية اليوم .

(٣) تسمى اليوم مسجد الأحمدية . انظر عنه ذيل ثمار المقاصد ص ١٩١

(٤) ه « القوم »

السيد محمد باشا الوزير العجمي إلى دمشق حاكماً بها ، وذلك أنه طلع لاستقباله فكان الناس يشيرون إلى الباشا بالشكاية عليه في وجهه ، وينادون : الشام خراب ، القاضي خرّبها . وهو ساكتٌ . فلم يزل الناس ممسكين أيديهم عن الرجم الى أن دخل الوزير المذكور الى دار الإمارة بدمشق ففارقه القاضي المذكور . فاستقبله الناس عند انصرافه يصيحون في وجهه ويقابلونه بكلمات لاتليق . وأعقبوا ذلك بالرجم ، من غير رحم [١] ، حتى | إنّه | [٢] ساق فرسه هارباً منهم ، وأدركه مع ذلك ماأدركه من الأحجار .

وقد هجاه الشيخُ درويش سبط آل طالو الشامي ، الآتي ذكرُه إن شاء الله تعالى ، بقصيدة طويلة سماها « رفع الغواشي عن ظلم الأياشي » ولقد قسمها فصولاً ، وجعل كلَّ فصلٍ في حالٍ من أحواله . ولقد أنشدنيها مؤلّفُها المذكور حين ألفّها فعلق في خاطري منها بعضُ أبيات .

فمن ذلك قولُه مشيراً الى ظلمه مع وكيله لرجل بدمشق [٣] يقال له ابن عقيص ، مات وخلّف ثلاثة آلاف قرش ، أخذ منها ألفاً فقال في ذلك :

كيف استحلّ ألفَ قرشٍ له وجملةُ المال ثلاثٌ كبارْ

ومنها :

وجملةُ الأوقاف في عهدهِ تُباع في الدلاّل بَيْعَ الخيارْ

ومنها :

وَيدّعي الرقّة في طبْعه مثل مخاديمِ الموالي الكبارْ

ومنها مشيراً الى قصّةٍ صدرتْ لبعض جماعة في مدرسة سيّدي نور الدين الشهيد عليه رحمة العزيز المجيد :

---

(١) « « وجم »
(٢) مابين الخطين ساقط من «
(٣) « « لرجل من أهل دمشق »

وليلةِ النورِ الشهيدِ التي   سطا على القاضي بها الجوخدارْ

واستلَّ في المجلس سكينةً   مُخَلِّصاً من كفِّه لاله زار

وهي التي كانت تُدير الطلا   والأمردُ الخيّاطُ كانَ المدار

وحاصل الأمر أني حفظت منها أبياتاً ليست مرتبة لأنّها علقتْ في فكري من إنشاد القصيدة مرّة واحدةً ، وهي حسنة في بابها غير أن قائلها قد بالغ في بعض فصولها ، وذكر بعض أشياء تتعلق بحريمِ القاضي ، وكان الواجب الإعراض عن ذلك ، لأنه افتراءٌ قبيح يُوقع قائله في مهاوي المهالك .

وكان للقاضي الأياشي المذكور رجلٌ من جماعته يقال لهُ قبلان ، بقاف وباء موحدة ، ومعناه النمرُ بلغة التركية . وكان وكيله يسمى أرسلان [1] ومعناه بلغتهم الأسد ، فهجاه درويش الطالوي المذكور بأبياتٍ يشير فيها إلى ماذكرناه ويشيرُ إلى نائبه الحنفي القاضي محبّ الدين ، وإلى نائبه المالكي كمال الدين بن الخطّاب ، وإلى نائبه الشافعي محمد بن جانبك الكنجي ، والأبياتُ هي قولُه :

وحوشُ أياشٍ دُبُّها وحميرها   وتُبّاعُها أُسْدُ الرُبى ونمورُها

وزنديقُها خطّابُها وكُنَيْجُها   وثُعبانها جارُ الغواني وزيرُها

توشّح كُلٌّ بردةَ الجهلِ والرُشا   فبعضٌ يُسدّيها وبعضٌ ينيرها

وأسودُهم ذاكَ المعاوي لدرهمٍ   يضاهيه في وسطِ السّماء بدورها

متى بصّه في كفّ راشٍ قضى له   وبات بتلكَ العين وهْو قريرُها

---

(١) ه ، ب « اصلان » .

إذاما تولّتْ في دمشق فأصبحتْ ومشربُها بعد الأجون نميرُها
وأضحت بروضِ النيربَيْن روامقاً ومسكنُها بعد الفلاة قصورُها
وسارت عن الشام الفضائلُ مُذ أتتْ فلم يَدْرِ أهلُ الفضلِ أينَ مسيرُها
وددتُ بأنّ الدهر ينظر مرّةً بعينٍ جلا عنها الغيابة نورها
إلى هذه الدنيا التي قد تخبّطت وجُنّت فساسَ الناسَ منها حميرُها

والبيتان الأخيران متقدمان للغير ، وقد ذكرهما الشاعرُ المذكور للتضمين ، لكنّه لمْ ينبّه عليها ، فكان ذلك سرقةً لعدم شهرتها أيضاً . وهذه عادةُ هذا الشاعر يهجم (٢١ ب) على بيوت الناس من غير تحاشٍ ، فإنْ عُرِفَتْ قال : أخذتُها تضميناً وإن لم تُعرَف قالَ : هي شعري ومن نظمي ، وستأتي أوصافُه مفصّلةً إن شاء الله تعالى في حرف الدّال .

|(١) ومطلعُ القصيدة ذات الفصول العديدة ، أعني الأباشيّة الطالويّة ، وهي مشهورة عند الفضلاء والأدباء النبلاء .

الشامُ تبكي بدموعٍ غِزارْ(٢) بكاءَ ثكْلى ما لها من قرارْ
بكاءَ مظلومٍ له ناصرٌ لكن بعيد الدار والخصم جارْ

وهما قديمان وقد أخذهما على عادته في سرقته .

في عام سبعٍ بعد ألف(٣) مَضَتْ من هجرةِ المختار زاكي الفخارْ
حلّ بها قاضٍ(٤) على جهله أظلمُ من قاضي سدوم الحمار
ليس له دينٌ ولا مذهبٌ إلاّ الرُّشا والانتشا من عُقار

---

(١) من هنا ساقط من ه ، ب .
(٢) م « غرار » .
(٣) م « الألف » .
(٤) م « قاضي » .

وآخرُ الفصول في استغاثة أهل الروم على عزله :

فيا موالي الروم يا مَنْ بهم تستكشف الجُلّى ويُجلى الغبارْ
العلمُ والفضلُ بأعتابكم وفيكم النجدةُ والانتصارْ
قولوا لصنعِ الله ركنِ الهدى بحرِ الندى والعلمِ طودِ الوقارْ
العالمِ العاملِ مَنْ رأيُه في ليلِ هذا الخطب صبحٌ أنارْ
مفتي الفريقين إمامِ التقى شيخِ الأصولَيْن الرفيعِ المنارْ
حامي حمى الشرعِ بسُمر القنا لها كفعل البيض ذاتِ الغِرار
يُعرّف السلطانَ مولى الورىٰ غوثَ ملوكِ الأرض قطبَ المدار
ظلَّ إله العرشِ مَنْ دوّختْ سطوته قهراً ملوكَ الجبار
محمد أعدل[1] مَلْك سما من آل عثمان حماة الذمار
أحوالَ قاضٍ إن يَدُمْ نصبُه[2] بالشام يوماً فالفرار الفرار
عسى وليُّ الأمر سُلطاننا يأمُر عُقبى عزله بالدمارْ
فإنّ تقليدَ القضا جاهلاً فيه على الدولة إثمٌ وعارْ
لا زال قاضي السوء من فعله دائرةُ السوء عليه تُدار
وفوق[3] هذا غضب الله ما أقبلَ ليلٌ وتولّى نهارْ
وكان للظالم يوم الجزا جهنمٌ مثوى وبئس القرار

---

(١) م « عدل » .
(٢) م « احوال قاضي إن يدوم نصبه » .
(٣) م « وفوف » .

وله فيه وقد شكا قلة المحصول ، وأنه قليل ومع ذلك متعسّر الحصول :

قل لقاضي القضاة أعني الاياشي   عقلُ مولاي ليس عقل معاشي

تشتكي قلّةَ المحاصيلِ ممن   أنتَ فوّضتهـا الى الأوباش

أنت صيّرْتَها برأيك نهباً   بين رند ومردك وقلاشي

وله في نائبه المالكي :

نائبُ القـاضي الأياشي   عقلُه عقل معـاشي

يرتشي قاضيـه لكن   هو لا يصغي لراشي

هكذا قيـل وعندي   ما أصيـلٌ مثل ناشي[1]

والعجب أنه قد مدح القاضي الأياشي المذكور قُبَيْل هجوه بأيّام قليلة بقصيدة شينية أنشدنيها بدمشق ومطلعُها :

كيف أخشى بالشام أمرَ المعاشِ[2]   وملاذي بها جناب الأياشي

أفضلُ القومِ مَنْ سَما للمعالي   فاعتلاها طفـلاً وكهلاً وناشي

فهو بدرُ العلوم صدرُ الموالي   مَنْ سماهم فضلاً ولستُ أحاشي

خيرُ قاضٍ وربُّ البريّةِ راضٍ   عنه إذْ صانَ شرعه عن تلاشي

ساقَ عدلاً بالشام حتى شهدنا   مَشْيَ ذئبِ الفلاةِ بين المواشي[3]

وهي قصيدةٌ حسنة في بابها على صعوبة رويّها .

---

(١) الى هنا ينتهي السقط من ه ، ب .
(٢) م « المعاشي » .
(٣) هذا البيت ساقط من ه .

ولقد عُزل القاضي المذكور عن دمشق بُعَيْدَ رجمه غير بعيد ، واستتبع ذلك كله وقت عيد ، فصدر تاريخٌ لطيف يشير إلى ما ذكرناه . والتاريخُ المذكور مشترك بين درويش المذكور وبين رجل آخر من أدباء دمشق فقالا :

رُجِمَ الأياشي في دمشق وجاءه ... عَزلٌ وكان العيدُ عيداً أكبرا

وسُئلتُ عن تاريخه فأجبتهُمْ ... بالعزل شيْطانٌ رجيمٌ دُمّرا

وأياش المنسوب هو إليها قَصَبَةٌ يُصْنَعُ بها الصّوف في نواحي أنكورية وأنقرة من بلاد قرمان .

وقد عدّ فضلاءُ الدهر تولية المذكور للقضاء من أعظم البلاء . وكان المعين له على ذلك بعض المقرّبين عند حضرة السلطان مراد بن المرحوم السلطان سليم .

وهو الآن معزولٌ مقيمٌ في بلده المذكور وربما توجه أو يتوجّه الى باب السلطان أيّده الله تعالى ليتوصّل الى أن يتولى بلدةً ويسعى في ثبوت قضائها عليه ، ولعل القضاء يدركه ، أو بعد القضاء يُهلكه ، إنْ لم يتب الى ربّه ، ويعترف صادقاً بذنبه . فيا خجلته وخجالة أمثاله إذا كان القاضي عليهم جبّار السّموات والأرض وهم صموتٌ لا ينطقون ، ومن ربقة العذاب لا يُعتقون . والحمد لله أوّلاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

١٩

الشيخ أحمد العناياتي

النابلسي الاصل الدمشقي السكن والدار

| هو أديب الزمان ، وشاعرُ العَصر والأوان . جاب الأقطار . ودار في كلّ دار . وجال في كلّ مجال . حتى اغتدى في الأدب علاّمهْ ، وصار له على بلوغ المراتب العالية أصدق علامهْ |(١) وهو الاديبُ البارع ، الذي تَوَحّد في أمر (٢) الأدب فلم يبق له مُضارع . وساق في حلبة العربية حتى أصبح المجلّي في هاتيك الفرقة الأدبية . ولم نَرَ له من شبيه ، ولا يحتمل وصفه التشبيه ، إذ لم يكن له في الأدب من نظير ، بل شعرُهُ الروض النضير .

والده أبو العنايات من مدينة نابلس . وقطن مكّة مدة وتزوّج بها . فولد له أحمد هذا بها . وإنما قيل له العناياتي نظراً إلى والده ونسبةً إليْه . وكان ينطق كنطق أهل مكة .

ولم يَقِرّ زمن شبابه بمكان بل كان يَطُوف الأقطار (٢٢ ب) ويجول في كل ديار . لكن كانت سياحتُه مقصورةً على حلب ، وطرابلس ، والشام ، وبيت المقدس ، وما بين ذلك من القصَبات مثل حماة ، وحمص ، والمعرّة ، وصفد ، وغزّة . وقدم آخراً الى دمشق في حدود ستّ وثمانين أو سبعٍ أو ثمانٍ في ما أظنّ وتسع مئة ، وألقى بها عصا الترحال .

---

(١) ما بين الخطين ساقط من ه ، ب .

(٢) ه « أمراه » .

الى أن انحنى غصنُ قدهِ ومال . فسكن مرّةً في مسجد هشام ابن عبدالملك[١] في جهة سوق جَقْمَق . ثم ارتحل الى المدرسة البادرائية[٢] واستمرّ بها مجاوراً في حجرةٍ إلى أن مَات بها الى رحمة الله ...

وكان يتعممُ بالصّوف الذي يُقال له المئزر . ولم يتزوج في عمره ولم يضاجع قرينةً تشغله عن صفاء فكره ، في نظمه أونثره ، | وكان متقللاً في المطعم والملباس . منقبضاً في الغالب عن مخالطة الناس |[٣] وكان الغالب عليه الاستيحاش من الأنام ، وينفرد في غالب وقته كالطير الوحدانيّ في الظلام . وكان يكتب الخطّ الحسن . وينطق باللفظ المكيّ المستحسن ، وينظم من الشعر ما يُزري بزهر الخمائل ، ويزهو على فرند السيف إذا أبرزَته الصياقل . ويأتي فيه بكل معنى بديع ، ويبرز فيه من بدائع البديع ، ما يعلو على زهر الربيع .

وكانت عادتُه في كلّ يومٍ على الصباح . أن يجيب | في الغالب |[٣] داعي الفلاح ، ثم يسير الى بيت من بيوت القهوة ، يكونُ فيه الماء الجاري مع المليح الساقي والجلوة . ويشرب من | قهوة |[٣] البنّ أقداحاً ، ويرتاحُ بها كأنه عَاقرَ راحًا ، ثم يشرع في الكتابه ، ولا يُبدي لأحد في الغالب خطابه . وكان في الغالب يقضّي نهاره حيث كان وقف الصباح . ولا يزول منه في الغالب إلاّ إذا راح في الرّواح . وربما كان يبيت هناك . ويقول | لقلبه |[٣] خُذْ من العيش ما هَناك . وكان قليل التكسب بأشعاره . و | كان |[٣] إذا مدح أحداً لا يذهب الى داره ، بل يرسل مدحه الى بعض توابعه ، راجياً بالإشارة شيئاً من منافعه ، وكان يدخل

---

(١) لا يزال هذا المسجد قائماً . وكان عله يُسمّى الفسقار (انظر تاريخ مدينة دمشق ، تحقيقنا ، القسم الأول من المجلدة الثانية ص ٥٧ رقم ١٦) ونسبته الى هشام ابن عبد الملك غير صحيحة .

(٢) انظر النعيمي ١ : ٢٠٥ .

(٣) ما بين الخطين ساقط من ه .

في جميع طرق الشعر من هجوٍ أو مديح ، أو تغزّلٍ في ذي جمالٍ مليح ، أو من مواليـا ، أو زَجَل ، أو سلسلة ، أو غيرها من هزَج ورَمَل .

وكان أسمرَ اللون منقبضَ الكون .

وكان الاديب محمد الصّالحي الهلاليّ يقدحه ، ويذمّه ويجرحُه ، عملاً بما عليه الأقران . من التحاسد والخذلان . وكان إذا أغضبه يُنكر حَسَبَه ، ويستلبُ نَسَبَه ، ويقول : هذا لقيطُ سَبِيّات مكة . وكان في وقت الرضا ينكرُ معرفته ويُبدي شكّه . وما كان ذلك الا للحسَدِ الذي لا يخلو منه في الغالب جَسَد . (٢٣ آ) لاسيا أهل الفضائل ، فانّ الحسد عندهم مركوز في الطبائع لا يُزايل .

وكان هو أيضاً يسبّ بعض شعراء عصره ، ولا يسلم زيادة فضيلة في أبناء مصره . لا سيا الشيخ محمد الصّالحي الهلالي المشار اليه – فانه كانَ شديد البغض له والتحامل عَلَيهْ . كنت يوماً ماراً في بعض أزقة دمشق فصادفتُه يقول لي هل سمعتَ بالحراع الذي أبداه محمد الصالحي ؟

فقلتُ : الى مَ تشير .وعلى أيّ كلامه تبدي النكير ؟

فقـال : إنّه يقول في مطلـع مرثيته لشيخك العلامة العماد الحنفي الدمشقي رحمه الله تعالى :

لم أقضِ من يوم الفراق شؤوني   فقضيتُ إنْ لم [(١)] أجرِ ماءَ شؤوني

قال : انظر الى عدم المرابطة بين المصراعين – وأيّ مناسبة بين الجزئين ، هذا مع كونه مأخوذاً من مهذب الدين الموصلي أخذاً شنيعـاً . سرقه وكساه لباساً فظيعاً ، لاوشْياً بديعاً ، ولا زهراً أظهره الزمان ربيعا –

فقلتُ : كيف قال المهذّب ، في نظمه المهذّب ؟

(١) ساقطة من ه .

فأنشدني له مطلع قصيدة . منضّدة من الدرّ الفريدة . وذلك قوله رحمة الله تعالى

أعلمتَ حقاً أنَّ ماء شؤوني   سببٌ يدلّ على خفيِّ شؤوني

قال : حَشَفاً وسوء كيلة . إنها خُطّةُ سوء في أسوأ قبيلة . وأنكر عليه كثيراً من معانيه . وغلّطه في شيء من مستهجن مبانيه .

فأمّا مناقشتُه في المعاني فغالبُها مسلّمة ، وأما مناقشتهُ في الألفاظ فكالسيُوف المثلّمة ، ليست عندنا بمقبولة ، ولا عن الأعلام منقولة . نعم إنه رأى له ضبطه . في كتاب خطّه . وهو ديوان الاستاذ عمر بن الفارض رضي الله عنه عند قوله في التائية الكبرى المسمّاة بنظم السّلوك :

ففي مرّةٍ لُبنَى وأُخرى بثينةٌ   وآونة تُدْعى بعَزَّةَ عزّتِ

فإنّ الشيخ محمداً كتبها بعزة عزة ، وكتب اللفظين على صورة واحدة بالتاء المربوطة الصغيرة ، وذلك مخالف الصواب بل الحق كتابة الأولى بالتاء الصغيرة والثانية بالتاء الممدودة على أنّها فعلٌ ماض ، وأنّ الجملة دعائية ، أي أعزها الله تعالى . وهذا سهل ليس مُسقِطاً لفضيلة فاضل ، ولا مُنقِصاً لرتبة كامل .

وكان الشيخ أحمد مع ظهوره بصورة الفقر يُتّهم بمالٍ كثير . | وظهرت له بعض آثار |[1] حيث أحبّ بعض أحداث دمشق وشكا عليه بمبلغ يقربُ من مئة دينار ذهباً . وكان القاضي حينئذ المرحوم العلامة القاضي محب الدين الحموي الذي سكن في دمشق ، وناب بها في القضاء (٢٣ ب) على مذهب الامام أبي حنيفة رضى الله عنه . فلما وقف العناياتي بين يديه ، وأقرّ الحدَثُ بالحق لديه ، طلب حبسَه ، واقتضى منه ديناره وفلسه .

---

(١) ساقط من ه .

فقال له القاضي : ياشيخ أحمد ! تحبسه عندك ؟

فقال : يا مولاي أنا في حبس حبه وهو في حبس مَالي . وحينئذ فلا له ولا لي .

ودام في ذلك الكلام ، ولم يحصل له منه إلا الكلام . وتفارقا ، ثم توافقا .

والبقيةُ من المال التي فضلت عن الحدث رام أن يخزنها الى أوانِ النزول في الحدث ، فأخفاها كالخيال . وكان يقول : لا وَلَدَ ولا مال . فخدمه بعض المريدين ، لبعض المتصوفين . فلما غرق في سكرات الموت ، وتحقق الخادم أنه شاربٌ شربة الفوت مدّ الخادم يده إلى ما عنده ، فتناول من بقياره ، ما أبقاه من ديناره ، فيُقال إنها مئة دينار ، فذهب وتركه وحيداً ، وأبقاه في سكراته فريداً . وكان ذلك في المدرسة البادرائية ، بدمشق المحميّة ، وذهب الشابُ الذي كان يخدمه الى الصالحية . فقُضي عليه بعد ذهابه وبابُ الحجرة مغلقٌ عليه — ولم يكن غير الخادم المذكور أحدٌ يتردّدُ اليه . فلم يشعروا به إلاّ بعد ثلاثة أيام . وتناول بعض المتشيّخين بقية [1] اثاثه ، وما بقي من كتبه وأثوابه . وذهب مجرداً عن الفضة والذهب ، دخل [2] اليها مجرّداً وخرج منها مجرّدا ، ولعله يكون مجرّداً عن الذنوب ، فإنّ خطاياه سهلة بالنظر الى ألطافِ علاّمِ الغيوب .

[3] كان ابتداء اجتماعي به في سنة ستٍ وثمانين وتسع مئة بصالحية دمشق ليلاً في زاوية اسمها الداوودية [4] ، وصورة ذلك أني كنت مع جماعةٍ من الفضلاءِ الأعيان في الزاوية المذكورة . وكان لنا مذاكرة فيما يتعلق بشعر الشيخ الاستاذ سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه — وحميتْ

---

(١) ه « بعض » .

(٢) ه « كما دخل » .

(٣) من هنا ساقط في ه ، ب .

(٤) انظر القلائد الجوهرية ١ : ٢٠٣ ؛ والنعيمي : ٢٠٢ .

نارُ المذاكرة والتحمت جمعية المحاورة . وكان غصن شبابي رطيباً ، وبُرْدُ حياتي قشيباً – وإذا برجل من ناحية الزاوية يُشارك فى المذاكرة المباركة ، أحسن مشاركة . ويقرأ نظير ما نقرأ من الأبيات ، ويشير الى مآخذها بالإشارات الواضحات . فقرّبناه وأدنَيْناه ، وبلطف المؤانسة عاملناه . فتقرب الينا ، وعطف بجوامع قلبه علينا . فسألناه عن اسمه ، ونسبه ، وأصله وحسبه . فانتسب وتسمّى ، وأوضح نفسه وما عمّى . وكنا نعرفه بالسماع ، قبل وقت الاجتماع ، فازدادت المعرفةُ تأكيداً ، وأصبح به لباسُ الصحبة جديدا ، ورافقنا وما فارقَنا، وهو الى هذا التاريخ ، وهو سنة تسع بعد الألف لنا مصاحب . (٢٤ آ) وبالآداب مناسب كتب اليَّ وكتبتُ اليه . و مدحني ومدحتُه . وناظرَني وناظرتُه |[1] فمن ذلك أني كنت نظمت في سنة ألف من الهجرة هذه الأبيات وهي قولي :[2]

أما ينقضي هذا الغرامُ من القلبِ … أما ينطوي هذا الملامُ عن الصبّ

|ألا حاكمٌ بيني وبين عواذلي … فيسألهم ماذا يريدون من عتبي |[3]

ألا راحمٌ في الحبّ أشكو ظلامتي … اليه فقد زادت يدُ البين في حربي

ألا ساعةٌ أخلو بـه فأبثُّـه … لواعجَ نيرانٍ أقامتْ على قلبي

أما في الورى مَنْ فيه رقةُ رحمةٍ … فيُبدي له حالي ويوصله كُتْبي

لقد ضاقتِ الدنيا عليَّ لبُعْده … على رحبها[4] من غاية الشرق والغرب

---

(١) إلى هنا ساقط في ه ، ب .

(٢) في ه ، ب د : وأنشدته مرة أبياتاً نظمتُها في الغزل ، وهي في الحقيقة عجيبة في بابها ، فريدة بين أترابها وهي قولي : » .

(٣) هذا البيت ساقط من ه ، ب .

(٤) ه ، ب « على وسعها » .

اذا لاح تبدو وقفةٌ في تلفظي — وأغدُو لما ألقاه أحيرَ من ضبّ
فلا فيّ إفصاحٌ ولا فيه رحمةٌ — فيسأل عن حالي ويفرج عن كربي
ولا أنا ذو فكرٍ صحيحٍ يدلُّني — على سببِ التأنيس أو سبب القُرب
وإني الى مولاي أنهيتُ[1] حالتي — فغايةُ شكوى العاجزين الى الربّ

فوقف عليها الشهاب العناباني المذكور فكتب نظيرها فقال :[2]

تَعشّقتُ في سكر النعيم مغفّلا — إذا جئتُ أشكو ما جرى[3] من أذى الصب
أصيحُ به ياساكنَ القلب رحمةً — لما بي فيمضي ساكتاً ساكنَ القلبِ
ويزداد قلبي حرقةً فوقَ[4] حرقةٍ — ويرحا على بَرْحٍ وكَرْباً على كَرْب
فلا البعدُ يُسليني ولا القربُ فيه لي — شِفاءٌ فوا حرّي[5] من البعدِ والقرب
ولا والذي يبقيه لم يدر علّتي — سواه كما لم يدر إلاه بالطبّ
فمَنْ ذاق طَعمَ العَذْبِ في الحبّ إنّني — على الدهر وحدي في عذابٍ من الحبّ
ويحلو له شتمي وسبّي لعلمه — بحبّي فيحلو لي على الشتمِ والسبّ
فياربِّ لا تكتبْ عليه خطيئةً — وسامحه واُصفحْ عنه واُحفظه ياربي

---

(١) ه ، ب « وجهت » .

(٢) ه ، ب « فأحبّ أن يُعارضها على الوزن والقافية فقال ، وأجاد في المقال ، وحلّى بعقود اللآل : »

(٣) ب « هوا » .

(٤) ه ، ب « بعد » .

(٥) ه « فواضيري » ، ب « فواضرّي » .

وكتبت[1] ايضاً يوماً دوبيت :

العينُ تعينُ أختَها في الدمعِ إن غاب عن الحمى غزالُ الجِزْعِ
الحزنُ على الفؤادِ في وحشتِه إذْ صارَ يذوب مثلَ ذَوْبِ الشمعِ

فقال الشيخ أحمد العناباتي يعارضه :

قد ذبتُ على هواك ذوب الشمعِ أفديك بنور ناظري والسمعِ
والله وإنها يمين الشَرْعِ حبي لكَ يامُعَذّبي بالطبْعِ

[وكان يتردّدُ إليّ ، ويتفضل بذلك عليّ ، زارني مرة في المدرسة الناصرية الجوانية ، بدمشق المحمية ، وأنا مجاور بها للقراءة على شيخنا العلامة العماد الحنفي الدمشقي ، وكان مدرّساً بها في ذلك الزمان ، فلم يجدني في الحجرة . فكتب لي في الحائط بالقرب من بابها :

أتيت وبي ليل من الهم علني أجلّيه بالانوار من طلعة البدر
فعدت كما عاد الذي شفّه الظما ولم يشفه لقيانه موضع البحر][2]

مرّ مَرّةً بالمدرسة الناصرية الجوانية ، فرآني مستريحاً في عالم النوم ، فكتب على باب الحجرة التي كنت بها مستريحاً[3] :

جاء المحبُ اليك بعد سَنَهْ رآك عنه محجباً بِسِنَه
ياحسنَا جاءه المحبّ فما أوجده سوء حظه حسنه

---

(١) من هنا يختلف النص في الترتيب بين نص م الذي أثبتناه ونص هـ و ب المتشابهين .

(٢) الزيادة من هـ ، ب

(٣) هـ ، ب : « وكتب على باب الحجرة المذكورة أيضاً ، وقد أجاد أيضاً ، وقد جاءني فوجدني مستريح البدن بغفلة الوسن قوله : »

وكتب أيضاً على باب الحجرة المذكورة، وقد جاء يزورني من دُمّل فما رآني، هذه الأبيات[1] : (٢٤ ب)

سلمك الله وقد ذمّ لكا ... من كلّ سوء وشفى دمّلكا
ياحسن الجميع مَنْ صفا ُته ... تبارك الله الذي كمّلكا
كملت في الخَلق وفي الُخلقِ فما ... أعرفُ إنساناً أرى أم ملكا

وكتب أيضاً على باب الحجرة هذين البيتين وفيهما اشارة[2] :

يزيدُ لكم جفاكم من ودادي ... وذنبي عندكم تلك الزياده
لكم مني مقالُ أبي فراسٍ ... ولي منكم مقال أبي عُباده

قلتُ : أشار بقوله : لكم مني مقال أبي فراس ، الى قول أبي فراس الحارث بن حمدان :

أساءَ فزادته الإساءةُ حظوةً ... حبيبٌ على ماكان منه حبيبُ
يعد عليّ الواشيان ذنوبَه ... ومن أين للوجهِ الجميل ذنوبُ ؟

وأشار بقوله : ولي منكم مقالُ أبي عبادة البحتري :

إذا محاسنيَ اللاّئي أدِلُّ بها ... تُرى ذنوباً فقلْ لي كيف اعتذرُ

واجتمعنا يوماً معه في مجمعٍ عظيم ، في مقامٍ كريم . فقال لي : قد مدحتكم بقصيدةٍ في عتاب ، وأريدُ عنها الجواب .

فقلتُ له : إنْ رأيتُ القصيدة ، عارضتُها بقصيدة فريدة .

---

(١) في ه، ب « وسمع مرة أن عندي دمّلاً من دم ملا ، فجاء عائداً فلم يجدني ، فكتب على باب الحجرة هذه الأبيات : »

(٢) ه، ب « وجاء مرة أخرى وكتب على باب الحجرة معاتباً من سبب العتاب »

فعرض عليّ في المجلس قصيدته التي أشار اليها وعوّل عليها . وهي هذه[١] :

تجنّى ولما أنْ عَتبْتُ تجنّبا وزادَ ترضّيه عليّ تغضّبا
فواحَرَبا مِنْ حُبّ قاسٍ يزيدني على جوره وُدًّا له وتحبّبا
غزالٌ نَفُورٌ قطُّ ماجئتُ باسماً لِمَلْقياهُ إلاّ صدّ عني وقطّبا
يراني فيزوي وَجهَه عند رؤيتي كما شرب المخمورُ كأساً تقصّبا
حلا ليَ فيه المرُّ حتّى حسبتُه يريد بإبعادي اليّ تقرّباً
فهل قادمٌ مَنْ وصلُه طال نأيُه فيُعدي على هَجْرٍ أقام وطنّبا
فقد جار دمعي وهو يجري صبابةً وقد مَلّ شِعري وهو يملي تَعَتُّبا
وأذهبتُ عمري في تلاقيه علّ أنْ يصادف عذري في تلافيه مذهبا
فيا راقداً أقْرَحتَ جَفناً مُسهّداً ويا منعماً[٢] أشقيتَ قلباً معذبا
عسى عَطْفَةٌ أحيا بها أو منيّةٌ أُراحُ بها من أن أعيش مُعَذّبا
ويامُنْيَتي إمّا أردتَ مَنِيّتي فَرِدْ بي موتاً من صدودك أعذبا
فلو أنّ رَضوى حاملٌ ما تحمّلتْ صَفَاةُ فؤادي عاد[٣] رضوى بهِ هَبَا
ولولا الهوى مالانَ للذلّ جانبي وكنت على قودِ المذلّة مُصْعَبا
وإني لآبي الضَيْمِ إلاّ من الهوى وكم عاشقٍ سيمَ الهوانَ فما أبى

(١) ه ، ب « قلتُ : وقد كتب اليّ نحو عشر قصائد من شعره . وقد أجبتُه عن واحدة منها . فالقصيدة التي أجبته عنها هي قوله : »

(٢) ه ، ب « ويانائماً »

(٣) ه ، ب « صار »

أدومُ بودي للحبيب وإن جفا وأحفظُ عهدي للصديق وإن نبا

وخلٍّ تخلى بعد أن كنتُ واثقاً بميثاقه أن لاتُحَلَّ له حُبَا

أُلمُّ به تشعيثَ حالي وألتقي بأخلاقه خير[1] الرجال المهذبا

يعاقرُني راحَ المعانى فانثني براحةِ لفظٍ تُرجِعُ الشيبَ للصِبَا

ويمنحُني علماً وبرّاً كأنني أرى ابنَ قريبٍ[2] منهما والمهلّبا[3]

وليثٌ فصيحٌ فارسٌ كلَّ شاردٍ (٢٥آ) بإعرابه أنسى الفصيحَ[4] وثعلبا

إماءٌ اوافيه بنظمي مفضّضاً[5] فأُبصره من نقده عاد مُذهبَا

تماسك عن صوبي بإقباله كما تماسك صوبُ الغَيث عن زهر الرُّبا

أغاث فلما أنبتَ الودَّ حاد عن رواه فأظماه ولو عاد أخصبا

وزحزح من قدري لديه وقَدْرُه بقلبيَ أرسى من ثبير[6] وأرسبا

[وقلبي ينبئني بصحة قلبه ولكنه كم قلّبَ الدهرُ قلّبا][7]

فيا حسناً مازال بالفضل محسناً ولما يزل بالعلم والحلم مُحسبا

---

(١) م ، ب « غير »

(٢) يعني الأصمعي ، فاسمه عبد الملك بن قريب .

(٣) يعني المهلب بن أبي صُفرة .

(٤) يعني كتاب الفصيح لثعلب .

(٥) ه ، ب « منضّضاً »

(٦) أي جبل ثبير .

(٧) الزيادة من ه ، ب

أتنسى محبّاً في ذرى فضلك انتشى | أجلّك أن تكسوه ثوباً[1] فتسلبا
أعيذك أن ألقى رياحك زعزعاً | عليّ وعهدي بارتياحك لي صبا
عتبتُ بإدلال المقرّ بذنبه | فكن بجواب المانح العفو معتبا
وخيرٌ لعبد لم يجد غير ربه | يلاقيه بين السيف والعفو مذنبا
فإن تنتقم لم تخطِ أو تعفُ لم تزل | كريمَ السجايا تنظر العفوَ أصوبا

فكتبتُ أنا اليه الجواب، مستمداً بوبّ الأرباب فقلتُ[2]:

الى كم ترى يا راحة القلب[3] مُغضَبا | وحتّى مَ لا ألقاك إلاّ مُقطّبا
أراك فيغشاني ارتياحٌ الى اللقا | فتعرض عني لاهياً متجنّبا
تجوزُ ولا تُبدي اليّ التفاتةً | أليس التفاتُ الجيدِ من عادة الظبا
نصيبي إذا ألقاك صدٌّ مُبرّحٌ | وقد كنتُ ألقى منك أهلاً ومرحبا
على أنني راضٍ بما ترتضيه لي | وأنت فدَتْكَ النفسُ مازلتَ مُغضَبا
رعى اللهُ ظبياً مايزال منعّماً | وإن كان قلبي من جفاه مُعذّبا
ينامُ ولايدري بمن بات ساهراً | يُقاسي أواراً في حشاه تلهّبا
له نَفَس مما شجاه تصعّدا[4] | ودمعٌ على بَيْنِ الحبيب تَصَبّبا

---

(١) ه، ب «عزّاً»

(٢) ه، ب «فكتبت اليه الجواب عن ذلك في شوال من شهور سنة تسع وثمانين وتسع مئة فقلت:»

(٣) ساقطة من ه

(٤) كذا في جميع النسخ ولعلها مُصَعّد.

وممّا شجاقلبي وهيّج لوعتي ... عذولٌ أطالَ اللومَ فيه فأسهبا

تطلّبَ منّي سلوةً ما عرفتُها ... وأبعدُ شيءٍ في الهوى ما تطلّبا

أيبذلُ صبٌّ ما صبا لتغيّرٍ ... وقلبٌ حفوظٌ للوفا ما تقلّبا

ألا فليقصّرْ عاذلي من ملامتي ... فقد رامَ من سلوايَ عنقاءَ مغربا

نسيتُ المعالي إن نسيتُ عهوده ... ولو صار جسمي من تباعده هَبَا

وفيتُ بعهدي للحبيب[1] من الصبا ... فكيف سلوّي بعد أن صرتُ أشيبا

سقتْ سحبُ الأفضال[2] أرضَ أحبّتي ... ولازال واديهم مدى الدهر مُخْصِبا

فقد مرّ لي فيها ليالي تواصلٍ ... أغازلُ ظبياً أحورَ الطرفِ أشنبا

له حُسْنُ وجهٍ أخجلَ البدرَ مُشْرِقاً ... وقدٌّ قويمٌ أخجلَ الغصنَ في الرُّبا

وأرشفُ كأسَ الأُنسِ وهو مُروَّقٌ ... وأرتادُ روضَ القُرْبِ ريانَ مُعْشِبا

وأنظرُ من حسنِ الأحبّةِ مَنْظَراً ... وأسمعُ من طيبِ الأغاريدِ مُطربا

فمرّتْ كما مرّتْ أوائلُ بارقٍ ... وأبقتْ أسىً بين الضلوع مطنّبا

[فما أشتهيه صار عندي مبعّداً ... وما لستُ أرضاه اليّ مقربا][3]

فصبراً على حكم الليالي وجورها ... فربّ امرىءٍ بالصبرِ أدركَ مطلبا

وخِلٍّ أتاني منه عتبٌ كأنّه ... أزاهيرُ روضٍ فتّحتها يدُ الصبا

---

(١) ه ، ب « للصديق » .

(٢) ه ، ب « الاقبال »

(٣) الزيادة من ه ، ب .

أتاني وجنحُ الليلِ مدَّ رواقَه   وبدرُ الدّجى في أُفقِهِ قد تحجّبا
فلما فَضَضْتُ الختمَ من عَقدِ دُرّه   أضاءت وجوه الأرض شرقاً ومغربا
يخبّر أنّ الودَّ منه بحاله   وأنّ حُسام(١) الودّ منّيَ قد نبا
وأنّ الليالي غيّرتني وأنني   (٢٥) بتَخِذتُ الجفا والصدَّ والبُعدَ منهبا
أجلْ غيّرتْ جسمي الليالي وحالتي   وعَقد ودادي لم تُحلّ له حُبى
بقلبي له ودٌّ قديمٌ حفظتُه   أقام عَلَى مَرِّ الليالي وطنّبا
أيطلبُ في إثبات حبّيه شاهداً   وحسنُ ثنائي عنه ما زال مُعربا
أيحسبُ روضَ الحبِّ جفَّ نباتُه   وبرق ودادي لم يكن قط خُلّبا
[أأنساه أو أنسى زماناً به مضى   صفا لي ماقد كدّر العيش مشربا](٢)
أليس إماماً شاع بالفضل ذكرُه   فشرّق في كل البلاد وغرّبا
أليس سليلَ الغُرِّ من كلِّ ماجدٍ   يضيء سناه في دجى الجهل كوكبا
[أليس ابن مَنْ دان الزمان لحكمه   فأضحى ذلولاً بعد أن كان مُصْعبا](٢)
[أليس وحيداً في الزمان وأهله   وإن كان كلّ الجمع فيه تكتّبا](٢)
تعتّب كيْ يُبقي المودّة بيننا   ومَنْ رام إبقاء الوداد تعتّبا
شهابُ المعالي إنْ غدا الدهر جائراً   وفي وَجْهٍ ما قد رمتُه منه قطّبا
فلا تُعتِبَنْهُ إنّ ذلك دأبُه   أأبصرتَ ذا فضلٍ به نال مأربا

---

(١) ه « ختام »
(٢) الزيادة من ه ، ب

أجبتُك من بعد اعترافي بأنني جزَيتُك عن شمسِ الظهيرة غيهبا
وهل يلحق النِّضوُ الضَّعيفُ وإن سمى عتاقاً من الجرْدِ السلاهبِ شُذّبا
فدُمْ جامعاً للعلم والحلم مُفْرَداً خبيراً بأسرار العلوم مهذّباً
مدى الدهر مادامت بروقٌ من الحمى وما ناح قريٌّ الرياض فأطربا

ومن شعره ومن خطه نقلتُ في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من صفر سنة إحدى وعشرين بعد الألف :

شهودُ المحبـة لا تختفي وبارقةُ الشوْقِ لم تُخْلفِ
فيا مُدّعي العشق أينَ الشهودُ من الدمعِ والجسدِ المُدْنفِ
وأينَ الحنينُ وأين الأنينُ وأينَ الوفـاء لمن لا يفي
وما عَرفَ العِشْقَ إلاّ فتىً بغير التعشّقِ لم يُعْرَفِ
له في الصبابة صَبُّ الدموعِ وإلفةُ لاعجه المتلفِ
بقَلْبٍ الى الصبْرِ لم ينقلبْ وطَرْفٍ على النوم لم يَطْرفِ
ومَنْ لم يَذُقْ بالهوانِ الهوى ويشرفُ بالذلِّ لم يشغفِ
ولم ينصفِ الصبُّ[1] إن قال في تسلّيه في الحبّ مَنْ منصفي
فصبراً لأحكام جور الهوى فما فيه من مُسْعِدٍ مُسْعِفِ

[قلتُ : وقد تحاضرنا معه ليله ، أسال بها الشوقُ سيله ، فقرأتُ بالمناسبة ، أثناء المصاحبة ، قول مَنْ قال ، وأجاد في المقال :

حمامَ الأراكِ ألا فأخبرينا لمن تندبين ومـا تعلمينـا

(١) ب « الصبر »

لقدشَقّ نوحُك جَيْبَ القلوب　　وأجريْتِ بالدمع منا العيونا
تعاليْ نقاسمْكِ هَمّ النوى　　وندبُ إخواننا الظاعنينا
ونسعدُكُنّ وتُسْعِدْننَا　　فإنّ الحزين يُواسي الحزينا

قال الشيخ أحمد العناياتي صاحب الترجمة : أتدري أيها الأستاذ لمن هذه الأبيات ؟ فقلتُ له : لا أدري قائلها ، غير أني أعرف أنّ الوليد أباعبادة البحتري الشاعر المشهور كان يتمثل بها كثيراً ، ويُجري بها على الخدّ دمعاً غزيرا . وظهرت من العناياتي عبارة كانت قد صدرت مني على اسلوبها اشارة ، وهي معارضتها بأبيات تجري على مثلها العبرات . فقال مبتدئاً بذلك ، سالكاً هاتيك المسالك :

أجاعلةَ الهجرِ في الحبّ دينا　　إذا لم تجودي بوصلٍ عِدينا
بعينيك هذا السقامُ الذي　　خفينا به فخفي اللهَ فينا
وقولي لألحاظك القاتلا　　ت كم تفتكين أما تكتفينا
ظلمتِ القلوب أما تتقيـ　　ـن ما يفعل الله بالظالمينا !
قلوبٌ بسحركِ قد آمنتْ　　فلا تضعي السيف في المؤمنينا
قلوبٌ إذا ما دعتها العيون　　الى حَيْنها جئنها طائعينا]

قلتُ : وقد قال بعضُ الطلبة في دمشق لمّا مات الشيخ أحمد العناياتي مشيراً الى عام وفاته : مات العناياتي . فحسبنا ألفاظَ : مات العناياتي بحساب الجمّل فكان موافقاً لتاريخ وفاته . مات في سنة أربع عشرة بعد الألف . وهذا من العجائب التي يقلّ اتفاقُ مثلها . وذلك أنّ في اللفظ تاءين بثمانمائة ، وبقية حروف العشرات مائتان وعشرة ، والآحاد أربعة

ألفات بأربعة في العدد فكان ذلك ألفا وأربعة عشر . وهذا من غرائب الاتفاق الذي يقل وجود مثله .

قلتُ : ومن العجائب أيضاً التي اتفقت في شأن المذكور أنّ رجلاً من الفضلاء الصلحاء بدمشق رأى الشيخ أحمد العناياتي المذكور في منامه بعد مماته [١] . فقال له : يا شيخ أحمد ! قل لي ما فعل الله بك ؟ فقال له هذين البيتين . وجلس الرجلُ وهو يحفظ البيتين . وهما قوله رحمه الله تعالى (٢٦ آ)

كلوني للكريم وخلّفوني طريحاً أرتجي عفوَ الكريم

لأني عـاجزٌ عبدٌ حقيرٌ وانّ الله ذو فضـلٍ عظيم

[٢]وبالجملة فهو شاعرُ الوقتِ بالإجماع ، وصاحبُ ديوان العرب بلا نزاع ، لا يماثلهُ في نظم الشعر مماثل . ولا يُشاكله في سرعة النظم مـاثل . غير أنه ضيّق الأخلاقِ ، خالٍ من لطف المعاشرة مع الاخوان والرفاق . يرى صديقه الأقرب ، فيربُ منه كأنّه عقرب . ويكون مع الصديق مسامراً ، ومع العشيرة معاشراً ، فإذا فارقه برهةً من الزمان ، نسيه حتى كأنّه ليس بإنسان ، أوْ ما رامقه ناظر ولا إنسان . ويلبس الثياب التي لا تليق بأمثاله ، ويتوشّحها متوشحة حتى تذهب من المزاج وصف اعتداله . وهو يَتعمّمُ بالمئزر والصّوف على طريقة الصوفية . ومـاله اهتمامٌ بتحصيل الدنيا الدنيّة . وما تزوج في عمره الطويل ، ولا مـال الى خليلة تخصّنه عن خليل . وللناسِ فيما يعشقون مذاهب . وكلُّ شخصٍ الى مطلوب نفسـه ذاهب . وهو الآن مقيمٌ بالمدرسة البادرائية ، بدمشق المحمية . مدح كثيراً من القضاة والأمراء . وعارضَ كثيراً من الكتّاب والشعراء . ففـاز بالقدح المعلّى ، وأصبح من الفصاحة بالمحلّ الأعلى . وفقنا الله وإياه ، الى ما يحبه ويرضاه . إنه سبحانه وتعالى من الداعي قريب ، ويسمع ويجيب [٣] .

---

(١) ﻫ ، ب « وفاته »

(٢) كل ماسيأتي ساقط من ﻫ ، ب

(٣) الى هنا ينتهي السقط من ﻫ ، ب

٢٠

الشيخ أحمد المؤذّن الضرير الحافظ

كان رجلاً يقرأ القرآن كما أُنزلَ بالسبع حفظاً عن ظهر قلبه . وكان يقرأُ كلَّ ليلةٍ بعد صلاة المغرب في الجامع الأموي جزءاً من القرآن العظيم مرتّلاً على كرسيّ الوعظ ، فيحضره أكابرُ دمشق وأعيانُها من سائر الأصناف مابين رومٍ وعجمٍ وعرب . وبالله لقد حضر قرآءته هــذه قاضي القضاة أحمد أفندي الأنصاري السابق ذكره . فقال لي : بالله إذا سمعتُ قرآءة الشيخ أحمد المذكور أظنُّ أنّ جبريل يتلو القرآن على محمد ﷺ . وكان مع هذا الحفظ العظيم لطيفاً حسنَ الخلق . أخذَ القرآءاتِ عن شيخ الإسلام الشيخ أحمد الطيبي الكبير المتقدم ذكره ، وأخذ عنه القرآن الشيخُ بعثُ الله قارىء المولد الشريف بدمشق . رأيتُه وهو يقودُ الشيخ أحمد المذكور الى إيوان الجامع الأموي ليقرأ عليه . فكنا نعجب من أعمى يقود أعمى . وكان الشيخ أحمد المذكور يمشي على القبقاب العالي ، وما ذاك إلاّ بالهداية القلبيّة ، والعناية الرّبانيّة . وكان بيتُه تحت منارة العروس[١] بالجامع الكبير . ولما مات فقدت الشام منه أُنساً ربّانياً ، ولطفاً قرآنياً وكان يُعدُّ من (٢٦ ب) محاسن دمشق .

مات في حدود التسعين والتسع مئة فيما أظنُّ . رحمه الله تعالى .

---

(١) هي المنارة الشمالية من جامع بني أمية . انظر عنها كتابنا : مسجد دمشق .

٢١

الشيخ أحمد الكردي العمادي الشافعي
نزيل الكلاّسة بدمشق

هو الشيخ الذي اجتهد على تحصيل العلوم ليلاً ونهارا ، واتخذها له شعاراً. وَرَدَ الى دمشق الشام في حدود تسعين وتسع مئــة ، ونزل بالمدرسة الكلاّسة [١] . وكان يتردّد إليّ الى المدرسة الناصرية [٢] الجوّانيــة ، بدمشق المحميّة . وكان يقرأ عليّ شرح « جمع الجوامع » في الأصول للمحقق المحلّي ، وكنتُ بعد فراغه من القرآءة في الكتاب المذكور أمردُ عليه حصّةً كبيرة من « شرح المواقف » للعلامة السيّد علي الجرجاني ، لأنه أخبرني أنّه قرأه على بعض المحقّقين في بلاده . واستمرّينا على هذا المنوال الى أنْ قَرَأَ شَرْحَ « جمع الجوامع » بتمامه ، وقرأتُ أنا موقف المقدمـات وموقف الأمور العامة وموقف الجواهر ، إلاّ قليلا . ولازم بعــد ذلك الإقراء والإفادة للطلبة في جميع العلوم ، واشتهر بدمشق وطار صيتُه في الآفاق . وصار للناس فيه اعتقــادٌ حسنٌ جداً بحيثُ أنه كان يُذكرُ بكمالِ الصّلاح في مجالس حكّام دمشق . وصارت له علوفةٌ من الجوالي بدمشق نحو عشرين درهماً عثمانيا كلّ يوم ، وتُوسّلَ اليه إلى مكانه فينفق منها على نفسه بالكفاف . وهو الآن أنفعُ الموجودين للطلبة . ولقد اجتمعتُ به بالجامع الأمويّ ليلاً ، وكان ذلك ليـلة الاثنين أواسط جمادى الأولى من سنة

---

(١) انظر النعيمي ١ : ٤٤٧

(٢) انظر المصدر السابق ١ : ٤٥٩

تسع بعد الألف ، فتذاكرنا معه أحاديث اجتماعنا به ، وخاض معنا في كثيرٍ من العلوم ، فوجدتُه[1] قدْ ترقّى الى الغـاية في حفظ العلوم لاسيّما المواد الكلاميّة .

أخبرني منْ أثقُ به من فضلاء الطّلبة أنّ الشيخ عمر الحرستاني نزيل الخانقاه الشميصاتية رأى الشيخ أحمد المذكور بعد وفاته في منامه فقال : يا عمر أنتَ خدَمتَني في مرضي كثيراً فخُذْ هذا . وأعطاه شـيئاً . فاستيقظ وفي يده دينارٌ من الذهب . ورآه كثيرٌ من الناس وتعجّبوا من ذلك .

وبلغني أنّ رجلاً قال للشيخ عمر المذكور : أعطني هـذا الدينار بثلاثة دنانير ، فما أعطاهُ وأبقاه في يده تبرّكا .

وهو الآن مقيمٌ بالمدرسة الكلاّسة بدمشق ينفع الناس بالتدريس والدعاء ، سهّل الله لنا وله طريق الخيرات ، ودفع عنا وعنه جميع المضرات .

وتوفي الشيخ أحمد الكردي العمادي المذكور في يوم السبت التاسع والعشرين من ذي الحجـة من سنة تسع بعد الالف ودفن بتربة مرج الدّحداح رحمه الله (٢٧ آ)

---

(١) هـ ، ب « فرأيته »

٢٢

الشيخ أحمد الجوهري

هو أحمد بن علاء الدين بن محمد بن محمّد بن عمر بن ناصر الدين بن عليّ بن عمر البَهْرامْآبادي الجوهري نسبة الى بهرام آباد ، قرية من قرى إصفهان ، على ما كتب لي ولده سيدي أبوبكر بخطه .

هو الشيخ الذي نبغ من دوحة المجد ، وأدرك الجدّ السعيد بسعادة الجد ، وهو وإن كان مولده في دمشق الشام ، سقاها صوبُ الغمام ، لكنّ أسلافه وردوا من جانب إصفهان . وقطنوا بدمشق دار اليُمْن والأمان . ونشأ سيدي أحمد هذا طالباً للعلوم لمجرّد تحصيلِ الكمال ، لا لإدراك شيء من الأموال ، لأنّه كان غنياً الى الغاية ، متمولاً الى النهاية ، وكتب الخطَّ الحسنَ المليح ، ونظم النظمَ الفصيحَ الصحيح . وسافر الى الأقطار ، وجاب العمرانَ والقفار ، ورجع الى دمشق بمالٍ غزيرٍ ، وخيرٍ وافرٍ كثيرٍ ، وألقى بها عصا الترحال . وأقام لاينوي عنها الزيال . ووكّل مَن يتعاطى له بها أمورَ دنياه ، وهو مقبلٌ على طاعة مولاه .

ولم يزل مقيماً بدمشق لايريم ، واتخذ له أصدقاء كلّهم صالحٌ وكريم يتذاكر معهم كلام العارفين ، ويُحاضرهم في أحوال الأولياء السالفين .

وكان حسن الشكلِ طويلَ القامة ، ظريفَ اللّبسة لطيف العمامة . وخلف بدمشق أربعة أولاد : عليّ ، وسليمان ، وأبو بكر ، وحسَن .

فأمّا عليٌّ فإنه سافر إلى بلاد مصر ، وأقام مدّة في الصعيد . ثم رجع

به الحظ السعيد ، إلى أن كانت وفاته بالحرم المقدس الأقصى وأدرك بذلك المقام الأقصى .

وأمّا سُلَيْمان فقد أُسِرَ في نواحي البحر عند دمياط ، واستمرّ مقيماً في الأسر بمدينة مالطة نحو ثلاثة أعوام ، إلى أن أحسن الله خلاصه .

وذلك أنّ رجلًا كان مأسوراً بمدينة مالطة المذكورة وله معرفة بالوزير خضر باشا الحاكم يومئذ بمصر المحروسة فأرسل الوزير المذكور ، من اشترى الرجل المزبور ، من نفس مالطة . فلما حضر الرجلُ وخلص الى مصرَ حكى لحضرة الوزيرِ المذكورِ عن حال المأسورين بمالطة ، وما يجدونه من الألم والجفاء ، وذكر له سليمان بن أحمد [الجوهري] صاحب هذه الترجمة وقال له : إنّ فكّ أسيرٍ من يد أهل مالطة يعدل عند الله حجة مبرورة . فأرسل الوزيرُ رجلا بمالٍ فاشترى جماعة من أعيان الاسرى ألقى أسماءهم إليه ذلك الرجل المذكور ، ومنهم سليمان المذكور فخلص وجاء الى مصر .

واجتمعتُ به وسألتُه (٢٧ ب) عن حال الاسرى ، فذكر أموراً عجيبةً . ورأيتُه قد تعلّم لسان النصارى بمالطة . وذكر لي أن غالب أهل مالطة يعرفون العربيّة لانهم كانوا في الاصْل في بلاد ساحل القدس ولما ملك بلاد الشام المرحوم السلطان العادل نور الدين الشهيد والمرحوم الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب خرج ملوك السّاحل مع طوائف النصارى الى بلاد الكفر ، فعيّن لهم ملك النصارى جزيرة مالطة فقطنوا بها .

وأخبرني أن أهلها يقولون : مدينتنا هذه وما يتبعها من البلاد وقفُ يحي النبي عليه الصلاة والسّلام . وذلك لأنه قد غسل المسيح عليه الصّلاة والسّلام في نهر الاردن المقارب لفلسطين في يوم المعمودية ، ولذلك أكرمَه الملوكُ ووقفوا عليه هذه الجزيرة .

وذكر لي قصةً عجيبة تدلّ على كمال خفة عقول النصارى . وهي أنّ أهل مالطة عندهم صنمٌ كبير من الذهب مرصّعٌ بالجواهر يُعظّمونه بحيث يعبدونه ، وله خُدّامٌ من رهبانهم وقسّيسيهم ، وفي كل سنة يأخذ الصنمَ المعبودَ رجلٌ منهم ويُلقيه في بستان بين زهر الفول ، ويقولُ للملوك بها والأمراء ولبقية عوامّ الناس : إن ربّكم قد غضب عليكم ورحل عنكم . فيجدون لذلك من الألم مالا يعلمه إلاّ الله جلّ وعلا . ويلبسون خشنَ الثياب ، ويأتون إلى الراهب الذي أخبرهم بغيظِ معبودهم ويقولون له : كيفَ السبيل إلى أن تُرَضّي معبودنا علينا ؟ وكيف الطريقُ إلى رجوعه الينا ؟ فيقول لهم : ما آن الأوان ، ولاقرُب الزمان [1] . فيستمرون على الحزْن والألم والصيام ولبس خشن الثياب ثلاثة أيام أو ماقاربها ، ويجمعون أموالاً كثيرة للرهبان الذين يخدُمون ذلك الصنم ، إلى أن يقول لهم الراهب الموكّلُ به : اليوم يرضى عليكم ويرجع . فيخرُجون لاستقباله ، ويذهبُ الراهبُ ويأتي به من موضعه ، ويدخـلُ به المدينة بشهْرةٍ عظيمةٍ واستقبالٍ عامّ ، الى أن يدخله الى مكانه وعند ذلك تطمئن قلوبُهم ويفرحون بعوْد معبودهم إليهم ورضاه عليهم . فنعوذُ بالله تعالى من هذا الفعل السخيف الذي لايرضى به من في عقله ذرّة من الصّحة . اللّهم ثبّتنا على الإيمان ، واجعلنا من أهل التوحيد والايقان بلطفك وعنايتك ياأرحم الراحمين .

وأما أبو بكر فإنه صاحبُنا وصديقُنا ، وتلميذُنا ورفيقنا . قرأ عليّ في أوائل أمره . ولازَمَني في صدر عمره . وصارت له معرفه كاملة بالعربيّة ، والفنون الأدبيّة . وله شعرٌ حسنٌ ، فمن ذلك (٢٨ آ) قوله :

يا مَنْزِلاً بفراديسِ الشآم سقى ... رُبا مغانيك هطّال يُرَوّيها

(١) ب « الرضا »

فلي بموطنِكَ السامي أخو ثقةٍ　　فدته روحي مع الدنيا وما فيها

وأنشدني قصيدةً لنفسه يذكر فيها منازلَ الحج لأجل صديق له حجّ . ولولا خوف الاطالة لذكرتُها ، لأنها قصيدة حسنة في بابها ، فائقةٌ عند أربابها .

وأما أخوه سيدي حسن فإنه في هذا التاريخ وهو سنة تسع بعد الألف مقيمٌ بمصر المحروسة لضيقِ صَدَرَ له في دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام . وله فهم فائق ، وشعر في بابه رائق . كتب اليّ مكاتيب تدلّ على لطْف طبْعه واستقامة فكره .

ولنرجع الى ذكر والدهم سيدي أحمد صاحب الترجمة فنقول : كان صاحب كراماتٍ وأحوالٍ ومكاشفاتٍ صدرتْ منه قرب الانتقال . وكان موسوماً بعلم الكيمياء ، وصَرَفَ عليها مالاً كثيراً ، واستمر ملازماً على العبادة ، عاكفاً على السبحة والسجادة . إلى أن توفّاه مولاه وانتقل الى رضاه . وكان له شعرٌ حسنٌ فمن ذلك قصيدةٌ مَطْلَعُها :

بأبي الشموسُ الفاتكاتُ نواعسا　　الجالباتُ الى القلوب وساوسا

لا يُرتجى لأسيرهنَّ إفاقةٌ　　كُنْ مِنْ خَلاصِكَ إنْ أَسَرْنَكَ آيسَا

وهي قصيدة فريدة مشهورة مذكورة .

وله أبيات حسنة وهي قوله :

هذي المنازلُ قبلنا　　كم قد تداولها أناسْ

كم مدّعٍ وَضْعاً وكَمْ　　من مدّعٍ وضع الأساس

غرسوا وغيرهم اجتنى　　من بعدهم ثمر الغِراس

دولٌ تمرُّ كأنَّها　　أضغاثُ حلمٍ في نُعاس

وله كراماتٌ وخوارقُ عادات ، تدلّ على أنّه من أهل الولاية ، وأنّه وصل من الكمال الى النهاية .

والحسنُ الجوهريُّ المشهور في دمشق جَدّ صاحب هذه الترجمة لأمّه . وهو الذي صنع القماري الثلاث العظيمات التي فوق محراب الجامع الأموي بالمقصورة .

ولما دخل المنصور الغازي السلطان سليم الى بلاد الشام استقبله الجوهري المذكور . وكانت له عنده الرفعةُ التامّة .

وللحسن المذكور بيوتٌ بدمشق ، وعماراتٌ لطيفة ، ومسجدٌ عليه أوقافٌ دارّة .

وأخبرني مَنْ أثقُ به من أقاربهم أنّ العارف مولانا عبد الرحمن الجامي ، قدّس الله سرّه السامي ، ورد الى دمشق حاجا فأنزله الحسنُ الجوهريُّ المذكورُ في بيته وأكرمه الى الغاية .

وحاصلُ الأمر أنّ بيت الجوهريّ بدمشق ، بيتٌ كبيرٌ معروف بالمعروف ، وموصوف بإكرام الضيوف .

وُلد صاحبُ الترجمة ، على (٢٨ ب) ما أخبرني ولده سيدي أبوبكر المذكور ، في أواسط جُمادى الآخرة من سنة ست عشرة وتسع مئة ، وتوفي في مستهلّ شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وتسع مئة ودُفن بدمشق بمقبرة الباب الصغير ، وكانت له جنازة عظيمة جداً . رحمه الله تعالى .

٢٣

الشيخ أحمد البهنسي

هو صاحبنا ورفيقُنا، وتلميذُنا وصديقنا. وهو أحمد بن يحيى بن محمد ابن محمد البهنسيّ الحنفي. شابٌ نشأ في طاعة مولاه، ولم يُعرف منه ما يُخالف طريقَ الحق بلا اشتباه، بل نبغ في الدوحة البهنسيّة فريداً، واجتهد في تحصيل العلوم زماناً طويلاً مديداً. اختارني جدّه شيخ الإسلام نجم الدين محمد البهنسي لإقرائه وإقراء أخيه |المرحوم|[١] سيدي محمد. فأما محمد فإنه مات شاباً وما فارقَ سنّ الشباب، واحترقت في لوعته القلوبُ والألباب. واستمرّ الشيخ أحمد هذا يطلب العلوم وحده، ويسعى على تحصيل الكمال جهده. بحيث أنّه قرأ |عليّ|[١] «المقدمة الآجرّومية» مرّتين بتحقيق وتدقيق وتحرير وتقرير. ثم أقرأته بعدها «القواعد الكبرى» للعلامة جمال الدين بن هشام، فانتفع بها انتفاعاً كثيرا، ورأى منها خيراً غزيرا، وأعادها مرّتين فصار لي ولأبيه قرة عين. ثم أقرأته «شرح البهاء ابن عقيل الحنبليّ على ألفيّة ابن مالك» فقرأه من أوّله الى آخره قراءةً متقنةَ المعاني، محرّرة المباني، بحيث لم يغادرْ منه لفظةً واحدة، وأتعب في مطالعته عيناً ساهدة. ثم أقرأته بعد ذلك «شرح الحسام الكاتي للمقدمة المنطقية المسمّاة بايساغوجي» فقرأه أيضا مرّتين بكمال التحقيق، وغاية التدقيق، ثم أقرأته من «شرح المولى عبد الرحمن الجامي» قدس الله سرّه السّامي، حصةً صالحة دلّتْ على أنّه أهلٌ لمعرفةِ جميع الكتاب من غير

---

(١) ساقطة من ه

ارتياب . ثم إنه رام الترقي الى مدارج الكمال ، وسام التأهّل لمدارك التعظيم والإجلال ، فابتدأ في قراءة « شرح التلخيص في البلاغة » للمولى العلامة سعد الدين التفتازاني ، وقطع عن نفسه عند الاشتغال به العلائق ، فانجلتْ له عرائسُ الحقائق ، وابتسمتْ في وجهه ثغورُ الدقائق ، فأحاط بقراءة الكتاب المذكور علما . وأدركه حفظاً وفَهْما . بحيثُ أنه كان يسرد عليّ أنواع الاستعارة صنفاً صنفا ، ويقرأ ألفاظها حرفاً حرفا . وعَنّ له عند فراغه السفر مع والده وأخيه الى جانب دار السلطنة قسطنطينيّة المعظّمة |فحصّلوا على المرام|[1] ، وحصّلوا ماأرادوا من العلوفات السلطانيّة على وجه التمام ، ورجعوا إلى دمشق سالمين غانمين بعون رب العالمين . وهو الآن مدرّسٌ بالعادلية (٢٩ آ) الصغرى وخطيبٌ بجامع السلطنة السليمانية[2] بدمشق المحميّة . وله الحشمة الزائدةُ ، والحرمةُ المتزايدة ، بحيث أنه معدودٌ من الأعيان الكرام ، بدمشق الشام . والحمد لله على ذلك ، سلك الله بنا وبه أقوم المسالك . وهدانا الى طريق الخيرات ، وسهل لنا سبيل المبرّات . إنّه سبحانه وتعالى سامع الأصوات ، ومجيب الدعوات . آمين .

---

(١) مابين الخطين ساقط من هـ

(٢) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٥

٢٤

الشيخ[١] أحمد الشهير بابن عبد الهادي

هو أحمد بن محمد الصفوري أصلاً ، العمريّ الدمشقيّ مولداً . قدم أبوه الشيخ محمد من صَفُوريّة ، وهي قريةٌ مِنْ قُرى الأردن ، وهي الآنَ تابعة لصنجق صَفَد . وكانت قديماً من الحصون الكفريّة التي افتتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب الكردي الأيوبيّ رحمَه الله تعالى . ولها قلعةٌ حصينةٌ جُدرانُها قائمة متينةٌ[٢] الى الآن . فقطن بقرية عَقْرَبا[٣] من توابع المَرْجَين والغوطة [بدمشق][٤] ، واتّخذَ بها بساتين ومساكن ، وتزوّج بنت الشيخ عبد القادر بن سِوَار شيخ المحيا بدمشق ، وانتفع كلٌّ منهما بصاحبه ، في حوادث الدهر ونوائبه . فحصل له منها أولادٌ كثيرون ، منهم الشيخ أحمد المذكور صاحب الترجمة . فنشأ هـذا طِلْباً[٥] للعلوم والمعارف . واستظلّ في دوحة التقوى بظلٍّ ظليلٍ وارف . فحصّل منها طرفاً صالحا على مذهب الامامِ الشافعيّ رضي الله عنه ، بحيث انه صار أهلاً لتفهيم المنهاج الفقهيّ للطلبَة . ولازم الفقير مدّةً قليلة . وأوقاتاً ليسَتْ بطويلة . فقرأ عليّ من « شرْح التلخيص المختصر » للعلاّمة السعد التفتازاني قطعةً صالحة ، وحصّةً ناجحة . وهو الآن في نية العود لإتمام قراءة الكتاب

---

(١) هـ ، ب « الأخ الأمجد الشيخ احمد ... »

(٢) م « مبنية »

(٣) من قرى غوطة دمشق . انظر غوطة دمشق لكرد علي .

(٤) ساقطة من هـ

(٥) هـ ، ب « طالباً »

المذكور ، شرح الله منّا ومنه الصدور ، إنّه لطيف غفور .

وبالجملة فهو من بيت عبد الهادي ، افتخارُ الحاضرِ والبادي ، وعروقهم ثابتة المغارس في قرية صفورية المذكورة . ولهم بها زاويةٌ مشهورة يقصدها الوافدون للمطالبة العلمية ، والفتاوى الدينية .

والفقير مؤلّف هذا الكتاب مولدُه في القرية المذكورة ، ووالدتي منها ، وإن كان والدي من قرية بُورين من قرى نابلس . ولما بلغتُ سنّ التميز أخذني والدي إلى زاويتهم بالقرية المذكورة ، فجلستُ لقرآءة القرآنِ الكريم عند الشيخ نبْهان قدس (٢٨ ب) الله سره ، ابن عمّ الشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة . فقرأتُ عنده القرآن بتمامه ، من ابتدائه الى ختامه . وكان شيخهم الكبير . الذي يأخذون عنه الهداية ويكتسبون التنوير ، الشيخ جلال الدين الصفوري الآتي ذكره إن شاء الله تعالى . ونشأ له ولد عالمٌ عامل ، صالحٌ كامل ، يُقال له الشيخ تاج الدين رحمه الله تعالى فقدم دمشقَ وطلب ودأب ، وقرأ في الفقه والأدب . وحفظ القرآن بطرق السبعة ، وجمع بحيث حمد العارفون جمعَه . ومات بدمشق رحمه الله تعالى .

وهم بيت كبير ، وبالصلاح والعلم شهير . ولهم بالشام أقاربُ وأهالي . وبقرية صفورية الأصل ، وغالبُ الأهل من السادات والموالى .

وأما انتسابهم الى حضرة الفاروق فهي نسبة صحيحة ، أدلِتّها واضحة صريحة ، بحيث تشهد بها أفعالهم الطاهرة ، وأحوالهم الظاهرة . مامنهم إلا من اشتغل وحصّل ، وفرّع وأصّل ، وحفظ وتلا ، وترقّى وعَلا . فأدام الله تعالى لهم البركات ، وأجزل لهم المبرّات آمين .

وقد توفي الشيخ أحمد ابن عبد الهادي هذا في أواخر ذي القعدة من سنة تسع بعد الألف ، ودُفن بتربه القصّارين في جانب قبر عاتكة رحمه الله تعالى .

٢٥

الشيخ أحمد بن رجب الشهير بمحيطي الرودسي[1] ثم الدمشقي

هو الشيخ الذي استمطر سحاب المعارف، واستظلّ من دَوْح الفضائل بالظلّ الوارف. وُلد بجزيرة رودس الجزيرة الشهيرة التي افتتحها السلطانُ المرحومُ السلطان سليمان، ونشأ طالباً للقرآن العظيم، ومجتهداً على[2] تحصيلِ العلم، ومتفقّهاً على مذهبِ الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه. فارتحل الى دار السلطنة بقسطنطينيّة، وقرأ على علمائها على قاعدتهم متنقلاً من مُدَرّسٍ الى أعلا منه، الى أن صار من ملازمي شيخ الإسلام محمد أفندي ابن قاضي العساكر بستان أفندي، فجعله قاضياً بالعسكر المرادي حين تجهيز العساكر لفتح بلاد الشرق على يد السردار الأعظم مصطفى باشا. فحظي عند السردار المذكور، حتى صيّره معلماً لأولاده. وانتقلت به الأحوالُ من حالٍ الى حالٍ إلى أن سافر الى مكة المكرّمة فحجّ الى بيت الله الحرام، وتاب عن الخطايا والآثام، وتوجّه بصدقٍ إلى باب الملك العلاّم. ولما رجع من مكة إلى دمشق الشام، أحبّ الإقامة بها وصمّم على ذلك. لكن، لم يكن (٢٩ آ) له في الشام مايكفيه، فلم يزل يتوجّه إلى مولاه وإلى أوليائه الأحياء والأموات حتى سهل له طريق الاقامة، وحَباه من فضله بالكرامة. فصارت له علوفة من زوائد السلطان سليمان

---

(١) ه، ب «الرومي»

(٢) ه «في»

والسلطان سليم ، ومن جزية أهل الذمة أيضا . فعند ذلك تزوّج ، ولم يزل يتقلّب في أطوار الإيجاد ، حتى صار بالخلوة الحلبيّة ، في نفس جامع بني أميّة ، التي كانت في يد الشيخ بدر الدين الغزّي . فعند ذلك ألقى عصا الإقامة ، ورفعه الله تعالى وأقامه . وصار مُعتَقَد الأنام ، من العرب والأروام ، وغيرهم من طوائف الأعجام . وهناك صرتُ له مصاحباً . وغدوتُ له خِدْناً وصاحبا . يزورني وأزورُه ، ويحبّني وأحبّه .

وأما فضيلتُه العلميّة فانها كانت في الرتبة العليّة . وكان يُحسنُ فهم العبارات الدقيقة ، ويعرفُ الفرق[1] بين المجاز والحقيقة . وكان شاعراً مطبوعاً في اللغة التركية . ولذلك تلقب في شعره بمحيطي ، لأنّ هذه عادة الأروام ، يذكر كلّ أحدٍ نفسَه في آخر شعره بما يدلّ على مدح ، نحو باقي وأنوري وسعدي ومحيطي . وكانت له معرفة تامة باللغة الفارسيّة حتى إنه ترجم الكتاب المسمّى « بالمثنوي » للشيخ جلال الدين البلخي الرومي . نقله من الفارسيّة الى التركية نظماً ملتزماً ذلك بيتاً بيتاً ، وشاع له بذلك ذكرٌ بين الروم والعجم .

وحاصلُ الأمر أنّه نالَ من الحظوةِ عند الأكابر مالم ينله غيره من أبناء نوعه . ودرّس بالشام بالمدرسة الجوهرية[2] . تلقّاها عن الشيخ زين الدين ابن سلطان الحنفي واستمرتْ بيده الى أن توفّاه اللهُ تعالى .

وأما أخلاقُه فإنها كانت أرقّ من النسيم ، وقد صافح الزّهر ، وألطفَ من نغمات الوَتَر في أوقاتِ السَّحَر . وكان أكرمَ من الغمام ، وأحلم من أحنف بلا كلام . يتصدّقُ على الفقراء ويستمنحُ لهم الأمراء . وكان رقيقَ القلب غزيرَ الدمعة ، متواضعا على عظيم الرفعة .

وأشعارُه بالتركية كثيرة ، معروفة شهيرة . فمن ذلك مطلعٌ سمعتُه :

---

(١) « ويفرّق »

(٢) انظر النعيمي ١ : ٤٩٨

كاهنارزلفه كه گيسوينم ايلرار تباط   كوردمدم كوكلم كى بن عمبر بشان اختلاط

وله بالفارسية أيضاً بعض أفراد   من ذلك قوله محرّضاً على شرب قهوة البُنّ :

قهوه خوركه هو دل سخت ترا نرم كند   قهوه جميت افسرده دلان گرم كند

ولولا عدم المناسبة لكتب العربية ، لذكرتُ من أشعاره التركية شيئاً كثيرا ، وكان قد سار مع الأمير محمد بن منجك إلى بستانه الذي في الشّرَف فرجع من عنده راكباً (٣٠ ب) على فرس ، ورأيتُه في رجوعه ذلك تحت قلعة دمشق ، ومارأيتُه على عادته فسلّم عليّ سلاماً فيه إشارة الى الوداع . والتفت اليّ بعد مضيّه التفاتاً يؤذنُ ببُعْدِ الاجتماع . فرجعتُ الى بيته عائدا ، وحاله رائداً . فقال لي ، وقد عانقني : أنت أصدقُ من رافقني . وفاضت منه الدموع . | وأتبعتها من جفوني بالغيث الهموع |[١] وطلعتُ من عنده حزينَ الفؤاد . عديمَ الرقاد . فنادى عليه في ذلك المرض منادي الحين . وصاح به غرابُ البين . فودّع الإخوان ، واستسلم للدهر الخوّان ﴿ كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فان . ويبقى وجهُ رَبِّكَ ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾[٢] .

---

(١) مابين الخطين ساقط من ه

(٢) سورة الرحمن ٥٥ ، الآية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

٢٦

الشيخ أحمد الخالدي الصفدي

رجلٌ وُلد في مدينة صفد ، فشرّف هاتيك البلد . وقرأ القرآن وبعض المقدمات العلميّة . وكان له أخٌ أكبر منه يُقال له شمس الدين الخالدي . وكان لهما والدٌ لايخلو من شرة في الدخول الى بيت القاضي . ولما وصل أحمد وأخوه الى مرتبة الرحلة سافرا الى مصر للطلب ، وقرأ أحمد هذا على مذهب الإمام الأعظم ابي حنيفة النعمان ، عليه من الله الرحمة والرضوان . وقرأ أخوه على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه . وبَرَع كلٌ منهما في مذهبه . وقرأ شهاب الدين هذا العربيّة والعروض ، وصنف فيه كتاباً نفيسا .

وصدر لهما قصة عجيبة وهي أنّ رجلًا في صفد يُقال القاضي شهاب الدين له ولدٌ جميل الصّورة خَنِثُ الأعطاف ، نحيلُ الخصرِ ثقيلُ الأرداف . فعلق به شمس الدين وهو الكبير . وربما شاركه في ذلك شهاب الدين أحمد وهو الصغير . وذلك لكون الولد كان يتردّد الى شمس الدين المذكور للقرآءة عليه ، وتصحيح تجويد القرآن بين يديه . وكثرة التردّد ، موجبةٌ لعلاقة التودّد . فلما طال زمان التعلق . شرع الشيخ شمس الدين في الخضوع والتملّق . فلم يستفد من ذلك مطلوباً ، ودام دمعُه على خديه مسكوبا ، فطلب وألحّ . والمطلوبُ مارقٌ ولا سمح . فيقال إنّه نال ماطلبَ كرْهًا وساعده على ذلك أخوه وبعض الطلبة ، ونال بذلك الشيخُ من الصبيّ ماطلبه . فاشتهر ذلك في مدينة صَفَد ، وامتلأت بذلك الخبرِ البلد . فلزم أنّ أباه ثار ، كمن يكون له ثار . وجاء الى مدينة دمشق مُستَعدِياً على

الخالدين . ونسب اليها مانسبه المتقدمون الى الخالديَّين . حيث قال فيها من قال وأجاد في المقال :

وَرَدَ العراق مغيرةُ الاعراب　　فاْحفظْ ثيابكَ يا أبا الخطّابِ
لاينهبان أخا الثراء وإنما　　يتناهبان نتائج[1] الألباب

فاشتكى بالقصة ، ومعه ولده صاحب الغُصّة . فأرسل اليهما حاكم البلدة جاويشاً فحضرا إلى دمشق ووقعا على علمائها وقع الحريم ، وبكى كل منهما بكاء اليتيم . وكان الفقير ممّن ساعدهما ، وشدّ بالتعديل ساعِدَهما . وأنا العبد الفقير صاحبُ التأليف ، معتمداً في ذلك على لطف الملك اللطيف . وثبت لهما البرَاءة بحسب الشرع الشريف . وإن كانت التهمةُ قد أخذتْ موضعَها منهما من غير احتياج الى تعريف . ولعمري لقد كان المعشوق غُصناً رويّاً ، وبدراً كاملاً بهيّاً . تتناثر القلوب من أطراف غصنِ قدّه ، كما تتناثر أوراقُ الخريف باستيلاء جيش الشتاء وصَدَمَة جنده . ورجع الغزال الى صفده ، والغريبُ الى بلده ، وثبت الجماع بإجماع ، وشاع به السماع . لشواهد الاستماع . والله هو [2] المعين ، وبه نستعين .

قلتُ : وقد عرض أحمد صاحب الترجمة عليّ كتابه الذي صنفه في العروض . وكانت الراضةُ لجواد فهمه تروض ، فكتبتُ عليه في سنة تسع مئة وأربع وتسعين ، في دمشق عند قدومه مع اخيه في قصة الغلام ، الذي لم يظفر منه بمرام .

أروْضٌ نضيرٌ دبّجتْهُ الأزاهرُ　　وجَادَ به غَيْثٌ من المُزْنِ ماطرُ
وصافحه كفُّ النسيم بسُحرةٍ　　ففاح بها نشرٌ من الطّيب عاطرُ

---

(١) م « تناكح »
(٢) ساقطة من ه

أم الزُّهرُ في أُفقِ السماء كأنّها   ثغورُ بدورٍ بالصّفاءِ زواهرُ

وإلا مدامٌ من مَعانٍ ولفظُها   كؤوسٌ لأرباب العقول تخامرُ

دهشتُ فما أدري بماذا أقيسُها   وليس لها في المبدعات نظائرُ

تملكتِ الأفكارَ مني فحسنُها   لقلبي بأنواعِ الصبابةِ آمرُ

أتتني وجنحُ الليل مدّ رواقه   فلاح به ضوءٌ من الصبح سافرُ

فصيّرتُها مني نديماً محادثاً   ونزّلتُها عندي حبيباً يُسامرُ

وقلتُ لها مَنْ أنتِ ياربةَ البها   حنانيكِ جودي فالكريمُ مُجابرُ

فقالت: وغار الدرُّ واصفرّ لونه   كذلك مازالت تغار الضرائر

أنا ابنةُ أفكار الشهابيّ أحمدٍ   أبي الفضلِ مَنْ أمّتْ حماه الجواهرُ

فقلتُ أجلْ هذا البليغُ الذي له   جواهرُ لفظٍ دونهنّ الجواهر

من الخالديين الذين فخارُهم   يقصّر عنه في الورى من يُفاخرُ

هو الفاضلُ المعروفُ في الناس مَنْ له   كمالاتُ فضلٍ دونها الغيرُ قاصرُ

حلفتُ بوصف الفضلِ من كلّ فاضلٍ   تضيء له في المشكلات البصائرُ

وبالفهم قد رقّتْ حواشيه فانبرتْ   خفايا المعاني منه وهي ظواهرُ

وبالشاردات المشكلاتِ تصيدُها   فهومٌ لأربابِ العقولِ بواهرُ

لأنتَ شهابَ الدين مِنْ خيرِ عُصبةٍ   يعزّ لهم في العالمين المُناظرُ

وَضعتَ كتاباً لانظيرَ لوضعِه   بأسطره بحرُ الفضائل وافرُ

وقد تركتْ في السالفين أوائل خفايا علومٍ أظهرتها[1] الأواخرُ
تأملتُ فيه بانتقادٍ وخبرةٍ ومثلي لمقدار الجواهر خابرُ
تصادفته روضاً من الفضل ناضراً تبسّمُ للتحقيق منه أزاهرُ
فدُمْ هكذا ترقى على فلك العُلى وجودُك مقصودٌ وفضلُك باهرُ
مدى الدهر ماأملى التشوق صادحٌ فأظهر وجداً كتمتْه الضمائرُ
وقد قلتُ من شوقي الى الحي منشداً أربْعَ سُلَيْمى لاجفتْكَ المواطرُ

قلتُ: وقد كتب اليّ قصائد، في ضمنها فوائد، في طيّها فرائد، في غضونها عوائد، فمن ذلك قصيدة مطلعها:

من لي بهيفاء لا أستطيع سلوانا عنها ومن دمع عيني عَيْنُ سُلْوانا[2]
أجل ومن حبها قد همتُ ذا قلقٍ فسل حُنيناً[3] وسل بدراً[4] وسلْ وانا[5]
وقد حوت رقةً منها شُدِهْتُ فلم أقدر على النَّبْسِ لولا لطفُها جانا
مُذْ أقبلتْ تاهزتني في مداعبةٍ فصرتُ منها عليلَ القلبِ حيرانا

ومنها:

زارت ودارت وأزْرَتْ اذ بدت فغدت في النظم فائقةً قسّاً وسحبانا

---

(١) ه « أبرزتها »

(٢) سُلوان محلّة في ربض بيت المقدس تحتها عين عذبة (أحسن التقاسيم للمقدسي) وقال ياقوت إنها محلة في وادي جهنم ظاهر المقدس (معجم البلدان)

(٣) يعني جبال حنين قرب مكة (انظر معجم البلدان)

(٤) يعني سهل بدر بين مكة والمدينة (انظر معجم البلدان)

(٥) ذكر ياقوت أن (وان) قلعة بين خلاط ونواحي تفليس . وما ندري إذا كانت هي التي عناها الشاعر .

فقمتُ اذْ ذاكَ إجلالاً لما عَظُمَتْ عندي وقبّلْتُها في الخدِّ جذلانا
وقلتُ: مَنْ أنتِ ياذاتَ الجمالِ لقد صيَّرْتِ ذا فطنةٍ بالوجدِ ولهانا
كَمُلْتِ اذ فُقْتِ في حسنٍ وفي غَيَدٍ ولم يزلْ كلُّ صبٍّ فيكِ نشوانا
إذا الذي حبّرَ الطلّابَ رونقُهُ هو الذي بعدَ ذاكَ الصدِّ أحيانا

ومنها في الدعاء :

حياه ربّي وأحياه وبوّأه جناتِ عدنٍ حَوَتْ حُوراً وولدانا
مارنّحتْ نسماتُ الشوقِ غُصْنَ نقاً فاخجلتْ قَدَّ بانٍ عندما بانا
وماعلى الزهرِ جرَّ الذيلَ ريحُ صبَا فحركتْ مِنْ قُدودِ الروضِ أغصانا
(٣٢ آ) هذا وهذي أتت تدعو لعزّتكم من أحمد الخالدي مولىً لمولانا

وأرسل إلينا قصيدةً أخرى من صفد مطلعُها :

هل النجمُ في أفقِ البراعةِ لامِعُ أم البدرُ في وجهِ اليراعةِ طالعُ
أم ابتسمتْ تلكَ الغزالةُ في الضحى بِها من ثناياها سَنا النور ساطع

الى أن يقول في آخرها :

فَمُنَّ على عبدِ الولاءِ بنظرةٍ وردَّ حسوداً أطمعتْهُ المطامعُ
على أنّ باعي في القريضِ مُقصرٌ وراحاتي بين الرواحلِ ظالعُ
وعبدُكَ هذا الخالديُّ مُقبِّلٌ ثرى نعالِكم والحرُّ بالنّزْرِ[١] قانِعُ
فَدُمْ في هناءٍ واغتباطٍ وعِزةٍ ومُستقبَلُ الدنيا لماضٍ مضارعُ

---

(١) هـ، ب « البر »

الى أن يقومَ الخلقُ للحقّ ربّنا　　وها أنا المولى بذلك ضارعُ

تحلُّ لطلاّب العلوم غوامضاً　　فأنت بجودِ الفهم للعلم جامعُ

[١]قوله: فأنت بجود الفهم للعلم جامع ، هـذا مصراعٌ يتضمن تاريخ قدوم المكتوب في سنةَ ست عشرة بعد الألف من الهجرة النبويّة .

وهذا صورة المكتوب الوارد منه في التاريخ المذكور :

المولى الأكرم ، والسميْدع الأفخم ، ذو الفصاحة والبراعة . حاوي كنوز المعارف ، وجامع مطالب العوارف ، كنز الفضائل . وذخر أرباب الفواضل . كهف الطلاّب ، ومرجع أرباب الالباب بيت :

وإنّ طِرازاً حِيك من نَسْجِ تسعةٍ　　وعشرين حرفاً عن معاليك قاصرُ

ياباريء الصافّات ، وممسكها في جوّ السماء ، ويامن وَفّق لاقتناص شوارد الحكم من مفاوز النعماء . كما أنرْتَ بدُرر حقائق العلوم الدينية ، مشكورة سريرته . وصوّرتَ من غرر دقائق الفهوم العرفانية ، مرآة بصيرته ، فاجعل زمان الجمهورِ منوطاً بحسن تدبيره وكفايته ، وصيّرْ حوزةَ المعالي محوطةً بين حمايته وكفايته، ويَسّرْ له سُبُلَ الخيرات. واحرسه بملائكة الأرضين والسماوات.

بقيت بقاء لايحدُّ أوانه　　ولازلتَ في اعلى المراتب راقيا

هذا وإن تموجت بحار الكرم ، وذخرت مياه الجود والنِعم ، بالتفضّل بالسؤال عن حال محبة الداعي الحقير اللاجي ، فهو ملازبٌ على المحبّة القديمة . ومُلبٍّ على المودة المستديمة . فما الشوقُ الحاصل عنده اليكم بمحدود ، ولا التوّقُ الجاذبُ الى رحابكم بموصوف ولا معدود ، فأفكارُه عباديد ، وتشوّفه مع تشوّقه اليكم في كلّ يوم يزيد . ولقدتشرّفنا بمكتوبكم الشريف، الحاوي لكل معنى (٣٢ ب) لطيف . وقد أرسلنا الى حضرتكم هـذا

---

(١) من هنا ساقط في ه ، ب حتى نهاية المكتوب

المكتوب ، فيعودُ ويرجعُ بغير المطلوب . وماذاكَ إلاّ أنّ الرسول يقول : قصدتُ المولى فما ظفرتُ من لقيانه بالمأمول . وقد التجأ الى جنابكم حاملُها ، واستجاز بحضرتكم ناقلُها من أن يحدث له ضَيرٌ ، وحاشاه أن يحلّ به سوى الخير ، وبيده صورة فتوى . فادفعوا عنه بالجواب البلوى ، فإن جرى مداد قلمكم على صفحات القرطاس ، بما فيه النفع لجميع الناس ، فهو حريٌّ بالقبول عند أهل المعقولِ والمنقول . وفَيْضُ إحسانكم لايزول ، ولا يعتري بدر فضلِكم أفول . والزمانُ قد عضّنا بنابه ، وكلٌّ منّا قد اعتراه ماحلّ بأصحابه . والعارفُ لايُعرّف . وهذا المكتوب بأناملكم يتشرّف . والسلام على الدّوام .| [١]

وكتب اليّ قصيدة ثالثة في أوائل شهر ربيع الأول سنة ستّ عشرة وألف [٢] ، وأرسلها اليّ من صفد الى دمشق المحروسة مطلعُها :

لقد جاوزَ المقدارَ ماكان في الوهمِ ... وزادَ فهذا غايةُ العزْمِ والحزْمِ

أبحتَ حريمَ المكرماتِ ومن أتى ... لبابِكَ أضحى مجدُهُ وافرَ القِسْمِ

وحققتَ آمالَ الظنون براحةٍ ... توشّح منها بالحيا هامرُ الوَسْمِ

حميتَ ثغورَ القاصدين من الأذى ... وحصّنتَها بالمكرماتِ من العُدْمِ

فمالكَ نهبٌ [٣] في البشاشة والندى ... وذكرُكَ في الآفاقِ سارٍ مع النجمِ

وختام القصيدة هذا البيت :

فَدُمْ أبداً للقاصدين بهمّةٍ ... تصولُ بكفٍّ لا تزولُ عن اللثمِ

---

(١) الى هنا ساقط في ﻫ ، ب

(٢) ﻫ ، ب « بعد الالف »

(٣) ﻫ ﻫ « نهر »

وكتب (١) اليّ قصيدةً رابعة في صفر الخير سنة إحدى وعشرين وألف صحبة تخميسه للقصيدة الهمزية للشيخ الأبوصيري مريداً منّي أن أقرّظ تخميسه، وأن أمنحهُ بالمدح تأنيسه . والقصيدةُ على وزن الهمزية . وهي قوله :

كيف تُحصي علومَك العلماءُ ... أو تضاهي افضلك الفضلاءُ

وقد أوتيتَ خِلعةَ الفضل قُدماً ... وعلا الوجهَ منك منها سناءُ

كلُّ مَنْ كان نفسُه حدّثته ... بمضاهاته فبالخزي باؤا

هل يروم السِباقَ للريح ظبيٌ ... وتُداني جهولَنا النبلاءُ

يالَحَى اللهُ عاذلاً قد رماني ... بحديدِ اللسانِ وهو بلاءُ

ألِمثلي لومٌ على مدح مَنْ قد ... شرُفَتْ بامتداحه الشعراءُ

لهُ أذنٌ عن العذول اذا ما ... لامني من ضلاله صمّاءُ

فاقتصرْ عاذلي عن اللوم واعلمْ ... أنّ ذا اللوم يا أخي إغراءُ

أنفَ المجدُ أن يؤمّ سواهُ ... ولعليائه انتمى العظماءُ

هو فذٌ في عصره وفريدٌ ... مذ غدتْ موطئاً له الجوزاءُ

ثم صاد النسرَين دون حبال ... فتردّى عدوّهُ العوّاءُ

وإليه قد قِيدَ كلُّ جموحٍ ... وعنَتْ لاتّباعه العلماءُ

ثم في كونه خلاصة وقت ... ليس فيه ياذا الكمال خفاءُ

---

(١) من هنا ساقط في ه ، ب حتى نهاية القصيدة الهمزية .

فاغتبطْ سيدي بما منح الله | وكنْ شاكراً فنعم العطاءُ
لا يفي بامتداحِ ذاتك وصفٌ | فيعيها الانشادُ والانشاءُ
كيف ينساغ ذا وذاك وأنّى | يتسنّى لوصفها استيفاءُ
وقد استجمعتْ مجامعَ فضلٍ | عَجزتْ عن تحصيلها العقلاءُ
ما أَقَلّتْ ولا أَظَلّتْ حقيقاً | مثلَ هاتيك الغبراءُ والخضراءُ
فمقام حَلَلْتَ حلّ به السعْدُ | ولا فوق ذا المقام ارتقاءُ
لاتضاهيه حتى تسمحَ كفٌّ | منه بالجودِ حيث تَهمي سماءُ
من يُشَبّهُ في المكارم بالبحرِ | فذاك الضلالُ والإغواءُ
فهو الجودُ والجوادُ ولكن | منه ينشا عن الأنامِ السخاءُ
وهو لاشك معدنٌ لفخارٍ | ولذي سؤددٍ إليه انتماءُ (١)

قلتُ : وهو في هذا التاريخ ، وهو سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، مقيمٌ بمدينة صَفَد يُفتي على مذهب الإمام الأعظمِ أبي حنيفة رضى الله عنه ، وينوب في القضاء بها ، ويُعارضه في الفتوى رجل يُقال له زين العابدين المنداوي منسوبٌ الى كفر مَنْدل ، وهى قريةٌ من توابع صفد المذكورة .

وهذا زين العابدين من عجائب المخلوقات . وستأتي ترجمتُه ان شاء الله تعالى .

---

(١) الى هنا ساقط من ه ، ب

٢٧

الحاج أحمد العجمي

[الصالحي ثم الدمشقي] [١]

هو[٢] رجل من الأعيان ، والكرماء ذوي الشأن . جمع مالاً غزيراً وعقاراً كثيراً . اشترى بيتاً عظيماً كان للأمير قانصوه الغزّاوي ، واستمر على ذلك إلى أن دَخَلَ إلى الشام أمير الأمراء مراد[٣] باشا حاكماً بها . فولاّه أمانة البهار . وأمير الأمراء عادةٌ يخدمه بها من صار أميناً على البهار . فأرسَلَ اليه الحاج أحمد بعضها . فأرسل أميرُ الأمراء يعاتبُه على عدم إتمامها على العادة ، وتوعّده في ضمن المعاتبة . فأرسل يقولُ : إذا رجعتُ من الحج وهو حاكم فليعزلني .

---

(١) الزيادة من هـ ، ب

(٢) يختلف مطلع الترجمة في ب ، هـ عما هو عليه في م . وهذا ماورد في ب ، هـ : « كان هذا الرجل في مبتدأ أمره قصّابا . وكان والده من أرباب الصنائع . ونشأ له أولاد منهم احمد المذكور هنا . ولما اشتهر أمرهم بالقصابة بحمل لحم العمارة السليمانية والسليمية ، فحملوا ذلك . فنتج حالُهم به . فدخلوا بعد ذلك في التزام مال السلطنة على شروط منها أن يصير احمد المذكور أمير عشرة ، وهو المسمّى في هذه الدولة العثمانية باونباشي . فصار في هذه المنزلة مدة مديدة ثم عُزل عنها . وصار يضمن الأموال السلطانية ، مثل مقاطعة الغنم ، ومثل سوق الحرير ، ومثل الاحتساب ، ومثل أمانة البهار بطريق الحجاز ، ومثل امانة سكة الدرام والدنانير بقلعة دمشق ، وغير ذلك . واقتنى من ذلك مالاً عظيماً ، وعقارا كثيراً اشترى بيتاً عظيماً ... » ثم يتفق النصّان

(٣) انظر الباشات والقضاة ص ١٦

فسأل الباشا عن معنى يبريقني ؟ فقال له بعضُ الناس : معناها فلينتقم مني .

فاقتضت الحكمةُ أنه رجع من الحجّ ومراد باشا حاكم بدمشق . فعند وصوله أمر برفعه الى قلعة دمشق . فطال مكثه بها الى أن ضاق ذرعُه ، وعيل صبرُه . فتوافق على من عنده في الحبس فردموا الحبس من داخل بحيث صار فتحه | من الخارج |[1] متعذّراً . ثم نصحه الناسُ فأزال ماخلف الباب من الردم ، ووزن مالاً (٣٣ ب) كثيراً وأخرجه مراد باشا المذكور ، وتعجّب جميعُ الناس من سلامته بعد ماحبسه ولكن للعمر حصن حصين .

ثم لم يزل بعدها ماكثاً في برج الراحة مختاراً لصفاء البال ، إلى أن جاء إلى الشام حاكماً بها السيدُ الشريف محمد باشا الوزير الإصفهاني الأصل[2] من قسطنطينيّة المحميّة . فألزمه بأمانة البهار . فسار الى مكّة مع ركب الحاج في سنة تسع بعد الألف فرجع سالماً . ولما رجع رأى أمير الأمراء بالشام محمود باشا ابن الوزير سنان باشا الشهير بابن جغال[3] . فأدّى من مال البهار حصّةً وبقيتْ عليه حصّةٌ . فطلبوها منه ، فقال : أنا ماحصّلت سوى ماأخذتم منّي . فحبسوه عند رجلٍ من جماعة محمود باشا المذكور .

فاتّفق من العجائب أنّ زَوْجَتَه سمعتْ بحبسه ، فاعتراها غثيان وصفراء ، فلم تزل على ذلك[4] حتى ماتت صبيحة يوم الأحد ثالث شهر ربيع الأول من سنة عشر بعد الألف . فبلغ زوجها وهو في الحبس خبر موتها ، فأرسل الى الباشا رجلاً يطلبُ منه أن يمكّنه من السير لحضُور جنازة زوجته . فأذن له الباشا في ذلك . وقال الموكّل به لا أمكّنك

(١) مابين الخطين ساقط من هـ ، ب
(٢) انظر الباشات والقضاة ص ١٩
(٣) انظر المصدر السابق ص ٢٦
(٤) هـ ، ب « على هذا الحال »

من السير الى أن تعطينا حقّ حبْسي . فراجعه في الكلام[١] ، وكأنّه شـدّد على الموكّل به ، لحصره بسبب[٢] موت زوجته وتأخره عن حضور تجهيزها ، فأغلظ الكلام عليه ، فيُقالُ إنّه ضَرَبَه وعصر مذاكيره إلى أن مات أيضاً في يوم موت زوجته . فماتا في يومٍ واحدٍ . وغسلوا الحاج أحمد المذكور في جامع جَرّاح[٣] لأنه مات في خان الباشا[٤] عنـد سوق السروج ، وذلك خارج دمشق ، وعادةُ من يموتْ خارج [سور][٥] المدينة أن لا يُدْخَل إليها . وجاؤا بزوجته من بيته وخرجوا بالجنازتين معاً . ولما ارتفع الجنازتان صاح الناس وبكوا لذلك بكاءً شديداً وعجبوا من ذلك الاتفاق العجيب ودُفنا في يوم الأحد المذكور خلف جامع جراح ، وذهب دمه هدراً .

وكان رحمه الله تعالى | كريمَ النفسِ |[٦] ، رفيع الهمّة ، صافي المزاج ، غير أنّه كان ضيّق العطَن ، إذا ضاق صدرُه يتكلمُ بكلامٍ لامعنى له رحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين .

وقد طلب مني ابنُ أخيه سيدي أحمد بن منصور أبياتاً ينقشها على قبر عمه الحاج أحمد المذكور . فقلتُ ارتجالا هذه الأبيات مشيراً إلى قصته مع زوجته في موتها :

هذه البقعةُ التي حلّ فيها ... مَنْ قضى راحلاً لربٍّ كريم

أحمدُ مَنْ غدا شهيداً بظلمٍ ... واعتداءٍ واللّهُ خصمُ الظّلوم

---

(١) ه ، ب « في ذلك الكلام »

(٢) ه « لحصره على موت »

(٣) عند مقابر باب الصغير . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٠٥

(٤) ه ، ب « خان جاعة الباشا »

(٥) من ه ، ب

(٦) ساقط من ه

والعجميّ[1] شهرةٌ من أبيه | كان ذا همّةٍ وجودٍ جسيم
وهو مع زوجةٍ له وَسْط قبرٍ | دُفنا جملة بحكم الحكيم
هُو بالقتل وهي بالموت حزناً | (٢٤ آ) قد اريحا من حكم دهرٍ غشوم
وزمان الرحيل في عام عشرٍ | بعد الفٍ إلى جوار الرحيم[2]

(١) ب « العجيمي »
(٢) يختلف ترتيب الأبيات هنا عما هو عليه في ه ، ب

٢٨

الشيخ أحمد شهاب المصري
ابن الشيخ محمد المصري الحنفي

| فاضلٌ |[١] اشتهر صيتُه بين الفضلاء ، ونبيلٌ كاملٌ شاع ذكره في الأقطار بين النبلاء . سلك طريق العِلْمِ أولاً على طريق العرب ، ومشى فيه على قانون الأدب . ومهر في المنثور والمنظوم ، ثم استحسن طريق الروم ، بالملازمة الصرفية ، التي تتبعها الملازمة اللغوية ، فسلك هاتيك الطريق ، على قلةِ مَنْ بها من أبناء نوعه من الرفيق ، إلى أن وصل إلى خدمة المولى المرحوم سعد الدين معلم السلطان . وحاز الملازمة من جانبه الرفيع الشان . ولم يزل يعلو وينمو ، ويفوق ويسمو ، إلى أن صار قاضياً بالبلدة التي يُقال لها أسْكُبْ ، على صيغة الأمر من سكب يسكب . وهي مدينة في أرض روم ايلي ، وقاضيها على اصطلاح آل عثمان ، جليل المقدار معدودٌ من الأعيان . وهو من بيت علم بالديار المصرية مشهور ، وبالفضل الغزير مذكور . ومن شعره على ماأنشدنيه الشيخ الفاضل ، الأديب الكامل الشيخ محمد الحتاتي المصري بدمشق الشام ، سقاها صوب الغمام :

خالٌ بخدٍّ معذّبي متعبّد ... من خوفِ نارِ الخدِّ أنْ يصلاها

قالت له أصداغُ جامعِ حُسْنه ... لَنُوَلِّيَنَّكَ قبلةً ترضاها

وله أيضا :

(١) ساقط من ه

لعليٍّ محاسنٌ مالها قطْ مُشْبِهُ

وبشامات خدّه كرّم اللهُ وَجْهَه

وله أيضاً :

يامن تجلّى لطرفي القاب طُورُ جمالكْ

بواو صدغك عطفاً لمقسمٍ بجمالـك

فكلُّ نَضْلٍ ووصفٍ من أجلِ حبٍّ وصالك

قلتُ : وذكر لي الشيخ محمد الحتاتي المذكور أنّ له شعراً كثيراً كلّه جيد . ويحفظ من أشعاره الكثير . وأنه يلحظ ذلك في خاطره لينشده لنا في مجلس آخر مبارك إن شاء الله تعالى . وكان هذا الاجتماع والإنشادُ في أوائل سنة اثنتين وعشرين بعد الالف من الهجرة النبوية المحمدية المصطفوية على صاحبها ألف سلام وألف تحية .

٢٩

أحمد افندي ابن شاهين [١]

الولد الحبيب ، والخليّ [٢] النجيب ، الذي يزكو غرسهُ على سحائب الأدب وبطيب ، ويستماح من قليب جوده الفضل القريب ، من أجري من كُلّ أغلة منه الماء المعين | مَنْ فهمُه الذهب الخالص الابريز ، وتميزه فاق كل تميز [٣] | وهو رومي الأصل والنِجار . وإن كان عربي المولد والدار .

| قرأ عليّ ورغب (٣٤ ب) اليّ . حتى صار فارس العربية وحامل لواء البلاغة في المملكة الدمشقية . والعجب أنه عسكريٌ وابن عسكري ، بل أبوه واسطة عقد العساكر السلطانيّة ، في البلاد الشامية . فترك ذلك الطريق . ورغب في خدمة العلم وأهله على التحقيق . ولزمني مدّةً مديدة . ولزمتهُ وطلب العلم عندي في أعوامٍ عديدة . [٤] | وهو الآن [٥] من عجائب من نشأ في هذه الأيام ، ووالده [٦] جنديٌ مشهور في الأنام . جُلب أوّلاً عند فتح قبرص من الذين أخذوا منها ، وتزوّج بدمشق | وهو في عسكرها الينكجرية [٧] | فولد له هذا الولد . ونشأ محباً للعربيّة ، مجبولاً

---

(١) اسم المترجم له ساقط من ب

(٢) ب « الخليل »

(٣) مابين الخطين ساقط من ه ، ب

(٤) مابين الخطين ساقط من ه ، ب في هذا المكان .

(٥) ه « وهذا من عجائب من نشأ » ب « ونشأ في هذه الأيام »

(٦) ه ، ب « فإن والده »

(٧) مابين الخطين ساقط من ه ، ب

| لها |(١) على كمال المحبّة والعصبية . فخالط فضلاء دمشق وعاشرهم ، وانتقى من سمتهم أحسنه ، وقرأ العربية واجتهد فيها . ودأب في تحصيلها . وقرأ الشعرَ العربيَّ وحفظ منه كثيراً ، وانتقى من أكثره ، وخالط الماهرين فيه ، وتعلّم لسان الفرس ومهر فيه الى الغاية ، وصار يقرأ منه الأبياتَ المليحة في مابين العارفين بذلك . وأمّا اللغةُ التركيّة فهي لغته الأصلية ، باعتبار أبيه وأمّه . ولما (٢) اشتهر صيتُهُ ، وأشكل على كثير في | العِلْم | (٣) تثبيته ، أراد إثبات فضله ، عند أهله . فكتب إليَّ هذه القصيدة الفريدة في شعبان من شهور سنة تسع عشرة بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله والسلام التحية. [ونقلتُها من خطه المزيّن بضبطه](٤) :

قِف بي فلي إثرَ الحدوجِ حنينُ … ومنَ الصبابةِ ظاهرٌ وكمينُ

قِفْ بي لأذري الدمعَ ثمَّ فإنه … دَيْنٌ عليَّ لهم وعندي دِينُ

ظعنوا وقلبي حيثُ سار فريقهم … متعلّقٌ بالعَوْدِ وهو شَطونُ

رام التفاتاً للمعالم ساهياً … وتلفّتُ القلبِ الظعينِ جنونُ

وسألتُ عينيَّ البكاء ففاضتا … أسفاً ويفقد دمعَه المحزونُ

للقلب عذرٌ في فراق ضلوعه … ولفقدِها الدمعَ الشئونُ شئونُ

أأضنُّ بالدمع اختياراً بعدهم … إني على كرمي إذاً لَضنينُ

أأعير لحظَ العين بهجةَ منظرٍ … من بعدهم إني إذاً لخئون

---

(١) ساقط من ه

(٢) ه ، ب « لزمني مدة مديدة ، وطلب العلم عندي في أعوام عديدة ، ولما اشتهر صيته » والجملتان الأوليان مرتا في اول الترجمة .

(٣) ساقط من ه

(٤) الزيادة من ه ، ب

كم من ليالٍ ماذممنا عهدَها ... مُذ بِنَّ إلا أنهنّ شجونُ
أهلَ اللوى أوَهكذا[1] شرعُ الهوى ... تَلْوى الديونُ ويَغلَقُ المرهونُ
رُدّوا فؤادي أوخذوه بسائري ... ياظاعنين وكيف شئتم كونوا
كلفتموني في هواكم خطةً ... من دونها صَعْبُ الهوان يهونُ
وتركتموني منذُ بِنتُمْ مفرداً ... لايطّبيني في الانام خدينُ
أوَ ما كفاكم شافعاً فيَّ الصِبَا ... وصبابتي والمجدُ والعشرينُ
قد كنتُ أحتسبُ الوُلوعَ معزّةً ... واليوم سيّانِ الهوى والهونُ
إمّا تولت راحتي من راحتي ... فلطالما سَهلت عليّ حُزونُ
ولرب عيشٍ مرّ لي حلوِ الجنا(٣٥آ)بظباء وَجرةَ والشجونُ فنونُ
حيث الشبابُ يرفّ يانعُ غصنِه ... وثمــاره من عاذليه ظنونُ
حيثُ الربيعُ ضواحكٌ أزهارُه ... والماءُ مصقولُ الأديم مَعِينُ
حيثُ الوجوهُ الغرُّ قنّعها الحيا ... والبِشرُ فوق جبينها مقرونُ
يَسنَحْنَ في قطع الرياض روانعاً ... إنّ الجنان لهنّ حورٌ عِينُ
ينظمن لي عقد الهوى في بارقٍ ... وكأنهن اللؤلؤُ المكنونُ
السافرات كأنهن كواكبٌ ... والمائسات كأنهنّ غصونُ
فيهن حاليةُ الشوا حسّانةٌ ... والحسنُ يرفع شأنه التحسينُ

---

(١) في النسخ « اهكذا »

تزهو على أترابها بي مثلما ... تزهو على كلِّ القُرى بُورينُ

بأبي الضياء وبدر دين محمدٍ ... حَسَنٍ لهُ سعدُ السعود قرينُ

ماذا أقول بمن به وبعلمه ... قد ضاءت[1] الدنيا وجلّ الدِّينُ

في الغيث شبهٌ من علومك والذي ... ترضاه أنّ البحرَ فيك كمينُ

لك في المحافلِ جرأةٌ أسديّةٌ ... ولسانُك العَضْبُ الصقيلُ سَنِينُ

لك في المحافل منطقٌ يشفي الجوى ... من بعضه التسهيلُ والتبيينُ

لك في القلوب محبةٌ ومَعَزّةٌ ... ومَوَدّةٌ فزوالُها مأمونُ

لك ما تُحِبُّ وترتضيه فكُنْ كما ... طلبتْ مُناك لك الإلهُ معينُ

كلُّ المعارفِ زينةٌ[2] لمحلّها ... إلاّ عُلاك تصوغها وتَزينُ

أدَبٌ يروقك منظراً بل إنّه[3] ... بحرٌ يشوقك فُلكه المشحُونُ

وإذا طما بحرُ العلوم بصدره ... فإذا له الكتبُ العظامُ سَفينُ

وإذا تداولَ مبحثاً في مجلسٍ ... فهناك | ركنٌ |[4] للعلوم متينُ

واذا امتطى قلمٌ يديه فبالحرى ... أن تستمدّ له السوادَ عيونُ

وإذا جرى طَلْقاً بمضمارِ العُلا ... فهو الجوادُ وسَبْقُه مضمونُ

أنت الذي شَغَفَ البراعةَ يافعاً ... وصبا اليه العلم وهو جنينُ

---

(١) م « أضاءت »

(٢) ه، ب « رتبة »

(٣) ه، ب « بل مخبراً »

(٤) ساقط من ه

جسمي بقيدِ الفضل منك مُقيَّدٌ   والقلبُ مني في ذراك رهينُ
ولئن صنعتُ بروضِ فضلك يانعاً   غرستهُ بالإحسان منك يمينُ
فلِذ انتسبتُ الى عُلاك تيقنتْ   نفسي بأنّك للجميلِ ضمينُ
وإليكها عذراء تخطرُ(١) عزةً   ولها الى عالي حماك ركُونُ
سحبتْ على سَحْبانَ ذيلَ فصاحةٍ   فانصاع يترو تارةً ويلينُ
صدحتْ بها وُرْقُ البيان يزينها   طوقٌ من المعنى عليه فنون
سَقَيْتُها من ماء شَرْخِ شبيبتي   فلذا الحسودُ بحسنها مفتونُ
وكسوتُها رَيْطَ الأزاهر غِبَّ ما   جادته ناضرة القطار هتونُ
وملأتُها حِكَماً فأصبح عصرُها   وبه أُبقراطُ وأفلاطونُ
سايرتُ فيها فكرتي فكأنّما   تسعى اليَّ بمنتها الزرجونُ
لا بِدْعَ أنْ نطقتْ بفضلك أيها م   الشيخُ الرئيسُ فإنّها القانون
أو حلقتْ نحو النجومِ تصيدها   مدحاً اليك فوالدي شاهينُ
هي معجزٌ من أحمدٍ وورُودُها   من أصلِ مصدرها الجميل مبينُ
لو أن هاروتاً رأى نفثاتها   لقضى لها بالسبق حيث تكونُ
ولو أنّ بشاراً تكلّف قولةً   منها لعاد وإنّه لغبينُ (٣٥ب)
من كلّ بيتٍ لو تدفّق طبعُه   ماء لغصّ به الفضاء البينُ

---

(١) « ه » « تخطو » ، ب « تخط »

هي قطرةٌ من بحرِ فضلك سيدي ولها بتأميل القبولِ يقينُ
هي همةٌ صقلت سعودُك متنها[١] عزماً كما شحذ الحسامَ قيونُ
فلأفخرَنّ وألهجنّ لسيّدي وحقوقُ مثلي في الكرام ديونُ
لازلتَ صدرَ الشامِ دعوة منصفٍ تشجي عداكَ ومَنْ شناكَ فدونُ
مادامت الأملاكُ تدعو بالبقا ويؤمُّها بدعائه جبرينُ

قلتُ : قد أنشدني هذه القصيدة الفريدة ، فحكم الأدباء قاطبة بأنّ فكرته مُجيدة ، وجعلوا بروزها من طبعه المستقيم ، وفكره السليم ، وذهنه القويم ، من أعظم البراهـين ، على قدرة الملك العليم . وذلك لأنّ سنه ماجاوزت العشرين ، وطريقتُه ماتبعت في صيد المعاني أباه شـاهين ، لأن أباه عسكريُّ الطريق ، جنديُّ الأسلوب على التحقيق . وقد تربّى عنده ، من يوم |أنْ|[٢] مهّدله مهده ، الى أن ثبت بالفعل مجده . فكان كمن جمع بين الضدّين ، وسلك في طريقين متباينَيْن . غير أنّ الطبع إذا جُبل لاتغيّر جبلتُه ، ولاتَحوّلُ طريقتُه . ولعمري لقد نبغ غصناً رطيباً ، ونشأ للفضل نسيباً . وألّف مدحاً في النظم ونسيبا . وأغْرَبَ إذ أعرب . وأنشأ وأنشد ، وأفاد فأجاد ، وبيّن إذ عيّن .

ومدح في التاريخ المذكور حضرة شيخ الاسلام . مفتي |جميع|[٢] الأنام ، العالم العامل ، صاحب الفضل الوافر الشامل ، حضرة صنع الله افندي مفتي السلطان . بقصيدة بعيدة المنال . بديعة المثال[٣] . مطلعها :

حيِّ المنازلَ بالنّقا فزَرُودِ فالرقْمتَيْن فعهدِنا المعهُودِ

---

(١) ه ، ب « خنتها »
(٢) ساقط من ، ه ب
(٣) ه ، ب « المقال »

ومدح في ذلك الوقت أيضاً قاضي قضاة دمشق حضرة نوح أفندي ابن المرحوم قاضي العساكر أحمد أفندي الأنصاري الشهير بابن روح الله تعالى بقصيدة نادرة في بابها، مفردة بين أترابها، ومطلعها :

عَتِبَتْ عليّ فلذّ لي العتبُ   خودٌ لديّ عـذابُها عَذْبُ

ومدح المخدوم الأمجد، مولانا درويش محمد، ابن مولانا شيخ الاسلام مفتي الأنام، صنع الله افندي الممدوح المذكور سابقاً بقصيدة مطلعُها :

أقول أوهٌ وتارةً آهـا   تغنياً في بديعِ ذِكْراها

قلت : ومدحهُ لمولانا صنع الله أفندي المذكور كان بدمشق المحروسة أدام الله منازلها المأنوسة، حين قدومه إليها من دار السلطنة العلية العثمانية الأحمدية، قسطنطينية المحميّة. حماها الله تعالى من طوارق البليّة. وكان قدومه اليها ناوياً الحج الى بيت الله الحرام، وزيارة نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام. وكان نوح أفندي قد ورد صحبته الى دمشق قاضيا بها، وله صهارة مع شيخ الاسلام المفتي (٣٦ آ) المذكور، لأنّه تزوّج بنته فأتى معه لتجهيز مهمّات الحجّ بدمشق، وورد معه ابنه الممدوح المذكور، وقد اتصل المادح أحمد جلبي المذكور بالمولى المفتي المذكور بدمشق وصار تلميذاً له وملازماً على قاعدة علماء الروم في دولة بني عثمان، أدامها الله تعالى إلى |انقضاء|[1] الدوران. وكان قدومُه الى دمشق في غرّة شهر رمضان يوم الأربعاء من سنة تسع عشرة بعد الألف |[2] وأنشدني لنفسه يوم الخميس حادي عشر صفر الخير سنة ست عشرة وألف :

مُذْ نَبَتَ الخط على خَدّهِ   بُدّلتِ الحُمْرةُ بالإصفرار

---

(١) ساقط من ه

(٢) من هنا ساقط في ه، ب

كأنما العارض لمّا بدا ... قد صار للحُسْنِ جناحاً فطار[١]

وكتب اليّ هذه الرسالة لأمر عرض وقد اقتطف غالبها من زهر الآداب، لابرح رحب الجناب . وهي[٢] :

بسم الله الرحمن الرحيم . وهو المعين .

أعزّ اللهُ مولايَ وسيّدي[٣] الذي سكن من الجوارح أشرفَها . وسلك من طرق الجفاء المبرّحِ أوعَرَها وأمْرَفَها . وبالغ في العقوبة وزاد . واستغرق أوقاتَ الوداد، بالبعد والعناد . وارتكب مركباً من الخليقة صعبا، وقطعَ جميعَ الطّرقِ إلاّ طرقَ الوفاء[٤] وثْبا . واستعار أذناً ليستوعي بها المثالبَ، وعيناً ينظر بها المعايب، وبدأ يبطش بها في كل صاحب ومُصاحب، ورِجْلاً يسعى بها الى الأباعد دون الأقارب، ووَجْهاً يتصرّف في أمرِته كتصرّف الملك الجائرِ في رعيّته، ويفعلُ بمحبيه، مالايفعله الدهر ببنيه . لاتظهرُ الطلاقةُ في وجهه إلاّ رَيْثما يخلطها بإعراض . ولاينبسط هُنَيْهة من الزمان الا وهو وشيك انقباض . يبدو لطفُه لُمَعاً ثم ينقطعُ، ويحلو ماؤه جُرعاً ثم يمتنع . فلا يدوم له سرورُ الهناء بما هو من حمانا يحلّه، وبما هو من أعراضنا يستحلّه . فياليت شعري أيّ مصونٍ من سرّك أذَعتُه، أومفروضٍ في الخدمة رفضتُه، أو واجبٍ في الزيارة أهملتُه ؟ وهل كنتُ إلا كما قيل : ضيفٌ أهداه بلد شاسع، وأدّاه أملٌ واسع، وحدَاه عقلٌ وإن قلّ، وهداه رأيٌ وإن ضلّ . ثم مابَعُدتْ صحبةٌ إلاّ أدنت مهانة، ولازادت حُرمة إلاّ نقصت

---

(١) الى هنا ينتهي السقط من ه، ب

(٢) في ه، ب « وكتب اليّ هذه الرسالة نثراً ، وفي غضونها من الابيات مايفوق درّا . وسبب تنميقها العتاب لأمور ، تستطال وتستطاب وهي : »

(٣) ه « مولانا وسيدنا »

(٤) ه « الوداد »

صيانة ، ولا تضاعفتْ ذِمةٌ إلاّ تراجعتْ منزلة . ولم تزل | الصَّفَةُ |[١] بنا حتى صار الوابلُ رذَاذَا ، والشوّقُ المفرطُ مُستَعاذا . وصار حُسْنُ ذلك الالتفات ازوِرارا ، وطويل ذلك السلام اختصارا . والاهتزاز ايماء ، والعبادة اشارة . كما قيل :

ومَوتُ الفتى خيرٌ | له |[٢] من حياته ... إذا كان ذا حالين يصبو ولا يُصبي

وكان المهلّب (٣٦ ب) يقول :

عجبت لمن يشتري العبيد بماله ، كيف لايملك الحر بمعروفه .

وفي الحديث : « البشاشةُ خيرٌ من القِرى »

وفي المثل « البومُ[٣] العبوس ، خَيرٌ من الوجه العبوس »

ومن كلامهم : « الحوادثُ الممضّة مكسبةٌ لحظوظٍ جزيلة ، منها ثوابٌ مُدّخَر ، وتطهيرٌ من ذنب ، وتنبّه من غفلة ، وتعريفٌ بقدر النعمة » . وقد شاهدتُ فيها خامساً وهوصَونُ | ماء |[٤] الوجه عن الذُلّ والهوان . فالتّعَسُ خيرٌ لها من أن أقول :

إحدى لياليك فهيسي هِيسي ... لا تَنْعَمي الليلة بالتعريس

* * *

مولاي يامن له في كلِّ جارحةٍ ... لسانُ شكرٍ يؤدّي بعضَ ماوجبا

ماهذه الكراهة من فتىً خفيفِ الجسَد والروحِ ، ثقيلِ الرأس بالعقل غضيضِ الجفنِ بالحياء ، طَلْقِ الوجه ، عفّ اللسان ، رَحْبِ الصدرِ ، باسطِ الكفّ بالجودِ ، طويل الباع بالإحسان ، صافي القلب ، سليم الفطرة ، محنيّ الضلوع على الأسى ، مطويّ الجوانح بالهوى ، قصيرِ الخُطى عن الأذى .

---

(١) ساقط من ه

(٢) ساقط من ه

(٣) ب « البوم »

(٤) ساقط من ه ، ب

فما محاسنُ شيءٍ كلّه حسنُ

مافيه لوٌّ ولا ليتٌ فَتنقُصَه   وإنما أدركَتْه حرفةُ الأدب

على أني والحمد لله لم أكن مُذاداً مع الحرمان عنك ولا شُرْب ، ولكنّني أبردتُ صدري بنهلةٍ من الفضل غصّت دُون موردها الشُرْبُ ، وذلك لأني أطلتُ التردّد إليك ، وعوّلْتُ أمري في طلبي عليك ، وَوَرَدْتُ من أنهارِ فضلك كلَّ مَعِين ، وكنتَ لي في طلبي وأملي خيرَ مُعين . والنعمةُ لا تُجحد ، والحسنة لاتكفر ، والشمسُ لايمكن سترها بحجاب والبدرُ لايخفى ضوءُه | وإن كان [(١)] تحت السحاب ، والكذبُ شيمة المنافقين ، ألا لعنةُ الله على الكاذبين .

وما قلتُ ذلك إلاّ رائياً أن لاطِيبَ إلاّ ما اختلط بتُرابك ، وأنْ لاسَعْدَ إلاّ ماجثم ببابك ، وأنْ لاربيع إلاّ في بقعتك ، وأنْ لاأنس إلاّ بطلعتك . وأنْ لافرَحَ إلاّ بقربك ، وأن لاترَحَ إلا ببعدك ، وأن لانشاطَ إلاّ بحبك ، وأنْ لا عِلْمَ إلا مااستُفيدَ منك ، وأن لافضْلَ إلاما أخذعنك ، وأن لادليلَ إلاّ ماجيءبه معزوّاً اليك ، وأنْ لاسند إلاما نقل مِن فيك ومُحال | عليك | [(٢)] . لعلمي بأنك البدرُ الكامل ، والفردُ الذي ليس له مُعادل ولا مُماثل . هذا مع مغالاتي فيك ومنافستي عليك ، ومناظرتي بك ، وانتمائي بالفضيلة التامّة إليك ، وانشادي مستمسكا بحبل ودادك ، ومتمسكا بترب مهادك .

واذا نَظَرْتُ الى أميري زادني   ضنّاً به نظري الى الأمراء

معتقداً أنّ رضاك ثواب ، وغضَبك عقاب ، ورَغَبك إحسان ، وَرَهَبك خُسْران . وإعراضك جحيم ، والتفاتك نعيم ، ومثلك لامثل يضاهيك . إنْ

---

(١) ساقط من ه

(٢) ساقط من ه

غضب تجمّل ، وإنْ تأذّى (٣٧ آ) ولو بوهمٍ تحمّل . وإنْ جاءه فاسقٌ بنبأٍ تبصّر واستفسر ، | وإن ثبت لديه شيءٌ ولو دعاء اغتفر واستهتر |[١] فهات قل لي يامن مكانتُه في القلب قد حلّها بمفرده ، أيّ جواب لمن سأل عن حلمك ؟ واستفسر عن ثمرة علمك ؟ | فإنّ الحلم ثمر العلم |[٢] . وهو دالٌّ عليه كدلالة النَّوْر على الثمر . وقد وُجد كماله فيك ، وظهرت ثمرته عليك ، وتذلّلت قطوُفه دانيةً اليـك . وكذا الناس مجمعُون على فضلك مابين سيّد ومَسُود . عرف العالمون فضلك بالعلم ، وقال الجهـال بالتقليد .

وأعودُ فأقول بعضُ هذا الجفا يامولاي يكفي ، وجزءٌ من هـذا الإعراض يُجزي . وفي قليلٍ من صدودِك انتقامٌ كثير ، وفي يسيرٍ من هجرك إسرافٌ وتبذير ، وفي أدنى مابلغني عنك كافٍ ومقنع ، وفي أقلّ مارأيته منك للقلب | مؤلم و |[٣] موجـع . وفي المثل مَنْ يسمع يَخَلْ ، ومَنْ يُكثر يُمَل . هذا بذاك ولا عتب على الزمن .

وأظنُّ أنّ الداعي الى مهاجرتي نميمةٌ جاء بها فاسقٌ ، ونبأ افتراه كاشح . ومع ذلك لو اكتسبتُ كبيرة لما استوجبتُ من العقوبة المنهكة بعض ماعاينته وعانيته ، ولو ارتكبتُ جريمةً لمـا استحققت من القطيعة المهلكة أعظمَ مما رأيتُه وقاسيتُه ، ولو اشركتُ والعياذ بالله تعالى لمحت ذنبي[٤] التوبةَ والاستغفار . ولو كفَرْتُ معاذ الله لعفّت على كفري الندامةُ والاعتذار . ولـما احتمل أن يُسمّى كبيرة ، ويُدعى ولو على المجاز جريرة .

وهب انني يامولاي لاأواخذك بأعراضك وإعراضـك ، ولا أعاتبك

---

(١) مابين الخطين ساقط من ﻫ

(٢) ساقط من ﻫ

(٣) ساقط من ﻫ .

(٤) ﻫ « ذنوبي »

بإسرافك وإخلافك ، ولا أقابلك بأخلاقك وإخلاقك ، ولا أواجهك بانقيادك وعدم انتقادك ، ولا أعارضك بإعراضك وعدم اعتراضك ، ولا أطالبك بتألمك وعدم تأملك ، ولا أحاسبك بما حرمتنيه من عَطفك ، ولا أصادرك وإنْ سُؤتَني بما تثنيه من عِطْفك .

أفي حكم المروءة أن تُبعِدَ مَنْ يقاربك ، وتطرد[1] مَنْ يُصاحبك ، وتطرح من يهابُك ولا يملّك ، وتسمح بقطيعة من يُجِلّك ولا يُخِلّك ؟ ومن أمثالهم أهل الحفائظ أهل الحفاظ ، والحفائظ تحلّل الأحقاد . فأين من سيدي الحفيظة المأمولة لتحلّل ماعنده وما استقصاه . وتهدم ماشاده |الواشي|[2] ومابناه ؟

والعينُ تعرف من عَيْنَيْ محدّثِها إنْ كان من حزبها أومن أعاديها

وقد بلغتني مقالة من بعضها في القلب قروح ، فليت شعري وهل ليتٌ بنافعة متى كان جرحاً حتى صار قرحاً ؟ ومتى قدح الزند حتى اضطرم هذا الوقد ؟ ومتى (٣٧ ب) تكاثف القَطْرُ وهمى ، حتى اجتمع هذا البحر وطَمَى ؟ ومتى طنّت الحصا حتى بلغ صداها الى عنان السما ؟

قد أصبحتْ أمُّ الخيار تدعي عليّ ذنباً كلّه لم أصنعِ

وبالجملة فقد شاركت الليالُ ، في تقلبٍ الأحوال ، ووافقت الأيام في اصطناعها اللئام .

مالليالي أقالَ اللهُ عثرَتنا من الليالي وغالتْها[3] يدُ الغِيَرَ

هلاّ ألهمتَ أن تَرِدَ بعقلٍ وتصدرَ بتمييز ، وما ذلك على الله بعزيز . ولولا انك أعنتَها ونصرتَها ، وآزرتَها وظاهرتَها ، لرُدّتْ على أعقابها ناكصة ، ورجعت على أدبارها خائبة ، ولأمِنْتَ مكرها ،

---

(١) ه « وتمادي » ، ب « وتوّاد »

(٢) ساقط من ه

(٣) في النسخ « خالتها »

واجتنبتَ إضرها . ولكنها جمرةُ ليل ، وأثرُ غادة لاسيل ، وبناءٌ على شفا ، وعلّةٌ قريبة الشفا . وقد ثبت أن العقوبة للمسيء ، والحرمانَ للمجرم ، والخذلانَ للمعتدي ، والقصاصَ للمذنب ، والمؤاخذة للجاني . وأنا أبيض وجه العهد ، واضح حجة الود ، مصاحب التوفيق ، بريء الساحة ، مجانب الهفوات .

ولو انني علمتُ أنه أمر بُيّت بليل ، لجازيت الصانع كيلاً بكيل ، ولكنه سأرينّه تاجــذي وأتجلد ، وأرِي الشامتين أني لرَيْبِ الدهر لا أتضعضعُ .

ولعمري ماعلمتُ أنّ صريح الرأي في التحول عنك مطلوب ، ولا تحققتُ أن المجاز في كل تركيبٍ من الألفاظ العرفيّة متداولٌ مرغوب ، لأتبصّر أنّ قول القائل مثلاً « اذهب الأعمى[1] » أن يكون عبارة عن طرد المخاطب ضمناً . وقد تقرّر أنّ المتكلم يدخل في عموم كلامه لا أنّ المخاطبَ يدخل في ماخُوطب به . ولو علمتُ قبــل ماعدتُ بعداً .

لستُ أشكو[2] من امتناعك عني ... يامُنى النّفسِ حيث عزَّ الاياب
سوءُ حظي أتاني منك هذا ... فعلى الحظ لاعليكَ العتابُ

وأحرِ بقول القائل :

إذا لم تكن حاجاتنا في نفوسهم ... فليسَ بمغْنٍ عنك عقدُ الرتائم

* * *

حَلفتُ ولم أترُكْ لنفسِكَ ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مطلبُ

إني ماقابلتُ إحسانك بكفر ، ولاأســأتُ أدباً في مَاصنعتُه في خدمتك بأن اتبعه بمنّ . ولك عندي اليدُ البيضاء التي لاأقبضها عن الدعاء

(١) ه « العمى »
(٢) ساقط من ه

لك ، والأخرى التي لاأسلطها الى الدعاء عليك ، وها أنا أشكو اليك ، جعلني الله فداك ، مالا تمكنُ الصراحة به ، ولا الايضاح عنـــه ، ولا التوصّل بالاستيفاء اليه ، ولا التسلط بالاستحضار عليه ، ولا التجمّل بالإغضاء معه ، ولا البيان بما فيه ، ولا التمحّلُ له . وربما ذكرت البعضَ منه ، وقلتُ لعلني كنت شائما سراباً ، أو مستمطراً جهاماً ، أورائياً خلّبا ، أو وارداً حيث لامراد ، أو مستعيناً حيث لا معين ، أو مستغيثاً حيث لا مغيث ، أو مستجيراً حيثُ لا مجار ، أو مستميحاً حيث لاسماح . ولك المثلُ الأعلى .

لاتعجبوا ضرْبي (٣٨ آ) لهمَنْ دونه مثلاً شروداً في الندىْ والباس
فالله قد ضرب الأقلَّ لنورهِ مثـلاً من المِشْكاةِ والنّبراس

* * *

ولو كان رمحاً واحداً لاتقيْتُه ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

فهل كنت كالمقتدي بناقضة الغزْل ، أو كمستصحبٍ سراةً لمدّة فاذا هم عُزل ، أو كراضٍ من الغنيمة بالإياب ، ومن المركب بالتعليق ، أو كراجعةٍ بخفّيْ حنين .

هذا وأنا أقول : لن يَضرّ الحوَار[1] وطءُ[2] أمّه ، بيد أنه يقال في مامضى من المُددِ الحوال .

فقسا ليزدجروا ومَنْ يكُ حازماً فَلْيَقْسُ أحياناً على مَنْ يرحم

* * *

ومثلي قَدْ تهفو به نشوةُ الصِّبا ومثلُكَ قد يعفو ومالكَ من مِثلِ
وإني لتنهاني نُهاي عن التي أشاد بها الواشي ويعقلني عقلي
وما أنا بالمهدي إلى السوء والخنا ولا بالمسيءِ القولَ في الحسنِ الفعل

---

(١) الحوار ولد الناقة قبل أن يُفصل عنها
(٢) م. د. « وطيئة »

فهاتِ جواباً عنك ترضى به العلى — إِذا سألتني بعدُ ألسنةُ الحفل

فبين الرضا والسخط ظنّيَ واقف — وقوفَ الهوى بين القطيعة والوصْل

ولو تيسرتْ لي مخاطبتك مشافهة لكان لي معك ذوق من الكلام ، لكنْ لما عزّت المواجهة ، استشفيت(١) بالمكاتبة والمراسلة قائلاً :

لك الحمدُ أمّا ما نحبّ فلا نرى — ونَنظر مالا نشتهي فلك الحمدُ

ولعمرُ أبي إنّ ليلي عليك ليلُ السليم ، ونهاري دونك نهارُ الأليم ، وفكري قد صَدِىء لعدم مطارحتك ، وطرفي قد قذي لندرة مشاهدتك وقلبي لعزّةِ رضاك واجبٌ مضطرب . وصَدري لقلة مؤانستك حرجٌ ضيّق وفمي لبُعد مصاحبتك واجمُ ساكت ، وصادف حجاي عارض وعَيَن ، فغلّني الدمع بسلاسل من عسجد ولجين .

أما والذي أبكى وأضحك والذي — أمات وأحيا والذي أمرُه الأمْرُ

لقد صدئت مرآة الكمال ، وقذي طرفٌ طالما سهر الليال . وتزلزل محلّ سيدي من قلبي ، أطال الله له البقا ، ومنحه سوابغ النعم وارتقى .

رفقاً بمنزلكَ الذي تحتلُّه — يامَنْ يُخَرِّبُ بيته بيديه

وضاق وسع الفضا ، وسكت مِصْقَعُ الخطبا ، وجُنّ صاحي القوم ، وبكت مُقلةٌ يعزّ عليها النوم .

إِذا الليل أضواني بسطتُ يدَ الهوى — وأذْلَلْتُ دمْعاً من خلائقه الكبرُ

معلّلتي بالوصلِ والموتُ دونه — إذا متُّ عطشاناً فلا نزل القَطْرُ

أما تتقي الله في واقف أمامك مستغفر تائب ؟ وأرقّ مايعرض على المولى قول القائل :

---

(١) « استغنيتُ »

سلي تعلمي إن كنتِ غيرَ عليمةٍ بأنْ ليس في حبي لغيرك مطمعُ
وأنّ ليَ القلبَ الذي ليس خالياً من الوجدِ والجفن الذي ليس يهجعُ
فوالله لاأنفك أذكر موضعي لديكِ ولا أنفكُّ نحوك أنزعُ

وهذا معنى قول القائل :

وقفَ الهوى بي حيث أنتِ (٣٨ب) فليس لي متأخرٌ عنه ولا مُتقدَّمُ
جاورتِ[1] أعدائي فصِرْتُ أُحبُّهم إذْ كان حظّي منك حظّيَ منهمُ
وأهنتِني فأهنتُ نفسي صاغراً يامن يهونُ عليك ممن يُكرَمُ

وبالجملة :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشحم في مَن شحمُه وَرَمُ

وهاك هدية الوقت ، وعفو الساعة ، وفيض البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليدين للفم ، وجمرات الحدة ، وثمرات المدة ، ومهاداة الخاطر للناظر ، ومباراة الطبع للسمع ، ومجاذبة الجنان للبنان . وها هو جواد البلاغة عالك الشكيم ، حابس العنان . لم يأخذ طاقه ، ولم يستوف مضماره . وهذا هو النهض فما بالك بالركض . وقد آلى أنه لايعرق عرق التنبه مالم يسمع بتصهاله ، ويرعد بقرع نعاله ، ويوصل بمتطيه غايةً لاتُدرك ، وغارةً بالرياح الهُوجِ لاتُنتهَك . ومع ذلك لو نظمتُ النثر كالدرر ، وأتيتُ به رائقاً كنسيم السحر ، وموشياً كألوان الزهر ، لما كنتُ إلاّ كمُهدي التمر الى هجر . ومستبضع الغرب الى سوق النبع .

أهدي لمجلسه الكريم وإنما أهدي له ماحزتُ من نعمائه
كالبحر يمطره السحابُ وماله فضلٌ عليه لأنه من مائه

---

(١) الرواية المشهورة « شابهتِ »

وآخرُ ماأقول : إن ودي موقوف عليك ، وحبيسُ سبيلك ، وتحت رهنك . فمتى عاودته وجدته سايغ المعبر ، غضّ المنظر ، هنيء المخبر . يندى بشاشة ، ويقطر حسناً ، ويفوح عنبراً ، ويثمر لطفاً . فإنْ فعلتَ ذلك فهو حسن . وإن عدتَ فالعودُ أحمد . وإن كان الأمر كما يُقال لا ولافالغبن مشترك ، والله تعالى يتولى السرائر . ويعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور ، وإن راسلتك بما زاد أو نقص ، فهو منك وبسببك . وصلّى الله على من لانبيّ بعده . وعلى آله الطيّبين الطاهرين .

٣٠

خان أحمد الكيلاني

الشريف الحسيني سلطان بلاد گيلان

هذا الشريف من بيت السلطنة أباً عن جدّ، وإلى هذا الحد . وهو مع كونه من الملوك ، فما قصر في أن سلك في تحصيل العلوم أحسن سلوك . حصل من علم النجوم مابه تفرّد بين الأفاضل فضلاً عن السلاطين ، وقرأ من علم الهيئة ماألبسه ثوب الهيئة بين الناس أجمعين ، حتى انه كان يدرس مولانا علي قوشي في علم الهيئة ، ويباحث العلماء مباحث تقتضي أنه اكتسب من الكمال الحصة الوافرة وهذا كثير على السلاطين ، بل على الأفاضل الكاملين .

وأما معرفتُه بعلم الموسيقى وبالعلوم الرياضية فإنه قد اشتهر وشاع ، وانتشر وذاع ، وملأت أصواته الأسماع ، في الوهاد والضياع ، وكان ينظم الشعر الفارسي نظماً أرق من نسيم الشمال ، وأرقّ من الماء الزلال ، ويربطهُ في (٣٩ آ) أصوات ونغمات ، بحيث أنه يكاد يحيي العظام الرفات ، وأحفظُ منه كثيراً ، ولكن لا يُناسب تواريخ العرب ، ولولا ذاك لذكرت منه جملة وافية . ولكنّ الإحماضَ مطلوب ، والنفسُ تنبسطُ بالانتقال من أسلوب الى أسلوب .

فمن ذلك قوله من غزل ربطه بنغم من صناعته وهو :

شام فراقِ حالِ مَن زارْمشكلست صُبْحِ وصالِ اكثر(١) بذكارْ مُشْكِلَسْت

جانْ دادنم بهپاي تو اسانْ بُودولي محرومِيمْ زدَوْلَتِ بِيْداو مُشْكِلَست

وله أيضاً بيتٌ من غزل معناه في غاية الحسن وهو متعلّقٌ بالحبيب الذي يطيب :

شمعْ صفَتْ بتيغ كش صدْدَهْ اگر بري سرَمْ مَنْ بِهواي تيغِ تُو بازْ سَرِي برْ آوَرَمْ

وكان طهماسب شاه قد اعتقلَهُ في قلعة قهقهه(٢) في ديار العجم ومكث بها معتقلاً سنين عديدة . وكان ولد طهماسب شاه اسماعيل محبوساً معه ، فقال له : إنْ أطلقني الله تعالى من الحبس وولاّني أمر النّاس فللّه عليّ أني أطلقك وأوليك بلادك أيضاً . فاتفق أنّ الله تعالى أطلقه وأعطاه سلطنة العراقَيْن وأذربَيْجان ، وشيروان ، وشيراز ، وخراسان ، وهمَذان ، وديار الجبال . فأخرجه من قهقهه لكن وضعَهُ في قلعة اصطخر وقال : أريدُ أن أرسلك الى بلادك كما أريدُ من التعظيم . فلم تطل مدة اسماعيل في السلطنة ، ومات اسماعيل وهو في قلعة اُصطخر . فاستخرجه الشاه أعمى أخو اسماعيل المسمى بخداي بنده محمد عند ماتولّى السلطنة باتفاق أمراء قزلباش . وكانت إقامتُه في زمن سلطنة أبيه وأخيه الشاه اسماعيل في شيراز . فلما مات أخوه شاه اسماعيل لم يجدوا في بيت السلطنة ذَكَراً قابلاً للملك سوى هذا ، فقالوا : هو من بيت السلطنة ليس إلاّ ، فنحن نوليّه ملك أبيه ولو كان أعمى ، فلمّا تولى السلطنة أرسل الى خان أحمد واستخرجه من اُصطخر وولاّه بلاد كيلان ، كما كان . فلم يزل بها الى أن أخذَ سلطان الاسلام السلطان مُراد بن سليم غالب عراق العجم وكلّ عراق العرب ، وأذَرْبيْجان

(١) كذا في النسخ وقد اقترح الدكتور حسين علي محفوظ ان تكون « دِلْبَر » ليستقيم المعنى . وقد تكرّم بضبط هذه الأبيات الفارسية فله الشكر .

(٢) كذا . واقترح الدكتور محفوظ أن تكون « قهندز » أو « قوابة » ، ولم ترد قهقهه في معجم البلدان

وشيروان ، وبلاد الكرج . فلزم أن شاه عباس بن خداي بنده الضرير المذكور أرسل عسكراً وافراً فأخذوا كيلان من يد خان أحمد هــذا ، وخاف منهم فهرب مع جماعة معدودين إلى جانب سلطان الاسلام ، وهو مولانا الغازي المظفر الأسعد ، السلطان محمد ، بن السلطان مراد بن سليم . وقصد قسطنطينية فدخل وامتدح السلطان المذكور بقصيدةٍ عظيمـة (٣٩ ب) يحثه فيها على أخذِ كيلان من يد شاه عباس ، وأهدى لحضرة سلطان الاسلام شمعدان مرصعاً قيل إنهم ثمنوه بثمانين ألف دينار ذهباً ، ولم يحصل مراده من العسكر وذهب الى بغداد باذن السلطان المذكور ومات في سنة تسع بعد الألف رحمه الله تعالى آمين .

٣١

الشيخ أحمد المكفناتي[١]

الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد المكفناتي الدمشقي

كان رجلاً صالحاً محظوظاً من كلام الصوفية وإشاراتهم . وكان رحمه الله تعالى يتسبّبُ ببيع الكفن[٢] . وكان فضلاءُ دمشق مثل الشيخ علاء الدين ابن عماد الدين والشهابِ الغزّي يحبونه ويجالسونه ويفرحون بكلامه . ولما مرض مرض الموت دخل عليه الشيخ شهابُ الدين وهو يجود بنفسه ففتح عينيه وبكى وأنشد :

إذا كانَ هذا فعله مع محبّه … فياليتَ شعري بالعِدى كيف يصنعُ

ثم انه استعبر ورفع رأسه وأنشد :

نفسُ المحب على الآلام صابرةٌ … لعلّ متلفها يوماً يُداويها

ثم انّه مات بعد ذلك بيومين .

وكانت وفاته في سنة ثلاث وسبعين وتسع مئة . كذا في « الروض العاطر » .

---

(١) مكان هذا الاسم بياض في ه

(٢) م ، ب « المكفن »

٣٢

الشيخ أحمد الأيدوني[١]

شيخنا الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن تقي الدين الإيدوني الشافعي رحمه الله تعالى .

كان قد تسبّب أولاً بمدّ الشريط بسوق الذهب[٢] ، واستمر به مدة ، ثم إنه حفظ القرآن الكريم وقرأه بالعشر على الشيخ شهاب الدين الطيبي ، وقرأ الفقه والتفسير على الشيخ بدر الدين الغزّي ، ثم لزم الشيخ محمد الايجي بصالحية دمشق وتعلم منه الفارسية ، ودرّس بالجامع وتصدّر به ، وأُعطي نصف إمامة المقصورة شريكاً لشيخه الشهاب الطيبي الكبير . وكانت بيده بقعةُ حديثٍ بالجامع . وكان عالماً عاملاً ديّناً خاشعاً لله تعالى كثير البكاء ، وكان الناس يقصدون إمامتَهُ لحسن صوتِه وصحة قراءته . وسمعتُه يقول عند ماكتب علماء دمشق محضراً بأن غيْره أولى منه بالإمامة ﴿ ستُكتب شهادتُهم ويُسألون[٣] ﴾

توفي رحمه الله تعالى في سنة ثمان وتسعين وتسع مئة . ودفن بتربة الحمرية ، وكانت جنازته حافلة رحمه تعالى .

---

(١) مكان هذا الاسم بياض في هـ

(٢) لعله سوق الذهبين الذي كان شمال الجامع الأموي ، وبني أيام الأمير نوروز ، انظر النعيمي ٢ : ٤٠٠

(٣) سورة الزخرف ، ٤٣ ، الآية ١٩

٣٣

أحمد بن روح الأنصاري

مولانا أحمد أفندي الأنصاري قاضي القضاة بالشام ومصر وأدرنه وقسطنطينية . وتولى قضاء العسكر بولاية أناطولي وولاية روم ايلي .

كان المذكور قدم الى قسطنطينية من بلاد كنجة وبرذعة من بلاد العجم . وكان وحيداً فريداً فقيراً . أخبرني أنه ورد من بلاده ماشياً ، وأنه ورد الى البلدة المسماة بالقصير فأخذ بها العهد على الشيخ أحمد القصيري المشهور . وسافر بعد ذلك الى باب السلطنة العثمانية ، وخدم رجلاً من (٤٠ آ) أركان الدولة يقال له فريدون آغا ، وأقرأ أولاده ولازمه حتى انتظم في سلك موالي الروم . وتولى تدريس المدرسة المعروفة بأم السلطان مراد ، ومنها خرج الى قضاء الشام في الدولة المرادية .

وبدمشق اجتمعتُ به وذاكرتُه في أنواع العلوم ، ومدحتُه بقصيدةٍ أوجبَتْ أنه عرض له في تدريس المدرسة الوجيزية[١] بدمشق وحصلتْ لي بعون الله تعالى .

وكان المذكور فاضلاً في العلوم العقلية كالمنطق والكلام . كانت عربيتهُ ضعيفة ، وكذلك فقهه . وكان كريماً الى الغاية لكنه كان موصوفا بالتهاون في مايتعلق بأمور القضاء حتى انه ماكان يتأمل الحجة التي تعرض عليه للامضاء بل كان يمضيها تقليداً للكاتب وثقةً به وتغافلاً عن التثبت ، لاسيما في أمور الشرائع . وصدر له من ذلك أن بعض أعدائه أدخل عليه حجة

---

(١) كذا . ولم يذكر النعيمي مدرسة بهذا الاسم . ولعلها محرفة عن الوجيبة .

فيها بيع للسموات وتحديدها بكرة الأرض . فعلم عليها فشاع ذلك في بلاد الروم وافتضح بذلك عند الموالي ومابالى بذلك .

وتولى قضاء مصر ورجع من طريق الشام ، ونزل بالميدان الأخضر . فذهبت للسلام عليه وسألته عن علماء مصر فاثنى عليهم وقال لي : سألني الشيخ زين العابدين البكري عن لو في قوله تعالى : ﴿ ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، مانفدت كلمات الله ﴾[1] من جهة لو أنها لو أجريت على قاعدتها المعلومة من أن نفي مدخولها إثبات ، وإثباته نفي ، لصار المعنى : لكن ما كان مافي الأرض من شجرة أقلام فنفدت كلمات الله . وذلك محال .

فقلت له : عجباً من الشيخ زين العابدين يسألكم عن مسئلة مذكورة مع جوابها في المطول . فخجل من قولي لأنه كان يظن أن السؤال من مولدات أفكار الشيخ زين العابدين .

وجرى معه في ذلك المجلس أبحاث تضيق المقالة عن تفصيلها .

وبلغني أنه اختلط في آخر عمره . وكان يكتب في امضائه : المفتقر الى الملك الباري ، أحمد بن روح الله الأنصاري .

وبالجملة فكان الغالب عليه الحلم والكرم ، والعلم العقلي الذي هو به علم .

وكانت وفاته بقسطنطينية في عام ثمان بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة واتم السلام .

---

(١) سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ٢٧

٣٤
الشيخ أحمد بن المنقار

الشيخ أحمد بن محمد بن المنقار الشيخ الكامل الموصوف من الذكاء بالعجب العُجاب ، الذي فتح الله له في العلوم أوسعَ باب .

هو من بيت المنقار . وهذا البيت من البيوت الكبيرة بحلب ينتسبون الى حضرة العباس (٤١ ب) عم النبي ﷺ . ولهم بالشام أقارب .

والشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة ولد بدمشق وأمه دمشقية ، وأبوه محمد فاته تحصيل العلم ، لكنه سافر الى باب السلطنة العلية بقسطنطينية المحمية ، فصار قاضياً ببعض القصبات ، ومات وهو في طريق القضاء . ونشأ ولده الشيخ احمد هذا في طلب العلم ، ونال منه حظاً عظيما وافرا ، ونصيباً متكاثرا . وكانت قراءته على الشيخ أسد الدين التبريزي ثم الدمشقي الآتي ذكره فيه عن قريب إن شاء الله تعالى ، لأنه كان زوج عمته . ولقد نشأ نشأةً عجيبة بحيث أنه ألف قبل أن يصير عمره عشرين سنةً رسالة مقبولة في مباحث الاستعارة وبيان أقسامها وتحقيق المجاز والحقيقة . وعرضها على علماء عصره فما منهم إلاّ من وضع عليها قلمَ القبول ، ومدحه بما تستحقه من المدح المقبول . وكتبتُ عليها كتابةً حسنة ، ووصفتُها بعباراتٍ مستحسنة ، مابين نثرٍ ونظام ، يُذعن لها أهل الكلام ، ودرّس بالمدرسة الفارسية[1] بدمشق المحمية ، وطار صيته في الآفاق ، وتناقلتْ أحاديث فضله الرفاق ، وسافر الى حلب مراتٍ عديدة ، فظهرت فضائله وسيرتهُ الحميدة . ثم لما مات والده في

---

(١) انظر تنبيه الطالب ١ : ٤٢٦

بلاد الروم طالباً للقضاء - فأدركه، وصادفه في طريقه الذي سلكه لزم أن ينهض الى قسطنطينية ليتناول ماخلف والده من المال، ويسعى على منصب [له][١] يكون سبب الإكرام والإجلال. فاشتهر صيتُه بين موالي الروم. وأدركه من العزّة ما كان يطلب ويروم. بحيث ان المفتي الأعظم | شيخ الاسلام |[٢] مولانا زكريا أفندي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى جعله ملازماً منه على قاعدة علماء تلك الديار. وفي ذلك رفعة عظيمة عند أرباب الاعتبار. فبينما هو في تلك المقامات رفيعاً، ساكناً حصناً من المجد منيعاً، اختلط عقله، وضاع فضله، وصار يخلط في كلامه، ويخبط في نظامه، فوضعوه في دار الشفا، وفرح بحالته الحاسد[٣] واشتفى. وزادت به هذه الأحوال، وداخلته منها الأهوال، فلزم إرساله الى بلاده مربوطاً، وأصبح كماله كحاله ليس مضبوطاً. ووصل الى دمشق في زنجير وثيق، فتارة يغيب وآونة يفيق، ولقد دخلت عليه مسلّما، وله من الدهر متظلما. فرأيته في سلسلة طويلة الذيل، فأسبلت دموعي كالسيْل، حزناً عليه، وشوقاً اليه، لأنه كان يراسلني بقصائده، ويطارحني بفوائده (٤١ آ) وكنت أجيبه عن رسائله، وأحقق جميع دلائله. فقال لي وهو في تلك الحال، متمثلا على سبيل الارتجال، مشيراً الى سلسلته التي منعته من التردد والمسير، وصيرته في صورة الأسير[٤] :

إذا رأيتَ عارضاً مُسلسلا   في وَجنَةٍ كجنّةٍ ياعاذلي
فاعلمْ يقيناً أننا مِنْ أمّةٍ   تُقادُ للجنّةِ بالسلاسلِ

وصار يكلّمني بكلام لطيف، خالٍ عن التخليط والتخريف. ويشير

---

(١) الزيادة من هـ، ب

(٢) مابين الخطين ساقط من هـ، ب

(٣) هـ « الحسود »

(٤) هـ، ب « الأمير »

الى بعض المراسلات الماضية ، في الأيام الخاليـة . وكنت أريد الذهاب فيمسكني ، وأطلب الهرب فيدركني .

وطلب الأحبابُ له الدواء من كل طبيب ، فما ناله من الشفاء حظٌ ولا نصيب . وهو إلى الآن في قيوده ، مقيم على عهوده[١] . ولكن حالته تنقص وتزيد بحسب فصول العام . وربما رأيتُه في بعض الأيام ومعه مغربي يحفظه ، وخوفاً عليه يلحظه . والدهر أبو الأهوال ، لايُبقي على حــال . وأوّلُ شيء أرسله اليّ وهو صغير مابقل عذاره ، ولا رقمت على صحيفة خدّه أسطاره ، هذه القصيدة ، سائلاً عن لولا عند دخولها على الضمير المتّصل ، وصيرورتها حرف جرٍ عند سيبويه ، هل يجوز عطفُ اسمٍ مجرور على مدخولها عند إعادة حرف الجر الذي هو لولا أم لا ، بأن يُقال : لولاك ولولا زيدٍ [بجرّ زيد][٢] وهو ممنوع . [فليقر][٢] بذلك . ويقال (كذا) لنا حرف جر لايجوز العطف على مجروره ولو أعيد حرفُ الجرّ . وقد نظم ذلك في قصيدة رائية وأرسلها اليّ ، وألحّ في إرسال الجواب عليّ ، وقصيدتُه هي قوله :

أوبّ الندى ياذا المكارم والبرّ ... ومَنْ جودُه قدفاق مَدّاً على البحرِ

ويا كاملاً حاز العلوم بأسرها ... فأضحتْ له منقادةَ النهْيِ والأمْر

ويافاضلاً من حسنه اشتُقّ اسمُـه ... فاضحى جميلَ الوصف والاسمِ والذكرِ

حَوَيْتَ الذي لم يَحْوِهِ من مآثرٍ ... أفاضلُ هذا العصر من سالف الدهرِ

إمامٌ له فَهْمٌ إذا عَنّ مُشْكِلٌ ... أزال مُعمّاه[٣] ولم يُبْقِ من سرّ

---

(١) هـ ، ب « معهوده »

(٢) الزيادة من هـ ، ب

(٣) هـ « معمى »

بلاغته قد أخملت ذكر وائلٍ ولم تبق فخراً للصاقعة الغُرّ
أقرّ له بالفخر كلّ مفضَّلٍ سجاياه في حسنٍ تفوقُ على البدر
جوادٌ حكاه الغيثُ يوم عطائه لو أنّ عطاياه من البيض والصُّفْرِ (١)
سألتُك لاجهلاً بمقدارك الذي ترقّى الى فوق السّما كَيْنِ والنّسرِ
عن اسم ضميرٍ جُرّ بالحرف ثم لا يجوز عليه عطفُ آخر بالجرّ
سوالا أعدْتَ الحرف أم لا فبيِّنَنْ جوابا لهذا اللّغز واكسبْ به أجري
وإن لم أكن أهلاً لذلك إنني عُبَيْدٌ يرجّي أن يكاتَبَ من حُرّ
وأنت الذي تُرجى لكشف نقابه اذا ما غدا منه الأفاضلُ في حَصْرِ
[أمولاي عذراً إنني لمقصّر ولم آتِ في مدحي لذاتك بالحصر] (٢)
وكيف يطيق الحصْرَ في النظم عاجزٌ وقد أعجز المدّاحَ وصفك في النثر
وها قد أتتْ خجلى اليك فأولِها قبولاً لتُضحي اليوم مرفوعةَ القدر
فلا زلتَ مأوى العلم أفضلَ أهله ولا زال من يَشْناك يوجدُ في خُسر
ودُمْ وابْقَ مافنّى على العود سَاجع وذاب عِذارُ الطَلّ في وجنة الزهر (٣)

فأجبتُه لما صار أهلا للجواب ، وفُتح له من الفضل أبواب . ولم أراعِ الرويّ للاشتهار (٤) . فقلتُ مجيباً في سنة تسع مئة وثلاث وتسعين :

(١) هـ ، ب « السمر »
(٢) الزيادة من هـ ، ب
(٣) هـ ، ب « النهر »
(٤) هـ « لاشتهاره وانتشاره »

ألا هاتِ حدّثني عن الرّشأ الألمى ... وَدَعْني من أسماء زينب أو أسما
وهاتِ عن اللحظ الذي صار راشقاً ... على قوس محنيّ الحواجب لي سهمَا
وحدّث عن السهم الذي لم تُصَبْ به ... جلودٌ وللقلب المقرّح قد أصمى
أليس عجيباً أنْ رماني بأسهُمٍ ... ولم ألق في حظ التواصل لي سَهْمَا
وقلد غيري الدّر طيبُ كلامه ... وَصيّر حظي بعد طُول العنا كَلْما
ومذ فاتني دُرُّ المباسم لم أزلْ ... لشوقي اليه اجْعَلُ الدرّ لي نَظْمَا
فياليت شِعْري حين تهتُ بشَعْره ... ينيرُ صباح الثغر لي ليلةَ ظَلْما
سقى اللهُ ماء الحسْنِ خداً إذا بدَا ... من الخدر لم يترك لشمس الضحى رسْماً
وإن لحظته أعينُ الناس خفيةً ... يكاد وحاشاه من اللحظ أن يَدْمى
وما كان فيه عقربُ الصدغ ساكناً ... لشيء سوى أن يمنع العاشق اللثما
وقامةُ قدٍ قد أقامت قيامتي ... وأقعدتِ السلوانَ والصبرَ والعزما
جعلتُ دموعَ العين شرباً لغصنها ... فواحزني لِمْ صُيّرتْ مهجتي تَظْمَا
رعى اللهُ مَنْ قلبي لديه مضيّعٌ ... وَمَنْ ذقتُ منهُ بعد شَهْدِ اللقا سُمَّا
ومن باتَ ريّانَ الجفون من الكرى ... وصيّر لحظي في الدجا يرقب النجْما
وَمَنْ صار يُولي لي حروبَ جفونه ... وأُولي له بالذلّ من طاعتي سِلمَا
وفارقني مثل الشباب مودّعاً ... فبالله قل لي كم بسهم العنا أرْمى
فراقُ شباب في فراقِ حبائب ... وحقّك ياسلمى يكلّ بذا سلما

كنت مع الأحباب في ليل صبوتي ... فوا أسفي صبح المشيب بنا غما

ولو دام لي عصرُ الشبيبة والصِبا ... لَمَلّتْ نفسي بالوصال ولو وَهْما

ولكن بتقويضِ الشبابِ خيامَه ... تقطعتِ الأطماعُ من رشأ ألمى

سقى الله ذاك العهدَ عَهْدَ غمامةٍ ... وإن متّ من شوقي الى عهده غمّا

سأذكره مالاح في الصبحِ بارقٌ ... ودامَ شهابُ الدين يعلو الورى علما

هو الكاملُ المحمودُ أحمدُ مَنْ غدا ... لدفترِ أهل الفضل في دهرنا ختما

أثار شهابَ الفضل منه لياليا ... من الجهلِ قد كانت بلاغرة دُهما

وجدّد ربعاً للفضائل قد عفا ... ولم يُبقِ منه الدهرُ ذاتاً ولا رسْما

وحلّ عقودَ المشكلاتِ بفهمه ... كأنّ ابن سينا كان أودعه الفهما

لئن كان سِنّاً عن رجالٍ مؤخراً ... لقد فاتهم علماً وجاوزهم حِلْما

فقل ماتشا في فضله وكماله ... فرتبتُه مما يُقال به أنمى

ومَنْ عنده في فضل أحمد ريبةٌ ... فذلك ذو طرفٍ بلا ريبة أعمى

فهات صنوفَ المدحِ فيه ولاتخفْ ... غُلوّاً وإغراقاً ولا ترتقب إثما

فكلُّ مديحٍ في عُلاه حقيقةٌ ... بذاك قضاةُ الفضلِ قد أمضت الحكما

فيا فاضلاً قد شاع في الناس فضلُه ... وشمسُ الضحى في الصحو لن تقبل الكتما

بعثت قريضاً بل أزاهرَ روضةٍ ... سقتها سحابُ الفضل من فكرك الأسمى

فهاج الى نظم القريض سجيةً ... مضى زمن ماحركت نحوه عَزْما

وفي ضمنه لغزٌ جلته لخاطري ... بديهةُ فكر تثقبُ الصخرةَ الصمّا

فأوضحتَ بالتلويح عقد عقوده ... فعندك كالتصريح لفظ الذي أومى

فلولاك لم تفتتح عقايمُ فكرتي ... ولا نظمت من درّ أبحرها نظما

أمرت بتبيين الجواب وإنّني ... رأيتُ امتثالَ الأمر ياسيدي حتما

فمن أجلِ ذا أرسلتُ من روض فكرتي ... أزاهر من سقيا الحجى بسمت بسما

وشيعتُ بكراً من عذارى خواطري ... صريحةَ أنسابٍ اذا اصبحت تنمى

عقيلةَ خدرٍ للأعاريبِ تعتزي ... كأن جديساً جدُّها كان أوطسما

إذا تُلِيَتْ يوماً على سمعِ منصت[1] ... تُشَرِّدُ عن أوطان خاطره الهمّا

وتصبغ وجه الحاسدين بصفرة ... كأنّ استماعَ الفضلِ يورثهم سُقما

فلا جاد ربع الحاسدين غمامةٌ ... ولازال هذا الدهرَ يوسعُهم ذمّاً

وحيّا الحيا من طاب خِيماً وفِطرةً ... ولاذاق في الأيام ظُلماً ولا هَضْما

فإنّ وجود المنصفين نعدُّه ... عَلى قِلّةِ الإنصافِ في دهرنا غُنْما

ودُمْ في سماءِ الفضلِ شمساً منيرةً ... وَجانبك الأعلى ورتبتُك العُظْمى

مدى الدهرِ ما استولى الغرامُ على فتىً ... فسامر من شوقٍ الى بدره نجما

ولما[2] وصلت هذه القصيدةُ الى الشهاب المذكور عرضها على شيخه الشيخ أسد الدين التبريزي ثم الدمشقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فكتب إليّ

---

(١) م « منصف »

(٢) ه، ب « قلت ولما »

نثراً يتقدمُ قصيدة ، على وزن هذه القصيدة وقافيتها وتعرّض فيها لمدحي ولمدح الشهاب المذكور . وبعد وصول قصيدة الشيخ أسد الدين اليّ كتب اليّ الشهابُ المذكور قصيدةً على الوزن والقافية أيضاً يمدح فيها الشيخ أسد الدين المذكور ويمدحني أيضاً . ولنذكر النثر الذي كتبه الشيخ أسدالدين ، وقصيدته بتمامها[1] وقصيدة الشهاب المذكورة بتمامها .

فأمّا النثرُ فهو ما كتبَ إليّ في سنة تسع مئة وثلاث وتسعين فقال :

يامولانا . هـذا الجوابُ الذي لعب بنا لعب الشمول بالألباب ، وأبرز مخدّرات المعاني من وراء الحجاب ، وجلاها على أبناء الأدب سافرة النقاب . فتطفّلَ الفقير على تلك الفوائد ، وانتقى منها غرر الفرائد . فلما تأمّل في ذلك العقد المنضّد جاشَ صدرُهُ ، وقدح فكرُهُ . فأنشد :

سقوني وقالوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا جبالَ حُنَيْنٍ ماسقوني لغنّت

وقد سبق مولانا في حلبة الرهان مجلّياً ، وتلاه الشهاب المجاب مصليا ، ومذ أصبح مولانا مالك زمام الأدب سار الفقير من غير نقص في مولانا متّمِا . وإن كان حال شعري المسطور ، كما قال الشهاب المذكور :

إن كان يحكي الذي أبديت قافيةً فليس مثلاله في اللطف والحِكَمِ

هل طَلُّ غيثٍ يُحاكي وابلاً هَطِلاً أم هل غديرٌ يُحاكي البحرَ في العِظَمِ

واما القصيدةُ الأسديّةُ فهي هذه[2] :

يُفَوّقُ نحوي لحظُه أبداً سهما ولم أدر لي في حبّه غيرذا سهمَا

بنار الجوى أفنى وجودي ولم يدع من الجسد البالي خيالاً ولا رسما

---

(١) في ه ، ب بدلاً من قوله « وقصيدته بتمامها ... » مايلي : ونذكر من قصيدته المذكورة بعض أبيات . ومن قصيدة الشهاب ايضاً بعض أبيات : »

(٢) ه ، ب « فطلها »

[١] اذا ما دجى ليلٌ أراعي نجومه | الى الصبح لم أعرف لطيب الكرى طعما
فبين فؤادي والغرام تلازمٌ | وبين جفوني والكرى الفتنةُ العُظْمي
ولم أكتسبْ من حبّه طولَ مُدّتي | سِوَى أنْ كسوْتُ القلبَ والبدنَ السُقما
فذ عمَّ ذاك الخالُ حُسناً بوجهه | طفقتُ أنادي الخالَ من حيرتي عمّا
أيا لائمي فيه استمعْ لصفاته | لعلّك أن تُبْدي التعطّفَ والرحما
أغنٌّ رشيقُ القدّ أغيدُ أهيفٌ | بديعُ صفاتِ اللحظِ أحورُه ألمى
محيّاه لما بان في ليلِ شَعْرِهِ | [بدا لي] بَدرَ التمّ في الليلة الظلْما
ولما انثنى يرنو بألحاظ جؤذرٍ | تذكّرْتُ بيضاً جُرّدت والقنا الصّما
أعاذل دعْ عنك الملام فإنّني | أضعْتُ رشادي حين أحْبَبْتُ والعزما
غزالٌ يصيد الأسْدَ في يوم حربه | ويُبدي مع الأحباب بين الورى سلما
ولما أراد الفتكَ بي حين صادني | تقلّدَ سيفَ اللّحْظِ ثم مضى قُدُما
مراشفُه درياقُ ملسوعِ صدغه | فما باله أبدى من الصدّ لي سُمّا
ولا تحسبنّي في هواه مجدداً | فنارُ هواه أحرقت كبدي قدما
وقد كنتُ أخفي الحبّ قدماً فقد بدا | مشيبٌ برأسي ما استطعتُ له كتْما [٢]
مشيبٌ وحبٌّ والملامُ وغربةٌ | وصدٌّ أذاب القلبَ منيَ والجسْما
تجمّعتِ البلوى عليّ وليس لي | وجودٌ لأني صرتُ من صدّه وهما

---

(١) من هنا الى مابعد ١٤ بيتاً كله ساقط من ه ، ب
(٢) الى هنا ساقط في ه ، ب ثم فيها : الى أن يقول : مشيب ..

تقسمتِ الناسُ الوصال جميعَه وكان النوى لي بينهم دونهم قسما

(١) أيحسُنُ في شرع المحبّة أنّني أموتُ وما قارفتُ إثماً ولا جُرْماً

أيحسنُ في شرعِ المحبّة أن أرى بِمَرْشَفِه ماء الحياة وأن أظما

قضايا الورى في الحب قد انتجتْ لهم قضاياي في حبي لهمْ أنتجت عُقما

تملّك قلبي كلّه بلحاظِه ولم يبق لي قلباً لزينب أو سَلمى

لقد مُتُّ غمًّا في هواه وإنني مضى لي دهر لم أكن أعرف الغمّا (٢)

لقد جئتُ أشكو من هواه الى فتى مناقبُه تستغرقُ النثر والنظما

هو الحسنُ الأفعالِ والاسم والذي مديحُ علاه صار في مذهبي حتما

وصاحبه ذاك الذي بَذَّ فضله فضائل مَنْ جاراه في فضله خصما

شهاب من الله المهيمن ثاقبٌ ولكنه في علمه يشبه اليمّا (٣)

فلولاهما ما كان للفضل رونقٌ وما رقمتْ كفّايَ في ورقٍ رقما

هما مُفردا ذا العصر في العلم والحجى هُما شاعرا ذا الدهر قد ختماختما (٣)

كأنّهما عند التساجل أصبحا كشمسِ الضّحى قد قارنتْ قمراً تمّا

(٤) وقد نظما في السلك درّاً منضداً وقد حيّرا في وصفِه العُرْب والعجما

---

(١) من هنا يبدأ سقط جديد في ه ، ب
(٢) الى هنا ساقط من ه ، ب
(٣) ساقط من ه ، ب
(٤) من هنا ساقط من ه ، ب

هما شنَّفا سمعي بشعرٍ مُهَذَّبٍ ... لديه أبو تمامٍ النَّدْبُ ما تَمَّا

هما أحييا ربع الفضائل بعدَما ... عفا رسمُه لم يبق سوى اسْمَا

فما روضةٌ غنَّاء باكرها النَّدى ... وفتَّقتِ الأزهارُ في دَوْحِها كُمَّا

وقام خطيبُ الدَّوْح فيها مُغرِّداً ... يجدِّد للعشَّاق في سجعه عَزْمَا

وفاح شذاها عندما هبت الصَّبا ... ونفَّس عن قلب المحبِّ العنا الجمَّا

تَسَلْسَل في أرجائها الماءُ جارياً ... على حَصَبَاتٍ كالجواهر أو أسمى

بأحسنَ منه حين زار منازلي ... وأشرقَ من أنواره الليلةَ الدهما

فسامرتُه جنحَ الدَّجى مُتلذذاً ... وأوثقتُه ضمّاً وأوسعتُه لثما

أأهديتُماليَ الشعرَ أم نَفْثَ ساحرٍ ... أم العِقدَ أم بدرَ الدياجي أم النجما

أم الوردَ أم زهرَ الرياضِ أم المُنى ... أم الشمسَ أم كأسَ المدام أم النعمى

فدوما جميعاً باركَ الله فيكما ... تُفيدان طلاَّباً أتوا نحوكم علما

ولا تفترا غيظاً على الدهر إنَّهُ ... عن الفاضلِ النِّحريرِ ذو نظر أعمى

فيكفيكما غيظُ الجهول لفضلكم ... وإن رغمت أنفُ الحسود به رغما[1]

ولا زلتما في نعمةٍ ومَسَرَّةٍ ... ولا تَريا في الدهر نقصاً ولا وصما[2]

مدى الدهر ما غنّى على الدوحِ ساجعٌ ... فأجلى به عن قلب سامعه همَّا

---

(١) الى هنا ساقط في ه، ب.

(٢) ه، ب « ظلماً ولا هضما »

وأما القصيدة الشهابية فهي هذه[١] :

أتى ينثني كاللَّدْنِ بل قدّه أسمى ... غزالٌ بفعل الجفن يلهيك عن أسْما

فريد كمال[٢] جامع الظرف[٣] جؤذر ... أمير جمال[٤] اهيف احور اللمى

اذا مابدا أو ماس تيهاً وإن رنا ... ترى البدرَ منه والمثقف والسهْما

ترى وجهه في شعره السبْط مشرقا ... ومن عجب شمس بداجية ظلما

له مقلة سيّافةٌ غمدُها الحشا ... ونبّالةٌ قلبي لأسهمها مرْمى

| لحتُ بطرفي خاه فكلمته ... فمقلته تُدمي ووجنته تدمَى |[٥]

تجسّم من لطف وظرفٍ أما ترى ... تأمله[٦] لمّا تخيّلته وهما

|[٧] ولو قلت تحكيه الغزالة لفتةً ... وتحكي محيّاه لأوسعته ذمّا

غزاني ببيض السُودِ من طرفه ومن ... طوارق هجراً فنَت الجسْم والرسْما

وحملني في الحب أثقالَ رِدفه ... وألبسني من خصره الناحل السقما

وأعجبُ مافيه يجودُ بطيْفه ... وقد سلبَ الأجفانَ من هجره النوما

وقد فطرتْ قلبي نوائبُ بيْنِه ... وطرفي نوى من غير رؤيته صوما

---

(١) ه، ب « وأما القصيدة التي كتبها الشيخ شهاب المذكور فطلعها . »
(٢) ه « جمال »
(٣) ه « العطف »
(٤) ه « كمال »
(٥) ساقط من ه، ب
(٦) ه « تغيّره »
(٧) من هنا ساقط في ه، ب

وحلت عُرى جسمي يدُ البعد فانبرى ولكنْ عُرى ودّي به أحكمت برما
كفى حزناً أني رهينُ سقامه وغيريَ وافٍ من تعطّفه قسما
بجيَ يوم البين نمّتْ مدامعي ومَنْ سِرُّهُ في الجفن لا يأمن النمّ
حكتْني حمامُ البان شجواً فكلّنا لفرطِ الجوى يبكي على البانة الشمّا
تعلمتُ من دمعي النثيرَ وثغرِه وما كنت أدري النثر في اللفظ والنظما
ولولا جفاهُ لم تفضْ مقلتي دماً ولولا نواه لم يهض [لي] الهوى العظما
إذا لامني قومٌ بحبيه لا أرى إطاعتَهم لكنْ أرى لَوْمَهم لؤما
يلومون أنْ يُطفوا بنار ملامهم هواي وما بالنار يُطْفَأُ بل يُحمى
ففي عينهم عن لطفِ إبداعه عمى ولي أُذُنٌ عن فحشِ عَذْلهمُ صمّا[1]
يميناً بميماتِ المباسم إنني عن الحبّ لا ألوى بلومهمُ الغرما
ولا ابتغي عن قيد حبيه مخلصاً سِوَى حسنٍ قولاً وفعلاً كذاك اسما
[2] إمام أولي الأفضال فخرُ زمانه فريدُ الورى في كلّ علمٍ غدا يمّا
يؤمُّ لدى حلّ العويصاتِ إن دجتْ فيحسمُ إشكالاتها فكرُهُ حسمًا
وأطلعَ شمسَ الفضل بعد أفولها وشوّهَ وَجْهَ الجهل حتى غدا جَهْما
لعمري لقد فاقَ الأواخر فطنةً وأنسى بما أنشى الأولى فُصُحُوا اقدمَا

---

(١) الى هنا ساقط في ه، ب
(٢) من هنا الى آخر القصيدة ساقط من ه، ب

إذا العُرْبُ جاروه ميادين أفحموا ... فتحسبُهم من عِيٍّ نُطقِهم عجمَا

ولو ظمئت في كشفِ رمز نفوسُهم ... لأرشفهم من ثغرِ أفكاره ظلما

أليس عجيباً يُدعى خلو دهرِنا ... من الفضلِ وهو البحرُ فيه طما علما

ويانافثَ السحرِ الحلالِ بلفظه ... ويامن اليه كلّ مجدِ غدا يُنمى

ويامُودِعاً لطفَ النسيمِ كلامَه ... وإن كان في أحشاء أعدائه كَلْما

إليك مقاليدُ البلاغةِ أُلقيتْ ... ومنك الموالي تستقي الوابل الجمّا

لبستَ من الأفضال أفخرَ حُلّة ... وعمّرت ربماً في العُلا قارن النجما

وأرسلتَ طرساً بل صحائفَ فضّة ... ونظماً بل المنثور من ربعك الأسمى

بل الخمرَ في كأس البيان مروّقاً ... وليست ترى الأفهامُ في شربه إثما

بل الزهرَ في روض الطروس منضّداً ... بل البُرْدَ قد أوْدَعْت في وشيه رقما

لقد جاد وسميُّ الفصاحةِ روضَه ... فأضحتْ فنونُ اللطفِ في وجهه وَسْما

لديه يُرى نظمُ ابن زيدون ناقصاً ... وشعرُ حبيبٍ في السلامة ماتمّا

فلا مُتّعتْ عيني بحسنِ حبيبها ... وقرّتْ به إن عاينت مثله نظما

فهاك قريضي عن قريضك قاصر ... وهل يرمعٌ[1] يحكي الدراري في الدهما

ودرُّك في سلك البيان منظّمٌ ... وجزعي في سِلْكِ الركاكةِ قد ضُمّا

ومايشبهُ البحرَ الخضمّ جداولٌ ... كذاك السُّهى لايلحق القمر التمّا

(١) اليرمع : حصىً بيض تلمع ، اذا فتتت انفتّت .

أديبَ الورى حِلْفَ النهى أوحداً قرما ودم غرّةً في جبهة الدهر نزهةً

وسحّت على نادي فضائلك النُّعْمى وأُبقيت مأوى كلّ مجدٍ وسُؤددٍ

أديبٌ برى الحشا مدحته حتى مدى الدهر ما وشّي مطارفَ طرسه

[وهو باق الى الآن في بيته بقيد الترسيم ، شفاه الله المولى الحكيم][1]

(١) الزيادة من ﻫ ، ب . وفي حاشية ﻫ : ثم توفي سنة ١٠٣٣ ﻫ »

٣٥

الشيخ أحمد بن المرحوم الشيخ أسد

هو الشيخ الصالح ، الفاضل الفالح ، العابدُ الزاهد ، الملازم على العبادة في غالب المعابد .

كان والده الشيخ أسد في الأصل من قرية حمّارا ، ثم خرج منها الى دمشق . وأخذ عن الشيخ العارف بالله الشيخ محمد بن عراق الطريق . ثمّ ارتحل الى بلاد صفد الى قرية يقال لها الدبر وبها توفي . فنشأ ولده الشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة على الطاعة والعبادة . وورث عنه السبحة والسجادة . غير انّ الشيخ أحمد هذا مقيم في مدينة صفد في زاوية تعرف به الآن ، وكانت قديماً تعرف بجامع الصدر .

وهو الآن من محاسن الأخيار من الأتقياء الأبرار . مولده بمدينة صفد ، على ما أخبرني بذلك ابن أخيه الشيخ عبد الرحيم ، في سنة ٩٤٤ . فيكون عمره في هذا التاريخ ، وهي سنة تسع بعد الألف ، خمساً وستين سنة .

ولهم وِردٌ خاصٌ بهم نقلوه عن أستاذ والدهم الشيخ محمد بن عراق يقرؤنه مع جماعتهم في أعقاب الصلوات الخمس .

وهو شيخ له نور ساطع ، وضياء من العبادة لامع ، لا يُفارق تلاوة القرآن ، ولايفتر ساعة عن عبادة الملك الديّان . وله خطٌ حسَنٌ وعبارات مستحسنة ، وفضيلة لائقة بأمثاله حسنة .

وأخبرني ابن أخيه الشيخ عبد الرحيم المذكور أنّ عمّه الشيخ أحمد المذكور متجانبٌ عن الاختلاط بالانام ، وأنّه لايتردّدُ الى الحكام ، بل

ربّما يتردّد الحكامُ اليه ويخضعون بين يديه . لكنه ربما سلم على الحاكم عند ابتداء قدومه مرة واحدة (٤٦ آ) لايعيدها ، إلاّ بضرورة داعية لايريدُها . وله بعض علوفات قليلة |من جانب السلطنة العلية . وربما يوسل بعض أقاربه لاستيفائها من ديوان دمشق المحميّة . |(١)

والديرُ الذي ذكرنا أنّ الشيخ الأسد توفي فيه في سفح جبل بالقرب من قرية البُصنة . وكان الدير قديماً يعرف بدير الخضر . وكان قديماً مسكن النصارى ، فأخرجهم منه المرحوم السلطان سليمان رحمه الله تعالى وأمر الشيخ الأسد بالإقامة فيه مع أولاده وأتباعه . فامتثل الأمر الشريف وقطن فيه الى أن توفاه الله تعالى . وكانت وفاةُ الشيخ أسد المذكور في الدير المزبور سنة ٩٧٧ .

وأولاده وأنساله مقيمون به ماعدا الشيخ أحمد صاحب هذه الترجمة فإنه مقيم بمدينة صفد كما شرحناه .

وبالجملة فالأسد لايعقب إلاّ الأشبال ، وصاحب الحال لاينشأ عنه الا أرباب الأحوال . والفروع سالكون على طريق الأصول . وأفعالهم تابعةٌ لما كان عليه الرسول . ولَمْ يُنقل عنهم مايخالف المعقول ولايُنافي المنقول . وقد بارك الله في نسلهم فانتشروا ، وبمحاسن الصّفات قد اشتهروا . والحمد لله على كل حال ، وعليه الاعتماد في جميع الأحوال .

---

(١) مابين الخطين القائمين ساقط من ه ، ب

٣٦

الشيخ أحمد الحلبي الشهير بابن المنلا

هو الشيخُ الفاضل ، |العلاّمـةُ الكامل|[١] ، ذو الفواضل والفضائل ، والمآثر التي ليس لها من مُماثل .

ورد الى دمشق مع ابيه الشهير بالملاّ . وكان أبوه من أعيان الناس . تولى أوقاف المدرسة السليميّة بالصالحية المحميّة . ونشأ ولده أحمد هذا فاضلاً بارعاً ، حافظاً جامعاً . جـال في ميدان العربية ففاز بقصبات السَّبْق ، وتناظر مع أبناء الأدب فما منهم إلاّ مَنْ سلّم له بالسيادة وله إسترقّ . واستمر مع والده في دمشق مدة طويلة ورجع معـه الى حلب ، واجتهد في الطلب ، للمعـارف والعلوم ، وبالغ في الفحص عما تضمنته من منطوقٍ ومفهوم ، الى أن أصبح في العلم علاّمة ، وفي الفهم فهّامة . وسافر الى دار السلطنة العليّة قسطنطينيّة المحميّة . فدرّس في حلب بعدّة مدارس ، ومدح في الروم مفتي دار السلطنة العليّة المولى أبا السعود ، صاحب التفسير الفائق على درر العقود . وأجاد في مدحه الى أن أشاع الممدوحُ المذكور أشعاره في الروم ، ونال بذلك مِنَ الرفعة مايطلبه ويروم .

ولما رأى العالم قد صار للجاهل مطلوباً ، وأصبح العاَلم مقلوباً ، بحيثُ أنّ العلماء ضاعوا بين الُجهّال ، وسقطتْ مرتبتُهم الى الحضيض (٤٦ ب) بعد المنزل المتعال ، وأصبحت المدارسُ تُباع لمن يدرسُها ، ولايدرّس فيها ، وطارت معاني الكتب في آفاق الضياع من قوادمها الى خوافيها ،

---

(١) ساقط من ه

وكبّر الجهلاءُ العمائم ، حتى ارتفعوا الى الغمائم ، وفطنوا لجهلهم فيما كان يتزله العلماء من المعالم ، تخلى عن المناصب ، وما تجلى في منصّات المراتب ، بل ترك التدريس ودرسه ، ونسي الدرس وما دَرَسَهُ .

وكان له وقفٌ قد انتقل اليه من بعض أسلافه ، فاكتفى بما يحصل منه ، فامترى مادَّةً مِنْ أخلافه . وقطن غالب أوقاته في الضياع ، حتى أصارته الى وصف الضياع .

وكان ملازماً على التحرير والتصنيف ، والتقرير والتأليف . بحيث انه شرح « مغني اللبيب عن كُتُب الأعاريب » للعلاّمة جمال الدين بن هشام . وأخبرني من رآه من العلماء الأعلام أنّ الشرح المذكور في بابه غاية لا تُرام ، وأنه واضحُ المباني ، متين المعاني . تبسّم منه[1] ثغور التحقيق ، وتنفح من أزهاره أرواح التدقيق . وماوقفتُ عليه لكن سمعت بأوصافه الحسنة ، ومعانيه المستحسنة . وله في النظم اليدُ الطائلة ، وفي النثر المقاصد الكاملة . سلّم له أهل زمانه ، من مشايخه وأقرانه . وكان يحضر في بعض فصول السنة الى حلب الشهباء فيبادر أعيانها الى الاجتماع به ، ولا يتخلّف عنه كبيرٌ ولا صغير ، ولا جليلٌ ولا حقير . وغالب أخذه العلوم عن عالم حلب المرحوم الشهير بابن الحنبلي الآتي ذكر إن شاء الله تعالى .

ولكن صدرتْ له محنة في آخر عمره وأفضتْ به الى الزوال ، وأصارته منقولاً الى وصف الانتقال . وذلك أنه لما كثرت إقامته في القرى كما ذكرناه كان بعض الفلاّحين يستندُ اليه في بعض المهمات ، ويستعين به عند وقع الملمات . فجاءه رجلٌ وطلب منه أن يساعده في تزوجه لبنتِ رجلٍ من أعيان هاتيك الناحية . وكان ابنُ عمّها قد تكلم مع أبيها في أن يتزوجها . فلأجل خاطر الشيخ أحمد المذكور زوّجها والدُها لمن طلبها على يد الشيخ ولم يزوّجها لابن عمّها . فعاتبه ابن عمّها فقال : مالي ذنب في ذلك ،

---

(١) « « عنه «

ومافعلتُه إلاّ بإبرامٍ من الشيخ أحمد فإنّه استاذنا وهو الحاكم علينا، وهو صاحب المرتبة العلية، في الديار الحلبيّة. فأمرّها ابن عمّ البنت في خاطره، وصار يرتاد الفرصة في قتل الشيخ المذكور اذا كان في القرية أيام بيادره. فلم يزل يحاول الفرصة، ليذهب بقتله ماعنده من الغصّة، حتى أمكنه غيلَه (٤٧ آ) في ليله. فحضر اليه مع فرقة من الأشقياء المساعدين له على مراده، والمعاهدين له على كمال إسعافه وإسعاده. فكسر باب الدار، وكأسَ الحمام عليه أدار، وماراقب في قتله غضب الجبّار. بلغني أنّ الشيخ كان جالساً يطالع في بعض الكتب المفيدة. وعنده عبدٌ حبشي يطبخ له قهوة البنّ ليقوّي تسهيده. وإذا بالشقيّ المذكور قد دخل عليه بغتة والسيفُ في يده مسلول. فاستعطفه بما حضره من الكلام فكان عنده غير مقبول. وبطش به غير راحم لشيبته، ولا عاطفٍ على علومه وفضيلته. وسقاه بدل ماكان يترقب من القهوة كأس الحمام، وأدرك بذلك ماكان قد طلب من المرام. ونال الشيخ شهادة الآخرة، وحاز جنّةً ناضرة، مع وجوه الى ربها ناظرة. وشاع الخبر بذلك في البلاد، حتى بكت حسن العهاد.

ولقد كان لطيفَ الأخلاق، كريماً على الغرباء والرّفاق. ولقد أخبرني عنه جمٌّ غفير، وجمعٌ كثير، أنّه كان حلوَ المذاكرة، لطيفَ المحاضرة، رقيقَ المسامرة. ولو لم يكن كذلك لما حاز السعادة، وفاز بمرتبة الشهادة.

وكان له ولدان فاضلان عالمان كاملان. أحدُهما اسمه محمد، والآخر ابراهيم. وكلٌّ منهما في حلب رئيسٌ جليل عظيم. يتوقّدان ذكاءً وفهماً، ويتدفّقان سخاء وعلماً.

وبلغني أنّ القاتل لأبيهما المذكور معَ مَنْ كان من أرباب الشقاوة والشرور، قد قُتلوا قصاصاً. وما وجدوا من السيف خلاصاً. وأنّ استيفاء حقّه منهم كان في مدة قصيرة، وأنّ مولاه الحق كان في ذلك نصيره.

وله من النظم مايسحرُ الألباب، ومن النثر مالايغلق معه كتاب.

فمن ذلك ماقاله في حقّ رجلٍ شريفٍ كان نقيب الأشراف بحلب ، وكان بذيّ اللّسان ، مغرى بثلب الأعيان . وكان يُتّهمُ بالمغالاة في القرابة ، وعدم الحب لحضرات الصحابة :

ياسيداً مِنْ شَرّه إنا نعوذُ بعائشهْ

رفقاً على أعراضنا ماأنت إلاّ فاحشهْ

ومن ذلك ماقاله يصف ربيعاً نضيراً ، لاتجد له نظيرا ، واجاد فيما أفاد :

أرى نفحاتِ الزهر عطّرتِ الحمى كأنّ غزالي في الرياض تَنَسّما [(١)]

ومن عجبٍ أنّ الغمامة قد بَكَتْ سُحَيْراً وثغر الروض أبدى تبسُّما

وقد نشرتْ أيدي الغصون [(٢)] لآلئاً غدت [فوق] زندالنهر درّاً منظّما [(٣)]

وقد دارتِ الكاساتُ من كفّ أغيدٍ كبدر أرانا فوقَ كفَّيْه أنجُما

وقد صفّقتْ في الدوح أغصانُه على غنا الوُرْق والشحرور غنّى وزمزما

ودبّ عِذارُ الآسِ في خدِ روضةٍ بها عارضُ الريحان لاح مُنَمْنَما

أهنيك قد جاء الربيعُ وأقبلتْ بشائرُه والدهر انك منعما

فأسرعْ الى كاسات خمر [(٤)] كأنّها وقد برزتْ من كفّ ظبيٍ تلثّما

هلالٌ أدار الشمسَ مابين معشر من الغيدِ تلقى دونهم أنجمَ السما

شممنا لها عَرْفاً تضوّع نشرُه فأحيا نفوساً حبلُها قد تصرّما

(١) ه، ب « تبسّما »
(٢) ب ، م « الربيع »
(٣) في النسخ « غدت زند النهر دراً منظماً »
(٤) ه « خير »

إذا ما بدت من دَنّها[1] خلتَ أنها ... سرورٌ بكاساتِ النعيم تجسّما
وإن قهقهت في الطاس أبدى حبابها ... فواقعَ ياقوتٍ على التبر قد طما
أديرتْ علينا والصباحُ كأنّهُ ... إضاءةُ ثغرٍ من حبيبٍ تبسّما
ومازال ساقينا يحثُّ كؤوسها ... علينا إلى أن أبرز الشرق أدهما
وما خلتُ أنّ الشمسَ ألقتْ بنفسها ... الى الغَرْب الأمْن[2] جوىً وتضرما
وماذاك إلا مذ رأت بدر كأسنا ... بأفقِ السما ألقى الضياء وخيّما
فعادتْ بقلبٍ خافقٍ نحو مغربٍ ... أقامتْ به من فقدها النورَ مأتما
فسودُ مافي الشرق ثوبُ حِدادها ... وفي الغرب أجرت من محاجرها دما
وأحور لحظ ماتبدى عذارُه ... ولكنّ مافي خدّه الطرفُ أو هما
يَسلّ من الألحاظ عَضباً مهنّداً ... ومن قدّه إنْ ماس رُمحاً مقوّما
ويفترُّ عن خمرٍ يمازجُ سُكّراً ... على لؤلؤٍ فوق العقيقِ تنظّما
وقد خطّ فوق الثغرِ بالمسك شاربٌ ... بجانبه خالٌ أماتَ المتيّما
له مقلتا ظبيٍ وعطفُ غزالةٍ ... وقدٌّ رُدَيْنِيٌّ وصدغٌ تنمنما
أناديه والأجفانُ هامٍ سحابُها ... وطعمَ الكرى عن مقلتي البعدُ قد حمى
لك الله رفقاً قد أذبتَ[3] مهتكا ... كئيباً سحابُ الطّرفِ في خده همى

---

(١) « « دونها »
(٢) « « عن »
(٣) « « اذابت »

يبيتُ على فرشِ الصبابة والضنا ... يقلّبُ جسماً عُدّ في جملة الرّمى
اذا اغبرّ وجهُ الشرق فاضت شئونه[1] ... وهاج بذكرى مَنْ له البدرُ سَلّما
وان أشرقتْ منه الغزالةُ خلته ... فتىّ يتلظّى حسرةً وتهمّا (٤٨آ)
وإن هتفتْ ورقاءُ في الدوح هيّجتْ ... له شوق قلبٍ بالصدود تكلّما
حمامَ الِحمى رِفقاً فإنّي متيّمٌ ... بعيدٌ عن الأحباب والإلف والِحمى
مقيم بأرضِ الروم في سوء حالة ... وما حال مَن في الروم بات مخيّما
بلاد بها أهلُ الفضائلِ عالةٌ ... وذو الجهل لاينفكّ فيها مُعظّما
فسحقاً لأهليها أولي البغي والهوى ... ولا برحت للشر مرقىً وسُلّما

ومما نقلتُه من خطّه في رحلته الروميّة المسماة « بالروضة الورديّة في الرحلة الرومية » قوله :

ألا إنّ الفراقَ سبا فؤادي ... وأبدلني السهادَ من[2] الرقاد
وأجرى بَحْرَ دَمعي من عيُوني ... وبدّدَ شمله في كل وادي
فلي وجدٌ عن العُذّالِ خافٍ ... ولي سُقْمٌ لدى الرائين بادِ
نزحتُ عن الأحبّة فالتسلّي ... مُحالٌ والعذولُ لديّ عادي
عسى الرحمن يجمعُنا قريباً ... بناديهم على رغم الأعادي

وبالجملة فإنّه من مُفرَدات الزمان ، ومن محاسن الخلاّن ، والإخوان . ماتخلّف بعده مثله ، ومن تشبّه به صار للتعقير مُثله . رحمه الله تعالى رحمة واسعة الى يوم الحساب .

---

(١) م ، ه ، ب « شجونه » ولعلها كما اثبتنا .
(٢) ه « عن »

٣٧

الأمير أحمد بن الأمير قانصوه الغزّاوي الساعدي

تولّى أحمد المذكور هذا الإمارة بعجلون[١] وما والاها من بلاد الكَرَك[٢] والشوبك[٣] بعد أبيه الأمير قانصوه ، وباشر الإمارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد ابن السلطان سليم . وكان قليل الأذى للرعايا ولكن كان منسوباً الى الخسّة .

وبالجملة هو من قوم لهم قدمٌ في الإمارة في هاتيك البلاد ، وكانوا في زمن الجراكسة أمراءها . ورأيتُ من اجدادهم في بعض التواريخ الأمير محمد بن ساعد . وذكر صاحب التاريخ المذكور أنه كان أميراً في جبل عجلون ، وأنّ بعض حكّام دمشق طلع اليه الى بلاده فهرب منه وخافه . وأمّا قانصوه والد الأمير أحمد هذا فإنه كان جمالَ البيت المذكور ، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف القاف .

مات الأمير أحمد المذكور فجأة بنواحي عجلون . وذلك أن بعض أمراء دمشق أرسل اليه أحكاماً سلطانيةً في بعض المهمّات مع بعض الأجناد فبينما الرسولُ عنده إذ قيل مات الأمير . فاضطربت البلادُ لذلك حتى قيل للرسول (٤٨ ب) أنت ناولت الأمير | شيئاً شمّه ، فكان

---

(١) بلدة كبيرة في الأردن اليوم

(٢) بلدة كبيرة في الأردن اليوم . انظر عنها معجم البلدان .

(٣) بلدة كبيرة في الأردن اليوم . انظر عنها معجم البلدان .

فيه |[١] مُمتة . وليس كذلك . وإنّما الامر كما قال الأمير أبو فراس الحمداني :

ولكن إذا حُم القضاءُ على امرىءٍ فليس له بَرٌّ يقيه ولا بَحْرُ

وإمارة عجلون في هذا التاريخ بيد الأمير حمدان ولد الأمير أحمد صاحب هذه الترجمة وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) ساقط من ه .

٣٨

أمير الأمراء أحمد باشا
الشهير بين أمراء الأروام بشمسي أحمد باشا

هذا[١] الأمير المذكور منسوبٌ الى حضرة خالد بن الوليد الصحابيّ رضي الله عنه . وهو من بيوت السلطنة القديمة ، يتّصل نسبُه بالسلطان اسفنديار سلطان قَصْطَموني كان تولى هاتيك النواحي . لكن لما غلبت شوكةُ بني عثمان سلّم اسفنديار سلطنته لهم باختياره بشروطٍ منها أن لا تخرج البلادُ المذكورة عن يد من يوجد مِنْ نسله . ومنها أن لايبقى أحدٌ من اولاده وأنساله بغير منصب يليق بشأنه ، ووفى بنو عثمان لهم بذلك.

وصاحبُ هذه الترجمة خَدَمَ في بيت السلطنة بقسطنطينيّة عند سلاطين آل عثمان ، ولم يزل يتنقّل في الولايات الى أن وَلاّه السلطان سليمان خان ، عليه الرحمة والرضوان ، إمارة الأمراء بدمشق الشام . فجاء إلى دمشق وسار في الناس سيرة حسنة . وكان كريمَ الطّباع ، قليلَ الضرر ، كثيرَ النفع للرعايا والأتباع . وطالت مدته[٢] بدمشق ، وبنى بها خانقاه قبالة قلعة دمشق من جانبها القبليّ ملاصقةً لخندقها[٣] . وجعل بها حجرات للصوفية ، وجعل لها وقفاً يطبخ منه كلّ ليلةٍ بعد العصر |طعامٌ|[٤] يأكله المجاورون |بها|[٤] وهي من محاسن دمشق ، وقعت على وضع لطيف .

---

(١) انظر ولاة دمشق في العهد العثماني ص ١٤

(٢) « ، ب » مدة ولايته »

(٣) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ١٩١ (مسجد الأحمدية)

(٤) ساقط من ه

وبها بُركة عظيمة وبستانٌ لطيف واقعٌ في وسطها . ودائماً يكون بها شيخٌ يتناول ماشرط للمشايخ من علوفة وطعام وعوائد وفوائد ، وانما قيل له شمسي ليكون مخلصا له يذكره في شعره على عادة شعراء الفرس والروم لأن المذكور كان من محاسن شعراء الروم . له ديوانُ شعرٍ مشهود بينهم يتداولونه ويحفظونه .

|[١] ومن جملة آثاره أنه نظم كتاب « الوقاية في فقه الامام الأعظم أبي حنيفة » رضي الله عنه نظماً بلسان التركية وأكمله وعرضه على المولى أبي السعود المفتي .

وكان القاضي بدمشق في أيام دولته قاضي القضاة محمد أفندي (٤٩ آ) ابن العلامة المفتي أبي السعود صاحب التفسير الآتي ذكره وذكر والده إن شاء الله تعالى . فاتفق أنّ القاضي المذكور كان راكباً في يوم عيد ومعه جماعتُه وأصحابه ، فمرّ على باب دار الإمارة بدمشق ، وكان قدّام الباب المذكور أرجوحةٌ لبعض الأجناد من جماعة أمير الأمراء المذكور ، والطبل والمزمار يضرب للأرجوحة على العادة . فنفرتْ فَرَسُ القاضي من صوت الطبل فكادتْ تلقيه الى الأرض ، فأخذته حميّة المنصب وأَنَفَةُ النسب فأمر مَنْ معه بتخريق[٢] الطبل ، فخرقوا طبل الباشا وجماعته . فعلم بذلك أمير الأمراء فأمر بحدّة غضبه بقطع ذنب فرسِ القاضي ، وأمر بضرب كلّ مَنْ رأوا من جماعته . فوجدوا |بعض|[٣] المنسوبين الى القاضي من أعيان دمشق فضربوهم ضرباً مبرحاً . فلزم أنّ كلّا من الباشا والقاضي عرض حاله مع صاحبه إلى العتبة العلية بقسطنطينية المحمية . فعُزل الباشا عن دمشق واعطي عوضها سيواس . وعُزل القاضي وأعطي عوضا عن دمشق قضاء حلب .

---

(١) من هنا الى قوله المفتي ساقط من ه ، ب

(٢) ه ، ب « بتمزيق »

(٣) ساقط من ه

وبعد سيواس تولى الحكومة بولاية بلاد الروم كلّها وصار بعد ذلك مُصاحباً للسلطان سليم بن المرحوم السلطان سليمان . وكان موصوفاً بلطف المصاحبة ، وحسن المعاشرة . وصَاحَبَ المرحوم السلطان مراد أيضاً بعد أبيه السلطان سليم ، واستمر على ذلك الى أن توفي وهو في منصب المصاحبة للسلطان مراد رحمهم الله تعالى .

وبالجملة فلقد كان من الذين يفتخر بهم الزمان ، ويبتهج بهم الدوران ، وتربتُه بقسطنطينية المحروسة رحمه الله تعالى .

٣٩

الأمير أحمد بن رضوان بن مصطفى أمير غزة يوم تاريخه | سلمه الله تعالى |[1]

هو الامير الكبير ، صاحب القدر الخطير ، والجود الغزير ، والعقل والتدبير.

كان أبوه رضوان باشا من أكابر الأمراء بل وصل الى رتبة الوزراء في زمن السلطان [سليم ، وفي زمن السلطان مراد . وأما جـده مصطفى باشا فإنه كان من كبار الأمراء في زمن السلطان سليمان][2] وأرسل مرّات الى فتح بلاد اليمن . ووقفتُ على مكتوبٍ عظيمٍ من السلطان سليمان إلى المطهّر الحسيني سلطان اليمن وفيه تهديدٌ شديد ، ووعيدٌ وكيد . وفيه أمرُ المطهر بأنه لايخالف مصطفى باشا المذكور . ومصطفى باشا هذا هو المعروف (٤٩ ب) بين العرب في بلاد الشام بمصطفى أبوشاهين . قالوا لكثرة حمله الشاهين على يده عند الصيد .

والأمير أحمد صاحب هـذه الترجمة رُزق من السعادة حظاً عظيماً وافراً ، ووجد من الحظّ العظيم[3] ما كان له ناصراً . استولى على مملكة غَزّة مايقرب من ثلاثين سنة من غير عزلٍ يقتضي رحيله عنها ، ولا ذهابه منها . استوطنها فطابت له وطناً ، وسكنها فكانت له بالسعادة سكناً . وله أولادٌ نجبا ، وما منهم إلاّ مَنْ أشبه جداً أو أبا . وكلّهم من بنت المرحوم درويش باشا صاحب المدرسة الدرويشية بدمشق الشام . وخالُهم

---

(١) ساقط من ، ه ب

(٢) الزيادة من ه ، ب

(٣) ه ، ب « الجسيم »

لأمهم حسن باشا الوزير ابن الوزير . وما منهم إلاّ مَن هو أميرٌ ابنُ أمير ، وكبيرٌ ولدُ كبير .

فأمّا سليمانُ فهو نائب القدس الشريف في هذا الزمان .

وأخوه الذي دونه أميرُ نابلس في هذا الأوان .

وحاصل الأمر أنّ الأمير أحمد هذا وإن كان مقيماً على سبيل النيابة بغزّة ، لكنه قريبٌ من الوزراء في الهيبة والعزة . عُرضت عليه نيابةُ حلب مرات فما أرادها ، ولا ورد مرادها . لأنه يريد أن تكون غزة وطناً له ولأولاده ، ويحبّ أن تكون معدودة من جملة أملاكه وبلاده . فهو لذلك لايزايلها ، ولايحولُ عنها بل يُجاولها . ولقد تولى إمْرَةَ الحـاج الشريف الشامي فباشرها أحسن مباشرة . وحمدت أفعـاله للدنيا والآخرة . وأمّا خيراته على العلماء الذين في بلدته ، وإحسانه للفقراء الذين في ناحيتـه فأمرٌ يضيق عنه نطاقُ البيان ، ويكلّ عن بيانه لسانُ كل مِلسَان . طالما يسعفهم في الأزمات ، ويمن عليهم بجزيل الهبات . وقد يحضر إلى دمشق في بعض الأعوام ، فيمنّ على منْ بها من العلماء والأمراء والأعوام ، وعمّر بها بيتاً أذعن لحسنه أرباب البيوت ، لما حازه من اعظم الصفات والنعوت ، وهو في هذا التاريخ مقيمٌ بغزة المحروسة يطرد عنها العصاة ، ويردّ القُطّاع والبُغاة . والقافلةُ المصرية بوجوده تجد الأمن والإحسان . ولولاه لأخافها عُصاة العربان .

وبالجملة فهو من محاسن عصرنا هذا ، وهو معـدودٌ من محاسن الدولة العثمانية . وقد انتشى في أيام امارته بغزة علماء وفضلاء سيأتي ذكر بعضهم إن شاء الله تعالى .

وفي سنة تسع بعد الألف أرسل الأميرُ أحمد المذكور الى باب السلطنة قصّاداً وتحفاً عظيمة . وصار أمير الأمراء ببعض المدن الكبيرة ، وتقاعد عن ذلك بإقطاع عظيم . وصيّر إمارةَ غزّة باسم بعض أولاده رحمه الله . (٥٠ آ)

٤٠

صاحبنا الشيخ أحمد

المجاور يومئذ بالمدينة المنورة

|على ساكنها ألف ألف صلاة وألف ألف تحية|[١]

وهو رجل صالح فالح ، | وبالصلاح والعبادة معروف بين الأنام |[٢]
ولما[٣] وصلنا من مكة المعظمة ، الى المدينة المنورة المكرّمة ، في يوم الاثنين تاسع المحرم الحرام سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، دخلتُ المدينة متقدما على ركب الحجيج الشامي ، لأكتسب المبادرة الى زيارة الجناب الرفيع | السامي |[٤] . فلمّا دخلتُ باب الشام صادفتُ قبل كلّ أحدٍ الشيخ المذكور . فحيّانا بالسلام ، فاستبشرتُ برؤيته ، وتيمّنتُ بطلعته . فأدخل يده اليمين في كم يده الشمال . وأخرج منها وردةً حمراء كأنها الشفق الأحمر ، عند بزوغ الفجر . كذنب السرحان . وأعطانيها فرأيتُها خلقة عجيبة بارزة عن قدرة أبدية ، أزليّة غريبة . ولم يكن أحدٌ رأى الورد قبلها في هاتيك[٥] البلاد في ذلك الأوان . فتفاءلتُ بها وعلمتُ أنّ أمورنا الى خير وسداد . وما فارقت مراقبة المشاهدة للحجرة المكرمة في تلك الأيام ، مدة إقامة الركب الشامي ، بل جاورتُ في سبيل المرحوم أبي النصر السلطان قايتباي الذي كان سلطان الإسلام . والسبيلُ المذكور على باب الرحمة مطلٌ بشباكٍ كبير على الحجرة الشريفة النبوية . على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

---

(١) مابين الخطين القائمين ساقط من هـ ، ب

(٢) ساقط من ب

(٣) هـ ، ب « فحين »

(٤) ساقط من هـ ، ب

(٥) هـ ، ب « تلك »

٤١

الشيخ أحمد الصامتي المقدسي

هو الشيخ الصالح ، المعتقد الفالح ، البركة الصافي ، الصادق الوافي ، الشيخ أحمد بن المرحوم الشيخ عبد الكريم ابن المرحوم الشيخ موسى ابن الشيخ الصالح عبد المنعم الصامتي الأنصاري الخزرجي المقدسي .

الشيخُ الذي روى الطريقة عن أبيه وجدّه ، وشهدتْ له شواهدُ التسليم بسعادة طالعه وجده .

ورد الى دمشق الشام | من بيت المقدس |[١] مرات عديدة ، وتردد اليها مدة مديدة . ومنها ورُودُه اليها في أوائل سنة عشر بعد الألف . فدعوتُه الى بيتي في دمشق فأجاب الدعوة ، واكتسبتُ بصحبته ألطفَ جلوة ، وسألتُهم عن نسبتهم الى حضرة عُبادة [بن] الصامت ، فذكر دلائل صحيحة صريحة ، وشواهد صادقة مليحة ، وأوقفني على إجازة معه لبعضهم من حضرة القطب الرباني ، سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل فردوس الجنة مقيله ومثواه . فرأيتُ إجازة عظيمة متوجة بحضرة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في أعلاها (٥٠ ب) كتابته : أجزتُ الشيخ الصالح ، السعيد الفالح ، الشيخ عبد المنعم لما علمتُ من صلاح حاله ، وصدق أقواله ، وطهارة أفعاله ، وما نُسبَ إليّ في هذه الإجازة عندي مقبول . والله تعالى هو المأمول . وأنا عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي وفقه الله ووفق به ، وهدى الناس الى الخير بسببه . إنه وليّ ذلك والقادرُ عليه . وهو حسبي ونعم الوكيل .

---

(١) ساقط من ه

وحال الشيخ أحمد المذكور حال الأولياء لأنه في غاية الصلاح . كان مرة في بعض حمامات دمشق ومعه صاحب له ، فغسل أثوابه في الحمام وطلع صاحبه قبله . فرأى غلامه قد هرب من الحمام | [١] فأخبر الشيخ المذكور بذلك . وقال : اخرج الى أن نفتش على الغلام الى أين هرب | . فقال : نعم سمعاً وطاعة . وطلع ولبس ثيابه ووضع ماغسل من الثياب على كتفه وهي رطبة ، فكان الماء يتقاطر منها على ثيابه ، وهو دائر بدمشق يسأل عن الغلام ولايبالي بحالته ، ومتى قال له رفيقه : قم ، يقوم . ومتى قال له : اجلس ، يجلس . وهكذا .

وأما أهل بيت المقدس فيحكون عن أسلافه حكايات لهم في الكرامات وخرق العادات . ولهم حلقة ذكر في المسجد الأقصى وعلى ذكرهم وسامة الصلاح ، ومبارق الفلاح . ولاسيما انتمائهم الى حضرة عبادة بن الصامت ، لأن الامام النووي رضي الله عنه ذكر أن عبادة بن الصامت كان قاضياً [٢] .

---

(١) من هنا الى قوله « هرب » ساقط من ه

(٢) لم يذكر النووي أن عبادة كان قاضياً . انظر تهذيب الاسماء واللغات ١ : ٢٥٦ رقم ٢٨١ ؛ وانظر ايضاً قضاة دمشق لابن طولون .

٤٢

المولى أحمد أفندي ابن محمد

قاضي دمشق الشهير بشيخ زاده بمعنى ابن الشيخ

قد ولي[١] قضاء دمشق المحروسة من جانب سلطان الإسلام ، وملك ملوك الأنام ، السلطان أحمد ابن المرحوم السلطان محمد خان . أدام الله تعالى سعادته الى انقضاء الدوران . وكان وصوله الى دمشق في غرة شعبان سنة اثنتين وعشرين وألف . ولم يكن بدمشق حاكمُ سيفٍ عند ورود القاضي المذكور ، لأنّ حاكمها الوزير الكبير أحمد باشا الشهير كان مخيماً تحت قلعة بانياس في قتال فخر الدين بن معن أمير الدروز[٢] . ثم في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وألف ورد الخبر من باب السلطنة العلية بعزل القاضي المذكور[٣] ، وكان قبل أن يصير قاضي دمشق مدرساً بمدرسة من مدارس دار السلطنة العلية وهي مدارس السلطان سليمان[٤] وكانت مدة مكثه بدمشق سنة كاملة [من ابتداء شهر ربيع الثاني من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف الى ابتداء الشهر المذكور][٥] وولوه بعد الشام قضاء مكة المعظمة . وما كان صنعه بدمشق إلاّ تعمير

---

(١) من هنا ساقط في ه ، ب

(٢) الى هنا ينتهي ماهو ساقط من ه ، ب

(٣) هذه الجملة في في ه ، ب تختلف عما هي عليه هنا . وهذا نصها : « ورد الخبر في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة في شهور ثلاث وعشرين بعد الألف من باب السلطنة العلية بقسطنطينية المحمية الى دمشق الشام حماها الله من حوادث الأيام بعزل القاضي المذكور ... »

(٤) م « مدارس السليمانية »

(٥) الزيادة من ه ، ب

المدارس الموقوفة بدمشق (٥١ آ) وامتثل الناس أمره في ذلك إلا القليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم لما تحقق عزله من دمشق رحل منها الى بيت المقدس ، وزار المعاهد هناك [وأقام قليلا][1] ثم توجه الى جانب مصر يريد أن يعبر منها الى البَنْدَرِ المعروف بالسويس ، ومنه الى مكة ، عظمها الله تعالى ، زائراً وقاضياً . ولقد كان عازماً على الحج ولو لم يولَّ قضاء مكة . فاتفق أنَّ الأحكام السلطانية الأحمدية نفذها الله تعالى وردت اليه الى دمشق وكان قد طلع منها . فاستأجروا له ساعياً أخذها ولحقه في الطريق . وكان الناس قد أشاعوا موته في الطريق . ولم يصحَّ |ذلك|[2] . وكان في دمشق مباشراً للقضاء بهمة وعزيمة صارمة . وكانت له عفة عن أموال الناس ، لكنه كان ضيق العطن سيء الظن في الناس ، لاسيا العلماء . وكان يُبغض غالب الناس ويظهر التقوى . ثم إنه يحكي عن موالي الروم قبائح غريبة . ولا ندري هل هي مخترعة أم هي واقعة .

وكان يشتم الناس بقوله : بره عرب ، يَرَى أنَّ الاتصاف بالعربية من أكبر العيوب فيشتم بذلك . وكان تارة يزيد فيها : بره عرب طاط .

ولقد تسلط على صاحبنا الشيخ شمس الدين الميداني الشهير في دمشق بابن الخنتوش تسلطاً عظيما ، ولازم ذلك غالب مدته في دمشق . وذلك لأن الشمس المذكور متولٍ على أوقاف جامع يلبغا[3] الناصري .

---

(١) الزيادة من هـ ، ب

(٢) ساقط من هـ ، ب

(٣) انظر النعيمي ١ : ٤٢٣

٤٣

أحمد باشا الوزير الملقب بالحافظ

هو[١] الوزير الكبير الحافظ لكلام الله تعالى العليم الخبير . | الذي تربى في حرم السلطنة العثمانية في قسطنطينية المحمية[٢] | فنبغ أميراً ، وصار وزيرا . تقلب في الولايات ، ونال المراتب العليات ، بحيث انه جلس في منزلة الوزارة العظمى ، ونال المقام الأسمى . وسبب تلقبه بالحافظ أنه حفظ كلام الله جل وعلا ، وقرأه بالروايات المتعددة ، وتلا ، وتولى مصر فباشرها أحسن مباشرة ، وطالت مدته بها ، ولما عُزل عنها رجع الى الأبواب السلطانية من طريق دمشق الشام ، وكان معه من الأسباب والتجملات ما يُستكثر على بعض الملوك . ونزل في دمشق في الميدان الأخضر[٣] قريباً من العمارة السليمانية[٤] . وكان أمير الأمراء حينئذ بدمشق مراد باشا الذي أَمِرَ في ديار العجم . (٥١ ب) فتلقاه وأكرم نزله وأضافه ، وبالغ في رعايته ، حتى إنه قال له : يا أمير أنت ترحلني من دمشق بكثرة إحسانك ، فإنك قد أخجلتني بفضلك وأغرقتني بأمطار سحائب منك .

ولما رحل عن دمشق ركب الأمير مراد باشا لوداعه ، وكذلك عساكر الشام . ولما وصل الى الأبواب العالية بقسطنطينية جُعل وزيراً ومشيراً .

وهو في هذا التاريخ — وهو سنة تسع بعد الألف — قائم مقام الوزير الأعظم إبراهيم باشا . وذلك لأن حضرة السلطان الأعظم ، والخاقان الأكرم ،

---

(١) انظر ولاة دمشق في العهد العثماني ص ٢٩

(٢) مابين الخطين القائمين ساقط من ه ، ب

(٣) انظر مخطط دمشق القديمة لنا

(٤) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٥

السلطان محمد حفظه الله تعالى أرسل الوزير الأعظم ابراهيم باشا الى قتال الكفار في بلادهم . فلزم أن يكون له نائب من الوزراء ، فجعل الحافظ أحمد باشا المذكور قائماً مقامه ، يعرض الأمور المهمة على حضرة السلطان .

ومن غريب ما اتفق أن الحافظ هذا لما صُرف عن ولاية مصر وذهب الى قسطنطينية حسبوا مال الخزينة في أيامه فوجدوه ناقصاً بمقدار خمس مئة الف دينار ذهباً عيناً . فطلبوه منه فتعلل ، فعُرض الأمر على حضرة السلطان فأمر بتعيين قاضي العساكر بناحية أناطولي ، وهو يحيى افندي الشهير بقوش يحيى ، ومعه مولانا حسن افندي الشهير بابن القتلي قاضي القضاة بمصر سابقا ، ومعهما عثمان افندي قاضي القضاة بمصر سابقاً لأجل سماع الدعوى على الحافظ المذكور ، بالمال المزبور . وكان المدعي رأس أرباب الدفاتر محمود افندي الملقب بفجل[1] المزبلة ، لكونه وكيل حضرة السلطان فيما يتعلق بالأموال . فادّعى محمود المذكور على الحافظ بحضرة القضاة الثلاثة المذكورين وكانت الدعوى في مجلس الوزير الأعظم ابراهيم باشا . فجال الكلام في الدعوى المذكورة ، الى أن اتفق قاضيان على إلزام الحافظ بالمال كله ، وهما يحيى أفندي وحسن أفندي وخالفهما في ذلك الثالث وهو عثمان افندي وقال : لا يسوغُ إلزام الحافظ المذكور شرعاً .فصدر بسبب المخالفة المذكورة القال والقيل . وكتب القاضيان حجة بالإلزام المذكور .فعرض أحمد الحافظ الحجةَ على بعض العلماء في الروم . فقال له : ليس الإلزامُ شرعياً ، ولا هو مستوفياً للشرائط الشرعية . فعرض الحافظ هذا الحكم على حضرة السلطان ، نصره الله تعالى ، فكتب السلطان بخطه أمراً (٥٢ آ) للعلماء أن يكتبوا مايعلمون في الحكم المذكور إن كان صحيحاً أو باطلا . فكتب غالبُ علماء دار السلطنة على الحكم والإلزام بأنّه باطل ، ولم | يستوفِ |[2] الإلزامُ شرائطه الشرعية . وتنوعوا في الكتابة ، وبالغوا في التشنيع على من حكم . فمن جملة من حكم عليه

---

(١) ه « بعجل »
(٢) ساقط من ه

أحمد أفندي بن روح الله الأنصاري المنفصل عن قضاء العساكر ، وكذلك محمد أفندي ولد الخوجا سعد الدين قاضي العساكر يومئذ بولاية الروم ، وأخوه أسعد أفندي المنفصل عن قضاء قسطنطينية . وكتب المولى عبد الحليم أفندي المنفصل عن قضاء العسكر ، وكتب كل منهم عبارة بليغة لطيفة لكن بلسان تفهم حضرة السلطان وبقية أرباب الدولة .

ولقد رأيتُ صورة الحجة وصورة ما كَتَبَ عليها العلماءُ مفصلاً في دمشق صحبة بعض قضاة دمشق ، في سنة تسعٍ بعد الألف .

وانفصل الأمر عن أنّ الحافظ المذكور لم يُعطِ من المبلغ المذكور شيئاً لعدم وقوع الإلزام موقعه الشرعي .

والحافظ في يومنا هذا يتعاطى أمور الوزارة العظمى ، وعنده كمالُ الدقة في حفظ مال السّلطنة ، حتى إنّ ناظر الأموال السلطانية بدمشق وهو مولانا وسيدنا محمد أمين الدفتري العجمي حفظه الله تعالى أخبرني أنّ الحافظ المذكور كتب دفتراً وأرسله إلى دمشق بأسماء جماعةٍ يُعطَوْنَ في دمشق من الصدقات السلطانية ومنع من عداهم ، مع أنّ الممنوعين في غاية الكثرة والاستحقاق ، ويكفيه ما في ذلك من قطع الأرزاق .

والحافظ أحمد صاحب الترجمة خادمٌ أبيض خصيٌّ نحيفُ البنية خفيُّ الصوت عند التكلم ، لكنه مذكورٌ بالعقل الرزين ، والتدبير المتين . والله تعالى يقدم ما فيه الخير لنا وللمسلمين . أجمعين آمين .

٤٤
أحمد باشا الحافظ

هو[١] الوزير الكبير ، صاحب القدر الخطير ، والجود الغزير ، واللطف الذي ليس له نظير . ورد الى دمشق حاكماً بها من جانب سلطان سلاطين الاسلام ، وملك ملوك جميع الأنام ، حضرة مولانا الملك الأسعد الأمجد ، المولى الأعظم السلطان أحمد . حمد الله أمره ، وشرح صدره ، وسهّل أمره ، وجمّل ذكره . وطلع لاستقباله أعيانُ الأعلام ، وأكابر دمشق الشام . |[٢] وكان الفقيرُ من جملة مَنْ طلع إليه ، ووَرَدَ عليه . فرأيتُه عالماً ذكيًا ، وكاتباً سنياً . وسلك في دمشق الشام ، مسالك الصالحين من الحكام . وأحبّ (٥٢ ب) أهل العلم وأحبوه ، وطلبهم وطلبوه . |

وكان وروده إلى دمشق [يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الثاني] في سنة ثماني عشرة بعد الألف وقتَل قبل قدومه الى نفس دمشق أمير الآلاي بدمشق وهو باكير الشهير بأبي سن . وكان قتله في قرية يقال لها النبك[٣] .

ثم دخل بعد ذلك الى دمشق بهيبة عظيمة ، وخشية منه في النفوس كبيرة .

[وفي يوم الأحد وهو الرابع والعشرون من شهر ربيع الثاني من شهور سنة ثماني عشرة بعد الألف أمر الوزير الأمجد الحافظ أحمد باشا

---

(١) في نص هذه الترجمة كما ورد في ه ، ب اختلاف في الترتيب عما ورد عليه هنا

(٢) من هنا الى قوله : بعد الألف ، ساقط من ه ، ب . وسنأتي هذه الجملة بمعناها في مكان آخر مع وصفه طلوع العسكر والقضاة لاستقباله . والترجمة هنا تختلف في ترتيبها عما هي عليه في ه ، ب

(٣) قرية مشهورة تقع بين دمشق وحمص .

جميع عسكر دمشق بالخروج الى الميدان الأخضر بالجانب الغربي منها ، وأن يحمل كل واحدٍ منهم البندقية المسمّاة بالمكحلة قديماً لأنها سلاح مماليك آل عثمان . وأن يحضروا بها الى الميدان المذكور . وأمر بوضع غرض يكون هدفاً للبندق . ونادى بأن المصيب للغرض منكم له بخشيش عشرة دنانير . فأول مَنْ أصاب الغرض منهم كنعان بلوكباشي الجركسي . فأعطاه المبلغ المذكور . وهلم جرا .

فلما تمّ ضرب البندق أمر بلعب الخيل في الميدان المذكور . فاصطف الخيل فريقين . فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه من الدراهم . وعاد العسكر وهم في غاية الفرح من ذلك . والله الموفق .

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من صفر الخير من شهور سنة تسع عشرة بعد الألف قدم الحاج وطلع لاستقباله الوزير الكبير الأمجد أحمد باشا المذكور صاحب ايالة الشام . وكان القاضي يومئذ بدمشق السيد الشريف محمد الشهير بابن السيد برهان الدين الحسيني . وطلع بعمامة خضراء لاستقبال الحج . وكان يوماً مشهوداً طلع فيه غالب أهل دمشق . وكان الموكب عظيماً تزيّن فيه العسكر بالزينة العظيمة . وأما الوزير فإنه لبس الأبيض الأطلس بالفروة السمّور . وكان وراءه نحو أربعين خاصكياً ما بين من طرّ شاربه ومن هو أمرد لا نبات بعارضيه . والكلّ بالرماح والأتراس المرصّعة ، والتراكيش . الى غير ذلك من أنواع الزينة اللطيفة النادرة الوجود إلاّ عند أرباب الحظوظ والسعود .

وكان أمير الحاج في السنة المذكورة فرّوخ بك أمير لواء نابلس المحروسة . وقد تعرّض للحاج شاب اسمه عليّ بن عمر من أمراء بني شاهين . وهو من أولاد أكابرهم . وكان حسن الشكل جداً ، ولا نبات بعارضَيْه . فلما تعرّض للحاج ساق فرسه ليضرب رجلاً من الجند بالرمح ، فضربه

رجل من أجناد غزّة بالبندقية ، فأصابت صدره ، فطلعت من ظهره ومات من ساعته ، وقطع رأسه . وكان ذا ذؤابة عالية . ورُفع على رمح يوم الدخول إلى دمشق . وكان الهواء يلعب بذؤابتـــه كالغصن تتحرّك عَذَباته عنه فوق اعتدال قامته] [١] .

وأقام في دمشق الى يوم تاريخه وهو يوم الأربعاء العشرون من شهر ربيع الثاني من شهور سنة إحدى وعشرين بعد الألف .

وفي هذا اليوم المذكور بعينه ثار الجنودُ السلطانية بدمشق على جماعة أحمد باشا المذكور وقتلوا منهم نحو عشرين رجلاً ، وذلك لأن الجنود السلطانية زعموا أن رجلاً منهم كان سكران فركب فرسَه ومرّ على باب دار السعادة [٢] ، وهي مقرُّ الباشا المذكور ، ودخل إلى الدار المذكورة . فقتله مَنْ وُجد من جماعة الباشا المذكور . فثار الجندُ لذلك . وقد اتفق رؤيتنا لجمعهم وثورانهم عند سوق المؤيدية [٣] تحت القلعة . وذلك أنّ حضرة الباشا المذكور دعانا إليه وهو بالميدان الأخضر لمصلحة تتعلّق ببعض المشايخ ، ودعا صاحبنا عبـــد الحي افندي الكردي . فذهبنا معاً . فبينما نحن بالسوق المؤيّدي وإذا بغوغائهم قد ارتفعت ، واجتمعوا نحو ثلاث مئة . فقلتُ لعبد الحيّ افندي : ارجع ، فإنّ الذهابَ إلى الباشا غير مناسب . فرجعنا معاً ، وما ندري عاقبة الأمر والخير يكون ان شاء الله تعالى .

وفي رابع عشري ربيع الثاني نهض الوزير الحافظ أحمد مع عسكر الشام وكبسوا التركمان الحرقية ، وكانوا في حوران ، ونهبوهم . ولم يبقوا

---

(١) الزيادة من ه ، ب .

(٢) كانت جنوب سوق الأروام (مدخل سوق الحميدية) اليوم .

(٣) هي جامع المؤيـــد شيخ المملوكي في خان الباشا اليوم . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٦ .

منْ غنَمِهم إلاّ القليل . ووقع بينهم قتالٌ فقُتل من جانب عسكر دمشق نحو خمسة رجال . وقُتل من التركمان كثيرٌ . وخاف الباشا المذكور من انتشار الفتنة فمكث أيّاماً بحوران يستعطفُ خواطر مَنْ لقيه من التركمان . وذهب نهبهم هدراً . وما ندري عاقبــة أمرهمْ في نهبهم . ولقد بلغني أنهم كانوا قد طغوْا وبغَوْا ، وأنّهم كانوا يرعون زرع أهل حوران ، وكانوا يتباطئون في إعطاء مال السلطنة ، وربما منعوا الإعطاء بالكليّة . فقابلهم الله تعالى على يد الوزير المذكور ، ولكلّ ظالمٍ ظالمٌ ينتقمُ منه . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفي أواسط جُمادى الأولى إحدى وعشرين بعد الألف طلع حاكمُ دمشق الوزير المذكور أحمد باشا ومعه غالب عساكرِ دمشق (٥٣ ألف) إلى ناحية حلب باستدعاء الوزيرِ الأعظم نصوح باشا . فإن الوزير الأعظم المذكور كان في ديار بكر ، فورد إلى حلب ومعه رسولُ ملك الشرق شاه عبّاس بالصلح بينه وبين سلطان الإسلام السلطان أحمد . ولما وصلوا الى حلب استقبلهم أهلُ حلب ودخلوا بهيبةٍ عظيمة وهيئة كبيرة ، ولم يبقَ أحدٌ من أهل حلب إلاّ وقد خرج إلى الفرجة عليهم . وبلغنــا أنّه صدر بين الوزيرين المذكورين مناقشةٌ أدّت الى منافسة ، وإلى برودة وركّة ، ويُقال إنه آل الأمر إلى الصلح .

وقد ذكرنا أنّ الحافظ أحمد المذكور كان في بداية قدومه إلى دمشق سالكاً مسالك الصالحين . ولكنه تغيّر وتكبّر وتنكّر . وأظهر صورة الكبر مقلداً الصورة في غيره من الوزراء[1] .

وقد رجع عسكرُ دمشق وحاكمُهم الحافظُ أحمد باشا إلى دمشق وفارقوا حضرة الوزير الأعظم نصوح باشا من حلب . فأما الوزير نصوح

---

(١) ه « مقلداً لصورة ذاتية لغيره من الوزراء » .

باشا فإنّه قد سار الى دار السلطنة قسطنطينيّة . وأما الوزيرُ الحافظ أحمد فقد عاد إلى محلّ ولايته دمشق المحروسة . وبعد أيامٍ نادى بالسفر إلى الجانب القبليّ . وذلك لأنّ فروخ أمير الحاج قد التزم أن يضمّ له مع نابلس عَجْلون والكَرَك والشَوْبَك وما يتبع ذلك ، وأن يُعطى من جانب السلطنة ستين ألف دينـــار من الذهب ، ويقوم بالحجّ ولوازمه ذهاباً وإياباً ، ويتعاطى الملاقاة أيضاً من عنده ، وعجلون والكرك في يد الأمير حمدان بن أحمد بن قانصوه الغزاوي . فلزم سفر الوزير المذكور مع عسكر الشام لتخليص عَجْلون والكَرَك من يد حمدان المذكور وتسليمها ليد فروخ بيك أمير الحاج . فيبقى حينئذٍ في يد فروخ ثلاثة سناجق : نابلس وعَجْلون والكَرَك ، وهذا لم يتفق لأحد قبله في هذه الدولة .

ولما سافر العسكر الشامي من دمشق مع وزيرهم الحافظ أحمد المذكور نزلوا على الكسوة [١] ، وساروا منها إلى شَقحب [٢] ، ثم إلى المزَيْريب [٣] ، ولمّا سمع ابن قانصوه بسفر الوزير أخلى عجلون والكرك ، وسار إلى الجانب الشرقيّ ، وأرسل إلى حضرة الوزير يقولُ : أنا عبدُ السلطان ومطيعٌ له . وقد امتثلتُ أمره في ما صنع . ورحلتُ عن البلاد فخذوها وأعطوها لمن أرَدْتم . وسافر وذهبَ مع العرب إلى جانب الشرق ، وأرسل مفاتيح الكرك إلى الوزير . وسار الوزير سلّمه الله تعالى على جبل عجلون . ويريد أن يرجع إلى دمشق لتمام المصلحة المطلوبة . وكان ذلك كلّه في رجب وشعبان (٥٣ ب) من سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، والخيرُ يكون إن شاء الله تعالى .

قلتُ : والحافظُ أحمد باشا صاحب الترجمة مقيم يوم تاريخه وهو يوم

---

(١) قرية كبيرة على الطريق بين دمشق ودرعا .

(٢) قرية في جنوب دمشق غرب مرج الصفّر في حوران .

(٣) قرية في حوران . مشهورة بشلالاتها .

الثلاثاء ثالث شوال من شهور سنة إحدى وعشرين بعد الألف بدمشق ، وهو حاكمها ووزيرها ومدبّرُها ومشيرُها . وقد صرف على أصحاب الجوالي بدمشق علوفاتهم قُبيل العيد في أواخر رمضان من السنة المذكورة ، غير أنهم أبرزوا صورة دفترٍ فيه قطعُ وظائفِ كثيرٍ من أهلِ دمشق ، منهم من أعطَوْه نصف ما كان له ، ومنهم من قطعوا ماله بالكلّية ، ومنهم مَن أبقوا له العُشْر أو الخمس ، ومنهم مَنْ أبقوه على ما كان له من غير تبديلٍ ولا تحويلٍ ولا تغيير ، وذلك حكمةُ الملك اللطيف الخبير . والفقيرُ الحسنُ البوريني من الذين أبقوه على حاله ، وما قطعوا ماله ، ولا خيّبوا السعيد من آماله . ولعمري إنهم أفحشوا في قطع الأرزاق . [ولم يراقبوا الملك الرزّاق] [١] . وما أحسن ما كتبه الشيخ فلان لوالده شيخ الإسلام اسماعيل الشهير بابن المقري اليمني [٢] . وقد كان قطع رزقه ، وأضاع حقّه ، وعرّى من إحسانه عنقه :

لا تَقْطَعَن عادةَ برٍّ ولا ... تجعل عقابَ المرءِ في رزقِهِ
فإن إثم الإفك من مِسْطَحٍ ... يحطّ قدْرَ النجمِ من أفقه
وقد جرى منه الذي قد جرى ... وعوتب الصدّيقُ في حقّه [٣]

وبالجملة فإنّ قطع الخشوم ، أسهلُ من قطع الرسوم .

قلتُ : وقد بلغني أن الشيخ اسماعيل المقري رضى الله عنه كتب تحت هذه الأبيات هذا البيت وهو قوله :

لو لم يتبْ مسطح ممّا جنى ... ما عوتب الصدّيقُ في حقّه [٤]

(١) الزيادة من ﻫ .
(٢) ﻫ « وما أحسن ما كتبه شيخ الإسلام اسماعيل بن المقري اليمني لوالده » .
(٣) البيتان ساقطان من ﻫ ، مكانهما فيها بياض .
(٤) ساقط من ﻫ .

قلتُ : وقد سمعتُ من شيخنا أحمد ابن شيخ الاسلام البدر الغزي هذه القصّة . وقال بعد ذلك : أنا نظمتُ بيتاً على لسان ابن الشيخ اسماعيل يصرّح بالتوبة بعد سماعه من أبيه ما يدلُّ على طلبها وهو قولي :

تُبنا إلى الله وكلُّ امرئٍ   يتوبُ قد بُورِكَ في رِزْقِهِ

قلتُ : وفي غرّة شعبان من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف نهض الوزيرُ الحافظ أحمد المذكور صاحب هذه الترجمة من دمشق ونزل في أوّل الجسور خارج باب الله ، وذلك لأنّ ابن معن الدرزيّ الذي صار [اليه] سنجق صفد من باب السلطنة العثمانيّة العليّة ، بقسطنطينيّة ، عظمُ شأنُه (٥٤ ألف) وارتفع مكانه ، وبَعُد صيتُه ، وكثُرتْ أمواله . لانه تصرّف في بلادٍ ما خطر في بالِ أحدٍ من الأمراء التصرّف فيها . فكان متصرّفاً في بلادِ كَفْرِكنّه ، وبلاد عَكّا ، والساحل ، وصَفد ، وبلاد ابن بشارة ، وبلاد الشقيف ، وبلاد جيرة صَفَد ، وتصرف أيضاً في بلاد بيروت [١] ، وبلاد صيدا ، وفي بلاد جبل كسروان ، وفي بلاد جبّة المنيطرة ، وفي جُبَيْل ، وأنطلياس ، والبَتْرون ، وفي الجرد ، والغَرْب ، والمَتْن ، والشوف ، والمقيطيع ، والشحار . وتصرّف أيضاً في البقاع العزيزي ، وفي بلاد بَعْلَبَك ، بسبب أنه حكم في البقاع وبعلبك الأمير يونس بن الحرفوش من تحت يده . فكانت في حكم بلاده . وتصرّف أيضاً في بلاد صور ، والمعشوقة [٢] ، وما كفاه ذلك حتى انه جاء إلى قلعة شقيف وحصّنها وجددها وأكدها وأطّدها ، وشحنها بالأرزاق التي لا انتهاء لها ، وجعل بها من آلات الحصار ما لا يُعد ولا يُحدّ . واستمرّ في ذلك التحصيل والتحصين نحو عشرة أعوام . فتفطن له الأمراءُ والوكلاءُ ، فعرض ذلك الوزيرُ الكبير الحافظ الكامل

---

(١) جميع المدن الآتي ذكرها هي في لبنان . انظر عنها قاموس لبنان لوديع الحولا حنا
(٢) في قاموس لبنان « المعشوق » .

الشهيرُ بالحافظ أحمد باشا صاحب إيالة الشام إلى باب السلطنة الأحمديّة بقسطنطينيّة . فلزم أنّ السلطان أحمد أيّده الله تعالى عيّن لأخذِ ابن مَعن المذكور ، واسمه فخر الدين ، عساكر أناطولي وأمرائها وأمراء بلاد قرمان وعساكرها . فوردت العساكرُ المذكورةُ إلى الشّام واجتمعتْ بالوزير المذكور على مقتضى ما رسم به السلطان أحمد أيّده الله تعالى .

ولما وردت العساكرُ الرومية نهض بها الوزيرُ المذكور وقام من دمشق وخيّم بالقرب من قرية الكسوة ، إلى أن وردتْ عساكرُ قرمان ، وعساكر أدَنه ، وعساكر حلب ، وعساكر أناطولي . فأقام الوزير المذكور بهم وأحاطوا بقلعة الشقيف وسيأتي ما قرّ عليه الحال .

وفي يوم الأربعاء وهو خامس عشر شهر رمضان من شهور سنة اثنتين وعشرين بعد الألف وردت الأخبار من العسكر المنصور وهو محيطٌ بقلعة شقيف أرنون بأن المنجنيق والعرّادات والطوب لم تؤثّر في القلعة المذكورة مع كثرة الضرب بها ، والجماعةُ المحصورون في القلعـة قسمان : قسمٌ من الأروام البُغاة السكبان ، وقسمٌ من العرب الدروز المستحقّين للقتل بإجماع المذاهب .

وفي يوم السبت الخامس (٥٤ ب) والعشرين من شهر رمضـان المذكور وردت الأخبار بأنّ النقب قد زاد في حائط القلعة المذكورة ولكن اشمأزت النفوسُ من هواء بارد قد وقع في الوجود . وأخبرونا بأنّ بلاد الشقيف يزدادُ بردُها فوق البلاد بمراتب كثيرة . وفي ذلك المعنى ضرر كثير على المرابطين من عساكر دمشق في باب القلعة المذكورة .

وقد أخبرنا مَنْ نثِق به من القادمين على دمشق من جانب المرابطين أنّ فتحها متعسر جداً وقد هجم فصلُ الشتاء ولم يبق في فصل الخريف إلا القليل . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد وقع الاجماعُ من القادمين إلى دمشق من جانب المرابطين أنّ

السعي في فتح القلعة إنما هو من جانب حسين باشا ابن حضرة يوسف باشا ابن سيفا حفظ الله الأصل والفرع ، وأبقاهما جناحين للدولة الأحمديّة .

ولقد أخبرني مَنْ أثقُ به أنّ حضرة حسين باشا السيفي المذكور يلبسُ في حال المجاهدة مع بُغاة القلعة عباءةً كما يلبسها بعض المجاهدين من آحاد الناس . وأنّ حضرة السردار الحافظ أحمد باشا خاطب حسين باشا عندما شاهد منه تلك الرغبة في الجهاد :

هكذا هكذا وإلاّ فلا لا إنّ خبز السلطان مَرْحَب عليكا

وأخبروا أنّ هذا الكلام أرضى بعضاً وأغضب بعضا ، وأبرز من بعض الأعيان به حبّاً ومن بعضهم بُغضا .

وبالجملة فإنّ الفتح منه مطلوب ، وعليه النصر محسوب . والله تعالى كاشف الكروب ، وغافرُ الذنوب ، والمرجوّ من ربّ الأرباب ومُنْزل الكتاب ، ومعتقِ الرقاب ، ومهوّن الأمور الصّعاب ، أن يجعل الفتح قريباً ، والنصر مقارناً لدعاءٍ يكون له الإلهُ مجيبا .

وفي يوم الجمعة سادس عشر شوال من سنة اثنتين وعشرين بعد الألف ورد الخبرُ من دمشق من القادمين من جانب العسكر بأنّ رأس العساكر أحمد باشا عيّن عسكراً وجعل رأسه حاكم قرمان المسمّى بمؤمن باشا .

وكان من جملة العساكر المعيّنين الأمير يونس بن الحرفوش ، والأمير أحمد بن الشهاب . وكان من جملة العساكر المعينين الذين عيّنوا مع مؤمن باشا حضرة حسين باشا ابن يوسف باشا ابن سيفا . وكان القصدُ من تعيين العساكر المذكورين أن يذهبوا إلى شوف (٥٥ آ) ابن معن لينهبوا وليقتلوا . فإنّ بلاد الشوف عاصية تبعاً لابن معن . فإنّ عصيانه قد تحقق من جهة أنّه عمّر قلائع وشحنها بالرجال والعُدَد والمؤن من غير إذن الأبواب العالية السلطانيّة ، وكذلك استخدم طائفة السكبان ، ولا شك أنهم أعداء للسلطنة العليّة .

والحاصلُ أنّ العساكر السلطانيّة محاصرةٌ لقلعة الشقيف ، ودهموها من الحصار بجبل غير خفيف . ولم تظهر علامة الفتح من البنا ، وارتفع الصلح لما قرره الباغي من القتال وعليه بنى ، وهم الآن عساكر غير منصرفة ، وما جرت إلاّ بحركات الفتح المؤتلفة ، وإن كانت مخالفة لهم الآن وليست منعطفة . فالفتح من لطف الله مطلوب ، وبه تنجبرُ من المؤمنين القلوب .

وأمّا العساكرُ التي غيّمت الشوف ، فإن عوامل العساكر قد عملت فيها عملاً جَدَّعَ الأنوف ، وقطع السيوف ، وأبقى أهلها بها كالضيوف . وأبعدهم عن ساحتها بُعداً غير مألوف . وعن قريب تضمحل مع أهلها ، وتبتلي بعد خصبها بمحلها ، وتنزل الرجال في غير محلها ، ويتركون مواطنهم وأماكنهم ويُصبحون لا تُرى إلاّ مساكنهم . فإنهم بلغوا من الشقاق مبلغاً عظيماً ، وأظهروا من العناد مظهراً جسيماً . فأحاط بهم البغي وعاقبتُه الوخيمة ، وبواطنهم التي ليست بسليمة . وبالجملة فانهم كما قيل : بنوا وعلّوا ، ومضوا وخلّوا . ما ذاك دام ولا ذا يدوم .

[وفي يوم السبت رابع جمادى الآخرة من سنة ثلاث وعشرين بعد الألف خرج عسكر دمشق تبعاً لأمير أمرائها الحافظ الوزير المذكور . وسبب ذلك أن الأمير فخر الدين بن معن لما هرب الى بلاد الفرنج استمرّ إلى أوائل الشهر المذكور . فظهر الخبر إلى دمشق بأن الأمير المذكور ورد بأساطيل بحرية وخرج عند برج الدامور بين صيدا وبيروت . وشاع الخبر بأنه نزل على البرج المذكور وحاصره وأراد أخذه . فلذلك نهض الوزير الحافظ المذكور وخرج وخيم خارج دمشق ، في آخر الجسور ، في طريق الكسوة . وسكن خبر ابن معن بعد ذلك .

والذي صحّ من الخبر أن رجلاً من أمراء الدروز من جماعة ابن معن يُقال له يزبك ورد في ثلاث سُفن وصعد إلى الشوف . وهي في الأصل مستقرّ ابن معن المذكور وأسلافه . ومهما صح من الخبر بعد ذلك يُكتب .

وفي يوم الخميس خامس عشر رجب من السنة المذكورة دخل إلى دمشق رجل كبير يقال له مؤمن باشا . وهو حاكم بلاد قرمان من أولها الى آخرها . ودخوله لأجل ورود الأمر المطاع السلطاني الأحمدي اليه وهو في ولايته من ديار قرمان — ومركز دائرة البلاد المذكورة قونية — بأن يرحل بعساكر البلاد المذكورة الى أن يحطّ بدمشق . وبعد ذلك تجتمع العساكر المأمورة وينازلون قلعة الشقيف وقلعة بانياس . فإنهما الآن مغلقتان على جماعة ابن معن من السكمانية وغيرهم من الأشقياء .

وقد ذكر كثير ممن ورد الى دمشق من بلاد جبل الشوف أن الأمير فخر الدين بن معن قد رجع من بلاد الفرنج الى بلاده الأصلية ، وهي بلاد الشوف . ولم يصح ذلك .

لكن قد ثبت أن الباشا المذكور ورد اليه في العشر الأول من رجب من السنة المذكورة خلعة ودبوس معظم ، وسيف مرصّع بالجواهر ، ومع ذلك أوامر شريفة مطاعة أحمدية بأن يرحل من دمشق إلى حصار قلعتي الشقيف وبانياس . ومن الأوامر أن يذهب الوزير الى بلاد ابن معن وأن ينهبها ويخربها ، لأن مأكول القلاع العاصية المذكورة من بلاد الشوف . فلو خربت من الأول لم يكن لأهل القلاع قوت يمتارون به .

وفي يوم الأحد ثاني شعبان من السنة المذكورة ظهر الخبر بدمشق أنّ الوزير الحافظ أقام من سطح المزّة الى جانب المكان المسمّى بالعرّاد ، بالعين المهملة والراء المشدّدة ، قاصداً الى أن يجاوز المكان المذكور إلى البقاع العزيزي ، ومنه الى بلاد الشوف ، شوف ابن معن . ومن الناس من يقول إن في نية المحاصر لقلعتي الشقيف وبانياس ، لا كمن حاصر الشقيف في سنة اثنتين بعد الألف وأذهب على حصارها النفوس النفيسة والأموال العظيمة ، ولم ينل منها بطائل ، ورجع منها يعني نفسه الى قابل . وها هو الآن مقابل] [١] .

---

(١) الزيادة من ه ، ب

وفي يوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان ورد الخبر إلى دمشق بأن الباشا الحافظ أحمد باشا رجع من بلاد شوف ابن معن الى أرض البقاع العزيزي ، ونزل عند قرية يُقال لها قبر عبّاس واختلف الناسُ في سبب رجوعه ، والذي صحّ منه أنه ذهب بالعسكر الدمشقي والعسكر الرومي والقرماني وغير ذلك من عساكر فلسطين الى بلاد الشوف وأمر بحرق كثير من بلادها . فأحرقوا الباروك (١) ، وهي قريةٌ في بلاد الشوف عظيمةُ المقدار . وأحرقوا غيرها حتّى دبّت النيرانُ في سهلهـا ووعرها ، ودنت من ساحل بحرها . وجاء إلى الباشا أناسٌ أخبروه بأن قوماً من الدروز في وادٍ من الأودية ، وأن عدّتهم قليلة ، وغنيمتهم جليلة . فأرسل الباشا اليهم جماعته [٥٥ ب] وبعضاً من عسكر السلطان الرومي ، وأمّر عليهم واحداً يقال له مصطفى ، وكان كبيرَ عسكر دمشق سابقاً ، وهو في اصطلاحهم يسمى آغا . فصدر من الفريقين حربٌ أفضت إلى إظهار الدروز والبُغاة الطغاة أعداءِ الدّين الهربَ وولّوا . فأتبعهم عسكر الوزير ومَنْ معهم إلى أن أبعدوهم عن أسبابهم . ورجع العسكرُ ينهبون فرجعوا إليهم بعدما ثقلت أحمالهم . فقتلوا من العسكر كثيراً ، بل قيل إنهم ما رجع منهم إلاّ القليل .

ثم إنّ حضرة الوزير أرسل حسين باشا ابن يوسف باشا ابن سيفا وكان جمال العسكر ، وبهجة الفرسان ، وعروس الخيل ، فبرز كالأسد المصور ، وصدم بعسكره الجمهور . وألقى نفسه بين الصفّين ونادى : لا أثر بعد عين ، أنا حسين أنا حسين ، وأمسك سيفه وأقدم وتقدّم ، واجتهـد وصمّم ، وضرب بالحُسام ، وفلق الهام ، وقال لأسوده ، وأقسم على جنوده : بأنّ مَنْ التفت وراءه ضربتُ أعلاه : وأخذتُ ما فيه عيناه . فأقدمتْ أمامه الأسودُ المجرّبة ، وضُربتْ بين يديه السيوف المحدّبة . وكان فضله يسوقهم ، وزجره لهم عن التمادي يعوقهم . حتى حميت سوقهم ، وأسرعت إلى

---

(١) انظر قاموس لبنان ص ٩

فلق الهامات سوقهم ، وهم يفدونه بالنفوس ، ويحرسونه بالرؤوس ، حتى انتصر على الطغاة الدروز ، وجيشه بلطف الله تعالى محفوظ ومحروز . وأحصي مَنْ قُتِلَ منهم فكان فرق العدد ، وفاتهم من الله ومن الخلق المدد . لأنهم ينكرون الشرائع ويزأون ببراهين الحقّ الساطع . وعندهم كتبٌ ناطقة والعياذ بالله تعالى بأنّ الحاكم العُبَيْديّ الملحدَ ربٌ معبود ، ويلعنون مَنْ خالفه من سائر الجنود . وهذا أمر يشهد به العيان ، وينظره مَنْ له عينان . ولقد شاهدتُ من كتبهم المصرحة بالكفر في غالب الصحائف . وعلمتُ بأنهم من أقبح الفرق النارية المذكورة في أخزى المواقف . ولعمري إنهم كانوا في عيشة ناعمة ، وبلهنية من حوادث الدهر سالمة . خنازير في جبال ، وكلابٌ نابحةٌ كالأبطال ، فبغوا تبعاً لطاغيتهم ، واعتدوا بالعدول عن جادتهم ، وعادوا إلى معاداة الامير الكبير ، ذي الجود الغزير ، والفضل الكثير ، واحتالوا حتى اقتلعوا منه بالخداع معاملة غزير [1] أعني حضرة يوسف باشا السيفي الشهير بابن سيفا ، مَنْ لم يزل يجبر كسيراً ويكرم ضيفا . ولعمري (٥٦ آ) إن يوسف السيفي رجلٌ أميرٌ ثابت الأساس ، طاهر الذيل عن جميع الأدناس ، أصيلٌ نبيل ، آخذ في عروق ذي القدرية بالحظّ الجزيل . وقد كانوا أسلافاً في سُبل المكارم سلكوا ، والكثير من ممالك الروم قد ملكوا . وهو حنفيُّ المذهَب ، واعتقادُه كالطراز المُذهَب .

[وفي يوم الخميس خامس جمادى الأولى من شهور السنة المزبورة صدر من الوزير قصة في الديوان . وذلك أن مصلي صاحب صنجق الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهو حمزة الرومي البكوكبائي ، الساكن في باب الجابية عند باب السيبانية الغربي ، دخل الى الديوان بدمشق . فكلمه الوزير في أمر يتعلّق بأمور قرى الشريف صاحب مكة ، وأنها في يد مصلي المذكور ، فردّ عليه ردّاً عنيفاً يخالف الأدب . فاحتدّ الوزير

---

(١) في كسروان بلبنان . انظر قاموس لبنان ص ٢٠٢

واشتدّ ، وأمر بأن يُحبس في قلعـــة دمشق . فراجعه في ذلك أكبر الجاويشية ، وهو محمد الشهير بابن الدردار . فرفسه الوزير برجله في صدره وشتمه ، وأمر بأخذ مصلي المذكور وحبسه بالقلعة المذكورة . فحُبس على مقتضى أمر الوزير المذكور . ولا يُدرى ما يُفعل به بعد ذلك . لله الأمر من قبل ومن بعد .

قلتُ : وآل أمره الى أن شفع الشيخ محمد بن سعد الدين الجباوي ، الساكن في محلّة القبيبات ، وكذلك أكابر العسكر الشامي عليه ليشفع فيه . فشفع فيه . وأطلق من القلعة . وهو على منصبه وزيادة .] [١]

دخل الوزيرُ المذكور ، أحمد باشا الشهير بحافظ أحمـــد باشا الثاني – فانه تقدّم في نواب آل عثمان رجلٌ آخر يُقال له حافظ أحمد باشا – الى دمشق نائباً بها من جانب السلطان الأمجد الأسعد ، السلطان أحمد ، ابن المرحوم المغفور له الغازي المجاهد السلطان محمد ابن المرحوم السلطان مراد ابن المرحوم السلطان سليم ابن المرحوم السلطان سليمان ابن المرحوم السلطان سليم فاتح بلاد العرب . وهو الذي بنى السليميّة السلطانية بالصالحية ، وعَمّر مزار الشيخ محيي الدين بن عربي . وكان دخولـه اليها يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الثاني من شهور سنة ثماني عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية . وطلع العسكر بتمامه الى استقباله ، وكذلك قاضي القضاة بدمشق السيد محمد بن السيد محمد الحميدلي . وطلع العلماءُ للسلام عليـه في قرية حرستا [٢] فرادى ومجتمعين . وكذلك طلع الشيخ محمد ابن الشيخ سعد الدين الجباوي للسلام عليه في القرية المذكورة ، ولم يكن من عادته الطلوع الى لقاء الحكّام ، لكنّ هذا الوزير لما وصل الى قرية عذرا أرسل بعض مكاتيب الى أكابر دمشق ومن جملتهم الشيخ محمـد السعدي

---

(١) الزيادة من هـ ، ب

(٢) قرية قريبة من دمشق ، من قرى الغوطة . انظر غوطة دمشق لكردعلي

المذكور ، وكنتُ عازماً على أن لا أطلع الى القرية للقائه ، ولكن جاءني منه مكتوبٌ يتضمّنُ السلام وعرضَ المحبّة والودادَ . فطلعتُ إليه فقام إليَّ ملاقياً ، وصافحتُه في أثناء البساط ، عندما قام للقاء إظهاراً للانبساط . وجلستُ عنده ساعة فوجدتُه متيقظاً ، وبالصّواب متلفّظا . ووجدتُه عارفاً بشيءٍ من أشعار التركيّة والفارسيّة ، وبشيءٍ من علم العروض ، وبشيءٍ من علم العربيّة ، إلى غير ذلك من الفضائل والفواضل .

وسألني عن بعض مهمّات بلاد الشام ، ورأيتُه متطلعاً إلى إنصاف الرعيّة .

ولما دخل طلع إليـه كلُّ مَنْ في دمشق ، وأشعلوا له الأسواق بالشموعِ [1] والسُرُج . وكان يسلّم يميناً وشمالاً . ولقد رمقني في جامع مسجد القصب المنسوب الى ابن منجك ونظر (٥٦ ب) إليَّ وتبسّم في وجهي . ولما اجتمعتُ به في دار الإمارة بدمشق ذكّرني بالرؤية المذكورة والتبسّمِ المشار اليه . فدلَّ ذلك على تيقظه وتفطّنه . وها هو الآن جالسٌ في دمشق والمطلوبُ من الله تعالى أن يوفّقه للخير ، ويدفع عنه كل ضَيْر . وقد نظمتُ له تاريخين أحدُهما قولي :

بعدْلٍ وفضلٍ قد بلغتَ مرامكا . وأصبح هذا الدهرُ طوعاً غلامكا
ففعلُك محمودٌ واسمُك أحمدُ فأعطاك مولاك المنى وأدامكا
ومذ شمتُ ثغرَ الشامِ يضحكُ فرحةً لإقبالكم أرّختُ نورتَ شامكا

فقولنا : نورت ، شامكا ، بحساب الجمّل عددُه ألف وثاني عشرة ، وهو عامُ دخول الوزير المذكور الى دمشق . وفي نقط شامكا لطيفة مبنية على اللغة الفارسية . وذلك ان لفظة شام في لغة الفرس بمعنى الظلمة ،

---

(١) ﻫ « بالشمع »

وهي أيضاً اسم بلاد الشام . ففهم ذلك ونَبِّهْ على المعنيَيْن عند قراءة ذلك .

والتاريخُ الثاني وهو قولي ناظماً مدحه [١] :

صفا ، وإقبالٌ وعزٌّ ودولةٌ ... وعدلٌ يصونُ الكائناتِ ويحميها
بإقبالِ مَنْ قد صار للملك حافظاً ... ومَنْ بلغ الآمالَ أقصى أمانيها
أتى لدمشق الشام والدهرُ جائرٌ ... فبالبشرِ حيّاها وبالجود يُحييها
أتى نحوها غيثاً وغوثاً لأجل ذا ... به اخضرّ واديها وعمّر ناديها
وزيرٌ لسلطانِ الاقاليمِ مَنْ علا ... الى أن تدانى عنه أعلى معاليها
غدا مالكاً للحمد إذْ هو أحمد ... فقُلْ في معالٍ يبتديها ويُبْديها
وقد سعدتْ منه دمشقُ وأهلُها ... فأرِّخْهُ بشّرْ دمشق كأهليها

وذلك أنّ لفظة بشّر دمشق كأهليها عدده بحساب الجمل ألف وثاني عشرة وهو موافق لعام دخوله الى دمشق .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر شهر رمضان من شهور سنة عشرين بعد الألف دخل الحافظ الوزير المذكور آنفاً الى دمشق بموكبٍ عظيم . وركب في خدمته العسكرُ الشاميّ ولابس اطلس فروة سمور عظيمة القيمة ، وأمامه سبعة جنب عليها سروجٌ من الذهب المرصّع بالجواهر النفيسة . وكان ضعيفَ الجسد بالحُمّى . وكان قدومه من مدينة آمد من العسكر الوزيريّ ، أعني الوزير الأعظم المرحوم مراد باشا .

لمّا كان يوم الجمعة ثاني جمادى (٥٧ آ) الأولى من شهور سنة تسع عشرة بعد الألف صدرت بدمشق عجيبةٌ وهي أنّ سيداً شريفاً من السادات الحسينيّة الخادمين لمزار [٢] السيدة رُقيّة الصُغرى ، بمسجد الراس

---

(١) ه « مدح الوزير المذكور »

(٢) انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٩

بالقربِ من باب الفراديس ، يُقال له جمال الدين ، كان يتعاطى بيع الفواكه في الجانب المذكور . فصلّى الجمعة في اليوم المذكور وخرج من الجامع الأمويّ طاهراً متوضئاً فوقف في جانب حانوته ، وإذا بمملوكٍ أبيض تجَري كان شكلُه غايةً لا تُدرك على ما يُقال ، بل قيل إنه لا نظير له في الحسن وقف عليه وطلب منه بطيخاً أصفر . فتقاول معه واختلفا في ثمن البطيخ . فيُقال إنَّ الشريف المذكور كلَّم المملوك كلاماً يتعلق بطلب ما لا يليقُ من الفاحشة . ولا أتحقق صحة ذلك . فضربه بسكّين كانت معه في لوحه ، وهرب المملوكُ ، فدخل الدم الى جوف السيّد وشرع يخرجُ من أنفه وفمه . وطلب الماء فلم يُسقَ خوفا عليه . فوقع ، ولم يلبث أن خرجتْ روحُه . فبادر بعضُ خُدّام العسكر إلى إمساك المملوك والسكينُ مشرعةٌ في يده . فتعاصى عن الإمساك ، فتكاثروا عليه ، إلى أن أوثقوا كتافه . واجتمع الناسُ وأهلُ المقتول وذهبوا بالمملوك الى حاكم دمشق . وهو الوزير الحافظ أحمد باشا . فقال لأقارب المقتول : أيها السادات . إن كان للمقتول أولادٌ صغارٌ فالرأيُ أن يُباعَ المملوك ويزادَ فوق ثمنه إلى أن يُربّى الأيتامُ بالمال ، إذْ لا شبهة أنهم فقراء . فبادروا بالصراخ وإظهار عدم الرضا . وكان السيدُ محمد بن عجلان النازل في بيت الرفاعي بمحلة الميدان نقيب الأشراف إذ ذاك . فقال : الرأي قتلُ المملوك حتى لا يُقال : مملوكٌ في الرقّ قتل شريفاً صحيحَ النسب ولم يُقتلْ به . أو يُقال : باعوا شريفاً مقتولاً ظلماً بقليلٍ من المال . فلمّا صمّموا على القتل قُتل المملوكُ بالقرب من مصرع السيّد المذكور . وذهب به مع بعد المناسبة المناسبة بينهما . ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ . وقد شاهدنا المملوك مطروحاً في الجانب القبلي من مزار السيدة رقية ، والسيد ممدّدٌ في نفس المزار ، والنوائح ينحن عليه ، إلى أن دُفن السيدُ وبقي المملوكُ ليلةَ السبت الى الصباح ، فغُسِل ودُفن في تربة مرج الدحداح . وتأسّف الناسُ على شرف المقتول وعلى حسن القاتل .

وقد أفتيتُ بأنّ المارك لا يسوغ قتله الآن فوراً ، لان الوارثين للقصاص – أعني أولاد السيد المقتول – صغارٌ ، ولم يبلغ اكبرُهم أربع سنين ، فكان الواجب أن يُحبَس القاتل الى أن (٥٧ ب) يبلغ الأولاد وهم بعد ذلك بالخيار ، إن شاؤا أخذوا القصاص وإن شاؤا أعفوا عنه وأخذوا الدية . ولكن سبق السيفُ العَذَل ، وكلُّ عاملٍ فعليه جزاءُ ما صدر منه من العمل . فإن القاتل قد فات . وصار في عداد الأموات . ولا يُغني أسفٌ بعد فقد ، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومن بعد .

ثم في رابع شهر ربيع الأول سنة أربعٍ وعشرين وألف نهار الأحد المبارك دخل الوزيرُ حافظ أحمد باشا الى دمشق معزولاً .

وفي نهار السبت ثالث عشر الشهر المذكور خرج من دمشق وشيَّعه الأعيانُ ، وقد أُعطي ولاية أناطولي . وأن يحافظ بعسكره بأرض الروم .

ثم في نهار الاثنين المبارك خامس عشر شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين وألف دخل متسلّم محمد باشا السلحدار الجركسي ، وشهرتُه بابن البالقجي ، ونزل عند حسن باشا الدفتري ، وحمل له سماطاً عظيماً ، وتغدّى عنده . ثم إنه ركب وجاء إلى عند القاضي المولى شيخ محمد أفندي چوي زاده ، وسجّل حكمَ ولاية الشام في السجلّ المحفوظ على العادة ، وتوجّه بعد ذلك الى دار السعادة .

وكانت مدةُ إقامة أحمد باشا الحافظ في ولاية الشام سبعة أعوام . وهجاه بعضُ الأدباء وفيها تاريخ عزله [١] :

قد فرّج اللهُ همّ بلدتنــا من حاكمِ الجور بئس من حاكمْ
أُخرِجَ من جنّةِ الشام فلا أوْصلَهُ اللهُ غيرها سالمْ

---

(١) في ه ، ب « وأرخ عزله الشيخ عبد الرحمن العمادي بقوله : »

وزيرُ وِزرٍ وحافظٌ لأذى   لا أحمد الله ذلك الغاشمْ
كم سنّ في الظلم سنةً نغدا   عليه في الدهر وزرُها دائمْ
وما سمعنا كسوءِ سيرته   فما علينا وربُّنا عالمْ
سَبعٌ شِدادٌ بعدهن أتى   عامٌ يُغاثُ الورى به خاتمْ
إنْ شئتَ تاريخَ نكبته   يا صاح أرّخهُ : أحمدٌ ظالمْ

وقال أيضاً بعضُ الفضلاء (١) :

حافظ احمد في البرايا   سنّ أنواعَ المظالم
في دمشق الشام حتى   زاد في أخذ الجرائم
مُذْ أتاه العزل قالوا :   أرّخوه : بانَ ظالم

---

(١) هـ ، ب « وقال آخر »

٤٥

السلطان[١] أحمد المنصور

الشريف الحسيني سلطان مراكش وفاس[٢] وما والاهما

هو السلطانُ العالمُ ، العامرُ لأهل العلوم | أرفع[٣] | المعالم ، الراعي لرعاياه ، الحامي لمن قصد حماه . ورث الملك عن إخوته وأبيه ، وطالت مدته فيه ، لفقد مَنْ ينازعه وينافيه .

أما أبوه فإنه مولاي محمد الشيخ . وكان من أمره أنه كان في بدايته من أهل العلم . وكان مجتهداً في تحصيل الكمالات . فاطلع على شيء من (٥٨ آ) الجفر ورأى فيه أنّ طالعه يوافقُ المُلْك . فصار قاضياً في نواحي السوس منْ ديار الغرب ، ثم وثب على بني حفص المنتسبين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلم يزل يُقاتلهم ويُقابلهم الى أن ملك ديارهم وعفى من السلطنة آثارهم .

وقتل كثيراً من العلماء . فمن جملة مَنْ قتل الشيخ الزقاق . وذلك لأنه كان يقولُ في خطبته : ومن قتل سوسياً كان كمن قتل مجوسيا . فلما أمسكه قال له : أنت زِقّ الضلال . فقال : لا والله بل أنا زِقّ العلم والهداية . فجعل عليه الكلام المذكور جنحة[٤] وبه قتله .

---

(١) ه ، ب « مولاي السلطان »

(٢) ب « فارس » خطأ

(٣) ساقطة من ه ، ب

(٤) لعلها حجّة

واستمر يؤسس قواعد مُلكه الى أوان هُلكه ؛ فتولى بعده من أولاده عدةٌ منهم مولاي عبد الله ، ومولاي محمد . ثم قُتل بعضهم ومات بعضُهم . وانتقل الملك الى المذكور مولاي أحمد المنصور ، ثَبُتت قواعدُه ، وارتفعت معاهدُه . وهو موادعٌ لسلاطين الزمان ، آل عثمان فيرسل اليهم الهدايا السنيّة في كل سنة . وهم يرسلون اليه المكاتيب والخلع المستحسنة . حتى إن السلطان المرحوم مراد بن سليم كتب اليه في أثناء مكاتبة : ولك عليّ العهدُ أن لا أمدّ يدي اليك إلا للمصافحة ، وأنّ خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة . ورُسلُه دائماً تأتي الى قسطنطينية من جانب البحر ، ويمكثون زماناً طويلاً ، ويتعهدون الوزراء ، ويصاحبون القضاة والأمراء ، ويكاتبون مَنْ كان له قربٌ الى الدولة . ولقد رأيتُ من مكاتيبهم جملة يكتبون في رأس المكتوب هكذا :

من أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ، ويُتبعون ذلك بعباراتٍ فصيحة ، وألفاظٍ مليحة ؛ على قاعدة الملوك في الزمن الماضي .

ولم يحصل لأحدٍ من أولاد مولاي محمد الشيخ ما حصل لهذا المنصور المقصود في هذه السطور . فانه قد طالت في الملك مدّته ، | واتسعت مملكتُه | [1] ، وقويت شوكتُه ، وزادت عِدّته ، | وعظمت عُدّته | [1] . فابتداء ملكه من حدود إفريقية الى حافة البحر المحيط . وبلغني أنه ملك حصة من بلاد السودان . وقواعدُ الشريعة في ولايته ثابتة ، وأصولُ الحنفية في بلاده نابتة ، يراعي العلماء غاية الرعاية ، وينظر الى وجوههم بعين العناية . والشعراء يمدحونه بمحاسن المدائح ، ويمنحهم أعظم المنائح . وله أولادٌ قد فرّقهم في البلاد . فجعل الأكبر وهو مولاي الشيخ (٥٨ ب) في فاس . وجعل زيدان وهو دونه في مكناس . وهو بنفسه

---

(١) ساقط من ه

مقيمٌ في مرّاكُش . وأمور دولته في غاية الانتظام . ويسوس الناس بشريعة جده عليه الصلاة والسلام .

وله شعر حسن ، أنشدني له الشيخ حسين العتيقي المغربي هـذه الأبيات :

لا ولحظٍ سَلب السيف المضا ... وثنايا مثل درّ أو بَرَدْ

ما هلالُ الأُفقِ إلا حاسِرٌ ... لضياهـا وبَهاها والغَيـدْ

ولذا أمسى ضئيلاً ناحلاً ... كيف لا يخفى نحولاً مَنْ حسَدْ

| وأنشدني له غير ذلك وفي هذا القدر كفاية . وبالله العنـاية . والحمدُ لله وحده |[1] .

(١) ساقط من هـ ، ب

٤٦

السلطان أحمد

هو السلطان الأمجد ، والخاقان الأسعد ، والخوندكار الأوحد ، ابن المرحوم المجدَّد ، السلطان محمد ، ابن الماجد مالك البلاد ، المرحوم السلطان مراد . ابن المالك الملك الكريم ، حضرة المرحوم السلطان سليم ، ابن الغازي المجاهد لأعداء الأيمان ، الملك الأعظم السلطان سليمان ، ابن الفاتح للأرض المقدسة بالسيف القاطع والعزم العظيم ، صاحب القِران السلطان سليم ، ابن الملك المانح للجود الذي ليس فوقه مزيد ، المرحوم الوَليّ الصالح السلطان بايزيد . ابن الفاتح لقسطنطينية دار الملك المخلّد ، المرحوم السلطان أبو الفتح محمد ، ابن السلطان الفريد في الملوك الأمجاد ، حضرة السلطان مراد ، ابن السلطان الأمجد ، السلطان محمد بن الغازي الشهير ، حضرة السلطان يلدرم بايزيد ابن المرحوم الغازي مراد ، فاز بلطف الله ربّ العباد . ابن المرحوم المفتقر الى المنان ، المرحوم السلطان أورخان ، ابن جدّهم الأعلى عثمان ، فاتح بيت السلطنة الباقية الى انقضاءِ الزمان .

| [1] ثم ملك بعده أولادُه واحداً بعد واحد ، وولداً بعد والد ، وماجداً بعد ماجد ، الى أن وصلت رُتبةُ السلطنة العظمى ، وحصلت منزلةُ الخلافة الكبرى ، الى الملك المالك الأمجد ، والخاقان الكامل الأسعد ، صاحب الطالع الغالب السعيد ، ومالك الجيش المنصور بلا شكٍّ ولا ترديد ، السالك في سبيل أجداده العظام ، وأسلافه الكرام ، بتعظيم العلماء الأعلام ، واتباع شريعة محمدٍ عليه الصلاة والسلام ، رابعِ عشر أولئك الأماجد ،

---

(١) من هنا الى قوله « توفي والده » ساقط من ه ، ب

وبدوم الكامل الواحد ، المالك ملك الأقاصرة ، (٥٩ آ) الكاسر لصناديد الأكاسرة ، المولى الأعظم الأكرم الأوحد ، الخوندكار أحمد بن محمد | .

توفي والده السلطان محمد في سنة اثنتي عشرة بعد الألف من الهجرة النبوية . وتاريخ سلطنة السلطان أحمد المذكور بالتركية : اولدي سلطان زمين أحمد خان . والتاريخُ المذكور قاله قاضي القضاة بدمشق الشام ، في ذلك العام ، المولى مصطفى أفندي الشهير بعزمي زاده . بلغه الله الحسنى وزياده .

فلما ان والده توفي كان الوزير له في ذلك الوقت رجلاً من أمراء الدولة يُقال له قاسم باشا . فأخفى الوزيرُ المذكور موت السلطان المزبور ، ودخل الى داخل بيت السلطنة ، وذكر لحضرة السلطان أحمد المذكور كلاماً يقتضي أنك تلبس السواد ، وتحضر في الجمع ، وتجلس على الكرسي ، وإذا حضر أعيانُ العلماء أصحابُ المناصب وأربابُ الدولة من أكابر الوزراء والأمراءِ فإنهم يقبّلون يدك ويبايعونك على السلطنة على قانون آبائكَ وأجدادك فقل لهم : كلٌ واحدٍ منكم يمشي على طريقه المعروف ، وقانونه المألوف ، ويصله منا كمالُ الشفقة ونهايةُ المرحمة .

فلما صدر ذلك ، خرج الوزيرُ المذكور وأرسل وراء الأعيان من العلماءِ والوزراء فحضروا وأخذ كلٌ واحدٍ منهم مجلسه ، فبعد هُنيهة رأوا شاباً حسنَ الوجه ، ورقيقَ الجسم ، تعلوه هيبةٌ عظيمة ووقارٌ جسيم . فجاء حتى جلس على كرسي السلطنة ، وعليه ثيابٌ سودٌ ، ومئزرٌ من الصوف على رأسه ، على عادة آل عثمان في ما يلبسون عند موت أحدهم . فلما جلس علموا أنه السلطانُ وتيقنوا أن والده السلطان محمد قد مات . فقاموا وقالوا ما هو المعهود ، وقبّلوا يدَ السلطان أحمد . وحدثهم بما عهد اليه به الوزيرُ قاسم باشا . وانقضى المجلس على ذلك .

وشرعوا بعد ذلك في تجهيز السلطان محمد ، وأخرجوا جنازته إلى محلّ دفنه في التربة التي أنشأها لنفسه .

وكان السلطان محمد ولدٌ أصغر من السلطان أحمد . فلما حضرته الوفاةُ قالوا لولده السلطان أحمد : لا تقتل أخاك حتى يصير لك ولدٌ يصلحُ أن يكون سلطانا .

وقد بلغنا أنه في يوم تاريخه وهو يوم الاثنين تاسع ذي القعدة من شهور سنة تسع عشرة بعد الألف أنّ أخا السلطان أحمد المذكور حيٌّ باقٍ ، وأنه محفوظ في أماكن (٥٩ ب) مستورة لا يجتمع معه فيها إلاّ الموكّلون بحفظه .

وها أنا أذكرُ من محاسن هذا السلطان أحمد ما يوجب له الدعاء الجزيل ، والثناء الجميل .

أما أوّلاً فإن السلطنة في زمن أبيه كانت قد قاربت الزوال ، ووصلتْ الى رتبة ليس معها للبقاء مجال . وتحكمتْ بها طائفةُ السكبان ، وملكوا غالب النواحي والبلدان . حتى إنّ خزينة مصر قدمتْ الى الشام ومكثتْ نحو أربعة أشهر في ميدانها الأخضر الغربيّ ثم رجعتْ إلى مصر ولم يستطع مَنْ معها من عسكر السلطان ولا عسكر دمشق أنْ يوصلها إلى مقرّ السلطنة قسطنطينية .

ومما صدر في زمن أبيه أنه خرج في زمنه حسين باشا الذي كان حاكماً في بلاد الحبشة . ولخروجه أسبابٌ يطولُ الكتاب بذكرها . فأفسد وجبى الأموالَ من البلاد ، وأحرق بعض النواحي من بلاد قرمان ، ونواحي أناطولي ، وقتل وسبى وأسر بعض القضاة ، واستمرّ في غلوائه حتى وصل الى مدينة الرُّها ، وبها العاصي الذي أسّس بناء السكبانية هو عبد الحليم الشهير باليازجي . فلما وصل الى المدينة المذكورة التقى صِلاّن صائلان ، واجتمع ثعبانان منشعبان . وأبرز كلٌّ منهما للآخر حكماً يشهد بأنّ آل عثمان قد أمروه بقتلِ الآخر . وقد اتفقا على المخالفة لآل عثمان دفعة واحدة ، ونزلا في قلعة الرُّها وتحالفا على أن لا يتخالفا .

فلما شاع خلافُهما ، وثبت عن الطاعة انصرافُهما ، عيّن السلطانُ نصره الله تعالى لقتالهما الوزيرَ الامجد محمد باشا الوزير ابن المرحوم الوزير الأعظم سنان باشا ، وانضمَّ اليه عساكرُ الروم وعساكرُ الشام وحلب ؛ وغيرُ ذلك . فرجع الأمرُ الى ضيافة اليازجي عبد الحليم لحسين باشا المذكور . فأرسل يطلب رهناً من العسكر السلطاني على أن يدفع حسين باشا لهم . فأرسلوا اليه من عسكر دمشق كنعان الجركسيّ ، وهو من أعيان عسكر دمشق ، وباكير دوادار حاكم دمشق ، أعني خسرو باشا الخادم ، وجماعة . فأذعن لإعطاء حسين باشا . فلما تيقّن حسين باشا أنّ اليازجي قد خانه ، وما حمل الأمانة ، التفت إليه وقرّعه ، ولغليظِ الكلام سمّعه . وقال له : مَن يُعتمد على مثلك فله هذا الجزاء ، بل هذا له أقل ما يستحق من الإجزاء .

ولما أخذت العساكرُ السلطانيّة حسين باشا ، مالت العساكرُ الدمشقية الى ترك اليازجي عبد (٦٠ آ) الحليم في قلعة الرّها ، لأنّ العهد هكذا صدر معه . فغضب لذلك السردار محمد باشا ، وعرض ذلك لحضرة السلطان محمد ، ولولا لطف الله تعالى لذهب رأس حاكم دمشق وهو خسرو باشا الخادم الطواشي .

واستمر عبدُ الحليم اليازجي عاصياً حتى عُين عليه الوزير حسن باشا ابن الوزير المرحوم محمد باشا مع عساكر السلطنة العثمانية بأمرها . فالتقوا بجميع البغاة وكبيرُهم عبد الحليم اليازجي وأخوه حسن في مكانٍ يُقال له البستان وهو في نواحي مرعش . فاقتتلوا هناك . فأرسل الله تعالى النصر على عسكر السلطان . فكسروا عسكر البُغاة وقتلوا منهم ما يزيد على أربعة آلاف .

ثم إنّ اليازجي مات في قصبةٍ يُقال لها سمسوم . واجتمع البغاةُ بعده على أخيه حسن ، وكان أشجع من أخيه عبد الحليم . فلزم أنّ حسن باشا الوزيرَ المعيّن لقتال البُغاة أرسل عسكراً من جماعته نحو

خمسمائة رجل ، أرسلهم الى مدينة آمد ليأتوا بنسائه وحظاياه . وكانت أموالُه كثيرة لاتُضْبَط بالأعداد . ولو رام ضبطها ألفُ عدّاد ، بحيث أنّ البغاة لما كَسَروا العسكر المبيّن للإتيان بالنساء والأموال لم يقدروا على تحميل غير الذهب والفضة والعزيز من الملبوس ، وأمّا ما عدا ذلك من أحمال الشاشات الهنديّة ، والتحف الروميّة ، والمكمخات الفرنجية ، فقد ألقوا فيها النار ، وجرتْ من ذهبها المذاب الأنهار . وقتل مَنْ بها من المقاتلين . وأما النساءُ والحظايا فإنّ منادياً كان ينادي من جهة كبير البغاة ، وهو حسَن أخو اليازجي ، بأنّ مَن ْمَدّ يده الى امرأة قُطِعَتْ . وجهزهنّ بالأمانة والصيانه الى حسن باشا بالمدينة التي يقال لها توقات .

فلما وصل الخبر الى حسن باشا بكسر جماعته وأخذ أمواله وقتلِ رجاله ، كادت روحُه تخرج قهراً ، وجسدُه يذوب قسرا . والعجبُ أنّ الخارجيَ حسناً بذلك ما اكتفى ، وداء جسده بحسده ما اشتفى ، حتى أنه جاء الي الوزير المذكور على حين غفلة ، ليلة عيد الأضحية الى توقات وأرسل إليه يطلبه للمقابلة ، ويستدعيه للمقاتلة ، فخرج إليه حسن باشا ومَنْ معَه من العساكر فما ثبتوا قُدّام البغاة لحظةً واحدة وكُسِروا كسرةً شنيعة ، وخُذِلوا وأُخذوا أخذةً فظيعة . وهرب حسن باشا الى قلعة توقات . وما رفعوه إلاّ بالأحبال القويّات . وهجم العدوُ على المدينة بأسرها ، وصارت عساكر (٦٠ ب) السلطان مع البغاة في أسرها ، ما عدا الوزير حسن باشا مع بعض الخواص ، فإنّ اعتقاله في قلعة توقات كان أقرب أسباب الخلاص .

ولما تحقَّقَتْ الكسرةُ ، وحقت على عسكر السلطان ساعة العُسْرة ، أُغلقَتْ أبوابُ القلعة والعدوّ الباغي يحفّهـا ، وجنودُه الباغيةُ يرتّبها ويصفّها . فاتفق أن صبيّاً جميلا يُقال له دُرّي ، كان قد نال من الوزير حسن مقاماً حسناً جليلا ، ضرب صبيّاً من صبيان خزينة حسن باشا . فنزل المضروبُ الى المدينة وخالط البغاةَ وعساكر الضلال . فقالوا له : أنت جاسوس . فقال : بل أنا ناموس . ثم حكى لهم ما صدر من درّي من

ضربه له ، وأنّه ما جاء إلا مُصادقاً لهم مصاحباً مرافقا . فقالوا له : إنْ كنت صادقاً في مقالك فأين يجلس الوزيرُ حسن باشا في القلعة ؟ فقال لهم : إنّه يجلسُ دائماً في هاتيك القرنة وراءَ هاتيك الدفوف . فجاء رجلٌ من البغاة وجلس تحت القرنة التي عيّنَها الصبيّ وفي يده بندقة متضمنة لرصاصتين فضرب بها ، فجاءَتْ للقضاء المقدّر تحت إبْطِ الوزير حسن باشا . فمات لساعته ، واستمر مستنداً الى الجدار لايعلم احدٌ حاله . والعجبُ أنّه استمر من الصباح الى الظهر والناسُ يظنّون أنّه حيٌّ ساكن . فبعد ذلك أشرفوا عليه قد مات ، وهو يابسٌ جالس . فثار مَنْ بالقلعة واضطربوا ، وماجوا وهاجوا ، وفرح العدوّ ، وجاءه المدوّ . وسار وتقرّب من جانب قره حصار ، بل شتّى بها .

ثم إنّ جماعةً قرّبوه الى خاطر السلطان محمد ، وقالوا له : هذا حسن يقنعُ بمنصبٍ في بلاد روم ايلي . فأعطوه مدينة دِمشوار ، وهي في أقصى مُدن الاسلام ، ومِنها بدايةُ ولايةِ الكفر .

فدام حسن الخارجي أخو اليازجي الى أنْ قدّر الله عليْه المخالفة بينه وبين أهل مدينته . فأخرجوه منها . فذهب الى مدينة بلغراد . فوضعه حاكمها في القلعة مكرّماً في الظاهر محبوساً في الباطن . وعرض أمره الى السلطان فأرسل أمراً الى حاكم بلغراد بقتله . فقطع رأسه ، وُطفىء نبراسه .

وخرج بعد ذلك على السلطنة علي باشا ابن جانبلاذْ حاكم كلّز وعزاز . ووصل الى أن جرّ العساكر وقاتَل عسكر السلطان على حماه . وكان سرداد العساكر يوسف باشا ابن سيفَا التركماني حاكم بلاد طرابلس . فلما وقعت المصافة غلب جانب السرداد ابن (٦١ آ) سيفا ، فرّت العساكر الشامية وانتصر ابن جانبُلاد انتصاراً قويّاً ، بحيث أنه لم يُقتَل أحدٌ من جماعته . وقد نقل لي مَنْ كان في صحبة ابن سيفا أنّه رجع ومعه أربعةٌ من جماعته . فلما مرّ على عمه الأمير محمود بن سيفا حاكم بلاد حصن

الأكراد قال له عمه : يا مولانا ! انزل حتى نكون في خدمتك . فقال له الباشا يوسف : والله يا عمي بئس الرجوع رجوعنا . ذَهَبْنا بالألوف ورجعنا منفردين . فقال له عمّهُ : هكذا حكمُ الله .

ثم إنه بات ليلة في حصن الأكراد وأمّر ابن عمه درويش بن حبيب على العسكر الذاهب الى بلاد طرابلس . فهرب ابن سيفا في البحر وأخذ أمواله وغالب أهل طرابلس ممن كان يخاف على نفسه أو عياله أو ماله فذهب وذهب معه من ذكرناه من أهل طرابلس .

فأمّا يوسف باشا فقد دار في البحر الى أن وصل حيفا . وهي على طرف البحر ، في بلاد اللّجون ، تحت حكم الأمير أحمد بن طرباي . فاستجار الأميرُ يوسف بابن طرباي المذكور . وصدر من ابن طرباي في حقه مروءة عظيمةٌ لأنّه خرج اليه ومعه مال يكفي أمراء آل عثمان سنين عديدة ، ومعه خمسة وعشرون رجلاً بغير سلاح . فطلع من السفينة فوجد نحو ألف فارس كلّ واحدٍ منهم يتلمّظ عن الموت السريع ويهتزّ طرباً . فقال له الأميرُ أحمد ، عند إقباله : مرحباً بالعمّ العزيز ورجاله . وتربةِ والدي طرباي لو كان عندي مالٌ لقدّمتُه اليك ، ووضعتُه بين يديك ، ولكن جهْدُ المقلّ دموعُه ، وكرمُ البدرِ على الأرض طلوعه ، هذه الخيل المسوّمة غاية ما أقدر عليه ، ونهاية ما توصلني قدرتي اليه . فخذها ولك المنة ، ولا تَثْنِ الى غيرها الأعنّة . فإنّها أخوات ريح الشمال ، بل هي النسيمُ يسري في الصبح والآصال ، تخلفه من كريم ، فتكون الآن لكريم .

وقد كان ابنُ جانبلاذ وابن مَعْن قد أرسلا إلى الأمير أحمد المذكور أنّ فلانا قادمٌ اليك بجمعه القليل وماله الموفور . فخذ رأسه واقلع أساسه ولك المالُ وعلينا الرجال عند القتال ، فقال : حاشا وَكلاَّ لا يتنزّلُ الى الدنيئة مَنْ كان على مولاه كَلاّ . هذا ضيفي ، ودونه غرارُ سيفي

أنا احمدُ بن طرباى الشهير الذي ليس له في العرب والعجم من نظير .
والولدُ سرُّ أبيه من (٦١ ب) خلقه تأتّيه .

ثم إنّه قال لحضرة يوسف باشا السيفي : يا عم دونك رأسي ورمحي وسيفي ، فطِبْ نفساً وقرَّ عيناً ، ولا تخف من وعدي كذباً ولا ميْناً . وقدّم الى يوسف باشا ، ما أراده من المال وماشا . ومكث عنده ثلاثة أيام ، وليس له عنده فيها سوى الإكرام .

وعزم يوسف باشا على الدخول الى دمشق الشام ليستحصن بها عند عساكر الاسلام . فقام معه مَنْ هو عنده نزيل ، وسارا الى دمشق ومعها عسكر جرّار ثقيل ، واقتتل ابن جانبلاد مع العسكر الشامي ، وانضم ابن سيفا مع العسكر الشامي في مكانٍ يقال له العراد بالقرب من دمشق ، في جهتها الغربية ، فما مكثوا مقدار تسخين الماء في القِدْر إلا وقد وقعَت الكسرةُ على العسكر الشامي وَوَلّوا هاربين راهبين ، وتركوا دمشق بمن فيها وما فيها ، اللهم إلاّ قليلًا منهم . فإنّهم مكثوا على الأبواب يُقاتلون ، ولو أراد ابن جانبلاذ أخذ دمشق لأخذها من غير تعب ، ولكنه سلّط العساكر السكبانية الباغية الذين معه على دمشق ، فذهبوا خارج سُورِها ، ونهبوا ما حولها من القُرى إلاّ قليلا ، واستمر النهبُ ثلاثة أيام ، وكانت أيّاماً عصيبة .

ولما قام ابن جانبلاذ في قرية المزّة خرج اليه حسن باشا الشهير بشُوْرْبِزه حسن ، وقطع على دمشق مئة ألف قرش وعشرين الف قرش على ان يأخذها ويقوم ، والذي صَدَرَ صَدَرَ ، والنهبُ يُسامح أصحابه به ، فَقَبِل ، وكانت هذه القروش التي هي مئة ألفٍ قد أعطاها له يوسف باشا ابن سيفا حتى افرج عنه أهل دمشق ومكّنوه من الهرب عن دمشق الى بلاده . فإنّه كان مختفياً داخل السور . وقال له أهلُ دمشق : لولا أنت لما قصدنا ابن جانبلاذ ، فإنه ليس له معنا عداوة ، وعداوته معك

ظاهرة ، فأعطي المبلغ المذكور . وكان في ذلك حكمة بالغة . أراد الله بها صيانة دمشق .

فلما جُهزَت إليه ، واشتُرِي له ما أراده بعشرين ألفاً زائدةً على مئة ألف قرش من سُكر وبُنّ وغير ذلك ، قام عن المزة في اليوم الرابع . وكان أهلُ دمشق يرون من الموادن صور المشاعل تشرق من بعيد وهو ذاهب ، وفتحتْ دمشقُ ، ودخل مَن كان خارج سورها من الساكنين فيه عرايا حيارَى ، سكارى وما هم بسكارى ، وكانت واقعة هائلة (٦٢ آ) .

واستمر ابنُ سيفا هارباً الى حصن الأكراد ، وبه تحصّن .

ثم إنّ ابن جانبلاذ مرّ على البقاع ومرّ على أرض بعلبك ، ونصب خيامَه تحت حصن الأكراد . وأرسل الى حضرة يوسف باشا السيفي يطلب منه المصالحة على المصاهرة بأن يتزوّج ابن جانبلاذ بنت الأمير يوسف بن سيفا ، ويتزوّج ابن سيفا بنت الامير ابن جانبلاذ . فدار الكلامُ بينهما وسعوا في الصُلح . فاتّفقَ الحالُ على ذلك مع مالٍ يحمله ابن سيفا الى ابن جانبلاذ . فاتفقوا على ذلك وأرسل ابن سيفا أكلاً ونفائس وسكّراً وغير ذلك من الالطاف ، وسار الاميرُ ابن جانبلاذ الى حلب ومكث بها . وكانت سكبانيته تزيد يوماً فيوماً واشتهر أمرُه ، وشاع مكرُه ، وقوي الى الغاية ، وتمكّن من أعوانه الى النهاية .

إلى أن وَرَدَ الوزيرُ الاعظم مراد باشا الى قسطنطينيّة وتشاور الوزراءُ معه في شأن المذكور فكان شَوْرُه أن يذهب الى المذكور ، وهو بحلب ، وأن يسعى في إزالته وقهره . ففعل ذلك . وورَد الى حلب وانتزعها من أعواد ابْن جانبلاذ .

وهرب ابن جانبولاذ إلى أن آل أمره الى دخول قسطنطينية المحميّة ، واجتمع بحضرة السلطان الأعظم الأمجد الأوحد ، الأسعد ، حضرة السلطان أحمد ، وحكي له قصته وأبدى له غصته ، فقبل عذره ، وشرح بلطف

الوعد صدره ، وأعطاه إمارة مدينة بلاد في روم ايلي يُقال لها دمشوار .

ولم يزل على حكومتها إلى أن عرض له أمرٌ أوجب قتاله لرعايا تلك الديار ، ولزم أنّه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم ، فعُرض أمره على باب السلطنة الأحمدية فبرز الأمرُ بقتله وعدم إخراجه من تلك القلعة . فقُتل وأُرسل رأسُه الى باب السلطنة . وذهب بيت الأمير جانبلاذ مفرّقاً شعاعا ، وصاروا بعد أن كانوا حكّاماً محكومين رعاعا .

والموجودُ منهم الآن ولدٌ صغير يخدمُ في داخل بيت السلطنة يُقال له مُصطفى ابن المرحوم أمير الأمراء حسين باشا ابن جانبلاذ ، ورجلٌ آخر كبيرٌ يُقال له حيدر بك . وحيدر هذا مقيمٌ الآن في قسطنطينيّة على زيّ الفقراء الدراويش ، وبقيةُ نسائهم في بلاد حلب ، وأحوالُهن ضائعة . إلاّ أخت علي بك ، صاحب الاسم الذي أوجب فساد البيت بأمره ، وصيّرهم بعد إطلاقهم من الضيم في أمره ، فإنها في حبالة نكاح أمير الأمراء الكرام ، حسين باشا الحاكم بإيالة طرابلس (٦٢ ب) الشام ، ابن الامير الكبير أمير الأمراء وظهير الوزراء ، حضرة يوسف باشا واليها ، تنتسبُ كلُّ امرأةٍ من بيت جانبلاذ وتأوي اليها . وأما بيوتُهم في حلب الشهباء فقد أصبحت فاسدة الانباء ، وهَبّتْ بها الريحُ بعد أنْ كانت شمالاً نكبا . نزلت عروشها بعد أن كانت عاليهْ ، وأصبحت بعد التوطّن خاليهْ ، أنكرتِ السكّان واستوحشتْ من القُطّان . ذهب عنها الأنيس ، وفقدت بالوحشة وصف التأنيس . كأنّ النّعاب ، أنشد فوق الأبواب

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ　　　إلاّ اليعافيرُ وإلاّ العيسُ

وأنشد ، من الى الاعتبار أرشد ، للشريف الرضي :

ولقد مَرَرْتُ على منازِلِهم　　　وطلولُها بيد البلى نَهْبُ

فوقفت حتى عجّ من لَغَبٍ　　　نِضْوي وضجّ بعذلِيَ الركبُ

وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

وممّا أنشدته ثمة ، بعد أمور عجيبة جمة :

أيها الباب لم علاك اكتئاب ... أين ذاك الحجاب والحجاب

ولولا ما يتضمنه هذا الشعر من الإكرام ، الذي لا يليق ببغي القوم اللئام ، لأنشدت هذين البيتين ، وأجريت دمع العين ، وهما قول من قال وأجاد في المقال :

عليك سلام الله من منزل قفر ... لقد هجت لي شوقاً شديداً وما تدري

عهدتك مذ شهر جديداً ولم أخل ... صروف الردى تبلي مغانيك في شهر

ولعمري لقد رأيت القاعة التي زعم أهل حلب قاطبة أنها عمرت في خمس سنين ، وصرف على عمارتها خمسون ألف دينار من الذهب . ولم يعرف القوم قبل ذلك ما ذهب عليها من فضة أو ذهب . ولعمري لقد حسن أن ينشد في حق هذه القاعة :

وقالوا بنى بالظلم للظلم قاعة ... وعما قليل تلتقيها مرخمه

قلت : وقد حججت في سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، وسلطان الاسلام ، حضرة السلطان أحمد . ونظمت منازل الحج في قصيدة تائية . وكان صاحب مكة وما يليها السلطان ادريس بن حسن ابن أبي نمي بن بركات الحسني . وكان خطيب بلاده يدعو لحضرة السلطان أحمد أولاً ، ثم للشريف إدريس المذكور ، ثم للشريف محسن بن حسين ابن حسن بن أبي نمي . وكان إدريس المذكور يعترف بالعبودية الكاملة لحضرة سلطان البسيطة السلطان أحمد ويكتب في (٦٣ آ) أسفل عرضه اليه : المملوك ادريس بن حسن الحسيني لطف الله به آمين .

٤٧

السلطان أبو زيد

ابن المرحوم السلطان سليمان ، ابن السلطان سليم خان ، ابن المرحوم السلطان أبي يزيد ، ابن المرحوم السلطان محمد فاتح قسطنطينيّة .

هو الأميرُ أبو يزيد . كان والده السلطان سليمان – روّحه الله في غرف الجنان – قد فرّق أولادَه الثلاثة في البلاد . وهم السلطانُ مصطفى ، والسلطانُ أبو يزيد ، صاحب الترجمة ، والسلطانُ سليم . فلمّا طالت مدةُ والدهم السلطان تحرّك كلُّ واحدٍ منهم الى السلطنة . فأمّا السلطانُ مصطفى فقد أخذ خزينة مصر وهي مقبلةٌ من مصر ذاهبة الى جانب الروم وقال : هذه نفقة أمّي . وكانت أمّه معه في بلده .

وأمّا السلطان أبو يزيد فقد تحارب مع أخيه السلطان سليم على باب قونية ، ووقعت الكسرة على أبي يزيد فولّى هارباً الى جانب ديار العجم . ومرّ من جانب بغداد الى أن وصل الى بلاد شاه العجم . وهو شاه طهماسب ولد إسماعيل شاه قزلباش ، واستأذنه في الحضور إليه الى قزوين فأذن له في ذلك . ولما قرُبَ الى قزوين طلع الشاهُ الى استقباله ونصب أوطاقه خارج قزوين ، وتلاقيا على ظهور الخيل . ولم يكن عند الشاه عسكرٌ كثير . وكان مع الأمير أبي يزيد ما يزيدُ على عشرة آلاف رجل . فقال له رجل من كبار جماعته ، يُقال له قطز فرهاد : اسمع من شوري واقتل الشاه ، فإنّك تصيرُ مالكاً لديار العجم ، وربما تتوصل الى أن تملك ديار الروم أيضا . فما أقدم أبو يزيد على ذلك . فلما اجتمع

الشاهُ أظهر له الشاه كمال الخضوع والانقياد ، وأنزله في مكانٍ قريب منه .
وعلم الشاه أنّه لا يستطيعُ دفاعه إنْ نوى له غدْراً لكثرة مَنْ معه .
فشرع في تفريق عسكره في البلاد كلّها . وكان يُرسل الى كل بلد جماعة
ويأمرُ أمير تلك البلد أنْ يقتلهم . ولم يزل على ذلك حتى أفنى جميع
عسكره . ولم يعلم أبو يزيد ما جرى لهم ، وبقي هُو في منزله وليس
معه سوى الأولاد الصّغار الذين يخدمونه . واستمرّ على ذلك مدّة .
وكان قليلَ الاجتماع بالشاه على كثرة ركوب الشاه اليه .

وأخبرني مَنْ (٦٣ ب) أثقُ به ممن كان حاضراً ناظراً لجميع ما
صدر بينهما أنّ الشاه كان يدعو أبا يزيد الى البستان ، وكان يأخذ الفواكه
الحسنة ويضعُها على يديْه ويمدُّها إليه ليأكل منها . فكان يأكلُ منها
ما اختار ، ولا يتكلّم ولا يتواضع ، مع الشاه ، ولا يقولُ له شيئاً .
فلما تكرّر ذلك منه أرسل اليه يُعاتبه ويقولُ : أنا مثل أبيه ، وأعرُضُ
عليه الفواكه بيدي فيأخذُها ولا يتواضعُ معي بكلمةٍ واحدةٍ أبدا .
فأرسل اليه أبو يزيد يقول له : أمّا التواضعُ فشيءٌ ما دخل بيتنا ولا
نعرُفه إلاّ مع الله تعالى الذي هو خالقُ الخلق وباسطُ الرزق ، فإن كان
الوالدُ الشاه يعرف ذلك فليُعلمنيه حتى أستعمله معه عند الإكرام . فلما
سمع الشاهُ ذلك تغافل عنه . واستمرّتْ الوحشةُ تزيد بينهما إلى أن نوى
أبو يزيد على أن يتدَاركَ ما فات وهيهات هيهات . فنوى أن يضع للشاه
السمّ في الطعام . وذلك أنّ الشاه خرج الى بستانه في أيّام الفواكه ودعا مَنْ
عنده من أولاد السلاطين . والأمراء ، وكان عنده نحو سبعة من أولاد السلاطين ،
ولكن كان أبو يزيد أكبرهم وأعظمهم . فلما حلّوا في البستان قال الشاه : ليطبخ
كلُّ واحدٍ منا طعاماً يعرُفه على طريقة بلاده ، وقصد بذلك الانبساط معهم .
فوضع كلُّ واحدٍ فوطةً واتزرَ بها وشرعوا في الطبخ على ما يعرفون من الأساليب .
فنوى أبو يزيد على أن يضع السمّ للشاه في طعامه . فشعر بذلك رجلٌ

كان من جماعة أبي يزيد ، ولكنه كان يأنس بالشاه ويختص بصاحبته . فأشار الى الشاه وأعلمه بما نوى عليه أبو يزيد ، فأسرع الشاهُ في الذهاب من البستان ولم يأكل من الطعام . فتعجّب الحاضرون من ذلك . فلما اطلع أبو يزيد على ذلك قتل ذلك الذي وشى به الى الشاه بأنّه يريد أن يسمّه في طعامه . فلما علم الشاهُ بقتل الرجل عاتب أبا يزيد على ذلك . فقال أنا قتلتُ خادمي ، والانسان إن قتل خادمه لايُعاتب فيه . فأضمر له الشاهُ الضغينة في نفسه ، وطلبه يوماً إليه ، فكأنّه أحسّ بالسوء فتعلّلَ في الخروج كثيراً ، ثم ذهب مُكرهاً . فلما دخل عليه قام من مجلسه وأمر بالقبض عليه . فسارع عسكرُ الشاه الى القبض على أبي يزيد . فلما شرعوا في ذلك قال (٦٤ آ) قطز فرهاد للسلطان أبي يزيد كلاماً معناه : ما سمعت من شوري ياصبي لما أشرت عليك بقبضه فَذُقْ طعم الأمر ، هذا جزاءُ مَنْ خالف النصيحة .

فلما تمّ القبضُ عليه حبسه في بيت بستانه الذي داخل سراياه . وأرسل الى والده السلطان سليمان يخبره بالقبض عليه . فأرسل السلطانُ سليمان يقول للشاه : أقتله أو أرسله إليّ حياً . فقال : لا أقتله ويبقى لك عليّ دمُ سلطان عظيم ، ولا أرسله إليك حياً لاحتمال أن تعفو عنه ويصير سلطاناً فلا تبقى له همٌّ إلاّ الانتقام مني ومن أولادي لكوني أهنتُه وقبضتُ عليه ، ولكن أنت أرسل اليّ مِنْ خواصك مَنْ يقتله حتى أسلمه اليه .

فاضطرّ عند ذلك السلطانُ سليمانُ الى قتله . وخاف من انتشار الفتنة إنْ بقيَ سالماً ، فأرسل اليه جماعة وكبيرهم خسرو باشا الذي كان حاكماً في مدينة وَان ، وحكم بغداد والشام مرتين . وأرسل مع خسرو المذكور مماليك يعرفون أبا يزيد حقّ المعرفة خوفاً من إخفائه وإظهار غيره للقتل ، وقال لخسرو : إذا ظهر عليك ولدي في مكانك ، فانظر إلى المماليك الذين معك . فإن قاموا وبادروا في الحال الى الوقوع على رجل ولدي ويده فاعلمْ أنه ولدي ، وإلاّ فهو غيره .

فلما وصل إلى قزوين طلب الشاه من خسرو باشا تمسكاً بخط السلطان وختمه بأنه قد أذن له في تسليم ولده لخسرو باشا يقتله . فأعطاه التمسك بذلك كما طلب . ثم أدخله الى داخل البستان الذي فيه أبو يزيد وهو معه . فلما وقع نظرُ المماليك على مخدومهم وابن مخدومهم بادروا بالبكاء عليه ووقعوا على يديه ورجليه يقبلونها . فقال لهم خسرو باشا : ما بالكم فعلتم هكذا ؟ فقالوا : كيف لا وهو مخدومنا السلطان أبو يزيد . فعلم عند ذلك أنه هو ، فسلم عليه . فقال أبو يزيد : يا لالا ! أنا أعرفُ سبب قدومك الى هذه البلاد . ولكن أمهلني لأصلّي ركعتين واطلبْ ليْ أولادي لأنظرهم ، فإنّ لي نحو سنةٍ ما رأيتهم . فقال : حُباً وكرامة . فتوضأ وشرع في الصلاة . فما أمهله حتى فرغ منها ، بل بادر إلى الأمير بخنقه قبل حضور أولاده . وكانوا أربعة أكبرُهم أرخان وكان من أحسن خلق الله صورة . أخبرني مَنْ رآه أنه ما وقعت عينه على أحسن منه شكلاً ولا ألطفَ صورةً . (٦٤ ب) فحضر أولادُه فوجدوه قد قُضي عليه . فشرعوا في خنق أولاده إلى أنْ بقي منهم واحدٌ صغير فدخل تحت ذيل الشاه وقال له : يا أبتِ . اعتقني أنتَ ، فقال له : نعم . ثم غمز عليه فقتلوه أيضاً . وجهّزوا أجسادَ الجميع وأرسلوهم الى ديار والدهم السلطان سليمان . فلما وصلوا أمر السلطان بدفنهم .

وبلغني أن السلطان سليمان سأل عن لباسِ ولده أبي يزيد ، فقال لهُ خسرو باشا : يا مولانا السلطان . كان لباسُه الصوفَ الفستقي وتحتهُ المنقاليّ الأزرق . قال : فبكى السلطان سليمان وقال : قبّح الله طهماسب ما أقلّ مروءته ! أما كان يوجد عنده ثوب مُذهب يُلبسه لولدي . ولكن الذنبُ لولدي حيث أوقع نفسه في يد عدوّ في الدين والدنيا .

وبلغني من الثقات أنّ شاه طهماسب أرسل يقول للسلطان سليمان : أنا راجٍ منك أن تُحسن إليّ لكوني تكلّفتُ على ولدك وعلى أولاده

وعلى جماعته وخدمه . فأرسل له السلطانُ سليمان ستَّ كراتٍ كلُّ كرةٍ مئةُ ألف دينار ذهباً . وكتب له مع الدراهم ورقة بخطه ترجمتها بالعربي هكذا .

شاه طهماسب بهادر . أصلح الله شأنه .

نعلمه بعد السلام أنَّ مملوكنا حَسَناً قد أخبرنا أنَّ لك طمعاً في إحساننا . وقد رسمنا لك مِنْ مالنا بأربع كرات ، ومن مال ولدنا سليم بكرّة واحدة ، ومن مال وزيرنا رستم باشا بكرة واحدة أيضا . فالمجموعُ ست كرات .

والعجبُ أنَّ السلطان سليمان يعتقد أنَّ الدراهم أرسلها صدقةً ، والشاهُ يعتقد أنّها تاج . ولعمري إنَّ جميع الناس عابُوا على طهماسب ما فعله مع أبي يزيد ، فإنّه ضيفُه ، وقد خانه ، وأخذ ماله ، وقتَلَ رجالَه ، وآخرُ الأمرِ أمسَكَه وحبَسَه ، وقصّر في لباسه وفي خَرْجه ، وأخذ أجرةً على إتلاف ضيفه . وحاصلُ الأمر أنّها معدودةٌ من قبائحه ، ومحسوبةٌ من أعظم فضائحه . نسألُ الله تعالى أن يعصمنا من الزلل في القولِ والعمل .

وأرسل أبو يزيد الى الشيخ منصور الدمشقي المعروف بخطيب السقيفة رجلاً حمله اليه ليسأله عن أمر السلطنة هل هو له . فأجابه بهذين البيتين :

مَلِكُ الملوكِ إذا وَهَبْ لا تسألَنَّ عن السببْ (٦٥ آ)

اللهُ أعطى مَنْ أرا د فكُنْ على نَهْجِ الأدب

وكان قتل أبي يزيد المذكور في [1] .

---

(١) بياض في جميع النسخ

٤٨

المولى [١] أبو السعود أفندي

عليه رحمة الرب الودود .

هو المولى العلاّمة ، الكاملُ الفهامة . شيخُ الاسلام على الاطلاق ، ومفتي الدهر بالاتفاق ، الذي اشتهر صيتُهُ في الآفاق ، وبرع على علماء عصره وفاق .

كان والدُ المذكور شيخاً صوفياً ، وعالماً تقيّا . جمع بين المرتبتَيْن ، وحاز الفخر في الطريقتَيْن . وصار معلّماً في العلوم والهداية الربّانية لحضرة السلطان أبي يزيد ولد حضرة السلطان الغازي محمّد فاتح قسطنطينية المحميّة . ونشأ ولدُه المولى أبو السعود صاحبُ هذه الترجمة طالباً لمراتب العلومِ السامية ، رامقاً بطرفه المنازل الرفيعة العالية ، فحصل من الفضائل ما أراد ، وحاز من العلوم مرتبة الأفراد . بحيث أنه صار ابتهاجاً في وجه الدولة العثمانية ، وابتساماً في ثغر السلطنة السليمانية ، فاق وبرع وإلى أرفع المواطن ارتفع . كانت الدولة تباهي به الملوك وتفاخر به افتخار المالك على المملوك . والعجبُ أنّ غالب ما رأيناه من قضاةِ دمشق من تلامذتِه ، وكلّهم ينتسبون الى حضرته ، ويتشرّفون بنسبتِه ، ويرجعون في المناصب الى ملازمته .

أخبرني منهم المولى الكامل كمال الدين محمد الآتي ذكره في حرف الكاف إن

---

(١) ه ، ب « المولى المفتي »

شاء الله تعالى أنّ شيخه المولى صاحب الترجمة ما ذاق طعم العَزْلِ في حياته ، بل استمرّ يتنقّل في الولايات من ولايةٍ مدرسة الى مدرسة ، ومن منصب الى منصب ، الى أن تولّى قضاء العسكر ، وبعد ذلك تولّى منصب الفتوى بقسطنطينية العظمى .

وكانت له حشمةٌ وافيةٌ وحرمةٌ باهرة ، وقوة بين أمثاله قاهرة . بحيث أنه كان محطّ الرّحال ، ومرجعَ الرجال ، ونتيجة الآمال . باهت به الدولة وافتخرتْ به الجملة . بحيث أنه كان يأمر فلا يُخالَف في أمره ، ويطلب فيُعْطى ما طلب مع أداء حمده وشكره .

روينا عن الثقات أنّ حضرة المرحوم السلطان سليمان سأل المرحوم المولي ابن كمال باشا وقال له : لو فُرِضَ أنك كنتَ في زمن المحقّق التفتازاني أو في زمن المدقّق السيد الشريف الجرجاني ما كنت تكون لهما ؟ (٦٥ ب) فقال : لو كانا في زمني لحملا لي الغاشية . فاستكثر السلطانُ منه ذلك وأنكره في باطنه ولم يُجِبْه بجوابٍ بعدها . فبعدَ ذلك بمدة سأل المفتي أبا السعود صاحبَ هذه الترجمة عن السؤال بعينه ، فقال في الجواب : كنتُ أكونُ تلميذاً قابلاً . فاستحسن السلطانُ منه هذا الجواب . وقال له : أنت صاحبُ الرأي والصواب . وخلع عليه سموراً كبيراً يساوي ألف دينار ذهباً . وقد أُعطِيَ حظّاً عظيماً في عمره بحيث أنه ما أُصيب بشيء من مواد كماله .

وكان له ثلاثة أولاد محمد وأحمد ومصطفى .

فأمّا محمّد فصار قاضياً بدمشق في حياة أبيه . وكان متساهلاً فيما يجب لمنصب القضاء من التحجّب والصيانة . وعُزل من الشام وأعطيَ حلبَ ، فما رضيَ بها ومات بها .

وأمّا أحمدُ فقد كان غايةً في العلم ، ومات مدرّساً ، ولم يصِر قاضيا .

وأما مصطفى فإنه كان أصغرهم . واستمرّ حيّاً الى سنة ثمان بعد الألف .

ومات في السنة المذكورة قاضياً بعساكر الروم . وكان أصغرهم وأقلّهم علماً ، ولكن كانت الدولة تراعيه لمكان أبيه من الرفعة .

ولما كان ابنه محمد قاضياً بالشام كتب إليه من القسطنطينية مكتوباً ينصحهُ فيه ويحذّره من الرشاء في قضائه . وكتب له في المكتوب هذين البيتين وأظنها للفارضي المصري :

ألا خُذِ الحكمةَ[1] منّي وخَلِّ القيلَ والقالا
فسادُ الدين والدنيا قبولُ الحاكم المالا

والعجبُ أنّ المفتي المذكور ألّف تفسيراً عظيماً مقبولاً عند الخاصّ والعام . وعبارتُه غاية في الفصاحة والبلاغة . وأما محافظتُه على العبارات الفصيحة ، والمعاني البليغة المليحة ، فذلك أمرٌ قد وقع عليه الاجماع ، ولم يقع فيه اختلاف ولا نزاع ، ولقد لزمت مطالعتَه ، وداومتُ مراجعته . وأنا الآن أُلقيه في مجلس درسي التفسيري بالجامع الأموي وغالبُ تحقيقه وقع في أوائله . وأما النصف الثاني فغالبُه عبارةُ البيضاوي ، ولا يزيد غالباً إلاّ بعضَ النكت المتعلّقة بالبلاغة .

ولقد تفرّد بشيء في تفسيره جزاه الله خيرَ الجزاء ، وهو أنه يتقيّدُ غالباً باعتمادِ الوجهِ الذي يناسب سياقَ النظم الكريم وسباقه ، ويسلك غالباً الإيضاحَ لمعاني كلام الله عزّ وجلّ .

وحاصلُ الأمر أنّه كان نزهةَ (٦٦ آ) زمانه ، وابتهاجَ عصره وأوانه . افتخرت به سلاطينُ آل عثمان ، واعتقدوا وجودَه توريداً في وجنة الدوران ، وابتساماً في ثغور الزمان .

وكان مع ذلك محافظاً على الورع والديانة ، مثابراً على التقوى والأمانة .

---

(١) ﻫ ، ب « حكمة »

مع أنه ما دخل ديار العرب ، بل كان يتنقل في المناصب بديار الروم من منصب الى منصب .

وله القصيدةُ المشهورةُ الميميةُ التي يشكو فيها الزمان ، ويتوجّعُ لاندراس معالم العلوم ، ويتألم لفقد قوانين الموالي بديار الروم . ومطلعُها :

أبعْدَ سُليْمى مطلبٌ ومرامُ ودون هواها لوعةٌ وغرامُ

وهيهاتَ أن يثنى الى غيرِ بابها عنانُ المطايا أو يُشدَّ حزامُ

هي الغايةُ القصوى فإن فات نَيلُها فكلٌّ من الدنيا عليَّ حرامُ

إلى أن يقول فيها :

تَقطّعتِ الأسبابُ بَيني وبَينَها ولم يبق فينا نسبةٌ ولئامُ

فلا هي في برجِ الجمالِ مقيمةٌ ولا أنا في عهدِ المجونِ مرامُ

فما كلُّ قولٍ قيل علمٌ وحكمةٌ ولا كلُّ أفرادِ الحديدِ حسامُ

ومنها :

وكم عُشرةٍ ما أورثتْ غيرَ عُسْرةٍ وربَّ كلامٍ في القلوب كِلامُ

أجِدّكَ ما الدنيا وماذا نعيمُها وما ذا الذي تبغيه وهو حطامُ

تشكل فيها كل شيء بشكل ما يعانده والناسُ عنه نيامُ

فعزٌّ بهُونٍ والهوان بعزّةٍ تذبذبَ فهاتيك الحياةُ منامُ

محوتُ نقوشَ الجاهِ عن لوحِ خاطري فأمسى كأن لم يجرِ فيه قلامُ

أنستُ بلأواءِ الزمان وذُلّه فيا عزّةَ الدنيا عليك سلامُ

وله قصيدةٌ أخرى يشير فيها الى الدوامِ المطلق لله تعالى ، وثبوتِ الفناء لمن سواه . وهي قصيدةٌ حَسَنَةٌ في بابها . ومطلعُها :

مقالة الحقّ عزّ قائلها مركوزةٌ في النُّهى دلائلُها
قويةٌ لا ترى لها عِوَجاً لا قدّسَ اللهُ من يُجادِلُها
ظاهرةٌ للحجى دقائقُها واضحةٌ عنده جلائلُها
تجيبُ عن كلّ نكتةٍ سُئلت بغيرِ خلفٍ فأين سائلُها (٦٦ب)
سريرةُ الحقّ غيرُ خافيةٍ على أريبٍ وذاك كافلُها
طفْ بالبلادِ التي تَبوّأها ملوكُ عصرٍ وقِفْ نُسائلُها
أينَ الذي اختطّها ومَصّرها وأينَ معمارُها وعاملُها
مَنْ شقّ أنهارَها وعمّرها ومَنْ له حُفّرت جداولُها
وأين سلطانها وسُوقتُها وأين أشرافُها وخاملُها
قل للمصانيع أين صانعُها وللأفاعيلِ أين فاعلُها
خَرّت على عرشها قواعدُها وفرّقتْ حوله جنادِلُها
تجبك عما سألتَ مُعْرِبةً عن الشؤونِ التي تُحاوِلُها
تروي أحاديثَ أمّةٍ سَلَفَتْ راويةٌ لا يُرَدّ قائلُها

ومنها :

فهل رأيتَ العروشَ قائمةً من بعد ما هُدِمَتْ أسافلُها
تطوي يدُ النائبات دفترها طيّ سجلٍ فمن يُساجلُها

فيا لها من مُلِمّةٍ نَزَلتْ　　إلى الدُّنى جمّة نوازلُها

والدهرُ صعبُ الخطوبِ منكرُها　　ومشكلُ النائبات هائلُها

لا يأمنُ الغدرَ مَنْ يسالمها　　ولا يرى النصرَ مَنْ يُنازلها

فلا يغرّنكم زخارفُها　　ولا يضرنكم شواغلُها

وكلُّ ما في الوجودِ من نعمٍ　　إمّا تُزايلكَ أو تزايلُها

سلطنةُ الدهر هكذا دُوَلٌ　　فمَنْ سلطانٌ مَنْ يُداوِلُها

وله فتاوى مرتبة على أبواب الفقه ، ورأيتُ منها نسخةً وافيةً كاملةً . تارةً يكتبونها بالتركيّة وتارةً بالعربية .

ومات رحمه الله تعالى وهو مفتٍ بدار السلطنة العظمى قسطنطينية الكبرى ، ولم يخلف بعده مثله ، ولا ترك في الوجود شكله ، وكانت وفاتُه في سنة ثلاثٍ وثمانين وتسع مئة ، كما نُقِلَ إلينا بالتواتر رحمه الله تعالى ، [في دولة السلطان سليم ابن السّعيد الغازي السلطان سليمان .

قلتُ : وأخبرني قاضي القضاة المولى كمال الدين محمد ابن المولى المرحوم أحمد الشهير بطاش كبري زاده عن المولى المفتي أبي السعود المذكور أنه أنشد قبيل موته بساعة هاذين البيتين وهما :

ألم تَرَ أنّ الدهر يومٌ وليلة　　يكرّان من سَبْتٍ جديدٍ الى سَبْتِ

فقلْ لجديد الثوب لا بُدّ من بلىً　　وقل لاجتماع الشّمل لا بُدّ من شتّ[1]]

---

(١) الزيادة من ه ، ب

٤٩

أبو طالب الحسيني

هو الامير الذي رَفَعَتْ له السيادةُ أعلامَها ، وَوَهَبَتْهُ الأيام إنعامَها . فهو الشريفُ ابن الشريف ، المستظلُّ في الدوحة الحسنيّة بالظلّ الوريف . وهو أبو طالب بن الأمير حسن ابن الأمير الكبير أبي نُميّ محمد ابن الأمير السيّد (٦٧ آ) بركات . وهو في هذا التاريخ وهو سنة تسعٍ بعد الألف وليُّ عهد أبيه السيّد حسن . ويتعاطى الحكومة عنه في غالب الأوقاتِ . وهو مشكورُ السيرة ، طاهرُ السريرة . له الإصاباتُ العجيبةُ في حكوماته ، والشجاعاتُ العظيمة في منازلاته . وله الفضيلةُ التي تزين الأمراء ، وينظمها في مدائحهم الشعراء . فاق على إخوانه ، وبرّز في محاسن الأخلاق على أبناء زمانه . فلذلك سلّم له أبوه مقاليدَ الامارة ، وجعل له ولاية العهد أظهر إمارة .

وردت الخلعة السلطانية من الحضرة الخونكارية المحمديّة من دار السلطنة قسطنطينيّة المحميّة ، لحاكم مكة على العادة المعروفة ، والطريقة المألوفة ، فألبسها الشريف حسنٌ لولده هذا أبي طالب ، وصيّر له بذلك أرفعَ المراتب ، وأنجح المطالب . وها هو الآن نائبه في جميع مهمّاته ، والقائمُ باعباءِ أموره في سائر أوقاته .

ولما ورد ركبُ الحاج الشاميّ الى دمشق في سنة عشر بعد الألف في صفر ، أخبروا بأن والده تنزّه عن الحكومة بالكلية ، وأنه أمر الخطباء بالحرمَيْن الشريفَيْن أن يخطبوا باسم ولده مع اسم حضرة السلطان محمد . ففعلوا ذلك واستقرّت الإمارة مع وجود أبيه . فاعلم ذلك .

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان من سنة عشر بعد الألف وردت الأخبارُ بموت السيّد الكبير حسن بمكة . وأنّ ولده المذكور جلس على مسند الحكومــة ، وأنه قتل ابن عتيق الظالم وألقى جسده الخبيث على المزبلة بمكة حفظه الله تعالى آمين .

ولقد تولّى قبله النيابة عن أبيه أخوه المرحوم السيد حسين فأذاقــه الحمامُ طعم الحين .

ثم تولي بعده أخوه السيد مسعود ، فلم يكن في سعيه بمشكور ولا في فعله بمحمود ، وتوفي في أيام الشباب ، وذاق والده بوفاته طعم القتاب . فآلت ولايةُ العهد للسيد أبي طالب المقصود بالذكر في هذه السطور ، وهو الآن بالجميل مذكور ، وبالاحسان مشكور ، لا زال علمه منشوراً ، وجيشُه منصوراً . آمين آمين .

٥٠

أبو القاسم الشريفُ السفياني (٦٧ ب)

الحسنيُّ الحُسبنيُّ أباً وأماً الخارجُ في بلاد اليمن

كان ابتداءُ خروجه من مكانٍ يقالُ له وَصاب[1] من نواحي اليمن | في صفر من سنة خمسٍ بعد الألف[2] | ودعا الناسَ الى بَيْعَتِهِ ، وانتشرتْ دعوتهُ الى أن تملك من حصون اليمن ما يزيد على عشرين حصناً ، لكن | كان[3] | تملُّكُهُ لها بتسليمِ أصحابها . كان إذا ورد إلى جانبٍ من جوانب اليمن وفيه حصنٌ من الحصُون أو مدينةٌ من المدن فيُرسل إلى أهلها مكتوباً يدعوهم | فيه[4] | إلى نفسه وإلى بَيْعَتِهِ بآياتٍ قرآنيةٍ ، وأحاديث نبويّة ويقولُ للناس : أنا ما أُريدُ منكم إلاّ أنْ تبايعوني على كتاب الله وسنّة نبيّه ، وعلى العدل والاستقامة على قانون الشرائع ، وعلى إيصال | مالِ[5] | بيتِ المال لأهله .

رأيتُ مكتوباً وارداً منه وفيه العجائبُ من الآيات والأحاديث والمواعظ . وكان أكثر مَن[6] يوافقه | مِن[7] | الزيديّة ، لأنه زيديّ .

---

(١) صقع متسع في اليمن يشتمل على وَصاب عالي ووصاب أسفل ، غربي وادي زبيد في تهامة . (انظر معجم أماكن اليمن ، في ذيل طبقات فقهاء اليمن) .

(٢) ما بين الخطين ساقط من ه

(٣) ساقط من ه

(٤) ساقط من ه

(٥) ساقط من ه ، ب

(٦) س « ما »

(٧) ساقط من ه

وفي كلٍّ مكتوبٍ يدعو الناس إلى قتال عسكر بني عثمان الموجود في بلاد اليمن .

وبعد استقرار أمْرِهِ في الحصُون التي أطاعَتْه كتب لنفسه سكّةً على النقود . وكان يكتبُ في أحَدِ الوجْهَيْن : لا إله إلاّ الله ، محمدٌ رسول الله . وعلى الوجه الآخر : المَنصورُ بالله [1] أبو القاسم أميرُ المؤمنين الحسنيّ الحسينيّ .

فعندما استفحل أمرهُ عُرِضَ على سلطان المسلمين السلطان محمّد نصره الله تعالى . وكان الذي عرضه على حضرة السلطان أميرُ الأمراءِ في بلاد اليمن | هو [2] | حسن باشا . فأمَدّه السلطانُ بعسكرٍ بعد عسكر ، وبمالٍ بعد مال . فخرج حسن باشا مع العساكر السلطانيّة وقاتل الخارج المذكور إلى أن استخرج منــه غالبَ الحصون التي كان قد تملّكها . وسمعتُ من فخر الأعيان الخواجا فخر الدين [بن زريق [3]] الكاتب أنه لم يبق معه سوى حصنَيْنِ متقابلَيْن . اسم الواحد شهارة واسم الآخر حصنُ أبي عريش [4] .

وفي يومنا هذا وهو يوم الثلاثاء سابع عشر رجب من سنة إحدى عشرة بعد الألف ورد الخبرُ بأنّ الرجلَ الخارجَ المذكور باقٍ إلى الآن في الحُصْنَيْن المذكورين . انتهى .

---

(١) ب « لله »

(٢) ساقط من ه

(٣) الزيادة من ه . وفي ب « فخر الدين بن الكاتب »

(٤) ه « حريش »

٥١

الشيخ أبو الفتح | ابن عبد السلام[1] | المالكي

التونسيُّ مولداً[2] والدمشقيُّ المنزل[3] (٦٨ آ) والوفاة .

هو شيخُ الاسلام ، وفاضلُ الأنام ، ومفتي المالكيّة بدمشق الشام . ورد إلى دمشق من المغرب بعد وروده إلى مصر المحروسة . وكانت عمامتُه سوداء عند وروده . وكان عند قدومه إلى دمشق متلبّساً بهيئة الصالحين . ونزل بصالحية دمشق ، وصار خادماً لمزار الشيخ مُحيي الدين ابن عربي بها . ومكث على ذلك مدّةً مديدة وأعواماً عديدة . ثم إنه تغير عن ذلك الطور ، وسكن في دمشق ، وصار قاضياً بالمحكمة الكبرى . وتقلّبت أحوالُه ، وتغيرتْ أعمالُه ، وصار مُتّهماً بأمور لا تليقُ بأمثاله ، ولا ينبغي أنْ تصْدُرَ عن أشكاله . وأصرَّ على ما | كان[4] | قد أسرَّ . ولم يزل بدمشق يتقلبُ في أطوارِ الأمجاد ، ما بين أغوارٍ إلى أنجاد ، فتارة ينهبط[5] وآونة يسمو ، وحيناً يُجْدِبُ ووقتاً ينمو ، لكنه مع ذلك كان يُفتي على مذهب إمام دار الهجرة ويقضي على مذهبه ، لكن بسيرة ليست مرضية .

وكان ينطق بالكلمات الفصيحة . شهدتُ له موقفا مع شيخ الاسلام

---

(١) قوله : « ابن عبد السلام » ساقط من ه ، ب

(٢) ه ، ب « المولد »

(٣) ه « المولد » خطأ

(٤) ساقط من ه

(٥) ه « يهبط »

| الشيخ [١] | عبد النبيّ ابن جماعة الكناني المقدسي ، وقد ورد إلى دمشق فرأيتُهما جالسَيْن بعد صلاة الجمعة في الإيوان الشماليّ بالجامع الأمويّ عند الشبّاك المطلّ على الكلاّسة . وشرع | الشيخ [١] | عبدُ النبيّ يتكلم مع الشيخ أبي الفتح صاحب الترجمة كلاماً علميّاً فيما أظن . فإني كنتُ صغيرَ السنّ ، وكنت بعيداً عنهما في الجملة . فما أتمّ الشيخُ عبدُ النبيّ كلامَه الذي كان يتكلم فيه حتى أقام الشيخ أبو الفتح رأسه وتنحنح ، وقال : « سبحانَ الله ،

كأنّك من جمالِ بني أُقَيْشٍ ... يُقَعْقَعُ بين رجليْـــهِ بشَنِّ

وقال أيضاً : جَعْجَعَةٌ ولا طحن . ورُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة . سبحانَ الله ! يدلُّك على جَناءِ الشجَرة الواحـــدةُ من ثمرتها . وعلى خزامى [٢] الأرض النفحةُ من رائحتها .

وجالا فيما كانا فيه من الأبحاث ، مستعجلَيْن من غير ارتياث [٣] . وظهرت زيادة الشيخ أبي الفتح على الشيخ عبد النبي ظهورا كاملاً ، وألبسه الله تعالى من الفضل لباساً شاملا .

وكان من أعاجيب الزمان ، ومن مفردات الدوران . كان ماهراً في المعقولات بأسرها ، وفاضلاً في المنقولات عن آخرهـا . (٦٨ ب) كان إذا تكلّم في العلوم يصير كالسيْل إذا طمَى ، وكالغيث إذا همَى . وكانت له الفصاحـــةُ التي تَنْدى ظلالها ، ويُسْكِرُ جريالُها ، ويروق سلسالُها . وكان له النظمُ الذي يفوح نَشْرُه ، ويلوح بشرُه . لأنّه كما قيل : شَرِبَ من ماء الغوطتين ، وهبَّ عليه نسيمُ الواديين . فمن ذلك أنّه كان جالساً بين إخوانه ، وعنده طائفةٌ من خلاّنه ، وإذا برجلٍ

---

(١) ساقط من « ه »

(٢) « ه » ، ب « خزائن »

(٣) « ه » ، ب « ارتباط »

أقبل وقبّل يد الشيخ أبي الفتح وقال له : يا مولانا هـذا البيت لمن ؟ وهو قول الشاعر :

لا ضُرَّ أحبابي ولا رُوِّعوا   غِبْنا فما زاروا ولا وَدَّعوا

فأجابه عن قائـله . وقال له : قِفْ واستمع مني أبياتاً على وزنـه وقافيته وقال :

يا من لصبٍّ بين أطلالِهم   يهيمُ ، لا يرقى له مدمعُ

ترحّلوا فالدارُ من بعدهم   لبُعدِهم أطلالُها بلقـعُ

خلَتْ كأنْ لم يكُ فيها لنا   مقامُ أنسٍ لا ولا مَرْبعُ

نذرتُ إن عادوا لهم مُهجتي   هيهاتَ مافي عودِهم مطمعُ

لا ضُرَّ أحبابي ولا رُوِّعوا   غِبْنا فما زاروا ولا وَدَّعوا

وله القصائدُ الطنّانةُ التي ما أدرك حسّان فيها إحسانه .

وكتب إليَّ شيخ الاسلام علاء الدين بن عماد الدين هـذين البيتين بطلب القصيدة المسمّاة بقاق ، وهي من نظم الشيخ بدر الدين الغزي في الشيخ محمد الأيجي نزيل سفح قاسيون وهما قوله :

مولايَ خفّاشُ الدجى قد هجا   حمامةَ السفح بذات الشقاق

فانقضّ بازي الحيّ من شاهقٍ   يا أيها الصقر تفضّلْ بقاق

والمرادُ من خفّاش الدّجى شيخ الاسلام البدر الغزّي ، وذلك لأنّه كان متحجباً لا يظهر من حجرته إلاّ من الليل | إلى الليل [(١)] | . والمراد من حمامة السفح الشيخ | محمد [(٢)] | الأيجي [لأنه كان [(٣)]] نزيل سفح

(١) ساقط من هـ
(٢) ساقط من هـ
(٣) الزيادة من ب

قاسيون[١] . وبازي الحيّ يريد الشاعرُ به نفسه . ويريد بالصقر الشيخ علاء الدين لأنه كان أبجر أحْدَب ، وهكذا الصقر ، وقاق هي القصيدة التي هجا بها البدرُ الغزيّ الشيخ الايجي ، وسيأتي ذكرهما في حرف الميم إن شاء الله تعالى .

وكان كلٌّ منهما في غاية الصداقة لصاحبه . ففرّق بينهما الزمان ، وأيُّ شخصٍ (٦٩ آ) من الدهر في أمان .. ومطلعها :

أخِلاّيَ[٢] بالسفح طالَ الفراقُ وساورني ألمٌ واحتراق

إلى أن يقول منها في الهجو :

وكم دبّ ليلاً على أمردٍ وأحدث فتحاً بأعلى الرواق

ومن نظم الشيخ أبي الفتح | المالكي[٣] | رحمه الله تعالى :

حبذا بالحمام ساعة بطرٍ ولو ابتُزّ من مدى العمر شطرا
حبذا الارتحالُ من دارِ سُوءٍ نحن فيها في قبضةِ الأَسرِ أسرى
وإذا ما ارتحلتُ ياصاحِ عنها لا سقى اللهُ بعديَ الأرض قَطْرا

ومن شعره :

ألا يا أيها الساقِي أدِرْ كاساتِ أحداقِ
ولا تقطعْ مودّتنا وَوَاصِلْ كلَّ مشتاقِ
ولا تبخل على الفاني ببذلِ جمالك الباقي

---

(١) في ه « حمامة السفح الشيخ الايجي ، وسيأتي ذكره في حرف الميم ، وبازي ... »
(٢) في ه ، ب « خليليّ »
(٣) ساقط من ه

وله نظم ايساغوجي ، نَظْمُه أدقُّ من رايق النسيم ، وأبدعُ ، بألفاظٍ تذكّر سامعها السلافةَ والنديم . وله في القهوة البُنّية مواقفُ ومشاهد . وذلك مع شيخ الاسلام الشيخ يونس العيثاوي الشافعي ، فإنّه كان يرى تحريمها . وكان الشيخ أبو الفتح يكاد يرى وجوبها . فحصل بينهما شقاقٌ طال أمدُه ، وتأجج حسدُه .

وحضرا مرة لدى قاضي الشام علي أفندي الشهير بقنلي ، وتباحثا فيما يتعلّقُ بالقهوة . وذكر كلٌّ منهما دليله . فظهر الشيخ أبو الفتح في البحث على الشيخ يونس حيث لم تكن أدلّةُ التحريم ناهضة . وشرع الشيخ أبو الفتح بعد ذلك في نظم مُقطّعاتٍ وموشّحاتٍ وقصائدَ في محاسن القهوة وبيان منافعها . ويقول في بعض موشحاته مشيراً الى الشيخ يونس العيثاوي .

أنا أفتي بمقتضى الظاهر ... أنها مغنم

ليت شعري من أين الماهر ... أنها تحرم ؟

وكتب بعض فضلاءِ عصره إليه سؤالاً فيما يتعلّق بحلّ القهوة وحرمتها ، ويطلب منه أن يُبيّن حكم الله فيها . فأجابه بجواب يعترفُ بحسنه الجميع . ومطلعُ السؤال :

ماقولُ مولانا الإمامِ الأوحدِ ... ومَنْ به في الشرع كلٌّ يقتدي

ومَنْ هو المحقّقُ العلاّمهْ ... المجتهدُ المدقّقُ الفهّامهْ

شيخُ الشيوخ رِحلةُ الطلاّبِ ... بحرُ العلومِ روضةُ الآدابِ

في حكمِ شُرْبِ القهوةِ البنّيّهْ ... بظاهرِ الشريعةِ العليّه

وما على مَنْ بالهوى حرّمها ... جهلاً ونارَ فتنةٍ أضرمها

وهَلْ له من شُبْهةٍ فتدفعُ ... أو حُجّةٍ في منعها فتُقْطَعُ

فَامْنُنْ علينا بجوابٍ جَزْلِ ... مُمَنَّعٍ[1] سهلٍ بقولٍ فَصْلِ

إذ أنت أولى مَنْ أجابَ السائلا ... وعَمَّ طُلَّابَ العلوم نائلا

لا زلت قوّاماً بحق العِلْمِ ... ورادعاً كلَّ جهولٍ فَدْمِ

مؤيّداً بالله والأملاكِ ... ما انتظمتْ كواكبُ الأفلاكِ

وأجاب بما هو الصواب . ولنذكر منه بعض أبياتٍ تدل على باقيها ، قال :

أقولُ واللهُ هو الموفّقُ ... وإنما به تعالى أنطقُ

يا سائلي عن قهوةِ البُنِّ التي ... كم من فتىً على هواها مَافتي

سألتَ عنها وبها خبيرا ... فاستمعِ التحقيقَ والتحريرا

واعلم على طريقة الإجمالِ ... بأنها من جُمْلَةِ الحلالِ

وأنْ حكم شربها الإباحهْ ... يثخن مَنْ حَرَّمَها جراحه

ويستحقُّ الخِزْيَ والنكالا ... لأنه[2] قد حَرَّمَ الحلالا

وهو كمن قد حَلَّلَ المحرّمَا ... يكفرُ قطعاً عند كُلِّ العُلَما

ثم قُصارى أمرِهِ أن كذبا ... وقال في القهوة قولاً عجبا

من كونها تُنْسَبُ للإسكارِ ... وشبهة التشبيه والإضرارِ

وها أنا أردُّ ما قد قالا ... رداً يُزيلُ الوهم والإشكالا

مبيّناً شبهتَهُ وغلطَهْ ... إن لم يكن محضُ العناد ورّطَهْ

---

(١) ه ، ب « ممتنع »

(٢) ه ، ب « لكونه »

أو ابتغاء شهرةٍ بين الورى   وسمعةٍ قدْ مَانَ فيها وافترى

وقال ما قد قاله رياء   كأنّه لم يقرأ الإحياء

فاسمع لما أقول يامستفتي   مقال حبْرٍ في العلوم ثبْتِ

ثم إنه بيّن خوّاص القهوة ، وما تشتمل عليه من المنافع ، إلى أن قال في خاتمة الجواب :

هذا جوابٌ حسَنٌ بديعُ   مُعْتَرِفٌ بحسنه الجميعُ

هذّبه بالسبكِ فكرُ ناظمِهْ   فجاء كالإبريزِ في معالمه

يكادُ من عُذوبةِ الألفاظِ   تشربُه مَسامعُ الحفّاظ

والحمدُ لله على إتمامه   مضمّخاً بالمسكِ في ختامه

وصلواته على خيرِ الورىٰ   محمد وآله أُسدِ الشرىٰ

وصحبه أئمّة الهدايَهْ   ومنقذ الخلقِ من الغوايَهْ

ما ألقتْ يدُ الجنوب الدِّيَما   ودارتِ القهوةُ بين الندما

وكان رحمه الله كثير الهجاء . واستمرّ بدمشق متولّياً منصب القضاء ومفتياً على مذهب مالك رضي الله عنه إلى أن توفّاه الله تعالى في سنة خمسٍ وسبعين وتسع مئة ، ودُفن في تربة مرج الدحْداحِ فوق النهر ، في مكانٍ خاصٍ معروف به إلى الآن .

وبالجملة فقد كان رحمه الله تعالى من محاسن الدنيا . ومات ولم يُعقب بذكر ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

٥٢

الشيخ أبو السّرور البكري

ابن الأستاذ العارف ، شمس العلوم والمعارف ، الشيخ محمد ابن الأستاذ [الـكامل][1] أبي الحسن البكريّ [الصدّيقي] |[2] رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وحشرنا في زمرة جدّهم تحت لواء سيّد المرسلين .

هو الشيخ الأصيلُ العريقُ ، ريحانةُ روض بني الصدّيق ، وغصنُها اليانعُ الوريق . نشأ في دولة والده الهُمام ، وحاز بها غاية الإجلال والإكرام[3] | .

ويُنْقَلُ عن الشيخ أبي السرور أنّه مال[4] إلى مجالس الأنس مع بعض الخواص على سبيل الاختصاص . وأمّا ميلُه إلى الصورِ الجميلة فهو ثابتٌ بلا اشتباه . وأهلُ مصر في صفاء العيش أشباه . فبينما هو صاعدٌ في درجات التعظيم ، موصوف بغاية الإجلالِ ونهاية التكريم ، مَدّتْ إليه يدُ الحدثان باعَها ، وطلبتْ منه الحياة فسمح بها وباعها . وذلك أنه طلع إلى بعض قرى مصر الموقوفة على جهاته فأضافوه سمكاً . وكان الوقتُ في غاية الحرارة ، فكأنّه ألقى في بدنه شرارة . فرجع إلى مصر

---

(١) الزيادة من هـ

(٢) من هنا الى قوله « ويُنقل عن الشيخ أبي السرور » ساقط من هـ ، ب . وفيها مكان الساقط ما يلي :

« ولد صاحب الترجمة في دولة أبيه الباهرة . وتربى في رياض الفضل والصلاح الناضرة ، وينقل ... »

(٣) ينتهي الساقط هنا

(٤) هـ ، ب « مائل »

محموما ، وقال قوم (٧٠ ب) : إنه مات مسموما . ففارق الدنيا في أوائل سنة ثمان بعد الألف من هجرة خير الأنام ، عليه من الله الصلاة والسلام .

وله أخٌ يُقال له أبو المواهب ، وهو الآن في قيد الحياة . لكنه تابعٌ دليل هواه ، لا يشتغل بشيء من العلوم ، ولا يطلب الفرق بين المنطوق والمفهوم ، وقد ترجمناه بالاستقلال ، وأنزلناه في منازل الإجلال . لكن العرق الطاهر في ذاته موجود . فلعله أنْ يرجع إلى الطريق ويعود .

أخبرني الوزيرُ السيّدُ محمد أمير الأمراء بدمشق في هذا التاريخ ، وهو من شهر رمضان من سنة تسع بعد الألف ، أنّ أبا المواهب هذا ليس من أرباب الرشاد ، ولا يميل إلى طريق التوفيق والسداد . والسيّدُ المذكور عارف بأحوال المذكورين لكونه بمصر حاكما في هذا الزمان . والله تعالى هو المستعان . والحمد لله على كل حال ، وإليه المرجع في جميع الأحوال .

٥٣

الشيخ أبو المواهب البكري

مولانا الشيخ أبو المواهب البكريّ ابن الأستاذ الشيخ محمد ابن الأستاذ الشيخ أبي الحسن البكريّ رضي الله عنهم أجمعين .

وُلد هذا الشيخُ أبو المواهب ودولةُ أبيه وريفةُ الظلال ، بديعةُ الجمال ، عديمةُ المثال ، وافرةُ الفضل والافضال . فنشأ هبةً من[1] ربه الكريم ، فكان أبا المواهب ، ونبغ من دوحته الطاهرة فجاء افتخاراً للمشارق والمغارب ، لما عنده من لطف الطباع ، ومن القريحة السليمة في التمثل والابداع . وهـذا البيت بارك الله فيهم ، من قوادِمهم إلى خوافيهم ؛ وذلك لمصادفةِ دعوة القطب الغوث لجدّهم الشيخ أبي الحسن ، بأن الله جلّ وعلا يباركُ في ذريّتهم ويجعلُهم أهلَ فصاحة ولسَن . وقد استجاب الله[2] دعوته للمذكورين سريعاً ، وسرت في ذريته سراية جعلت منهم كل لسان فصيحا . وهم بيتٌ كبيرٌ ، وفضلُهم شهيرٌ .

وقد ذكرنا عدة منهم في كتابنا هذا فَلْيُنْظَر كلٌ واحد في محله .

والشيخ أبو المواهب وإنْ لم يكن مشهوراً بين (٧١ آ) أهل مصر بالفضائل الكاملة ، ولم يتّصف بالأوصاف البديعة الشاملة ، وهو مع ذلك يجلس في موضع التصدير ، ويُلقي دروس التفسير ، من غيرِ تقصير . وينظم الشعر المليح ، ويُنشيء البديع الفصيح . ويكتب الرسائل البديعهْ ، التي حازت الحسنَ جميعَه . والغالبُ عليه الخلاعهْ ، وكلما سمع بذي نغمة

---

(١) ب « فنشأ هبة الله من ربه ... »

(٢) ه ، ب « استجيبت دعوته »

| حسنة |[1] أحبَّ قُرْبَه واستماعَه . ولذلك لم يصرف همّته إلى تحصيلِ العلوم والمعارف ، ولا وجّـه فكره إلى استحضار النكات واللطائف . لكنّ جبلتَه | جُبِلَتْ |[2] بالذات على الطبع الذي يرفّ كأنّه[3] عذبات الأغصان في زمن الربيع ، أو كأنه شكوى العاشق إلى خليله وهو به عليم [وله] سميع . وسمعتُ أنّ له هيئة في غاية القبول ، وأنّ جماله عند كلّ ناظرٍ مقبول . وقد وصَل إلينا من نظمه ، الصادر عن بديع فهمه ، مواليا وهو قوله :

بالله يا أثلاتِ بالنقا يهززن ... أغصانهن اخبريني لاجناك المزن

هل الظباء اللواتي حزن قلبي حُزْنْ ... بالامس جُزْنَ على الجرعا أم ما جُزْنْ

وله كلّ معنى حسن . وله من هذا القبيل شيء لطيف ، مستغن عن التوصيف والتعريف . فحفظه الله تعالى فهو خير الحافظين ، وأبقاه جمالاً للدنيا والدين | آمين آمين |[4] .

---

(١) ساقط من ه

(٢) ساقط من ه

(٣) ه « له »

(٤) ساقط في ه

٥٤

الشيخ أبو الجود البتروني الحلبي

هو الشيخُ المفتي الحنفي ، ووالده الشيخ عبد الرحمن البتروني .

وُلد الشيخ أبو الجود المذكور بمدينة حلب الشهباء ، ونشأ بها متلبّساً بخرقة العلم طالباً أن يكون معدوداً في العلماء ، لكنه توثّب وهو حصرم ، وتكبّر فوق قدره ، وتاه على أبناء نوعه . وطار إلى الدرجة العالية قبل استحقاقه لها . وأما فتواه في مدينة حلب فهي من مداهنة قضاة السوء على الحقّ . يَرِدُ إلى حلب بعضُ القضاة ثم يُعزل ، فيأتي إليه بعد عزله بأبّهة عظيمة : أما العمامة فتنازع القبّة كبراً ، وأما الأكمامُ فإنها تكنس في الطريق ماتمرّ عليه . وإذا مرّ في طريق رفع يديه من الجهتين ويستمر رافعاً لهما (٧١ ب) كل ذلك لتقبيل العوام لهما . فإذا رآه القاضي وارداً بهذه الهيئة استعظمه في نفسه . فإن كان القاضي جاهلاً زخرف عليه الكلام ، وموّه عليه في المرام . ويأخذ منه عَرضاً في أنه مستحق لمنصبِ الفتوى وأنّه من الفضل في الرتبة القُصوى ، وإن كان عالماً أعطاه ما يُعمي عينيه من الأموال فيأخذ منه عَرْضاً كذلك . ويُرسلُ العرض إلى باب السلطنة مع رجل بصير بأمور الدهر يُقال له ابن الاعمى ، ويرسل معه مالاً كثيراً وهديةً عظيمة . فيدخل على قوم غشام [١] ليس لهم فَهْم ولا اطلاع على حقائق الماهيّات ، ومعه العرضُ الذي يُسأل عنه صاحبه يوم العرض ، ومعه المالُ الذي يُعمي العيونَ ويَسدّ منافذ البصائر . فيُخرج حكماً بأنّ أبا الجود أهلٌ لمنصب الفتوى ، لا سيا وليس في حلب من أهلها من

---

(١) ه ، ب « أغتام »

هو عالمٌ بفقه الامام الاعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . فهذه الصورة في صيرورة أبي الجود مفتياً في مدينة حلب . فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

أخبرني أستاذي العلامة العمادُ الحنفي السمرقنديّ رحمه الله تعالى عنه قصة عجيبة تقتضي كمال جهله وقلة عقله ، وهي أنّ العماد كان قاطناً بحلب في مدرسةٍ يُقال لها العادلية فحضر الشيخُ أبو الجود صاحب الترجمة ، وجلس على باب حجرة فيها العماد ، وحضر إليه جماعة يقرأون عليه . فقرأ القارىء : ولا زكاة في آلة الحرب والكُتُب . ونطق بالكتب مضمومة الكاف والتاء على أنها جمع كتاب فيصير المعنى : ولا زكاة في كتب العلم ، لان العالم يحتاج إليها للانتفاع بها ، وما هي من عروض التجارة . فقال له الشيخ أبو الجود : غلطتَ إقرأ والكَتْب بفتح الكاف وسكون التاء على أنه مصدرٌ بمعنى الكتابة . أيْ ولا زكاةَ في آلة الحرب ولا في آلة الكتابة . فقال القارىء : يا مولانا ، وما آلة الكتابة حتى تُنفىٰ الزكاة عنها ؟ . وهل هي إلاّ الأقلامُ والدواة ؟ ثم تزايد بينهما الجدال حتى أدّى إلى الجلاد .

قال المولى العماد : فقلتُ لأبي الجود : يا شيخ ! الصوابُ (٧٢ آ) ما يقوله تلميذُك . إذ لا معنى لما قلتَه أنتَ ، إنما المرادُ نَفْيُ الزكاةِ في كتب العلم إذا لم تكن من عروض التجارة . قال فلم يجبني بغير الضحك . فتألمتُ من ضحكه وبالغتُ في الردّ عليه . فلما رأى مني الجدّ في الردّ ضحك وقال لجماعته : لأجل خاطرِ المنلا عماد نقولُ : يجوز الوجهان . على أن المراد الكُتُب جمع كتاب ، أو الكَتْب مصدراً .

وقال لي العماد المذكور : مَنْ أرادَ أنْ ينظر إلى رجلٍ مُركّب من الجهل والكبر | فلينظر [1] | إلى أبي الجود .

---

(١) ساقط من ه .

هذا ما كان قد ثبت عندنا بطريق اليقين ، لا بطريق التخمين .

ولكن أخبرني في هذه الأيام جماعةٌ ممن ليس لهم غرَضٌ ولا من عادتهم الكذب أنه تمرّن على الفتوى فصار له استحضارٌ حسنٌ في فروع الفقه ، حتى قرب من أن يكونَ له ملكة علميّةٌ لكثرة المراجعة والمطالعة بسبب الفتوى . والله تعالى أعلم .

وهو اليوم مقيمٌ في حلب على منصب الفتوى ، ومدرّسٌ بالمدرسة المقدّميّة بحلب[١] . فإنّ في الشام مقدميّة[٢] وكذا في حلب مقدميّة ، وكلتاهما وقفُ شمس الدولة عبد الملك بن المقدّم ، وَوَقْفُهما بدمشق قرية جسرين وقرية المحمّدية[٣] . وقد يرسل الشيخ أبو الجود وكيلاً يقبض له ما يخصّه من جهة مقدميّة حلب .

وله أخٌ يُقال له | الشيخ[٤] | أبو اليمن . وقد تولى الفتوى بحلب أيضاً . وقد رأيتُه بدمشق ذاهباً إلى الحج في سنة أربعٍ بعد الألف . وما تيسر الاجتماعُ به ، لكني رأيتُه من بعيد . والذي ثبت عندي من أخبار الأخيار أنّ أبا اليُمن خيرٌ من أبي الجود في الفضيلة العلميّة ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وقد بلغني من كثير من أهل حلب أنّ والدَهما الشيخ عبد الرحمن البتروني كان من الصالحين الواعظين ، وأنه كان سالكاً مسلك السلف في التقشف ، وقلةِ التكلف . وأنّ ولديه مخالفان لطريقته في أقواله وأفعاله . والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، في جميع الأحوال . والحمد لله على نعمه أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

---

(١) انظر عنها : الآثار الاسلامية في حلب ، لأسعد طلس . ص ٦٧

(٢) انظر النعيمي ١ : ٥٩٤ . والصحيح أن في دمشق مقدميتين ، جوانية وبرانية .

(٣) جسرين والمحمدية قريتان من قرى غوطة دمشق . انظر غوطة دمشق لكرد علي

(٤) ساقط من هـ

٥٥

الشيخ أبو اليُمْن البتروني الحلبي

مفتي حلب المحروسة على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه

اجتمعتُ به في حلب سنة سبع عشرة (٧٢ ب) بعد الألف عند رحلتي إليها في السنة المذكورة لاجل الاجتماع بحضرة الوزير الاعظم | حضرة[١] | مراد باشا في مُهِمٍّ يتعلق بأهل دمشق . وهو أخو أبي الجود البتروني ، لكن بينهما بونٌ بعيد وفرقٌ شديد .

فأين الثريّا وأين الثرى ؟ وأين الحسامُ من المنجل ؟

فإنّ ابا الجود أبى الجودَ ، وأبا اليُمن قبل اليُمْن .

فهذا بالتواضع في الثريّا وذلك بالتكبّر في الحضيض

وكان أبوهما صالحاً ، وبالوعظ لاهل حلب ناجحاً . وأتى الاب وذهبْ ، وما تلبّس من هذه الدنيا الفانية بفضةٍ ولا ذهبْ ، أستغفرُ الله الاّ ما كفى ، وعن الاحتياج إلى الخلق نفى . ونشأ أولادهُ للعلم طالبين ، وفي عُلوّ المنازل راغبين ، وكلٌّ في فلَكْ . وقال كلٌّ لاخيه عند طلبها : إن لم تكن لي فلك . ولم يزل أبو الجود يعلو إلى فتوى دمشق بتدريس المدرسة السلطانية السليمانية[٢] بميدانها الانيق ، عوضاً عن قصرها الابلق[٣] الذي له كلُّ مدحٍ يليق . وأخوه أبو اليمن هذا طَلَب

---

(١) ساقط من ه

(٢) هي المسماة في أيامنا بالتكية السليمانية . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٢٥ .

(٣) هو القصر الأبلق الذي بناه الملك الظاهر بيبرس واتخذه داراً للسلطنة وقد وصفه ابن طولون في ذخائر القصر (مخطوط) ونشر الوصف احمد تيمور باشا في مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٢٢

ونِعْمَ ما طلب . إلى أن نال فتوى حلب ، وأدرك منها غاية الارب . مع سلوك التواضع وحسن الادب . وذلك بعد ما اجتهد ودأب .

اجتمعتُ به في حلب عند توجيهي[1] إليها في سنة سبع عشرة بعد الالف في المنزل الذي نزلتُ به بحلب ، وهو المدرسة البهرامية[2] ، في جوار بيت نقيب الاشراف إذ ذاك ، وهو السيد محمد الرامْحَمداني من رام حمدان وهي قريةٌ من قرى أريحا . فرأيتُ الشيخ أبا اليمن المذكور في غاية ما يكون من اللطف وحُسْنِ الخُلُق وكمال الفضيلة التي لاتوازيها فضيلة من أقرانه . وأنشدني هذين البيتين قائلاً :

ذكر الشيخ محيي الدين ابن عربي في كتاب المسامرة حكاية عن ملكٍ حلّ به الشيْب ، ثم قال : أنشدني في هذا المعنى صاحبنا عليّ القفصي[3] :

وناذرةٍ بالشيْب حلّتْ بعارضي فبادرتُها بالنَتْفِ خوفاً من الحتفِ
فقالتْ : على ضعفي استطَلْتَ ووحدتي رويدك للجيش الذي جاء من خلفي

قلتُ : وأنشدتُه في ما يتعلّق بالشيب قولَ مَنْ قال [وأجاد في المقال[4]] :

سألتُ من الأطبا ذاتَ يومٍ خبيراً مِمّ شيبي ؟ قال : بلْغمْ
فقلتُ له على غيرِ احتشامٍ لقدْ أخطأت في ماقلتَ بَلْ غَمّْ

(٧٣

قلتُ : وهو الى يومنا هـذا ، وهو يوم السبت تاسع عشر رجب المرجّب من شهور سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، مفتي حلب ومدرّس

---

(١) ه ، ب « توجهي »
(٢) تسمّى اليوم جامع البهرامية . بناها بهرام باشا والي حلب ، في أواخر القرن العاشر . انظر : الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب لطلس ، ص ١٢٩
(٣) ه « القفطي » . واسم القفطي الوزير « علي بن يوسف » . وانظر آخر الترجمة
(٤) الزيادة من ه . وفي ب « قول من قال وأجاد »

المدرسة العادلية بها . والناسُ يذكرون عنه الثناء الجميل ويصفونه بكلِّ وصفٍ حميد جليل .

قلتُ : والقفصيُّ المذكور في رواية الشيخ عن صاحبه علي ابن محمد نسبة الى قَفْصة[1] بفتح القاف وضمها وسكون الفاء بعدها صاد مهملة مدينة بطرف إفريقية . منها مالك بن عيسى ، وابراهيم بن محمد المحدِّثان .

واصلُ والده من البترون وهي قرية من توابع طرابلس ظهر منها جماعةٌ والله تعالى أعلم .

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان بفتح القاف ولم يذكر الضم

٥٦

صاحبنا الشيخ أبو الطيب [الغزّي]

الماطرُ فهمُه من البلاغة بالغيث الصيّب ، الأصيلُ العريق . الخطيبُ المنطيق ، الغزيُّ العامريُّ الشافعيُّ القادري . ولد شيخ الإسلام البدر الغزّي ، صاحبُ التفسير المنظوم ، الجامع بين العلم والفَهْمِ ، والحلم والكرم ، والخطّ وتمييز المنطوق من المفهوم .

وأما شعره فهو في المحاسن غاية ، وأما لطفُه فهو النسيم إذا سرى روى عن زهرِ الرياض أصدق رواية . كتب إليّ ملغزاً في لفظ داء أعاذنا الله منه آمين :

يا إماماً راح بدراً كاملًا ... في سماء العلم زاد اللهُ فَضْلَهْ

وهُماماً ما نحاه قاصدٌ ... سائلاً إلاّ ويُعطىٰ منه سُؤْلَهْ

أيُّ شيءٍ يوجب الضعفَ كما ... يورثُ الصّحّة إذا ما زيد عِلّهْ

إنْ جَزَزْتَ المدَّ منه تلْقَه ... في مدىً لكن بحرفٍ زيد قبلهْ

وإذا ذيّلتَه أيضاً بما ... زدتَه فيه ابتداء فاسمُ خلّهْ

فشفاك الله منه أن يحلّـك لكن لا وقاه أن تحلّهْ

وبقيتَ الدهر بحراً زاخراً ... لو دَعَيا ألمعيّ الفَهْمِ رُحلهْ

قلتُ : فأجبتُه عنه مرتجلًا وأرسلتُه اليه خجلا :

سيدي لا زلتَ للقصّاد رحلهْ ... وإلى بابك ينوي الحاقُ رِحلَهْ

يا ابن من أنسى الذي | قد[1] كان قبله — وغدا في دهره للناس قبله

يا أبا الطيّب يا مَنْ فاته — في كمال ما حوى الفاضلُ مثله (٧٣ ب)

كلُّ مَنْ حاول إدراكاً لكم — صار بين الناس للتقصير مُثْله

جاءني من بحرك الدرّ الذي — هو فضلٌ ونظامُ الناس فَضْله

كلُّ مَنْ شاهد ما أبديتَه — قال هذا فاضلٌ أتقن فضله

لُغزكم أبدى الذي في خاطري — من سَقام حطّ في الأحشاء رَحْله

صيّر القلبَ له بيتاً ولم — أستطع عن ساحة الباطن نقله

شاقني والله قولٌ قلتَه — يورث الصحة إذْ ما زيد عله

كان داء وبما أودعتَه — فيه أضحى صحةً من غير علّه

عندما أوردني عين الصفا — أنهل القلب زلالاً ثم علّه

قد كساني ثوبَ عزٍّ سابغاً — عَدّه لا يترك الافضال عَلّه

لا برحتَ الدهر بدراً كاملاً — فيقول الناسُ فرعٌ فاقَ أصله

قلتُ : وأبو الطيّب المذكور درّس في دمشق | بالمدرسة[2] | القصّاعية[3] الشافعية . ثم إنه فرغ عن تدريسها للشهاب الفاضل الأمجد، الشيخ أحمد ابن المرحوم القاضي وليّ الدين ابن قاضي القضاة ولي الدين بن الفرفور الحنفي ، وقبض منه في مقابلة الفراغ نحو ستين ديناراً .

---

(١) ساقط من ه

(٢) ساقط من ه

(٣) انظر النعيمي ١ : ٥٦٥ ، وهي من مدارس الحنفية

وخطّه في غاية الجودة ، ونظمه في نهاية اللطافة .

ولكن عرض له عارضٌ سوداويٌّ اقتضى أنه طلّق زوجته وفرّق ثيابه على كثير من أصحابه . ويُقال إنهم حجبوا عنه ولده خوفاً عليه منه ، لأنهم سمعوا منه أنه يقولُ : لابُدّ من قتل هذا الطفل لأني أخاف أنْ تُفْعَلَ به القبيحةُ بعد كبره . وهو الآن محبوسٌ في بيتِ أبيه بالقرب من الجامع الأمويّ عند التوبة الكاملية [1] . ولكنه مع هذا الحال يكتب تفسير المولى أبي السعُود كتابةً صحيحة مليحة الى الغاية من غير نقصان ولا تبديل . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قلتُ : وكان الأديبُ الفاضلُ جامع أشتات الفضائل ، الشيخ درويش محمد بن أحمد بن طالوا قد نظم قصيدة في مدح أحمد الأنصاريّ القاضي بمصر والقاهرة يوم نظم المذكور للقصيدة المذكورة ومطلع القصيدة (٧٤ آ) :

فخرُ البلاد بأحمد الأنصاري   فخر العباد بأحمد المختار

فعارض القصيدة المذكورة الشيخ أبو الطيب المذكور وجعلها نعتاً في فضائل أمير المؤمنين أبي الحسن | عليّ [2] | رضي الله عنه .

والشيخُ أبو الطيّب المذكور يلقّب نفسه بالرضيّ ، لأن جدّه يُقال له رضيّ الدين . وقد أشار الى رد بيت في قصيدة ابن طالو المذكورة ، ولوّح الى كونه يلقّب بالرضيّ . وبيت الشيخ درويش آخره هكذا :

« تروي فنون ألشّعْرِ عن مهيارِ »

وبيت [الشيخ [3]] أبي الطيب :

صَدَحَتْ بها وُرْقُ الرضيّ فبالحرى   أن ليس تروي الشعرَ عن مهيار

---

(١) انظر النعيمي ٢ : ٢٧٧

(٢) ساقط من ه

(٣) الزيادة من ه

وما ذكرناه من غلبة الخلط عليه صدر في سنة خمس عشرة بعد الألف من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام .

قلتُ : وكتب الي متعطفاً على هذا اللغز . وصورةُ ما كتب ونقلتُه من خطّه ، وقد أرسله إليّ في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان من سنة عشرين بعد الألف — وأجاد فيما أفاد :

باسمه سبحانه ، أطال الله بقاء سيدي الشيخ نبيه الذكر ، رفيع القدر ، سعيد الجدّ ، أثيل المجد ، واحد العصر ، برغم الجاحد .

وما على الله بمستنكرٍ أنْ يجمع العالم في واحد

وقد قصدتُ حضرته الزاهرة ، في ما هو نتيجة الساعة وعفو البداهة ، نزعة أدبيّة ، ومحبة حسنيّة ، وذلك أمرٌ مقصورٌ على سيدي الشيخ حرس الله مجده القيام بأعبائه ، ومحجّب هو المستقِلّ بإبرازه ، من منيع خبائه .

والناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ وواحدٌ كالالف إن أمرٌ عنا

فأقولُ بلسان المستفهم العاجز ، لا بلسان البارز المبارز : ما جمادٌ إذا نكس تحرك ، وإذا زاد نقص . يُكْسَى فيعرى ، ويموت فيحيى ، يؤذَّن لنفاد عمره ، ولا يُصلَّى على قبره . يُبعث لانصرام الزمان ، ما اختلف الملوان ، ملازمٌ للصلوات وهو دائمُ الحدث ، ولابسٌ للزنّار غير مكترث . معتدل السير ، سريعُ الخُطا ، وربما ضَلّ وهو أهدى من القطا . يُنجد ويَغور مافار منه التنّور . (٧٤ ب) يشبع ويجوع ، ويأخذه الهجوع ؛ فإنْ نُبّه قامَ ، وإنْ تُرِكَ نام ، وهو ملازم للقيام ، ذو صيام وغيرُ ذي صيام . صاحبٌ مصحوب ، راكبٌ مركوب . قائمٌ جالس ، ساكتٌ نابس . فصيحٌ أعيا من باقل ، يُعقَلُ عنه وهو غيرُ عاقل . حيَّةٌ برأسين ، ومعاقرة بين كأسَيْن ، في زجاجة الزجاجة ، سيّالة المجاجة . هو واحدٌ بل اثنان بل ثلاثة ،

مزيّن بثلاثة ، وفيها ما لا يعد ولا يحُصى ، وهو على أنه محصور غير محصول ولا مُستَقصى .

أنعموا بالجواب ، ولجنابكم الثناء المستطاب ، والدعاء المستجاب جعل الله سعيكم مشكوراً ، وقولكم مبروراً . ورزقنا الحجّ في ركابكم في هذا العام ، والسلام . | الحقير ابن الغزّي[1] | .

واللغز المذكور في زجاجة الرمل التي تُعلم بها الأوقاتُ وتُعلم به حدود الميقات .

وهذه صورة الجواب :

بعون الله الملك الوهّاب . سائلاً من ربه جل وعلا ، إنّه لا يضيع أجرَ مَنْ أحسن عملا ، أنْ يُمطر سحائب فضله المدرار ، وأن يطلع بدر منّته مُشْرِقاً بساطع الأنوار . على منازل المولى الفاضل ، صدر صدور جميع الأفاضل ، بقية السلف القديم . وواسطة عقد الخَلَفِ الكريم ، ممطر أنواء[2] السحاب الهامي ، بانياً مباني أعلام الكمال السامي . محمد الرضيّ ، الشهير بأبي الطيّب الغزيّ العامريّ الأشعريّ الشافعيّ القادريّ ، حرس الله مهجته ، وأدام في صدور المحافل بهجته ، ما امتدّ مداد ، ودام إمداد . آمين .

ثم إنّ الفضل ما زال عنه مرويّا ، وظمآن الطلب قد رام من غيث غوثه ريّا ، شنشنتُه موروثة ، وعادة عن الصدق مبعوثة . وقد جبر هذا المنزوي في كِسْر بيته كسيرا ، وأسدى اليه من جَوْد جوده لطفا كثيراً .

وللشيخ أبي الطيب المذكور :

صادقتُه والحسنُ حِلْيَتُهُ كالريم لا رعشاً ولا قُلبا

---

(١) ساقط من ه ، ب

(٢) ه « الأنواء »

أهوى لتهنئتي فمدّ يداً وَفْق الهوى وتناول القلبا

وله :

لسرّ حبيبي مَكْمَنٌ من جوانحي تمنّع أن تدنو إليه المباحثُ (٢٧٥ آ)

تغلغل مني حيث لا تَستطيعُه كؤوسُ الندامى والأنيسُ المحادثُ

وأرسل[١] اليّ حضرةُ الشيخ المذكور هذه القصيدة الفريدة ، الجامعة للدرر النضيدة ، في يوم الاثنين سابع شوال من شهور سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، عليه من الله أفضل [الصلاة][٢] التحية . وفيها اشارة الى الشيخ سعد الدين ابن الشيخ سعد الدين لما انتصر على أقاربه بعد قتالٍ ونزاع . وكان الفقيرُ كاتب الحروف له به بعض اجتماع ، أدّى الى مساعدة مني طلباً للثواب | من الملك الوهاب[٣] | . فإنه جلس على سجادة المشيخة السعدية بعد أخيه الشيخ محمد صاحب المكارم الحاتمية . وكان جلوسه بحقٍ ، فأراد ابن أخيه الشيخ كمال الدين ابن الشيخ ابراهيم أن ينازعه بعد الجلوس ، واستقرار النفوس . فلم يكن نزاعه مفيداً ، ولا رأى الناسُ كلامَه سديداً ، لاستقرار عمّه ونفوذ سهمه . وكان الوزيرُ الأمجد الحافظ أحمد ، حاكماً بولاية الشام . فكان الشيخ محمد قد سلّم أخاه الشيخ سعد الدين المذكور في حياته السجّادة والأعلام ، فشهد وشاهَد الاستخلاف ، وعامل الشيخ سعد الدين بالانصاف ، وأمر بانقطاع المشيخة الكاملية ، لكونها حادثة غير موافقة للطريقة السعديّة ، وذلك في أواسط شهر رمضان من شهور سنة عشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها ألف ألف تحية .

(١) في ﻫ ، ب « هذه القصيدة الفريدة ، الجامعة للدرر النضيدة أرسلها اليّ حضرة الشيخ ابو الطيب المذكور في يوم الاثنين ... »

(٢) من ﻫ ب

(٣) ساقط من ﻫ

نَهْنِه دوالــح جفنِك المقروحِ وأرحْ طلائح قلبك المجروحِ
ودَعِ الهوى طَلْقَ العنان لأهله وَاْرْبَأ بنفسك عن رباه الفيحِ
فلربّما ضاقَ الفضاءُ ولا هوىً ولربّـما سُدَّتْ مها في الريحِ
كم ذا تبيتُ مُسَهّداً ترعى السُّها متململاً مِنْ لاعجِ التبريـحِ
كم ذا تصدُّ عن النصيح عمايةً وترى وليّ النصح غيرَ نصيحِ
ومُمَنَّع كابنِ الغزالة دونه غابا حِمىً من ذُبّـلٍ وصفيحِ
لم يعتلقْ مُضْناه منه بزَوْرَةٍ تشفي ، ولا من فتكه بـِريـحِ
لو شئتُ لاشئتُ المعادَ الى الهوى لرأيتني بالروحِ غيرَ شحيحِ
ورأيت آرام الصريم سوانحاً في مجلسي وصواره في سوحي
ورأيتني ضمّتْ عليّ متنسّكٍ متعفّفٍ حين اللقاء كشوحي
لكن صحا قلبي وأقصر باطلي ولزمتُ وِرْدي مُذْهجرتُ صبوحي
وقد اعتزلتُ عن الأنام ولم اقل يوما بتحسينٍ ولا تقبيـحِ
ورفضتُ قول الشعر إلا نادراً وقصدتُ نحو الذكرِ والتسبيحِ
للشيخ سعدِ الدين حالٌ باهرٌ وخوارقٌ تأتي بكل صريحِ
لله درُّ فؤادِه المعمورِ مِنْ متمكن في صدره المشروحِ
ضاهى أخاه البحر أوّل أمره[1] هذا وربِّ العرش خيرُ فتوحِ
ولكم كراماتٍ له لما بدت كالبدرِ كانت في الظهور وبوحِ

---

(١) ه : « مرة » .

وبنصرِ سيّدنا له وقيامه   معه ترجّح فوقَ كُلِّ رجيحِ
أعني الإمامَ الأوحدَ الحسنَ الذي   بصفاته يزدان عقد مديحي
العالم اللج الذي أفكارُه   تأتي بكل مليحةٍ ومليح
كشاف جونِ المعضلات اذا انبرتْ   تعتاض بالتنوير والتوضيح
علامة العلماء سعد زمانه   في شرحه التلخيص والتلويح
وله اليدُ الطولىٰ بحسن النقد في   كلِّ العلومِ وجودةِ التنقيح
ينتاب مشتجر الخلاف بفكره   فيميزُ راجحه من المرجوح
وإذا رأىٰ الأقوال غُفْلاً زانها   بتداركِ الترجيح والتصحيح
أعيَتْ مزاياه وحسنُ خلاله   وكماله المحسودُ كلَّ فصيحِ
اني لأشكر فعله وجميله   بلسان حمد فايح التصريح
حسب البديهة فيه لا متقصيا   ما ينبغي لعلاه بالتمديح
مولاي كن صدر الصدور على المدا   في عصرنا [لك] لجسمه[1] كالروح
واسلم ودم ما فتقت ريح الصبا   فارات رنج او نوافج شيح[2]

الحقيرُ ابو الطيّب الغزيّ العامريّ .

---

(١) ه : « جسمه » .
(٢) ه : « فأدارندآ أو نوافح شيح » .

٥٧

ابو سعيد بن صنع الله التبريزي الكلون كناني[1]

من أعمال تبريز ، رحمه الله تعالى . ولد في تبريز سنة عشرين (١٣١ب) وتسع مئة . وقرأ على المولى غياث الدين منصور وفاق ، واراد الخروج الى جانب الروم مهاجرةً من حكم طهماسب المبتدع . فشعر به فعذّبه مع عمه ، وصادرهما بعشرة آلاف دينار ذهباً ، فباعوا املاكهما في ذلك ، ولم يحصل المبلغ المذكور . وهرب الشيخ ابو سعيد الى اردبيل ونجا بذلك ، لأن القانون أن مَنْ هرب اليها ينجو ، ولو كان مجرما لكونها مقبرة أجداد طهماسب . ولما غزا السلطان سليمان ديار العجم تخلّص مع عمه وخرجا مع السلطان المذكور الى بلاد الروم . فمات عمه بديار بكر سنة تسع مئة وخمسين ، وذهب الشيخ ابو سعيد صحبة السلطان الى حلب . ولم تزل علوفته تترقى الى ان صارت مئة عثماني ، وحج في سنة ست وسبعين وعاد . وكان عالماً فاضلاً كريماً جواداً تقياً ، ولكن كان في غاية الوسوسة حتى انه يصافح الناس ويغسل يده من مصافحتهم ، ولم يتأهل في عمره . ومات بقسطنطينية في سنة ثمانين وتسع مئة . ودُفن بحضرة الشيخ ابو الوفا رحمه الله تعالى .

---

(١) هذه الترجمة ساقطة من س ، أضفناها من ه ، ب

٥٨

الشيخ ابو بكر المغربي

هو الشيخ أبو بكر بن مسعود المغربيّ المالكيّ .

اخبرني من لفظه بدمشق في منزلي بها سنة إحدى وعشرين بعد الألف أنّ مولده بمدينة (٧٦ آ) مراكش . ونشأ بها وحفظ بها القرآن . قال لي إنّ شهرته بمراكش ببيت الوردي .

ورد إلى دمشق من مصر أوّلاً في سنة ثلاث وتسعين ، ثم رجع الى مصر ، وأقام بها الى سنة ثلاث بعد الألف ، ثم ورد الى دمشق ، وألقى بها عصا الترحال ودرس بها في المدرسة الشرابيشية لأنها مشروطة للمالكية .

وأخبرني أنّ مولده في سنة أرْبَع وستين تقريباً .

قال : وفي تلك السنة توفي مولاي محمد الشيخ الشريف الحسني سلطان افريقية ومراكش وفاس والسوس الأقصى .

وأخبرني أنّه قرأ على الشيخ حسن الطناني في الأصول ، وهو الآن مفتي المالكية بدمشق المحروسة .

قال : ومعظم قراءته على الشيخ سالم السنهوري المالكي المتحدث مفتي المالكية .

وفي هذا التاريخ ، وهو سنة إحدى وعشرين بعد الألف ، جلس في الغزاليّة بجامع بني أميّة ، ويفتي بها ويدرس . وقد تزوج بها وتأهل ، وعليه في مذهب الامام مالك المُعَوّل .

٥٩
الشيخ أبو بكر الصهيوني

هو المنفرد بعلم النجوم في زمانه ، الحائزُ قصب السبق في ذلك بين أقرانه .

أصلُ والده من صهيون . وكان من آحاد الناس . فنشأ ولده هذا ذكياً فاضلاً عالماً كاملاً . قرأ على علماء عصره . ودرس في غالب العلوم على فضلاء مصره ، لكن تميّز على الجميع في علوم الأفلاك ، وكان له في ذلك غاية الادراك ، ومن جملة مشايخه شهابُ الدين أحمد الطيبي الكبير المتقدم ذكره في ترجمته من جهة المشط الذي طلبه منه فأرجع اليه .

وكان غالباً مقيّداً في أحواله بأحكام النجوم ولذلك نسبه بعض أهل عصره إلى قلة التحفظ والتقيد بالشرائع . والله أعلم بحقيقة حاله .

وفي أواخر عمره سافر إلى باب السلطان بقسطنطينية بطلبٍ من صاحب الرصد تقيّ الدين بن معروف الذي رام أن يبني الرصد بقسطنطينية في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد بن سليم العثماني ثم عدل عنه لأمورٍ بطولُ شرحُها . طلبه ليساعده على بعض ما يحتاج اليه الرصدُ (٧٦ ب) من مسائل النجوم لشدّة مهارته في ذلك . ولما بطل عمل الرصد أخذ تدريس الناصريّة البرّانية بصالحية دمشق . ورجع الى دمشق فما تصرّف في التدريس المذكور ، لأنّ صاحبه كان الشيخ أسد الدين التبريزي الآتي ذكرُه إن شاء الله تعالى .

وكان الشيخُ من العلماء الذين يرجع اليهم الطلبةُ في تحقيق العلوم . ونال في آخر عمره بعضَ ثروةٍ من بعض الحكام الذين لهم اعتناء بالنظر

في أحكام النجوم . ولما أثوى قال لصاحبه الشيخ محمد الشغري الكتبي :
سبحان الله ، قرب الرحيل من الدنيا لأنها أقبلتْ ، ومن عادتها أنها إذا أقبلتْ ، أدبرَتْ . وكان كذلك فإنه ما أطال بعدها . ولما مات رثاه صاحبُنا الأديبُ العنايابي السابق ذكره بقصيدةٍ داليّة حسنةٍ . وأشار فيها الى مهارته في علم النجوم وهي قوله :

عزّ البقاءُ لغيرِ الواحدِ الصّمدِ وما سواه فمدفوعٌ إلى أمَدِ
فأعْجَب لمَنْ عيشُه ظَنٌّ وموتته حَتمٌ وتلقاه كالمسرور بالنكد
مازلتُ في كمدٍ من حين مرّ على سمعي بأنْ خُلقَ الإنسانُ في كَبَدِ
دنيا وإنْ لم تكن مثلَ البعوضة في التـ ـحقيرِ يُدمي قذاها مُهجةَ الأسدِ
والناسُ في هذه الدنيا مآربُهم شتى وهم من سبيل الموت في جدد
فعدّ من آدمٍ كم باد من عددٍ لم تُغنِهم كثرةُ الأموالِ والعُددِ
سقى المنون لبيداً كأسَ أربدَ وانـ ـتضى للقمان ما أمضاه في لبدِ
مادار تخليدُ هذي الدار في خَلَدي سَلْ دارَ ميّةَ بالعلياء فالسندِ
وكم قصورٍ عوالٍ لا قصورَ بها أقوَتْ وطال عليها سالفُ الأمد
ماردّ عن ماردٍ كفَّ الردى غمد بل ردّ غمدان سيف منه في غمد
ياراصدَ النجمِ يرجوسعدها ويخا ف النّحسَ منها وعينُ الموت بالرصدِ
لابدّ أن يغمس المقدارُ مديتَه في لبّة الجدْي أو في جبهة الأسدِ
تخون كفُّ ثريّاها خواتمها وتسلم العقد جوزاها إلى البدد

ويجمع القمران النيّران فلا مساء ليلٍ مضى يأتي بصُبح غدِ (٧٧

لهفي عليك أبا بكرٍ إذا احتجب الـ ـهلالُ للصّوْمِ واحتاجوا إلى العدد

لهفي عليك لتقويمٍ بَرَعْتَ به فاحتاج بعدك للتقويم من أودِ

قد كنتَ قِمّت بعلم النّجم منفرداً بطالعٍ فيه بالإسعاد منفردِ

تبكيك بالنوء أحداقُ النجوم فلا مِرّيخ عينٌ قد احمرّتْ من الرمدِ

فكلُّها لك طرْفٌ جدٌّ منسكب وكلُّها لك قلبٌ جدُّ متقدِ

لو كان للشمس حكم في تصرفها غابت وبعدك لم تطلع على أحد

وكان خاطري يعتقد أوّلاً أنّ الشيخ أبا بكرٍ المذكور لا يحُسِنُ من العلوم إلاّ مايتعلّقُ بالنجوم ، باعتبار ماهو مشهور بين الناس . حتى اجتمعتُ به في مكانِ الطائفة المعروفة بالمَوْلَوِيّة بدمشق[1] ، وطال به المجلسُ ، حتى تجاذبنا معه كثيراً من أهدابِ العلوم في فنون شتّى . وكان يتكلّمُ فيهـا بكلامٍ حسنٍ محرَّرٍ مُهَذّب . فعلمتُ أنّه من الذين حقّقوا مشكلات المسائل ، وحرّروا معضلاتِ الدلائل ، غير أنّ شهرتَه بالنجوم قد غلبتْ على بقيّة العلوم . وكان الغالب عليه الرياضة والتقلّل من المعيشة . ومات ولم يُعْقب ، بل أظُنُّ أنّه ما تزوج . وكانت وفاته في سنة ثلاث وتسعين وتسع مئة من الهجرة النبويّة على مهاجرها الصلاة والسلام ، وعلى آله وأصحابه الكرام .

---

(١) هو التكية المولوية في شارع النصر اليوم مقابل المحطة الحجازية . بنيت سنة ٩٩٣ هـ . انظر : الباشات والقضاة لابن جمعة . (سنة ٩٩٣)

٦٠

الشيخ أبو بكر الذبّاح
الحنبليُّ الصالحيُّ الدمشقيُّ

هو الشيخ الذي ثبت صلاحُه ، وتقرّر فلاحُه ، وحَسُنَتْ أحوالُه ، وصدقت أقوالُه . كان على أسلوب المتقدّمين في سلوكه ، لم يَمِل من الدهر الى ملوكه ، بل الى فقيره وضعيفه وصعلوكه . اجتمعتُ به في صالحية دمشق في حدود سنة خمس وسبعين وتسع مئة . وكان ابتداءُ الاجتماع به في المدرسة العمريّة[1] ، لأنه كان إمامها ، وكانت له حجرة بها . وكان يأتي اليها من بيته في الثلث الأخير من الليل ، فيُشْعِلُ سراجه من قنديل المدرسة . ويستفتحُ في قراءة القرآن العظيم الى وقت الصلاة . فيقومُ ويصلّي بالناس . ثم يرجع الى حجرته ويشتغلُ بالأوراد الى طلوع الشمس ، فبعد ارتفاعها يصلّي الضحى ثم يسير الى المدرسة دارِ الحديث بالصالحيّة أيضاً ، فيدرّس بها فقه الإمام أحمد رضي الله عنه ، وغير ذلك من نحو حديث ونحوٍ .

قرأتُ عليه بالمدرسة المذكورة « الأذكار » للإمام النووي ، رضي الله عنه ، وانتفعت بعلمه ودعائه .

وكان كثير التغفّل فيما يتعلق بأمور الدنيا بحيث أنه كان يسألُ غالبَ تلاميذه كل يوم عن أسمائهم ، ومن أي بلد هم .

وأظنُّ بل أتحقّق أنّه كان صاحب درجة كبيرة من الولاية . شهدتُ

---

(١) انظر النعيمي ٢ : ١٠٠ ، وهي من مدارس الحنابلة .

له كرامة وهي أنّه كان يترك السراج مملوءاً بالزيت في حجرته العمريّة كما ذكرنا ليتلو القرآن عند تدومه آخر الليل . وكان الفأر يأكل الزيت والفتيلة ، وكان الشيخُ رضي الله عنه يُظْهِرُ التألّم لذلك . فقال لي يوماً : أنا أنذرت الفئران . فإن استمرّوا على الفساد قتلتُهم . فبعد أيام دخل الحجرة فوجد بها أكثر من عشرة من الفئران قد ماتت . فقال : سبحان الله أنذرتها فأبت إلاّ الفساد ، فأهلكها الله تعالى بفسادها . ولقد رأيت الفئران وأصحابُه يُخرجونها ويُلقونها واحداً بعد واحد .

وكان وكيله[1] في مصالح دنياه الشيخ أبو بكر بن زيتون ، وكان يأكل من ماله كثيراً ، وكان يدعو عليه ، فلذلك ترى ابن زيتون المذكور مذموم السيرة عند غالب الناس بعد أن كان صاحب حالٍ حسنة . نعوذ بالله تعالى من الضلال بعد الهداية ، ومن الخسران بعد العناية .

وكتب الشيخ أبو بكر كثيراً من نسخ الفتوحات المكيّة للشيخ محيي الدين بن عربي ، وكتب غير ذلك كثيراً . وكانت معرفتُه بالعلم الروحاني مقطوعاً بها من غير شبهة ، وقفتُ له على مجموعٍ بخطّه فيه نفائسُ الفوائد ، وكتب في آخره : كتبه أبو بكر بن ابراهيم الحكيم الذبّاح الحنبليّ .

ومن جملة ما كتب فيه من الفوائد ما نصه :

قال ابن خلّكان : ومما جُرّب لدفع النوازل :

كُنْ عن همومك معرضاً وكِلِ الأمورَ الى القضا(٢٧٨)

وابشر بخيرٍ عاجلٍ تنسَ به ما قد مضى

فلربّ أمرٍ مُسْخِطٍ لك في عواقبه رضا

(١) ٥ « وليّه »

ومن جملة مارأيتُ فيه من الفوائد أيضاً ما صورتُه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، سُئل الشيخ الامام علاّمة الأنام مجد الدين الفيروزابادي ، صاحب القاموس رحمه الله تعالى عمّا صورته :

ما قولُ السادة العلماء شدّ الله بهم أزرَ الدين ، ولَمّ بهم شعثَ المسلمين ، في الشيخ محيي الدين ابن عربي وفي كتبه المنسوبة اليه ، « كالفتوحاتِ » و « الفصوصِ » هل تحلّ قراءتُها وإقراؤها ، وهل هي من الكتب المسموعة المقروءة أم لا ؟ أفتونا مأجورين جواباً شافيـاً لتحوزوا جزيلَ الثواب من الله الكريم الوهّاب .

فأجاب بما صورته :

اللهم أنطقنا بما فيه رضاك . الذي اعتقدُه في حال المسئول عنه وأدينُ الله تعالى به أنّه كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً . وإمامَ التحقيق حقيقةً ورسماً . ومُحيي رسوم المعارف فعلاً واسما . اذا تغلغل فكرُ المرء في طرفٍ من بحده غرقت فيه خواطره فهو عباب لاتكدره الدلاء ، وسحاب تتقاصر عنه الأنواء ، كانت دعواتُه تخرق السبع الطباق ، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق . وأني أصفُه وهو يقيناً فوق ماوصفتُه ، وناطقٌ بما كتبته ، وغالب ظني أنّي ما أنصفتُه كما قيل :

وما عليّ اذا ماقلتُ معتقدي   دع الجهول يظنّ الجهلَ عدوانا

واللهِ واللهِ واللهِ العظيمِ ومَن   أقامـه حجـةً لله برهانا

إنّ الذي قلتُ بعضٌ من مناقبه   مازدتُ الا لعلّي زدتُ نقصانا[1]

وأما كتبُه ومصنفاتُه فالبحارُ الزواخرُ ، التي جواهرُها لكثرتها

---

(١) نقل صورة هذا السؤال المقّري في نفح الطيب في ترجمته لابن عربي .

لا يعرف لها أولٌ ولا آخر . وما وضع الواضعون مثلها ، وأنما خص الله تعالى بمعرفة قدرها أهلَها . فمن خواص كتبه أنه (٧٨ ب) من لازم على مطالعتها والنظر فيها انشرح صدره لحلّ المشكلات وفكّ المعضلات والحمد لله وحده .

وفيه فوائد عظيمة ، وخيرات عميمة . أعرضنا عن استقصائها خوف الاطالة ، وخشية الملالة .

واستمر على ماذكرناه من الإفادة والعبادة إلى ان توفاه الله تعالى .

٦١
الشيخ أبو بكر الجوهريّ

صاحبنا الشيخ أبو بكر تقي الدين الجوهريّ ، المتقدم ذكر أبيه الشيخ أحمد الجوهري في حرف الهمزة .

هو أبو بكر بن أحمد بن علاء الدين بن محمد بن محمد بن عمر بن ناصر الدين بن عمر بن عليّ بن ناصر الدين بن منلا عليّ البهرام آبادي نسبة الى قرية من قرى أصفهان [1] وجدُّهم منلا علي رجلٌ جليلُ القدر كان في بداية أمره صَدْراً عند أحدِ ملوك العجم والصدرُ عبارةٌ عن قاضي العسكر . ثم إنه رمى المنصب المذكور وانقطع الى الله تعالى مشتغلاً بالعبادة في زاويته ببهرام آباد إلى أن توفي الى رحمة الله تعالى .

وأوّلُ مَنْ وَرَدَ من هؤلاء الجماعة الى دمشق منلا محمّد الشهير بشيخ زاده . وكان قدومُه الى الشام في سنة أربع وثمانين وسبع مئة . وكان قد صحب معه جواهر ومعادن ، فمن ثَمّ اشتهر البيتُ كلّه ببيت الجوهري . وفي دمشق محلة بالقرب من البيمارستان النوري تُسَمّى حارة حَجَر الذهب [2] ، فعمر بها بيوتاً كثيرة ، وبعضُها مقيم إلى الآن في يد أولادهم .

ولم يزالوا يتناسلون إلى أن وصلوا إلى الشيخ أحمد الجوهري والد صاحب هذه الترجمة المذكورة في حرف الهمزة .

وأمّه بنت المولى بدر الدين بن حسام الدين التبريزي الجوهري .

---

(١) لم يذكر ياقوت هذه القرية .

(٢) انظر مخطط دمشق القديمة لنا .

| وكان بدر الدين هذا من أفاضل الناس . وكانت له معرفةٌ بصناعة القماري اللطيفة ، حتى إنّ القماري الثلاث التي هي فوق محراب الجامع الأموي من صناعته . وكان له (٧٩ آ) حظٌ عظيمٌ(١) | . ولمّا ورد المولى عبد الرحمن الجامي الى الحج أنزله الملاّ بدر الدين المذكور في بيته بدمشق وأقام عنده أياماً .

وأما صاحبُ هذه الترجمة الشيخ أبو بكر المذكور فإنّه طلب العلم في بداية أمره [بها](٢) . ونشأ في وصاية عمّه الشيخ محمد الجوهري ، لأنّ والده مات وهو صغير . وله إخوة سيأتي ذكرُ بعضهم إن شاء الله تعالى . وكان قد قرأ عليّ وتخرج لديّ ، وكانت قراءته في « شرح الشذور » لابن هشام ، وتردّد الى مصر كثيراً وقرأ على علمائها ، وحضر دروسهم . وهو الآن يتعاطى بعض المتاجر بإرسال بعض البضائع الى أخيه الشيخ حسن بمصر ، ويُلازم حضور دروسنا ، وله الذكاء الكامل ، والكرم الشامل .

وله نظمٌ كثير ، وإنشاءٌ ماله نظير . فمن نظمه هذه الأبيات يُناظر بها قصيدة الملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي . ومطلع قصيدة الملك قوله :

عهدُ الصِّبا ومعاهدُ الأحبابِ   درستْ كما درستْ رقومُ كتابِ

وأبياته قوله :

أمِنَ النّوى أمْ فرقة الأحبابِ   هَطَلَتْ دموعُكَ مثلَ هَطْلِ سحابِ

أمْ من زمانٍ جارَ في أحكامِهِ   حتى استطالَ على ذوي الأحسابِ

أم من تذكرِ معهدِ الأحبابِ أمْ   من ذِكْرِ خلاّنٍ به وصِحابِ

---

(١) ما بين الخطين القائمين ساقط من ه

(٢) الزيادة من ه

أفصحْ فشجوُكَ قد أثار بلابلي ورمى الفؤاد بسهمه الصّياب
وأعاد في ذكري النقا مع جيرة كانوا نهايـةَ مقصدي وطلابي
عفَتْ رسومُ طلولهم وتقوّضَتْ تلك القبابُ ولات حين قباب
ومحت رياحُ البَيْنِ أربُعهم كما مُحيتْ سطورٌ من طروس كتاب
ولقد وقفتُ على الربوع مسائلاً يوماً ولم تسمح بردّ جواب
عن جيرةٍ كانوا بها فأجابني هام يناغينا عقـاب غراب
سفهاً رجوتُ بأن أردّ لياليًا سلفتْ لنا أيام عصر شبابي
فأسلت[1] دمع العين من آماقها فجرى كوَدْقِ العارضِ السكّاب
وذكرتُ أيام الشباب وملعبي بين القباب وجمع الأتراب (٧٩ ب)
ومقامنا بالاجرَعَيْن وبالنّقـا مثوى الحبائب زينبٍ ورباب
فأجاب نطقُ الحال عنهم مُعرِبًا والعمرُ قد ولّى بحثّ ركابِ
تبغي دنوّ الدارِ بعد بعادها هَيْهاتَ أن يرتدّ بعد ذهاب

وله من أبيات فيها تفريـع :

وما أمّ أفراخٍ تمزّقنَ بالفلا بسطوةِ نسرٍ كاسرٍ بالمخالب
وقد مُنعتْ من أن تراهُنّ واغتدتْ تنوحُ وتشكو من صروفِ النوائب
بأوجعَ منّي عند وشكِ رحيلنا وحثّ المطايا في الفلا بالحبائب

---

(١) م « فأسبلت » ، س « فأرسلتُ » .

وكتب اليَّ هذه الابيات يسألني فيها المسيرَ الى بستان كان معهوداً لسيرنا :

أمولايَ هلْ مِنْ عودةٍ لجلوسنا على روضةٍ غنّاء كلّلها الفلُّ
ومن فَوْقِنا صَدحُ الحمام مغرداً على أثلاتٍ طال من تحتها الظِلُّ
وقد سال ما بين الرياض جداولٌ كدمعِ مُحبٍّ حين فارقهُ الخِلُّ
نبثُّ شكاياتِ الغرامِ بنشأةٍ تفوقُ غرام العابرين وإنْ جلّوا
فَدُمْ سيدي في عزّةٍ بعد عزّةٍ ولا زال منهلاً بأوطانك الوَبْلُ

وقد أجبتُه مراعياً للوزن والقافية بقولي :

لأمرك قد لبّيتُ يا من له الفضلُ وأهلاً بما قد رُمْتَ يامن هو الأهلُ
يميناً لقد شوّقتني نحو روضةٍ لدمعي على حافات أغصانها وَبْلُ
ومالت بها الأغصانُ تحكي معاطفاً لمن وصلُه سعدٌ ومَنْ هجرُه قَتْلُ
يميل على ضعفِ المحبّ قوامُه بلينِ اعتدالٍ ماله أبداً عَدْلُ
يخاطبني أهلاً وسهلاً لدى اللقا وما وصلُه والقربُ من حبه سهلُ
أناجيك في تلك الرياض عن الهوى وتسكب دمعاً طلّه أبداً هَطْلُ
وأبدي الذي في خاطري من صبابةٍ لقلبي بها عن كلّ اشغاله شغلُ
ولو لم تكن خِلّي لما كنتُ شاكياً غرامي ولكنْ كلُّ صبٍ له خِلُّ
لديك من الحبّ الذي في جوانحي أفانينُ حبٍّ مالها أبداً نقلُ
فنّي ومنك اليوم بثُّ شكايةٍ لها لَهَبٌ في وسط أحشائنا تغلو (...

فقل لي بحقّ الله ما ذا جنيتُه ... وعقد وفائي ماله أبداً حَلُّ
يعاقبني والذنبُ في الحبّ ذنبه ... نعم أنا ذو ذنبٍ وأنتَ لك الفضلُ
فايهِ أبا بكرٍ سليلَ أماجدٍ ... ومَنْ لفظُه درٌّ وأفضاله سجلُ
بحقكَ قلْ لي ما الذي قد صنعتُه ... الى أنْ مضى وصلٌ وأعقبه فصلُ
وما كان مني ما حييتُ سوى الوفا ... ويعلم ما قد قلتُه الحكَمُ العدْلُ
تجدّدَ منه الجورُ والهجرُ والجفا ... وودّي قديمٌ ما علا قبله قبْلُ
فَدُمْ هكذا ترقى إلى غير غايةٍ ... وقولك بالإحسان يسبقه الفعلُ

وبالجملة فهو من محاسن أبناء الناس ، ومصـاحبتُه تُذهب الوحشة وتجلبُ الإيناس . وكتب الكثير بخطه . وحفظ وروى ، وهو الآن مثابرٌ على تحصيل الفضائل ، ومعدودٌ بين الأماثل ، من جملة الأفاضل .

وكان قد حصّل من المال كثيراً ، واستفاد نَشَباً غزيرا . فصدمه الزمانُ على عادته من أبناء الكرام ، ولم يُظهر تأسّفاً على المال الذي مال . والحمد لله على كل حال .

ولد في غرّة شهر ربيع الأول من سنة تسع مئة وثمان وستين . انتهى .

٦٢

الشيخ أبو بكر العمري العطار الأديب الدمشقي الشافعي

هو من نبغ في دوحة الأدب ، وبلغ من ذلك غاية الأرب ، غير أنه الآن ليس له زيُّ الأفاضل ، ولا يختلط بزمرة الأماثل ، لكونه مباشراً لصناعة سوقيّة ، يحصل منها معيشته الدنيوية ، وهو ابن الشيخ منصور العمري ، لأنه منسوبٌ الى عمر العُقَيْبي الذي ورد الى دمشق خليفة من جهة الشيخ علوان الحموي . وكان الشيخ عمر أمياً ، غير أنه كان ماهراً في الكلام على الخواطر على قاعدتهم . ووالدُ الشيخ أبي بكر المذكور مريدُ الشيخ عمر المذكور . فلذلك يُقال له ولأولاده العمري . والشيخ أبو بكر نشأته غريبة ، له من الفطنةِ والذكاء ما لا يُحيط به الوصفُ أبداً . غير أنه أخرج نفسه من طريق العلم واشتغل بطريق الصنائع وتحصيل المعيشة في السوق . (٨٠ ب) ولو داوم على تحصيل العلوم واستمرّ على طريقة العلماء لحاز رتبة عالية ، ورقي منزلة سامية .

له من الشعر محاسن ، لها في القلوب أماكن . وينظم في الزجل وفي المو ّال أمراً عجيباً ، ونظماً غريباً . بحيث انه متقدّمٌ في النظم على أمثاله ، وسابق على أشباهه وأشكاله . كتب في أواخر سنة سبع بعد الألف قصيدة فريدة وعرضها عليّ فاستحسنتُها وطلبت منه أن يكتبها وهي قوله :

لو تَمّ لي في الحبّ سعدي ... ياغصنُ ما أَخْلَفْتَ وعدي

لكنْ مقاديرُ القضا ... كأنها حكمتْ بِبُعْدي

أوْ حظ كلّ متيّمٍ من عكسه يُرْمى بطردِ
ياغائباً في القلب من نيران فَقدِك أيّ وَقدِ
ما كنت أدري قبل بعـــدك أنّ سهم جفاك يُرْدِي
صديت لرؤيَتِك العيو نُ علامَ ترويها بصدّ
ياسيدي إن كان لي ذنبٌ فقلْ اخطأتَ عبدي
[مـا خنتُ عهدَك في المحبـــة كيف حتى خنتَ عهدي
كلا ولا أفشيتُ سرّ هواك والأسرارُ عنـدي
ولعي بحبّـك لم يزل ولعي ووجدي فيك وجدي] (١)
أرضى بأن أفنى وتبـــقى أنت يامولاي بعدي
أخفيتُ حبّك في الفؤا دِ فخَطّـهُ دمعي بخَدّي
وعــدا على جسمي النحو لُ فعاد للأسقام بَعـدي
مِحَنُ الهوى جُمعت علـــيّ فلستُ أحصرها بعَـدّ
فالسقم يشهد والدمو ع بوحدتي في العشق وحدي
يا بدرُ سَلْ عنّي السُها إنّ السُها أدرى بسهدي
وابعثْ رسولَ الطّيف يســمعُ ما أعيدُ له وأبدي
آهاً على زمنٍ مضى لو كان قولي آهِ يجدي

(١) الزيادة من ه

أيّام وصلٍ منك لمْ تقطع ولم توصل بردّ
والشملُ يجمعُنا على حبٍ يودّ بصدق وُدّي
وأضمُّ منك معاطفاً بردت جوى وجدي ببردي
وتميل اذ تهوي الى نحوي وجيدك فوق زندي
وتقولُ عجباً هل تُرى مثلي وأهلُ الحسن جندي
والشمسُ والبدرُ المنير سناه جاريتي وعبدي
والغصنُ يقصف قدّه إن قاس قامته بقدّي
ومنحتني منك الوصال تبرّعاً وهجرت صدي
فجعلتُ وجهكَ حضرتي وحديثَ راحِ لماك وردي
وعلمتُ لما بان روضُ الوجدِ أنَّ الخدَّ وردي
وشهدت لما ذقت طعم الريق أنَّ الثغر شهدي
والفرق يشرق صبحه في ليل شعرٍ[1] منه جعدِ
قاطعت فيك صَبابتي (٨١ آ) وعصيتُ لوّامي وزهدي
وقضيتُ أوطاري وقد غفل الرقيب فنلتُ قصدي
والخصرُ أتهمني بأنّي بتُّ في أكناف نجد
والردفُ زاد وقد تكفّل منّه منه برفدي

---

(١) ب « فرع »

أحسنْ بتلك ليالياً قد أشرقتْ ببدورِ سعدي

فسقى معاهد للصّبا صوب العِهاد بكل عهد

وسرت بها روح الصّبا سحراً فأحيت ميت بُعدِ

وكان الشيخ أبو بكر المذكور قد حضر معنا جمعاً في الشرف الأعلى بدمشق في أوائل المحرم من سنة تسع بعد الألف ، وفي ذلك الجمع رجل عوّاد يقال له سالم . وكان معه عبدٌ له يقال له سرور يضرب بالدف . فقال في ذلك :

حضرنا مجلساً قد راق حسناً مع القوم الكرام أولي الكرامه

سرور جاءنا منه سرورٌ وأذهب سالمٌ عنا الملامه

فيالِلّه ما أغنىٰ وأهنى إذا وافى السرور مع السلامه

وكتب اليّ في ذلك الجمع بعينه لغزاً في لفظة سرور فقال مرتجلاً :

ياروضة الفضل التي ثمارها مازلتُ منها كلّ حينٍ اجتني

مااسم يغيب الحزن في حضوره تصحيفه وقلبه زورتني

فأجبتُه أسرع من لمح البصر كما يعلم الله تعالى بقولي مرتجلا :

سرورنا منتظم في نظمكم ياروضة مازلتُ منها أجتني

فما أردتَ فهو في زورتني ترى سروراً مُذهِباً للحَزنِ

فابلغ مناط النجم نوراً وعُلىً ودُم كما تختارُ في عيشٍ هَني

وحاصل الأمر أنّ الشيخ أبا بكر المذكور قد سدّ فضله . وحجب نبله . لعدم دخوله في سلك أرباب الكمال ، ولتلبسه بلباس أرباب الصنائع الجُهّال . وهو الآن مقيم على صناعته ، ملازم على اكتساب رزقه من حرفته . وفقه الله للخيرات . وهداه الى طريق البركات . آمين آمين .

٦٣

الشيخ أبو بكر السقاف

سيدي الشيخ ابو بكر بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف الحَضْرَمَوْتي الشافعيّ .

السيدُ الحسيبُ النسيبُ الحسيني الشيخُ (٨١ ب) الصالح الولي العارفُ . كان من مشاهير الأولياء ومن محاسن الدنيا . وكان أوّلاً قاطناً بقريةٍ من قرى حضرموت يقال لها تَريم [١] ، ثم انتقل منها الى قرية يقال لها عينات [٢] . وبين هذه القرية وقريته الأولى نحو فرسخين .

ينتهي نسبُه الى أحمد بن عيسى بن جعفر الصادق رضي الله عنهم . وكان رحمه الله صاحب كرامات ومعارف غزيرات .

توفي تقريباً في سنة خمس وتسعين وتسع مئة على ماأخبرني بذلك كله الشيخ الصالح الشيخ أحمد بن مظفر البلخي . وذُكر لي عنه كرامات كثيرة شهيرة . منها أن رجالاً ثلاثة جاؤا إلى زيارته وكانوا من صلحاء الناس . فلما وصلوا الى حضرته نادى واحداً منهم ورفع عمامته عن رأسه وخَطّ بأصبعه المسبّحةِ من ابتداء مفرق رأسه الى حدود عنقه من خلفه ، وجعل يُكثر من ذلك الخطّ مرّات ، فما رَفَع أصبعه الشريفة إلاّ وقد صار ذلك الخطّ شعراً أبيض وخطاً على مقدار أصبعه ، وعبقتْ من رأسه رائحة العنبر الخام الأشهب . ونادى الثاني وحمل له إبريقه وسقاه منه ماء رويّاً . ونادى الثالث وقال له :

---

(١) بفتح التاء وكسر الراء . اسم قبيلة سميت القرية بها . انظر معجم البلدان .

(٢) لم يذكرها ياقوت .

انظر من الباب . فنظر فإذا رجلٌ كهل واقفٌ على الباب لحه بالباب وغاب عن بصره .

فسأل الحاضرون عن السرّ في هذا الفعل . فقال الشيخ أبو بكر : اسألوهم عن الذي خطر في بالهم عند دخولهم الى ابتداء وادي حضرموت .

فقال الأوّل : أما أنا فطلبتُ من حضرة الشيخ أن يعطيني رائحة عطرية لاتزول مني مادمتُ حياً .

وأمّا الثاني فقال : انا طلبتُ من باطن الشيخ أن يسقيني ماء من إبريقه الذي يشرب هو منه .

وأما الثالثُ فقال : أنا طلبتُ من باطن الشيخ ومن الله أن يريني الخضر عليه الصلاة والسلام . فكشف رضي عنه خواطر الثلاثة المذكورين وأعطي كُلاً أمنيتَه .

انتهى ماحكاه لي الشيخ أحمد بن مظفر سلّمه الله تعالى ورضي عنهم أجمعين . (٨٢ آ)

٦٤
الشيخ أبو بكر العمادي

الشيخ أبو بكر الكرديّ العمادي قدم من بلاده إلى دمشق صغيراً ، فجاوَرَ في المدرسة الكلاّسة في جانب الجامع الأموي ، وسلك طريق الصلاح ، وركب مركب الفلاح بحيث أنه ما اتُّهِمَ فيما أعلم بكبيرةٍ ولا صغيرة ، ولا رأيتُ في الغالب في الوارِدين الى دمشق نظيره ، لكنّه كان في مبدأ أمره في غاية الفقر حتى إنّه كان يسقي الماء في دمشق للناس عند اجتماعهم في المسجد للصلاة .

وخدم صاحبنا الشيخَ أحمد الكردي العمادي المتقدّم ذكره في الأحمدين ، وقرأ عليه وتخرّج به . ولم يزل ملازماً للقراءة على الشيخ أحمد المذكور وعلى مولانا الشيخ أحمد العيثاوي المقدّم [1] ذكره ، حتى حصّل من الفقه طرفاً صالحاً ، فلازم على إفادة الفقه للطلبة المبتدئين في تعلّم علوم الشرائع ، حتى إنّه صار له ذكرٌ بين بعض الخواص ، وعندَ غالب العوام . وبرع في طلب الفقه . وكتب بخطّه الكثير . وكان قد قرأ عليّ الكثير . فمن ذلك أنه قرأ « متْن العِزّي » في علم التصريف . بعد أن قرأ من علم النحو حصّةً شهيرةً لاتحتاج الى تعريف . ولما ختم قراءة العزّي على الفقير الداعي شرع في قراءة « شرحه » للامام المحقّق السعد التفتازاني . فأتمّ قراءته عليَّ . وحقّق إفادته بين يديّ . وصار مُدَرِّساً في بقعةٍ بالجامع الأمويّ على عادة المدرّسين في البقاع . وتزوّج في دمشق ، فصار له ولدٌ ذكر . وعاد من

---

(١) ه ، ب « السابق ذكره » .

أعيان الطلبة الفضلاء ، ومن مشاهير الفرقة النبلاء . غير أنّ الشيخ أحمد الكردي العمادي الذي ذكرنا أنه كان يخدمه ويقرأ عليه قد تغيّر خاطره عليه ومقته في آخر أمره عند انقضاء عمره ، وهذه سُنّة في المشايخ إذا غضبوا على الطلبة فإنّ ذلك والعياذ بالله تعالى سبب لفوات ما أراده أحدُهم وطَلَبَه .

وحاصل الأمر أنّه كان من صالحي أهل العلم ، وممن جمع بين العلم والحلم . وكان يبالغ في التقشّف الى الغاية . ويظهر أسباب الورع إلى النهاية ، بحيث انه كان يُتّهَمُ بالرياء رحمه الله [وأنه يُظهر ما قلبُه يأباه . والله تعالى أعلم بحقيقة حاله، في جميع أحواله ، وكانت وفاتُه تقريباً في سنة (١) بعد الألف ، من هجرة خير الأنام عليه من الله الصلاة والسلام ، وعلى آله وأصحابه الكرام] (٢) .

---

(١) بياض في هـ ، ب مقدار كلمتين .

(٢) الزيادة من هـ ، ب .

٦٥

[أبو بكر المقدسي] (١)

[مولانا شيخ الاسلام ، افتخار فضلاء الأنام الشيخ أبو بكر المقدسي الشافعي ابن أبي اللطف الحصكفي الأصل ، المقدسي المولد والمنشأ ، الدمشقي الوفاة ، والشيخ أبو بكر المذكور ولد شيخ الاسلام الشيخ محمد شمس الدين ابن أبي اللطف ، والشيخ شمس الدين هو تلميذ الكمال بن أبي شريف .

قرأ الشيخ ابو بكر المذكور على والده ، وتخرج به غالب إخوته . وسافر الى مصر لطلب الكمال هو وأخوه الشيخ عمر سراج الدين . وكان يُلازم التردّد الى دمشق ، وقرأ كثيراً على شيخ الاسلام بدر الدين الغزّي صاحب « التفسير المنظوم » الآتي ذكره في حرف الباء ، عن قريب إن شاء الله تعالى .

وقفتُ على نسخةٍ من « جمع الجوامع » على هامشها في بعض الفصول : بلغ العلامة الشيخ أبو بكر بن أبي اللطف المقدسي قراءة عليّ من أوّله الى هنا . وكتبه محمد الغزي لطف الله به .

وحاصل الأمر أن الشيخ أبا بكر المذكور من بيت أبي اللطف ، وهو بيتٌ بارك الله فيه وفي نسله ، وأودع العلوم والمعارف لأهله ، لا تجد فيهم سوى فاضل كبير ، أو عالم شهير ليس له نظير ، كأنهم أدركتهم دعوة وليٍّ كامل ، أو نَظَرُ قُطبٍ صالح فاضل .

وكان الشيخ أبو بكر هذا من محاسن فضلاء زمانه ، وممن أدركه التمييز بين إخوانه . قرأ هو على والده شيخ الاسلام شمس الدين بن أبي اللطف . والشيخ

---

(١) أضفنا هذه الترجمة من هـ ، ب .

ابو بكر المذكور ولد يُقال له جارُ الله ، وسيأتي ذكره إن شاء الله ، وهو في يومنا هذا مفتي الحنفية بالقدس الشريف ، ومدرّس المدرسة العثمانية بها .

والشيخ أبو بكر له نظم لبعض مهمّات مسائل الدين . رأيتُ بعضاً منها بخط شيخ الاسلام الشيخ محمد بن أبي اللطف فمن ذلك في الرخصة المتعلّقة بالسفر :

في الرُّخَصِ التي تُناط بالسفَرْ　　مهمة من غيرِ شك تعتبر

الفطر للصائم والقَصْرُ معهْ　　يخصّ منها بالطويل أربعهْ

حيث جوازه الى ثلاثِ　　وَالمسحُ للخفّ من الأحداثِ

قد خصص الذكور مما قدّما　　وفي الأصحّ الجَمْعُ يختصّ كما

وفي الطويل فاستمعْ تصويري　　وأربع تجوزُ في القصيرِ

وتركُ فرضِ الجمعة المشرّفه　　أكل لحومِ الميْت في كل صّفهْ

عَلَى الأصحّ وعليه العملُ　　كذا على الرواحل التنقّلُ

سقوط فرض الشخص بالتيمّم　　ثم الى الأصحّ أيضاً ينتمي

قال أبو بكر المقدسي : نظمتُها في لحظة لنفسي ، ثم لإخواني ، وجلّ مقصدي أن تنفع النجل السعيد ولدي .

وكان من محاسن أبناء الزمان ، وممّن يتزيّن به الإخوان . وكان موصوفاً بغاية الصلاح ، ونهاية الفضل والفلاح . وكان يُكثر التردّد الى دمشق . وله مباحث مشهورة بين فضلائها الأعلام . وكان قد عرض مرض أوجب الحضور الى دمشق لتداويه ، فما أبلّ من ذلك المرض بل مات فيه . فدُفن بدمشق غريباً ، وحاز من شهادة الأُخرى نصيبا . توفي في سنة خمسٍ وستين وتسع مئة كما في خطّ والده . ودُفن في مقبرة الصغير الى جانب شيخ

الاسلام الشيخ أبي الفضل عم والده ، وذلك بقرب سيدي نصر المقدسي رضي الله عنه . (٨٢ ب)

ومن نظمه ايضاً على مافي خط والده قوله :

لاخَيْر في غير الكتاب فَكُنْ له　　دون الخلائق صاحباً وصديقا

ودَع الأنام وعد إنك سائر　　بين الأسود وقد وجدت طريقا

رحمه الله رحمة واسعة ، وسقاه من سحائب رحمته الهامعة .

٦٦

[الشيخ أبو بكر بن محمد](1)

[هو صاحبنا الفاضل ، وخلّنا الكامل ، زارني بمنزلي بدمشق في زقاق النحّاسين نهار الجمعة سنة عشرة وألف . وكتبتُ له يوم الأحد المبارك ثامن المحرّم سنة ست عشرة وألف هذه الكلمات معتذراً عن وعدٍ سبق لتأخيره الى غد ، وهو يوم الاثنين :

أسعد الله صباح الصباح ، بكل فلاحٍ ونجاح . ولازال مخصوصاً بكل حمايه ، مرقوماً بعين العنايه ، آمين .

المعروض بعد الدعاء المفروض أنه سبق منا بالأمس وعدٌ وثيق لحضرة الصدوق الصديق ، وهو المولى الخال ، صاحب الحال الحال ، بالذهاب الى محله بالقنوات ، لوقفة تُعادل كما قيل الوقفة بعرفات . فعَرَضَتِ المقادير ، لهذا العبد الداعي الفقير ، بالتربّص في هذا اليوم السعيد ، لأمرٍ يريده المولى المجيد . فإن جاز إنجاز دعوة منكم اليوم من غير تأخير ففي وجودكم الكفاية عن كل مأمور وأمير . وإن جاز الصبر الى غد ، وهو يوم الاثنين ، فالمسير من الفقير مع الخطير على الرأسِ والعين . من غير إخلافٍ ولا مَيْن . والمسئول من الله تعالى أن يطوي شقة البين ، ويقرّب العين من العين ، حامية لحمى الوصال ماحية نقطة الغين] .

---

(١) ضفنا هذه الترجمة من ه ، ب

٦٧

الشيخ ابراهيم الدمشقي الشهير بابن الطبّاخ رحمه الله تعالى

هو رجلٌ نشأ في طلب العلم والمعارف ، واستظلّ من ذلك بالظلّ الظليل الوارف . كان والده رجلاً أسمرَ اللون يُشْبه الحبوش . لكن أخبرني ولده محمد جلبي الكاتب أنّ أصلهم من بلدة الخليل عليه الصلاة والسلام . ونشأ له أربعة أولاد : إبراهيم ، وأحمد ، ومحمد ، وعبد الغني .

فأما ابراهيم صاحب الترجمة فإنّه قد نشأ طالباً للعلم ، لكن على طريق الأروام ، لأنه كان يعرف لسان التركيّة . فسافر مع بعض القضاة الى مصر وإلى غيرها من المدن الكبيرة . وكانت ملازمتُه العرفيّة من مولانا |السيد|[1] النقيب الشهير بابن معلول واستمرّ ابراهيم هذا في ديار الروم إلى أن صار مدرّساً بأربعين درهماً عثمانيّاً في كل يوم في بعض مدارس مدينة بروسة المحروسة .

ولما انفصل عن الأربعين حضر الى وطنه الأصلي وهو دمشق لأجل أن يقطع زمان البرزخ . وهو أنّ الرجل إذا وصل إلى تدريس الأربعين يُعزل ثمان سنين أو عشر سنين مثلاً بغير منصب ، ثم بعد ذلك يتولىّ تدريس الخمسين . ولايزال ينتقل من مدرسة الى مدرسة حتى يتولىّ قضاء مدينة كبيرة ، مثل حلب والشام ومصر وما أشبهها . فلما حضر إبراهيم افندي الى الشام رآها جنّةً قطوفُها دانية ، ووجدها من أكابر العلماء خالية . فنوى الإقامة بدمشق ، وعزم على ترك ديار الروم بالكليّة . فسعى ، في دولة سنان باشا الوزير[2]

---

(١) اضيفت في ه ، ب

(٢) انظر الباشات والقضاة لابن جمعة ص ١٣ ، ١٤ ، ١٨

بدمشق على شيء من عُلوفة العلماء بخزينة دمشق . فحصل له في كل يوم مايقرب من ستّين قطعة فضة . ومكث بدمشق ملازماً على العبادة بالجامع الأموي مدةً طويلة لايبرح منه ، وكان متقيداً بحسب الظاهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فاتفق أنه سمع الشيخ نجم الدين ابن شيخ الاسلام البدر الغزّي صاحب « التفسير المنظوم » وهو يملي تفسير والده المذكور . فأنكر عليه ذلك . وكان ينادي في الجامع الأموي بأعلى صوته : يامعشر المؤمنين ! متى سمعتم بأن كلام الله تعالى يُنظَمُ من بحر الرجز ويُقرَأ (٨٣ آ) على رؤس الاشهاد ، والناس يسمعونه ؟ وكيف نزّه الله نبيّه صلّى الله عليه وسلم عن الشعر ويأتي رجلٌ من علماء أمته يُدْخِلُ كلامه في الشعر ، وهو الكلام الذي يتنزه [1] عن مقام الشعر ؟ فانتُدب للرد عليه القاضي محب الدين الحموي نزيل دمشق وصنّف رسالةً في الرّد عليه . ولما وصلت الرسالة المذكورة اليه شرع في تصنيف رسالة لردّ رسالة القاضي محب الدين . وعرضها عليّ فرأيتُها خاليةً من الغلط وشهدت منها أموراًما كنت أظنّ أنه يصل اليها . وقال لي الشيخ نجم الدين ولد شيخ الاسلام المذكور إنّ الرسالة المذكورة ليست من تأليف إبراهيم وانما هي من تأليف الشيخ لطفي الضرير الشهير بابن | يونس | [2] اليازجي ؛ وذلك لصهارةٍ بينهما .

وحاصلُ الأمر أنه كان رجلا ملازماً على الصلوات في أوقاتها ، وأداء كلّ عبادةٍ في ميقاتها . ولكن كان لسانه مُفرِطا في حقوق الناس . لكنه ما كان يُظْهِرِ اغتيابه للناس إلاّ في صورة النصيحة . والله تعالى أعلم بحقيقة حاله ، في جميع أحواله .

ولما شاعت الرسالةُ بين القاضي محب الدين وابراهيم افندي صاحب الترجمة

---

(١) ب « ينزّه » ، ه « يتنزه عنه »

(٢) ساقط من ه

أراد مولانا محب الدين أن يُظهر للفضلاء رسالته ، وأن يعرض عليهم عبارته ، فجعل ضيافة عظيمة ، مشتملة على خيراتٍ جسيمة ، في بستان الأعجام في الشرف الأعلى بدمشق ، ودعا العلماء إلا قليلاً منهم . وكان الفقير من جملة مَنْ دُعي . فلما حضرنا الى البستان المذكور جلس العلماء صفين متقابلَيْن . ولما استقرّ بنا الجلوسُ دفع اليّ مولانا القاضي محب الدين رسالته وقال في الملأ العام : أُريدُ منكم أن تتفضّلوا بقراءة هذه الرسالة في حضرة هؤلاء الجماعة جهرة ، حتى يشترك الجميع في استماعها ، فقلتُ له : سمعاً وطاعة . فأخذتُها في يدي وشرعتُ في قراءتها كلمةً كلمةً ، من غير استعجال ، بحيث أن الفضلاء الحاضرين في ذلك المجلس على كثرتهم دعوا وحسّنوا للمؤلف وللقاريء . وكانت الرسالةُ المذكورة مشتملةً على محاسن من الإنشاء ، وعلى لطائف من الكلام . والقاضي محب الدين لطيف المحاضرة جميل المذاكرة ، له سكون في ذاته ووقار في جميع أوقاته .

ونظم صاحبُنا الشيخ أبو بكر العطّار الآتي[١] ذكرُه | في حرف الهمزة | [٢] ارجوزةً في معنى اعتراض الشيخ ابراهيم صاحب الترجمة (٨٣ب) على نظم الشيخ بدر الدين للتفسير ، وأرسلها الى الجمعيّة في البستان ، وقرأناها أيضاً . وكانت لا نظير لها في بابها . ومن جملة أبياتها يخاطب ابراهيم صاحب الترجمة ويشيرُ إلى أنه كان طبّاخاً لشهرته بابن الطباخ :

فَعَدِّ عن مباحث التفسيرِ وعُدْ كما قد كنت للقُدوري[٣]

وما أحسن قوله للقدوري[٤] بياء وبدونها . وإذا كان بالياء فهو

---

(١) هـ « المتقدّم ذكره »
(٢) ساقط من هـ
(٣) هـ « الى القدوري »
(٤) هـ « الى القدوري »

إشارة إلى كتاب القدوري في فقه الحنفيّة يقرأه المبتدئون في المذهب ، والمذكور حنفي . وما ألطف قوله في عَدّ وعُدّ .

ولم يزل الشيخ ابراهيم صاحب الترجمة مقيماً بدمشق يعبد الله تعالى ويعترض على القضاة في أفعالهم المخالفة للشريعة الى أن توفاه الله تعالى في سنة ستٍ بعد الألف . وكانت وفاته في زمن قضاءِ مولانا يحيى أفندي[1] ابن مولانا زكريا أفندي .

وأخبرني مولانا القاضي تاج الدين ابن يحيى أفندي المذكور قال : لما مات ابراهيم المذكور خلصنا الآن من المحتسب . يُشير الى أنّ الشيخ ابراهيم المذكور كان يعترضُ على القضاة والحكّام .

وأوصى أن يُدفن في مقابر الصوفيّة . وعين موضعاً لذلك ، فنفّذ أخوه محمد چلبي الكاتب وصيّته ،ودفنه في المقابر المذكورة في طرف الطريق على جانب الشمال للذاهب إلى جهة المزّة في مقابلة نهر باناس[2] رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وسقاه من سحائب الرحمة الهامعة . آمين .

---

(١) انظر الباشات والقضاة لابن جمعة ص ٢٦

(٢) « « باناس » انظر كتابنا خطط دمشق

٦٨

شيخنا الشيخ ابراهيم بن الأحدب

الفرضيُ الشافعيُّ الصالحُ الفالحُ المعمَّرُ المحدِّثُ نزيلُ صالحية دمشق . شيخُ حلب في فن الحساب والفرائض ، عَلِيٌّ كاملٌ رائض . نفع كثيراً من الطلبة ، وما أحدٌ من الطلبة إلاّ قصده في ذلك وطلبه . بحيث أنه أحيا هذا العلم في ديار الشام . وتلمذ له كثيرٌ من العلماء الاعلام . ولما وردنا الى دمشق في سنة ثلاث وسبعين وتسع مئة تولّى[1] المدرسة العمريّة بالصالحيّة . وقرأنا عليه « النزهة في علم الحساب » وابتدأتُ عليه في بعض مقدّمات النحو أيضاً . وانتفعتُ به انتفاعاً عظيماً . ورأيتُ منه لطفاً جسيماً . ولازمتُه مايزيد على خمس سنين . وهو الى الآن حيٌّ يُرزق مقيمٌ بالصالحيّة . وأظنّه فات تسعين سنة أو قاربها .

أخذ الفرائضَ والحساب عن الشيخ الفاضل ، الوليّ الكامل ، الشيخ محمد النجديّ الذي كان مقيماً بالعمريّة بصالحية دمشق . وكان يلحق بابن الهايم في فن الفرائض والحساب . وحاصلُ الأمر أنّ الشيخ ابراهيم المذكور من مفردات الزمان في هذا الأوان وأصلهُ من قرية الزَّبَدَاني[2] من ضواحي دمشق . وأهلُه من مشاهير (٨٤ آ) أعيان ذلك الوادي[3]، لهم الشهرةُ والتقدمُ على غيرهم في كل نادي .

ثم إنّ الشيخ ابراهيم المذكور مات في أواسط سنة عشر بعد الألف . ودُفن بجبل قاسيون . وكانت جنازته عظيمة جداً . حضرها قاضي القضاة عبد الرحمن بن سليمان[4] قاضي دمشق ومَنْ دونه رحمه الله تعالى آمين .

---

(١) ب ، س « نزل »

(٢) تبعد ٤٧ كيلومتراً من دمشق الى الشمال . انظر ياقوت ؛ وكتاب الريف السوري ، الجزء الثاني ص ٢٦٨

(٣) يعني وادي بردى

(٤) انظر الباشات والقضاة ص ٢٧

٦٩

الشيخ ابراهيم بن سعد الدين الجباوي

القُبَيْبَاتي الدار والمولد والمنشأ

هو الشيخُ الصالحُ ، الكريمُ الفالحُ ، الشيخ ابراهيم ابن المرحوم الشيخ الصالح المعتقد الشيخ سعد الدين الجباوي .

كان الشيخ ابراهيم المذكور من أصلح الناس وأكرمِهم ، وألطفِهم وأرحمِهمَ ؛ يتدفّق حياءً وكرَماً ، ولُطفاً ونعما .

نشأ في تربية والده الشيخ سعد الدين المذكور بمحلة القُبَيْبَات [١] خارج دمشق ،وكان والده المذكور يختصّه [٢] من بين إخوته بالالتفات التام ، والحبّ الشامل العام . ولما حانت وفاةُ والده أوصى له بالذِّكْرِ في حلقتهم بالجامع الأموي يوم الجمعة بعد الصلاة ، وأوصى لأخيه الشيخ محمد بالجلوس على سجّادة الطريقِ بزاويتهم بمحلة القُبَيْبَات واستمر على ذلك مُدّةً مديدة ، وأعواماً عديدة ، إلى أن دخل بينهم الغَرَض والنفوس ، ووجدوا من ذلك غاية الضرر والبوس . تخاصموا وتحاكموا . وطال ذلك بينهم ، الى أن أوجب تفريقهم وبَيْنَهم . فرحل الشيخ ابراهيم من محلّة القُبَيْبَات إلى داخل دمشق إلى أن رحل ركبُ الحجيج فسَارَ بأولاده وأتباعه الى مكّة المكرّمة ،وجاوَرَ في تجاه الكعبة المعظّمة ،

---

(١) جمع تصغير قبة . قال ياقوت إنها حاضر من حواضر دمشق من القبلة . وهي في طرف الميدان الفوقاني .

(٢) « « يخصّه »

وصرف على مجاورته مالاً كثيراً ، ووجد تعباً غزيراً ، ثم رجع في العام الثاني مع ركب الشام ، وسكن في بيته ، وترك التردُّدَ الى الناس ، وفوّض الجلوسَ بالحلقة في الجامع الأمويّ إلى أخيه الشيخ محمد ، وجلس في بيته مستريحاً ، وفارق بفراغه تعباً وتبريحاً ، ثم تصالح مع أخيه ، وكان في الزيارات يرافقه ، وعلى التردّد الى بعض الحكّام يوافقه . الى أن فرّق بينهما الحمام ، وفاضت روحُ الشيخ ابراهيم الى ربه بسلام . فمات في جمادي الآخرة[1] من شهور سنة ثمانٍ بعد الألف من هجرة خير الأنام .

ولعمري لقد كان من محاسن الدنيا ، ولم يكن متمسكاً من الدنيا بالعرض الأدنىٰ ، بل كان لطيف الذات ، كامل الأدوات ، عظيم الأخلاق ، عديم النفاق . يُحب مخلصاً ، ويودُّ متخصّصاً . لا يميل إلاّ إلى أهلِ الصلاح ، ولا يودّ إلاّ الوفاق والصلاح . مات بالقَهْقَهَة مع الانطلاق وقت السحر . وكان آخرُ كلامه شهادةَ الاخلاص . وصدرت له جنازة عظيمة جمعت جمع أهل الشام ، من الخاص والعام . ودُفن عند أسلافه في تربة[2] القُبَيْبات خارج باب الله . رحمه الله وأعطاه مناه في آخرته كدنياه . وخلف ولداً نجيباً يُقال له سيدي كمال الدين . جعله الله تعالى من الصالحين . آمين آمين .

---

(١) ه ، ب « ربيع الأول »

(٢) انظر كتابنا خطط دمشق ص ١١٨

٧٠

الشيخ ابراهيم القدسي

الامامُ والخطيب بجامع الأمير منجك [١] في محلّة ميدان الحصا .

كان رحمه الله تعالى من أولاد المقادسة المشهورين بحسن الكتابة .
ومنهم الشيخ ابراهيم كاتب المصاحف التي يتغالى في ثمنها الناسُ لا سيّما أهل دمشق . وذلك لحسن الخط ، ودقّة الضبط . وقد كتب من المصاحف ما يزيد على مئة مصحف كما أخبرني بذلك حفيدُه الشيخ ابراهيم المذكور .

ومنهم الشيخ خليل ، وعندي مصحف مسبّع بخطه أيضاً ، وخطه أيضاً في غاية الحسن والضّبط . وكتب في آخره :

وبعدُ فقد وفّق الله سبحانه وتعالى بكتابة هذه الختمة الشريفة على يدي العبد الفقير خليل بن محمد | بن احمد | [٢] الخازن المقدسي غفر الله تعالى له ولوالديه ولذريته ولجميع المسلمين أجمعين .

وكان الفراغ من نسخه وضبطه نهار الاثنين ثامن ذي الحجة الحرام سنة تسع وثماني مئة . »

قلتُ : وسألتُ الشيخ ابراهيم صاحب هذه الترجمة عن سبب وصف أسلافه بالخازن ، فقال لي : لما قدم جدّي الأعلى من بيت المقدس نزل بالشاميّة البرانيّة ، وصار خازن كتبها الموقوفة بها ، فلذلك وُصفَ بالخازن .

---

(١) هو اليوم في الميدان الفوقاني . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٥ .

(٢) ساقط من ﻫ ، ب .

وكان الشيخ ابراهيم صاحب الترجمة صديقاً للفقير . وكان صالحاً حافظا للقرآن العظيم ، يقرأ بالسَّبْع ، مع الصوت الحسن المليح . وكان قد أخذ القراءات عن شيخنا |الشيخ الصَّالح[١] | المعمَّر |الشيخ حسن الصلتي "الشافعي" |[١] خاطب جامع كريم الدين[٢] بمحلة القُبَيْبَات . وأمَّ وخطب بجامع منجك المزبور[٣] مدَّةً طويلة . وسافر الى الحج الشريف في سنة ألف من الهجرة . ومات بمكة المكرمة بعد وقوفه | بعرفات |[٤] في السنة المذكورة . ودُفن عند باب المعلَّى رحمه الله تعـالى رحمةً واسعة . وأفاض عليه سحائب رحمته الهامعة . آمين .

---

(١) ساقط من ه .

(٢) يسمى اليوم جامع الدقاق بالميدان الفوقاني . انظر ذيل ثمار المقاصد ص ٢١٧ .

(٣) ه « المذكور » .

(٤) ساقط من ه .

٧١

الشيخ ابرهيم الطالوي الدمشقي

|سلمه الله تعالى|[١]

هو الأميرُ الكريم ، صاحب الجود العميم ، والمجد القديم ، والقلب السليم ، الأميرُ ابراهيم ، حماه الله تعالى من كل سوء ، وصانه من كل بليّةٍ آمين .

وُلد الأميرُ المذكور بدمشق الشام في منزلهم بمحلّة التعديل[٢] . ونشأ في تربية والده الأمير حسن ابن الأمير ابراهيم بن طالوا .

ثم إنّه خدم أمير (٨٥ آ) الأمراء الكرام أحمد باشا الخالديّ الشهير بشمسي المتقدّم ذكره . ولما انفصل أمير الأمراء المذكور عن ولاية دمشق سافر معه إلى جانب دار السلطنة ، واستمر معه في خدمته . كلّما وُلي ولايةً كان له منها الحظُّ الأوفر ، والنصيبُ الأكثر ، إلى أنْ صار الأمير ابراهيم المذكور جاويشا في الباب العالي ، المحفوفِ بالمكارم والمعالي ، في زمن سلطنة المرحوم السلطان سليمان عليه الرحمةُ والرضوان . وصارت له زعامةٌ كبيرة ، وقرى كثيرة . وسافر الأسفار السلطانية إلى الغزاة ، وترامت به الاحوالُ إلى أنْ رجع إلى بلدته دمشق الشام في أيام محاصرة مدينة قبرص . وجمع أقواتَ جميعِ العساكر الغازية من بلاد الشام وأخذها في المراكب من جانب طرابلس إلى قبرص . وكان أمير العساكر الغازية

---

(١) ساقط من ه ، ب .

(٢) محلّة معروفة اليوم بجانب محلة القنوات الى الجنوب ، بينها وبين باب السريجة . ورد لها ذكر في تاريخ القلانسي . انظر معجم الأماكن الطبوغرافية بدمشق .

مصطفى باشا الوزير في زمن دولة السلطان سليم بن السلطان سليمان . ولم يزل كذلك إلى أن تولّى السلطنة المرحوم السلطان مراد بن سليم . فجعل الأمير إبراهيم المذكور رأسَ العساكر السلطانيّة ، بدمشق المحميّة . وسافر بالعساكر من دمشق لما فتح ديار العجم مرّات عديدة . وكان في ذلك محمود السيرة ، وغمر رفقاءه بالخيرات الكثيرة . وبعد ذلك تولّى الإمارة في مدينة نابلس . فذهب اليها بالطَّبْلِ والعَلَم ، وخرج من دمشق بموكب حسن ، وخرج معه غالبُ عساكر دمشق مودّعين . ومكث في نابلس نحو سنتيْن ، وانفصل عنها . ثم رجعت إليه حكومتها من باب السلطنة أيضاً . وفي هذه المرّة عيّنه أميرُ الأمراء بدمشق محمد بن الوزير الأعظم سنان باشا مستقبلاً لركب الحاج ، على عادتهم ، فاستقبل الحاج استقبالاً ما أظنه سُبق اليه . أخبرني المرحوم الشيخ ابراهيم ابن سعد الدين المتقدّم ذكره ، وكان من جملة الحاج في ذلك العام ، أنّ الأمير ابراهيم المذكور تفضّل على أعيان الحاج بما لم يسبق إلى مثله ، وحَرَسَ الرّكْبَ من تبوك إلى دمشق حراسةً عظيمة ، بحيث أنه لم يضع لأحدٍ عقالُ بعير . ولكنه لم يُنْصَف من الحكّام ، ولم يُعْطِ ماله من العادة بين الأنام ، وما ذاك إلاّ أنه أدرك الصدر الأوّل ، وسلك طريقهم ، وتغيّر الزمانُ ولم يتغير الأميرُ المذكور عما كان معهوداً له . فلزمتِ المخالفةُ بينه وبين أبناء زمانه في سلوكهم ، وتعب تعباً عظيما ، ونال من دهره جفاء جسيما ، بحيث أنه باع غالب أسبابه ، وتفرّق عنه غالبُ جماعته وأحبابه . وسافر إلى الباب العالي في سنة سبعٍ بعد الألف ، واستمرّ زماناً (٨٥ب) طويلاً ملازماً ، ولم يرجع بما فيه فائدة ، ولا ما يقتضي عائدة . فأسفرت سفرتُه عن العدم المحض [١] ، وصادفتْه العنـايةُ بمجيء الوزير السيد محمد الأصفهاني الأصل حاكماً ووزيراً في بلاد الشام . فعرض الأمير المذكور أحواله عليه ، وشكا إليه ، وبكى بين يديه . فرَقّ لحاله ، وعيّن له من

(١) « عن عدم محض » ، ب « من عدم المحض »

التزام السمسارية كل سنة أربع مئة دينار على سبيل التقاعد عن منصب الصنجقيّة . وكتبَ له التمسّكَ بذلك في سنة تسع بعد الألف .

ولعمري لقد نظر اليه الدهرُ أوّلاً نظرَ العناية ، ورجع عليه بعد ذلك بالنكاية . فصنع معه العجائب ، وأراه من فعل الغرائب ، وسلَكَ معه طريقاً من الجفا ، ولم يرمق إليه بعد ذلك بِطَرْفِ الوفا . مع أنّه بلغ في الكرم إلى مرتبة حاتم ، بل هو إن اعتبرت للأكارم خاتم . حتى إنه يُنسَبُ في إفراط كرمه إلى السَّفَه العظيم ، وهذه عادةُ الناس مع كلّ كريم . ولقد صدق ابن خالته صاحبنا الشيخ درويش الطالوي حيث قال في مدحه ، من قصيدةٍ أرسلها إلى الفقير من بلاد الروم ، وفيها ذكر الأعيان بدمشق ، فلما وصل إلى ذكر الأمراء قال :

وشيّدوا أركانها أمرا معلّمها الخطير

منهم جنابُ الطالويّ سليلُ أرتق ذي السرير

في السلم كالغيث المطير والحرب كالليْث الحصور

مُحْيِي مكارم حاتمٍ بين الأنام بلا نكير

وحاصلُ الأمر أنّ الأميرَ المذكور لا يُناسب أبناء الزمان ، ولا يقارب خوان الإخوان . وله الكلمةُ الصادقةُ ، والعهود الثابتة الموافقة . شهد له الجمُّ الغفير ، والجمعُ الكثير ، بمكرمة صدرتْ عنه . | ووفاءِ عهدٍ كان منه | .[1] وذلك أنّه لما كان والياً بولاية نابلس في المرّة[2] الثانية ، حضر إليه شابٌ من أولاد الجيومي .[3] وأولاد الجيوسي هم

(١) ساقط من ه

(٢) ه « بالمرة »

(٣) ه « الجيوس »

مشايخ بلاد نابلس . واسم الشاب توبة . وكان من أحسن خلق الله تعالى صورة . وكان حضور الشاب المذكور اليه بطريق الأمان . وكان الأمير أحمد أميرُ بلاد غزّة المتقدم ذكره عدوّاً على توبة المذكور . فأرسل إلى الأمير ابراهيم المذكور رجلاً من خواصّ جماعته ، ومعه ثلاثة آلاف دينار ذهباً ، وقال له : هذه ثلاثة [1] آلاف دينار لكم ، واعطوني الشيخ توبة ، ولكم بذلك صداقة الأمير أحمد طول الدهر ، ويساعدُكم على أحوالكم في بلاد نابلس .

حكى لي الأميرُ ابراهيم من لفظه أنّ جميع جماعتي من كبيرٍ وصغيرٍ ، ومأمورٍ وأميرٍ ، أجمعوا على أنني أسلم توبة (٨٦ آ) لأحمد بيك ، وآخذ الدراهم التي أرسلها . وذلك لما أدركوا وعلموا من احتياجي . وبالله لقد كنت محتاجاً إلى عشرة دنانير ، وما كنت أنفق على عسكري وجماعتي إلاّ من السوق بالحرج .

قال : فبتُّ تلك الليلة وأنا أظهِرُ لجماعتي إعطاء توبة ، وفي باطني خلافه . فأصبحتُ وجعلتُ ديواناً جمعتُ الأكابر وأرباب الدولة بمدينة نابلس . وطلبتُ الذين جاؤوا من جانب أحمد بيك بالمال ، وطلبتُ توبة المطلوب . فحضر الجميع ، وحضر المالُ . وقلتُ لتوبة : ياتوبة ! قد أرسلوا إليّ على تسليمك ثلاثة آلاف دينار . فما الذي تعطي أنت في مقابلة ذلك ؟ فقال لي : ياأمير ، أمّا أنا فإنّني رجلٌ فقير . وماجئت إليك إلاّ لما سمعتُ بصدق عهدك وثبات ودّك ، والأمر إليك .

قال : وكانت أمّه وأخواته وزوجتُه تحت الديوان يستمعْنَ الكلام ، ويبكين خوفاً على توبة فأنصتَ جميعُ مَن في الديوان يستمعون ما اقول ، والمالُ مصبوبٌ في وسط الديوان .

---

(١) « ه » الثلاث

فقلتُ : أما أنا فإني أخافُ من يومٍ لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون ، إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم ، وطلبتُ خلعة من ملبوسي ، وألبستُها لنوبه وقلتُ له : لا تخفْ والله لو أعطوني الدنيا ومافيها ماسلّمتُك ولا نقضتُ عهدي ولا خَفَرْتُ ذمّتي ..وأرجعتُ جماعة أحمد بك بمالهم . وفزتُ أنا بوفاء العهد . وطلبتُ العوض من ربّي تعالى وتقدّس .

وأقولُ : لما صُرِف الأميرُ ابراهيم المذكور عن ولاية نابلس حضر معه الشيخ توبة إلى دمشق . ورأيتُه وهو من أجمل خلق الله صورةً ، كلُّ مَنْ رآه يتحيّرمن حسنه ، ويُنشد قولَ مَنْ قال وأجاد في المقال :

واذا لاح وجهُه بمكانٍ كَثُرَتْ زَحْمَةُ العيون اليه

وفي هذا التاريخ وهو سنة تسع بعد الألف الأمير إبراهيم مقيم في منزله بدمشق في محلة التعديل والقنوات . لطف الله به وبنا وبالمسلمين اجمعين آمين آمين .

٧٢

الأمير ابراهيم المنجكي

هو الأميرُ الكبير ، ذو الجود الغزير ، الجركسيّ النجـار ، الدمشقيُّ الدار .

هو من بيتٍ معروف بالإمارة ، وله على صدق الأصل أصدق أمارة . ينتسبون إلى جدّهم الأعلى الأمير منجك اليوسفي . صاحب الخيرات المتكاثرة ، والمبرّات الوافرة ، التي اشتهرت في البلاد ، وعمّ نفعها سائر العباد .

وكان الأميرُ إبراهيم هذا بدمشق الشام ، مستولياً على وقف جدّه الأعلى ما يزيد على ثمانين من الاعوام . وطال عمرُه ، وشاع برُّه ، وقصده أربابُ الحاجات ، ومدحه الأفاضلُ بالقصائد البليغات . وكان رحمه الله تعالى غاية في سلامة السرائر ، ونهاية في صفاء الضمائر . بحيث أن كثيراً من الناس كان يُلَبّس عليه منامات ٍ كاذبةً يستفيدون بها شيئاً من الدنيا ويطلبون حصّة من العرض الأدنى . وكان يُصَدّق كُلَّ مَنْ يقول في كل مقول .

ويُقال إنّ الشيخ عبد الوهاب الصفوريّ كان من أصحاب الأمير المذكور . وكان يستفيدُ منه أموالاً بالمخارق . فمن ذلك انه كان يُرسِلُ عجوزاً إلى بيت المذكور تستخبر بطريقٍ عما طُبخ في مطبخ الامير المذكورِ من الطعام ، وتُخبره بذلك . فيأتي في اليوم الثـاني ويجلسُ عند الأمير . فيقول له الاميرُ : كيف حالُ الشيخ ، فيقول في جوابه : الحمدُ لله على نعمه . فيقول له الاميرُ : تشوّقنا إليك . فعند ذلك يظهر أنه يبكي ويقولُ له : يا أمير كيف تشتاق اليّ وكيف تحبني وانت أكلْتَ كذا وكذا ،

وما تفكرتني ، ولا ادخرت لي شيئاً من ذلك . ويُسمي ما كان طبخ فيزيد اعتقادُه عليه . ويقومُ ويعانقه ويبكي . ويُعطيه مالاً جزيلاً . فلا يقبله إلا بجهدٍ جهيد ، ودلالٍ وكيد .

ولقد كنتُ في يوم جمعةٍ عند الأمير ابراهيم المنجكي صاحب هذه الترجمة في صحبة شيخ الاسلام الشهاب الطيبي الصغير . وإذا بالشيخ عبد الوهاب الصفوري المذكور قد دخل راكباً حماراً . فلما استقر به الجلوسُ قال : قاضي البلدة ليس له عقل . أرسل اليوم ورائي وقال لي : وقعت غرارة قمح في وقف النور الشهيد بداريا ، ونريد أن نوجهها لك . قال : فقلتُ له : هل يليق بمثلي أن أقبل منك مرتب غرارة قمح . والأمير ابراهيم بن منجك حي يرزق ؟

قال : فعند ذلك دعالي القاضي ، ودعا للأمير أيضاً . وأوضحتُ له مكارم الأمير وما هو مشتمل عليه من مكارم الأخلاق ، وأنه مرتب لجماعته غلالاً من القمح وغيره .

فعند ذلك قال الأمير ابراهيم المذكور للشيخ عبد الوهاب المذكور : خُذْ من وكيلنا غرارة قمح فإنا رسمنا لك بذلك .

فقال له الشيخ عبد الوهاب : ويا ليت شعري ما أصنعُ بغرارة قمح ، وتلك الواقفة هناك - يشير إلى حمارته - تطلب مني غرارة شعير .

فضحك الأميرُ والحاضرون لقوله إن الحمارة تشير إليه في طلب الغرارة من الشعير . فأمر له بغرارتين الواحدة قمح والاخرى شعير .

وكان الأميرُ المذكور غايةً في المكارم ، بحيث أنه كان ابتهاجاً في عصره لجميع الأكارم . وعاش نحو تسعين سنة . وكان رحمه الله تعالى صافياً خالياً من الضغن والحقد . [1] وكانت له أرزاقٌ دارّةٌ على كثيرٍ

---

(١) ه « الطعن والحسد » ، ب « الضغن والحسد »

من العلماء والصلحاء . وما كان يتصدقُ غالباً إلاّ بالذهب . وقد صرتُ في أيّام توليته لأوقاف بني منجك إماماً لجامع منجك بمحلّة ميدان الحصا ، ثم إني عجزت عن مباشرة الإمامة في المحلّة المذكورة لأني كنتُ مشتغلاً بالعلم في الجامع الأموي . فحضرتُ إليه وقلتُ له : يا أمير ؟ اعفني من الإمامة في جامع جدك بالميدان .

فقال : لعلّك تريد الفراغ عن الوظيفة لكونك تضايقتَ من أحد ، أو لأنّ العلوفة قليلة فنرقّيها لك .

فقلتُ : لا والله لا ذا ولا ذاك . وإنمّا أنا مشغول بتحصيل العلم ، ولا يسع الوقتُ ملازمة الأوقاف للإمامة في تلك المحلّة .

فعندذلك أخذ التقرير وأعطاني ديناراًمن الذّهب. وقرأتُ له الفاتحةوفارقتُه.

وبالجملة فقد كان الاميرُ المذكور من محاسن الشام ، ومن القوم الكرام وكانت وفاته في سنة إحدى وتسعين وتسع مئة . وفقدتِ الشامُ بفقده جمالاً ، وفقد الفقراءُ بفقده نوالاً .

ومن جملة أفعاله الجميلة إحسانُه إلى المرحوم العلاّمة أسد الدين التبريزيّ ثم الدمشقي . فإنّه وقف عليه وعلى ذريّته بيتاً لانظيرَ له في دمشق . وهو عند باب الجامع الامويّ من جهة الشرق . ووقف أيضاً عليه وعلى ذريّته بستاناً في جانب | بستان | [1] الشيخ البهنسي قبالة الجسر ، عند ابتداء الدخول في الميدان الاخضر بالمرجة . وكان في حال حياته متكفّلاً بغالب نفقة الشيخ أسد المذكور ونفقة عياله . فرحمه الله تعالى رحمةً واسعة ، وسقى ثراه من سحائب الرحمة الهامعة . آمين آمين .

---

(١) ساقط من ه

٧٣

الأمير ابراهيم بن الجراح محمد باشا الوزير الأعظم

نشأ الأميرُ ابراهيم هذا في دولة أبيه . وتعلّم منه رفعة قدره مع تأبّيه . لكنه ترعرع راتعا في روضة من الأدب أريض ، وفَهْمٍ يكادُ يفوق برقّته على لطف النسيم المريض . والغالبُ عليه الشعور[1] في شعر الفرس والروم . فإنّه وصل فيهما إلى غاية ما يروم . وتولّى الإمارة في بلاد عظيمة ، وجرّ عساكر ماجرّت إلاّ بالفتح عن حزم العزيمة . فتولى انكورية وقصطمونية ، والمدينة المعروفة بقره حصار . واختلفت عليه الديارُ . ونُسب إلى الجلاليّة لوفور أتباعه . ففرّ إلى مقرّ الخلافة بقسطنطينيّة خوفاً من بعده عن أبيه وانقطاعه . ثم خرج عن المدينة مستخفياً على هيئة الدراويش ، ورضي بتصغير قدره خوفاً من دواعي التشويش . ثم إنه دار الديار ، وأخفى عن وجوده الآثار ، الى أن مات والده متقاعداً عن الوزارة . فحضر الى قبره بعد الموت وزاره . وكان والده قد تزوج ببنتٍ من بنات ملوك الاسلام آل عثمان . إذ عادتهم تزويجُ بناتهم لعبيدهم ، ومنعهُنّ عن الأماثل والأعيان ، فلما توفي والده صار لزوجته بنت السلطان طريفه وتالده ، وخرج خالياً من ميراث أبيه حتى من السكن الذي يقرّ بهِ ويأويه . وطار به هواه الى مصر والقاهرة ، وأمضى حكم فهمه في الآداب التي لم تزل بها نفسه ماهرة . فحنّ عليه بعض الوزراء ، وأنزلوه منزلة بعض الأمراء . ثم تاقت نفسه الى ما فيه أنسه ، من سلب الإمارة ،

---

(١) ه « الشعر »

عن علاقة الإمارة (؟) وقمع بذلك نفسه الأمّارة . وطلب علوفة تكون كفافاً ، ووظيفةً تجمل له الى الراحة [١] انعطافاً . فجعلوا له من جانب السلطنة نحو أربعة من الدنانير الذهبيّة ، وألقوا حبله على غاربه في الديار المصريّة . فتارةً يسير الى اسكندريّة ويُذهب بلطف نسيمها ما عنده من الهموم الدنيوية . وتارةً يسير الى دمشق الشام ، مُداوياً بلطف فراديسها ما عنده من الأسقام .

وقد اجتمعتُ به في دمشق المحروسة عند صاحب الذات المأنوسة ، قاضي القضاة ، أحمدَ سيوفِ الحق المنتضاة ، الشهير بعزمي زاده [٢] بين الموالي . أقام الله قدره الرفيع العالي . ولعمري لقد كان له عنده مقدار رفيع ، وحِمىً من العزّة منيع . لعلوّ نسبه [٣] ، وكمال أدبه ، ورفعة حسبه . ولقد ضعف الأمير ابراهيم ، ونظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم[٤] . فلاطفه المولى المذكور بألطاف من أخلاقه ، التي تضيق عن بيانها السطور . وشهدت من الأمير شعراً منسوباً ، ونظماً على آماق العيون مكتوبا . وكان مع ذلك يضرب على عود الطرب ، ويستهوي العقول بِضَرْب وضَرَب . ويتكلم بالفارسيّة ، وينظم في تلك اللغة أبياتا حافظيّة . فأنشدت عند اطلاعي على ذلك من احاطني من اجادته في الشعر بما هنالك :

ما زالَ يعلُو في مناسبِ فارسٍ   حتى ظننتُ النوبهارَ له أبا

وهو اليوم في دمشق الشام ، سقاها صوب الغمام ، على نية الرجوع الى القاهرة ، بعد استيفاء مـا بدمشق من المحاسن الزاهرة . وحررت هذه الكلمات في ليلة الثلاثاء اليوم الثلاثين من رجب المرجب ، من شهور سنة إحدى وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها ألف ألف تحية .

---

(١) ه « في الراحلة »

(٢) تولى قضاء دمشق مرتين . كانت الولاية الثانية سنة ١٠٢٠ . انظر الباشات والقضاة لابن جمعة ص ٢٧ و ٣٠

(٣) ه « كسبه »

(٤) ه ، ب « سليم »

٧٤

ابراهيم باشا الشهير بحاجي إبراهيم باشا

هو رجلٌ كان في مبتدأ أمره طالب علمٍ ، وسلك في بدايته طريق القضاء . حتى إنه قال لي من لفظه : استمريتُ قاضياً في مدينة اسكدار ست عشرة سنة . ثم إنه صار رأساً للدفتردارية في قسطنطينية . وباشر ذلك بهمة قويّة ، وعزمةٍ مرضيّة . ثم نكب بعد ذلك وأُخِذَتْ أموالُه وضُبِطَتْ للسلطنة . بسبب أنه نُسب الى خيانة في مال السلطان . واستمرّ ملازماً بيته مُعطّلًا من حُلى المناصب الى أن طلب من حضرة السلطان بعض قرى ومزارع وزعامات على أن يجلس في مدينة دمشق متقاعداً . فأعطاه السلطان ما طلب ، وحضر الى دمشق وسكن في بيت رجب آغا شمالي جامع يلبغا [١] وتزوج بها [٢] زوجته أيضاً . وكنتُ أتردّدُ إليه في زمن إقامته بدمشق . وكان يحفظُ كثيراً من الأبحـــاث العلميّة التي علقت في فكره في ابتداء أمره [٣] وحَجّ من دمشق ورجع إليها . ثم إنّه سافر إلى الباب العالي بقسطنطينيّة . وأظنّه طُلِبَ من جانب السلطنة . فبعد وصوله الى هناك صار رأساً لارباب الدفاتر ، وذلك منصبٌ كبيرٌ عندهم . لأنّ جميع الأموال السلطانيّة في جميع أقطارِ الأرض تدخل تحت قلمه . وهو حاكمٌ على جميع أرباب الأقلام . وله عرض مقبول عند حضرة السلطان نصره الله تعالى لأنه أمين على أموال خزائنه كلّها .

---

(١) عند ساحة سوق الخيل سابقاً ، وقد زالت الساحة اليوم . انظر وصفه في ذيل ثمار المقاصد ص ٢٥٩ .

(٢) ساقطة من ه . ب

(٣) « « عمره »

ثم إنّه عُزل من المنصب المذكور . فذهب الى الشيخ محمود الأسكداري وأخذ عليه العهد ، ولبس منه خرقة التصوّف . فاحتاج الأمرُ الى ارسال رجلٍ أمين يكتب ويضبط الأموال السلطانيّة في جانب حلب . فرسم السلطانُ نصره الله تعالى لابراهيم باشا المذكور أن يسير الى بلاد حلب يضبطها ،[١] وينظر في أموالها فتمنع من ذلك ، وشاور شيخه الشيخ محمود في ذلك . فأشار عليه بقبول قول[٢] وليّ الأمر . فقبل وسار الى حلب وساق فيها عَدْلاً ما سمع الناس بمثله بعد عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . قَسَماً لقد سمعتُ عنه حكاياتٍ في العدل وإنصاف الرعايا ما سمعتُ بمثلها إلاّ عن الخلفاء الراشدين . فبينا هو سائر في الناس هذه السيرة حضرت الرعايا اليه وشكوا من ينكجرية الشام . وقالوا له : ظلمونا وأخذوا منا أولادنا وعيالنا . فأرسل الى اليكنجرية ونصحهم . فما ازدادوا إلاّ طُغْياناً وضلالاً . فركب عليهم وقتل منهم مقتلةً عظيمة . ودخل برؤوسهم الى حلب على رؤس الرماح . فثار لذلك عليه القومُ المذكورون ، وقصدوه من جانب حلب ، فاحتجب . ثم إنّ حضرة السلطان نصره الله تعالى عزله عن حلب لئلا يصير بينه وبين القوم المذكورين فتنة ، فذهب الى باب السلطان نصره الله تعالى . وطلبه أهلُ حلب مرّاتٍ فلم يتيسر إرسالُه اليهم . وجعله السلطان وزيراً له يجلس مع بقيّة الوزراء في بابه ، يسمع دعاوي الناس ، وها هو في هذا التاريخ ، وهو سنة تسعٍ بعد الألف ، مقيم في الباب العالي وزيراً . ولكن بلغنا من الأفواه أنّه صار وزيراً وحاكماً في تبريز ، وما يتبعها من بلاد أذَرْبَيْجان مكان المرحوم الغازي جعفر باشا الخادم ، لموته في تلك البلاد . ولكن أظُنّه أنه ماقبل ولاية هاتيك البلاد . والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وبالجملة فهو من محاسن الحكّام ، في هذه الأيام . وفقه الله تعالى ونصره ، وأعطاه وجبره . آمين .

---

(١) « يضبطه »

(٢) « امر »

٧٥

ابراهيم باشا الشهير بدالي ابراهيم باشا

هو على ما بلغني في الأصل من طائفة الارمن . ودخل هو وأخوه وأخته الى دار السلطنة بقسطنطينيّة فخدموا . وأخوه اسمه محمود . وأما ابراهيم فإنّه لم يزل من لدن خروجه من خدمة السلطان يتقلّب في الولايات حتى صار أمير الأمراء في ديار بكر بأسرها . فقتل فيها وظَلَمَ أهاليها . وأظهر من أنواع الظلم شيئاً لا يرضى به مَنْ في قلبه ذرّة من الإيمان ، ومن ذلك أنّه كان كلّما سمع بامرأة حسناء اجتهد على الاجتماع بها بأي طريقٍ أمكن . وكان في ديار بكر رجلٌ ، يُقال له الخواجا رجب . وكان كثير الأموال الى الغاية . فقال له : أنت أبي ، فقال ، له الخواجا : وأنت ابني . فبينما الخواجا المذكور في بيته وإذا بقائل يقول له : ابراهيم باشا على الباب يريدُ الدخول . وكان ذلك ليلاً . فارتعدت فرائصُه لذلك . فخرج اليه فوجده قد اقتحم البيت . فبهت الخواجا رجب لذلك ، فقال له يا أبتِ أريدُ أن أنظر اخواتي ، يعني بنات الخواجا . وأريد أن تجعل لي حصّةً من مالك كما جعلت لبقية أخوتي . فلم يزل يلاطفُه حتى أرضاه بنحو خمسة آلاف من الذهب الأحمر ولم يزل بالخواجا المذكور حتى قتله وقطعه أربع قطع . وفعل في ديار بكر الأفاعيل العظيمة . فذهب غالب أعيان هاتيك الديار وشكوا عليه لحضرة السلطان مراد فأمر بأن يُؤتى به مقيّداً ، فأتوا به كذلك . ولما حضر الى الباب أمر السلطان أخصامه الذين تشكّوا منه أن يقفوا معه في موقف الشرع . فما اطمأن أحدٌ أن يشهد عليه ، ولا قدر القاضي أن يدقّق عليه في سماع الدعوى ،

لأنّ اخته كانت عند السلطان مراد مقبولة الى الغاية . وانصرف خصماؤه بخفي حُنَيْن . وولاّه السلطان أيضاً ديار بكر فذهب اليها ناوياً على إهلاك كلّ من اشتكى عليه . ومنهم ملك أحمد باشا وعلاء الدين بك، فإنه أهلكهما تحت العذاب ووصل إلى أن ثار عليه أهلُ البلد ، وقاموا عليه قومة رجلٍ واحد . فتحصّن في القلعة وصار يضربُ على أهلِ المدينة بالمدافع الكبيرة ، حتى قُتل منهم كثيرٌ . فبلغ أمره الى جميع الأنام ، من الخاص والعام وكان سلطان الوقتِ الملكُ العادلُ الغازي السلطانُ محمد ولي عهد أبيه . وهو مقيمٌ في مدينة مغنيسيا . فأرسل الى ابراهيم باشا المذكور يشفع عنده في الرعايا عموماً وفي ملك أحمد باشا المذكور خصوصاً . فقال : أما الآن فهو ماله حكم ، مع وجود والده ، وإذا صار سلطاناً فليفعل بي ما أراد ، فنوى السلطان المذكور قتله يوم يصير سلطاناً .

فلمّا مَنّ الله تعالى عليه بالسلطنة وحضر الى دار سلطنة قسطنطينية سأل عن ابراهيم باشا المذكور فقيل له : إنّه محبوس في حبس والدك المرحوم . فأمر به فقُتل صبراً من غير تأخير . فشاع له بذلك ثناء عظيم ، واستبشر الناس بقدومه عليهم . وقالوا : قد أزال عن المسلمين غمّة ، وكشف عنهم ظلمة ، بسبب قتله الظالم المذكور .

أخبرني مَنْ شاهد قتله أنّه كان جالساً في الحبس بعد صلاة العشاء . فدخل عليه كبيرٌ من خواص خدم الديوان ومعه جماعةٌ من الجلّادين مغيّرين لصورتهم حتى لا يرتاب بهم . وجلس ذلك الكبيرُ يُصاحبه في أمور مموّهة ، وأقدم عليه الجلّادون من خلفه ووضعوا في عنقه حبلاً وقالوا : أمر بذلك السلطان . قال : فرأيتُه قد رفع مسبّحته بالشهادة . فلما مات ألقوه في البحر ثم شفعت فيه أختُه فدفنوه . وصار عبرةً للمعتبرين ، و قُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين[1] .

---

(١) سورة الانعام ، ٦ ، الآية ٤٥

٧٦

الوزير الأعظم ابراهيم باشا نصره الله تعالى

هو الوزيرُ الأكرم الأعظم ، والأميرُ الأكبر المقدّم . هو من أمراء السلطان مراد ابن السلطان سليم العثماني . ولما ظهر من حرم السلطنة صار آغا الينكجرية بالقسطنطينيّة ، وضبطهم أحسن ضبط . واستمرّ في ضبطهم مدّةً طويلة . ثم صار أمير بلاد روملي كلّها مدة طويلة . ثم إنّ السلطان مراد المذكور أراد أن يزوّجه ابنته . فأرسله إلى بلاد مصر ، فاستمرّ في مصر زماناً طويلاً . وكان كريماً حليماً حسن الأخلاق الى الغاية . أراد أنْ يهدم بناء الأهرام الذي بمصر لمّا بلغه أنّ فيه دنانير للسلاطين المتقدّمين . فحذّروه من ذلك ، وقالوا له : إنّ المأمون العبّاسي أراد هدمه فما قدر على ذلك . وقالوا ربما تكون الأهرام طلسماً للرمل ، ولبعض منافع ، فإنها ما وُضعتْ إلا بطريق الحكمة . فعدل عن هدمها . ثم إنّه أقام في مصر أميراً يحكم فيها . وأخذ منها دراهم كثيرة .

والأميرُ المذكورُ سنان باشا الذي كان دفتردار في مصر ، فرفعه من الدفتر إلى الحكم والسيف .

ثم خرج ابراهيم باشا من مصر بأموالٍ عظيمةٍ ، وتحف كثيرةٍ ، منها أنه جعل لحضرة السلطان مراد تختاً من الذهب مرصّعاً بالجواهر العظيمة . ورجع ومعه عساكر مصر .

وجمع عساكر الشام ، وحاكمُها إذ ذاك أويس باشا[١] الآتي ذكره إن شاء الله تعالى ، وكبس جبل الشوف[٢] من نواحي دمشق على طرف البحر من الجانب الغربي ، وبه قوم من الدروز الباطنيّة ، وهم لا يدينون بملّة ولا يرجعون الى عقيدة ، يرون للشرائع باطناً غير ما هو ظاهر . فقَتَلَ ونَهَبَ وحرق ودوّخهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة ، وألوفاً من البنادق ، وحاصرهم محاصرة عظيمة ، حتى إن أميرهم قرقماز[٣] ابن معن مات قهراً .

ثم سار إلى دار السلطنة قسطنطينيّة من طريق البحر في المراكب العظيمة وهو اليوم في هذا التاريخ ، وهو سنة تسع بعد الألف في داخل بلاد الروم ، مجاهدٌ في سبيل الله . وقاتل في هذه السنة طوائف الكفّار وثبت ثباتاً عظيماً بعد أن كادت النصارى تكسر عساكر المسلمين ، لكنّ الله جلّ وعلا وتقدّس وتعالى أرسل ريح النصر على المسلمين فلم يزالوا يقتلون في النصارى حتى إنهم أفنوهم قتلاً وأسرا . وكان للمسلمين عسكرٌ آخر بسَرَدار يُقال له محمود باشا . فانتصر هو أيضاً بحمد الله تعالى . وأمسكوا زوجة الطاغية وبنته ووزيره ، وأرسلوا إلى دار السلطنة . وجاءت البشائر بالنصر إلى بلاد الشام ، وكُتبتْ كتب البشائر بالتركيّة الفصيحة والألفاظ المليحة ، وأرسلت إلى بلاد السلطان . وزيّن أهلُ دمشق بلدهم بزينة ما عُهِدتْ قطّ ، واستمرتِ الزينةُ ثلاثة أيّام بلياليها . وكان أمير الأمراء بدمشق السيد محمد باشا الإصفهاني الأصل . وساس الناس وضبطهم ضبطاً حسناً . وركب في الزينة مرّتين ليلاً ونهاراً . وأشعَلَ الناسُ له الشموع العظيمة ، فرحاً به ، وأحرقوا أمامه العود المليح . وكان يسلّم على الناس ببشاشةٍ واستبشارٍ وتواضع . وكان الناس يدعون له .

---

(١) انظر الباشات والقضاة ص ١٩

(٢) في لبنان اليوم . معروف .

(٣) « قرقماس »

وابراهيم باشا صاحب الترجمة الى وقتنا مقيمٌ على سبيل المرابطة في بلاد الروم خوفاً من النصارى أن يهجموا على بلاد الاسلام فجزاه الله خير الجزاء .

وفيه صفات تدل على أنه رقيقُ القلب ، رحيمُ الفؤاد . خالٍ من الضّغن والعِناد . تزوّج بنت المرحوم السلطان مراد . وهي أخت السلطان اليوم ، وهو السلطان محمد ، أدام الله نصره ورفع قدره ، ونشر في الخافقين ذكره ، وسهّل في كلّ حال أمره . آمين .

ثم ورد الخبر بموت الوزير الأعظم ابراهيم باشا المذكور في المحرّم من سنة عشرٍ بعد الألف وهو مرابطٌ النصارى رحمه الله تعالى . آمين .

٧٧

ابراهيم آغا جاشنكير
متوليّ جامع بني أمية

هو من مماليك سلاطين بني عثمان . وكان يخدمُ في داخل حرم السلطنة . وكانت خدمتُه هناك إقراء المماليك الصغار الذين يخدمون في داخل بيت السلطان . على ماذُكر لي . لكنّه خدم العلم برهةً من الزمان فعلق في فكره شيءٌ كثير من المسائل والدلائل ، فكثيراً ما يحضر مجالس العلماء فيُجيبُ ويناظر ويتكلّم . ولمّا وَرَدَ الى دمشق وصل اليها في أوائل سنة ألفٍ من الهجرة . فسكن في جانب سوق البزوريّة بدمشق بزقاقٍ هناك . وكان على سَمْتِ الصلاح. فسار في خدمة الجامع المذكور أحسن سيرٍ . وهو من الذين لا يتكلمون في المجالس إلاّ كلام الخير يعرفه في الغالب من يقدم من باب السلطنة من الأمراء حاكماً بدمشق لا سيّما الذين خرجوا من الداخل . ودائماً يصاحبونه ويستمعون إشارته . ولم يزل كذلك حتى خطر له أن يعمر حجرةً بالجامع الأموي يقطن بها . وهي الحجرة المقابلة لحجرة الساعات في [جهة][1] باب جَيْرُون[2] . وكانت حجرةً مهجورة مبغوضةً لا يميلُ اليها أحد . ويزعمون أنّ بها حيّةً ألنفيّةً فعمرها . وكانت بيد رجلٍ يُقال له الشيخ رمضان المرداوي الأكول . فلما مات لم يرغب في أخذها أحدٌ بعده ، حتى قدم ابراهيم آغا المذكور فأزال ما في داخلها من البناء . فصارتْ لها صورةٌ

---

(١) ساقط من ه

(٢) هو باب الجامع الشرقي ، ويسمى باب النوفرة . وباب الساعات . انظر مسجد دمشق لنا

قابلة للبناء . وقاس المعمارُ طريقَ الماء فوجده قابلاً أن يدخل اليها . فشرع في عمارتها . وأخذ بالعمارة إجازةً من بعض القضاة . فلم يزل يتنوّع في تعميرها حتى صارت من ألطفِ الأبنية بدمشق ، بل أظنُّ أنها الآن عديمة النظير في الدنيا كلّها ، لأنّه زخرفها زخرفةً لا يُتصوّر فوقها شيءٌ أبدا . وأجرى لها الماء . غير أنّه هجم على أمرٍ ما كان في قدرة غيره لولا كونه متولياً على الجامع ، ولولا ميل الحكام اليه . وذلك أنّه فتح في حائط الجامع شبّاكاً للحجرة المذكورة في جانبها الغربيّ بحيث صار الشباك المذكور يُرى منه من يمر من جهة باب البريد لوقوعه في الحائط الشرقيّ مقابلاً لسمت باب البريد من الجانب الغربي . وأضاف اليها حانوتاً كان وراءها في جهة | باب |[1] سوق الذهبيّين ، وجعله فيها مطبخاً . وحاصل الأمرانّ الحجرة المذكور آلتْ الى صورةٍ تتمنّاها بها الملوكُ ، بل | مسرة |[2] في النفوس كلّها .

وهو الآن في هذا التاريخ وهو تاريخ رمضان سنة تسع بعد الألف مقيمٌ بها . وقد استخدم صبياً من أولاد دمشق اسمه ابراهيم كاسمه . فافتتن به حتى شاعت فتنتُه به بين أهل الشام ، الخاصّ منهم والعام . ويُنقل عنها أفعالٌ الأولى بنا الإعراض عن تفصيلها ، لأننا لا نذكر في الغالب إلاّ المحاسن .

ومن عادةِ قضاةِ دمشق أنّهم يتردّدون الى الحجرة المذكورة في بعض الأوقاتِ ، لا سيّما أوقات الصلوات . فمن جملة من تردّدَ اليها قاضي دمشق في التاريخ المذكور[3] .

---

(١) ساقط من ه ، ب

(٢) ب ، ه « حسرة »

(٣) كان قاضي دمشق في سنة ١٠٠٩ عبد الرحيم بن اسكندر ، انظر الباشات والقضاة

ومن الوقائع المتعلّقة بهذه الحجرة أنّ المتولّي لما أخذ الدكان التي وراء حجرته كما ذكرنا وجعلها مطبخاً شاع بين الناس أنه يريد أن يجعل هناك مرتفقاً فخمّنوا موضع المرتفق فوجدوه يقع تحت المحراب المنسوب الى حضرة الإمام زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما . فغضب لذلك نقيبُ الأشراف بدمشق وهو زين العابدين بن حسين بن كمال الدين بن حمزة الحسيني لمكان قربه من زين العابدين الإمام ، وغيرةً على محرابه فذهب مستشيطاً بالغيظ الى حضرة الوزير السيد محمد الإصفهاني أمير الأمراء بدمشق يومئذ ، ونادى في حضرته بصوتٍ عالٍ : لا حول ولا قوة إلاّ بالله . هكذا تُهان معاهدُ آلِ البيت ! أوليس الإمام زين العابدين جدّي وجدّك ؟ فكيف يأذن القاضي عبد الرحمن لابراهيم المتولي أن يبني مرحاضاً يرتفق به في الجامع الأموي بحجرته ، ويكونُ مسقطُه تحت محراب الامام المذكور ؟ فغضب الوزيرُ لذلك . غير أنه استبعده . فكتب ورقة الى القاضي يلومه على الصنع المذكور إنْ كان واقعاً ، وأرسل الورقة مع النقيب . وضمّ معه جاويشاً من خدمة الديوان . فلما قرأ القاضي الورقة علم أنّ الوشاية به كانت من النقيب . فشتمه وقال له : قم واكشف أنت على الموضع فإن كان كما ذكرتَ أزلناه . وأمره بعد الكشف بالعود إليه . ورسم عليه ليرجع اليه . فذهب الى المكان فلم يجد شيئاً مما أنهيَ الى الوزير . فسُقط في يده . فرجع الى القاضي وقال له : ماصدر شيءٌ من ذلك . فقال له : فحينئذ كيف أقدمتَ على الشكاية الموجبة لعظيم النكاية من غير أن تتحقّق الحال ؟

ثم إنّ القاضي ركب وأخذ النقيب المذكور أمام فرسه ماشياً الى منزل الوزير بدار الامارة بدمشق ، وهو يشتمه ويغلظ عليه الكلام . فلما وصل الى حضرة الوزير قصّا عليه القصّة فأظهر له القاضي ما عنده من القصة وقال :

هكذا ينسب الي هذا الخبيثُ ، مثل هذا الحديث ، من غير أصلٍ يُعتمدُ عليه ولا وثوقٍ [١] يميل في أخباره اليه .

فقال الوزيرُ للنقيب : قد تهوَّرْتَ بحمق عجيب . وأنت تعرف أنَّ عند الحكّام عصاً للتأديب . ولولا شرفُك لنالك من القاضي العقاب الغريب . فقم ولا تَعُدْ الى أمثالها . فإنك تُبلى بانكالها .

فقام النقيب إلى الفراش ، ومرض وعدم الانتعاش . الى أن حُقَّ عليه الفوتْ ، واتصف بداء الموت .

وبلغني من كثيرٍ من ثقات الناس أنه قال لأخيه : إنَّ الأجل مقدَّر . ولكن لكل موتة سبب مقرَّر . وسبب موته هدَّة القاضي ، وما عاتبه من الكلام الذي لم يكن عنه بالمتغاضي . وكانت وفاةُ النقيب في شعبان من سنة تسعٍ بعد الألف . ودُفن بمقبرة باب الصغير . وسيأتي ذكره في حرف الزاي بعون الملك القدير .

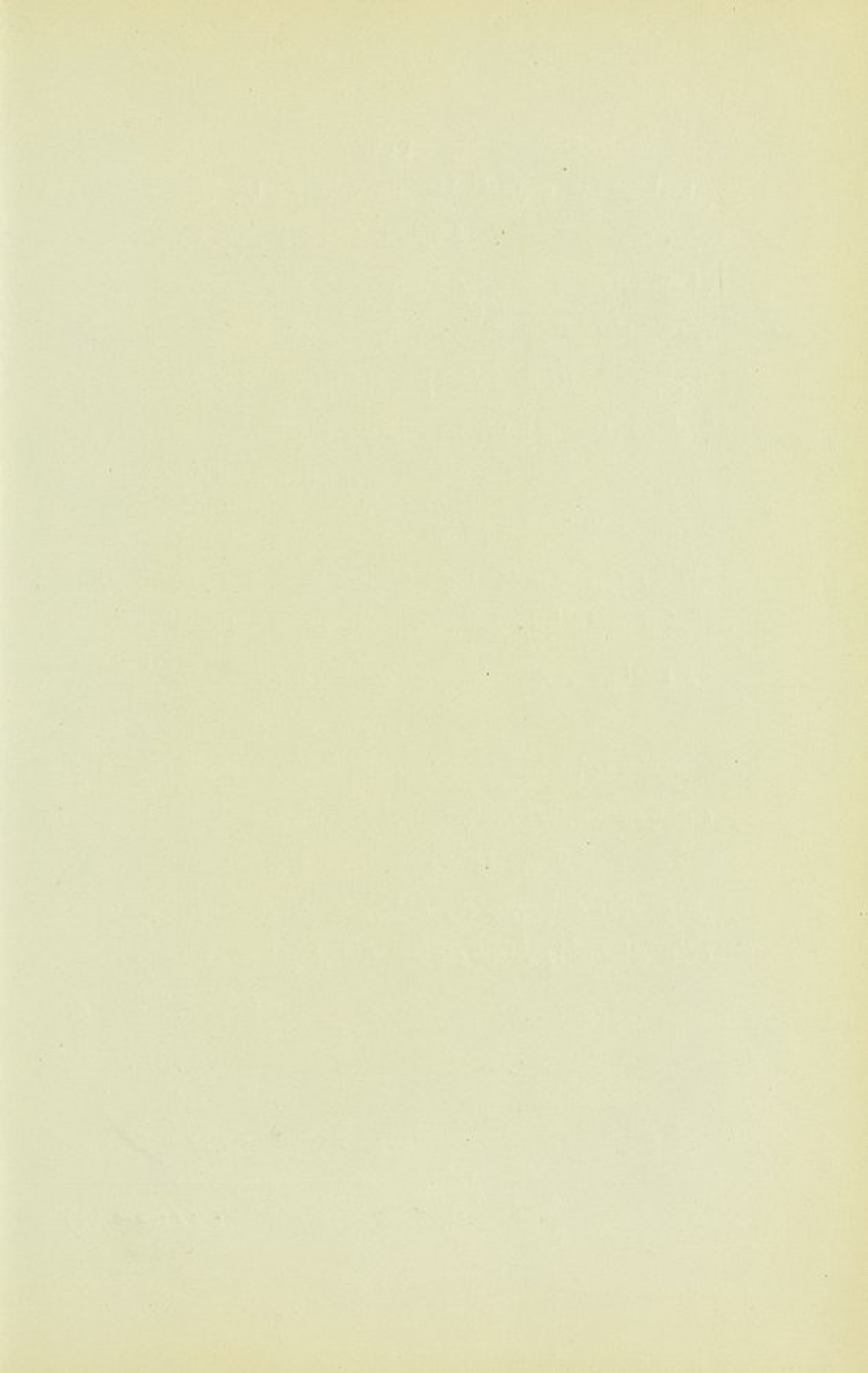
والمتولّي ابراهيم المذكور كان في داخل حرم السلطان جاشنكير . ومعناه أنه يذوق الطعام الذي يُقدَّم الى السلطان ليطمئن خاطره بأكله ، وهو واقفٌ أمامه بالحياصة من الذهب والطاقية من الذهب .

وحاصلُ الأمر أنّه من محاسن أبناء نوعه ومن يأمنه الانسان على نفسه وعرضه . وذلك قليل في أبناء الزمان وفقنا الله وإيّاه ، إلى ما يحبه ويرضاه . آمين . آمين .

يا خليليَّ عَـدِّيا عن حديث المكارمِ
مَنْ كفى النـاس شرَّه فهو في جودِ حاتمِ

---

(١) « د » وقوع »



فهرس تراجم الأعيان في الجزء الأول

(١) أرقام مقدمة المحقق من تحت ، وأرقام النص من فوق .

(١) تكرر الرقم ١٩ مرتين فأصبحت أرقام التراجم التالية غلطاً فيجب زيادتها واحداً

استدراك

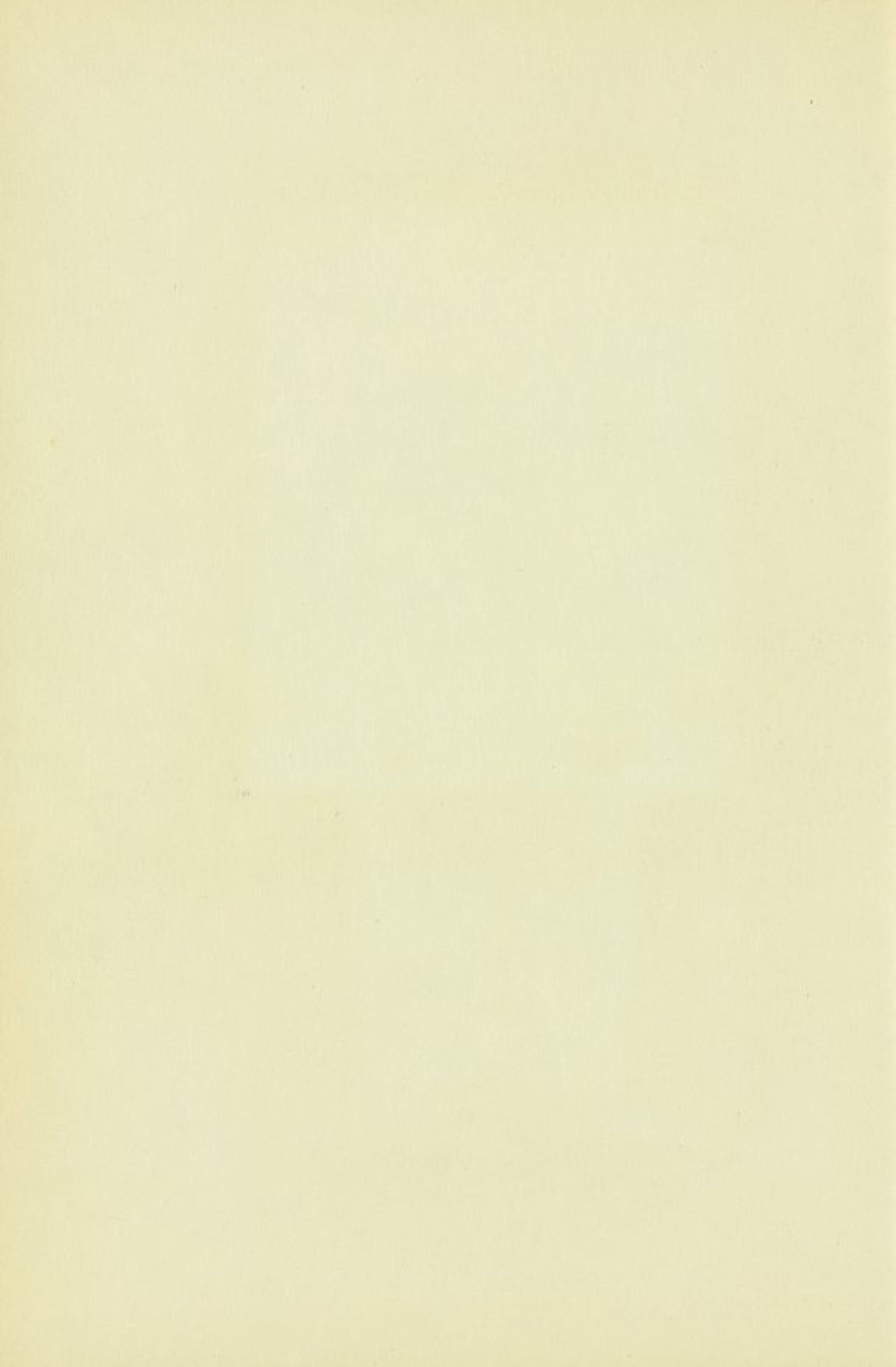
وقعت أخطاء مطبعية نصحّحها فيما يلي :

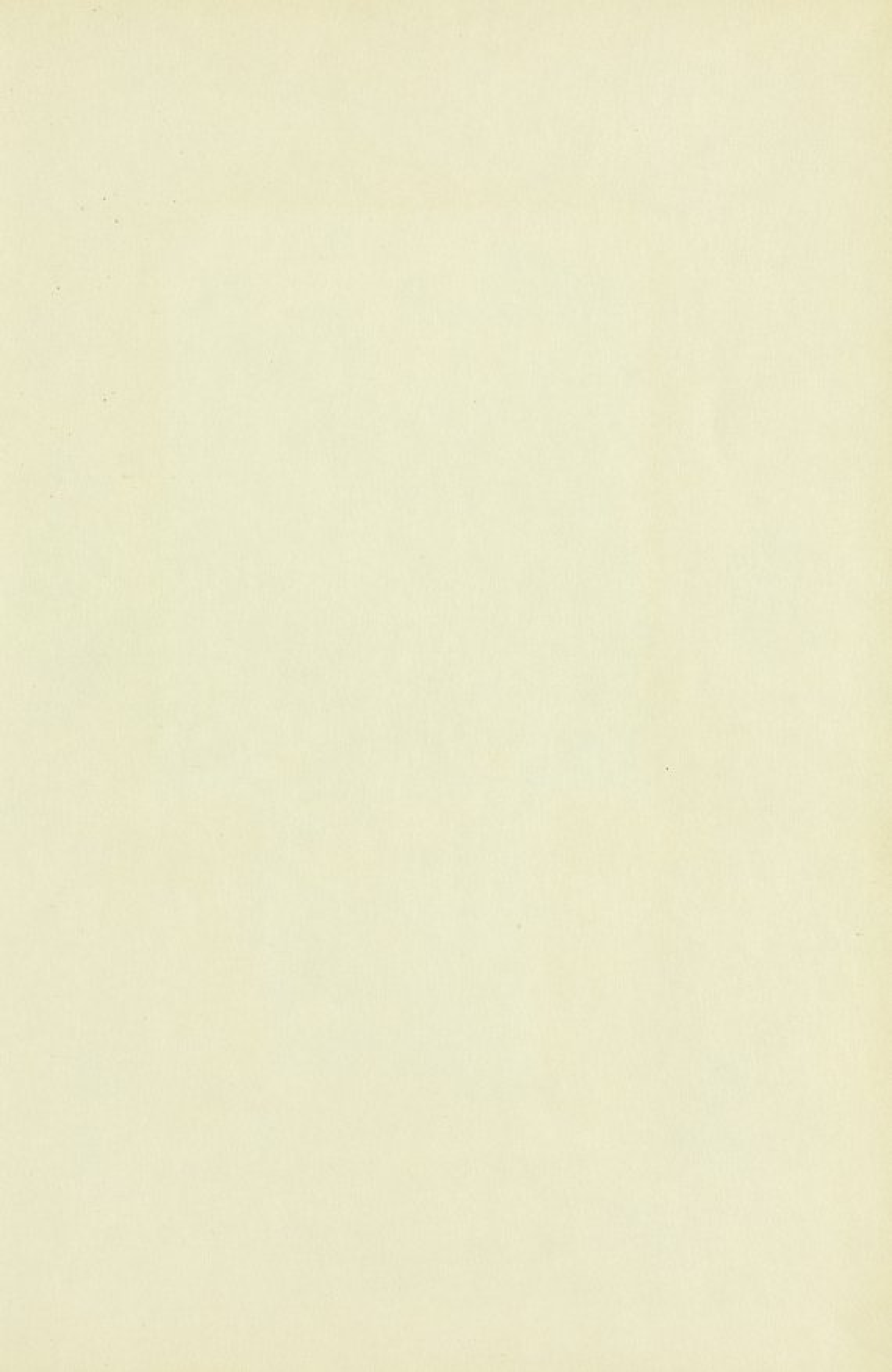
الموضع	الخطأ	الصواب
ص ١٣ مقدمة ، س ١١	سكنتُ في أهلي	سكنتُ في بيت أهلي
ص ١٥ « ، س ١٣	زبوع	ذبوع
ص ٤ من الاصل، س ٢	سقطت من الهامش الحاشية المتعلّقة بابن شدّاد . فأضف ما يلي : « التف ابن شدّاد (يوسف بن رافع) سيرة صلاح الدين . توفي سنة ٦٣٢هـ . انظر وفيات الأعيان ٨١/٦ . ثم صحح ارقام الحواشي الأخرى .	
ص ٥ ، س ١	اتّفق	اتّفق
ص ٥ ، س ٢٤	داعيت	راعيت
ص ٩ ، س ١٠	الكفرْسومي	الكفرْسومي
ص ٩ ، س ١٦	توّلى	تولّى
ص ١٠ ، س ١١	مرتبةَ	مرتبةٍ
ص ١٢ ، س ١٢	ينظُم	ينظِمُ
ص ١٢ ، س ٢٠	اسكان ثانية	إسكان ثانيه
ص ١٣ ، س ٩	دعاءه	وعاءه
ص ١٣ ، س ١٨	القرية	القربة
ص ١٤ ، س ٢٣	دات	ذات

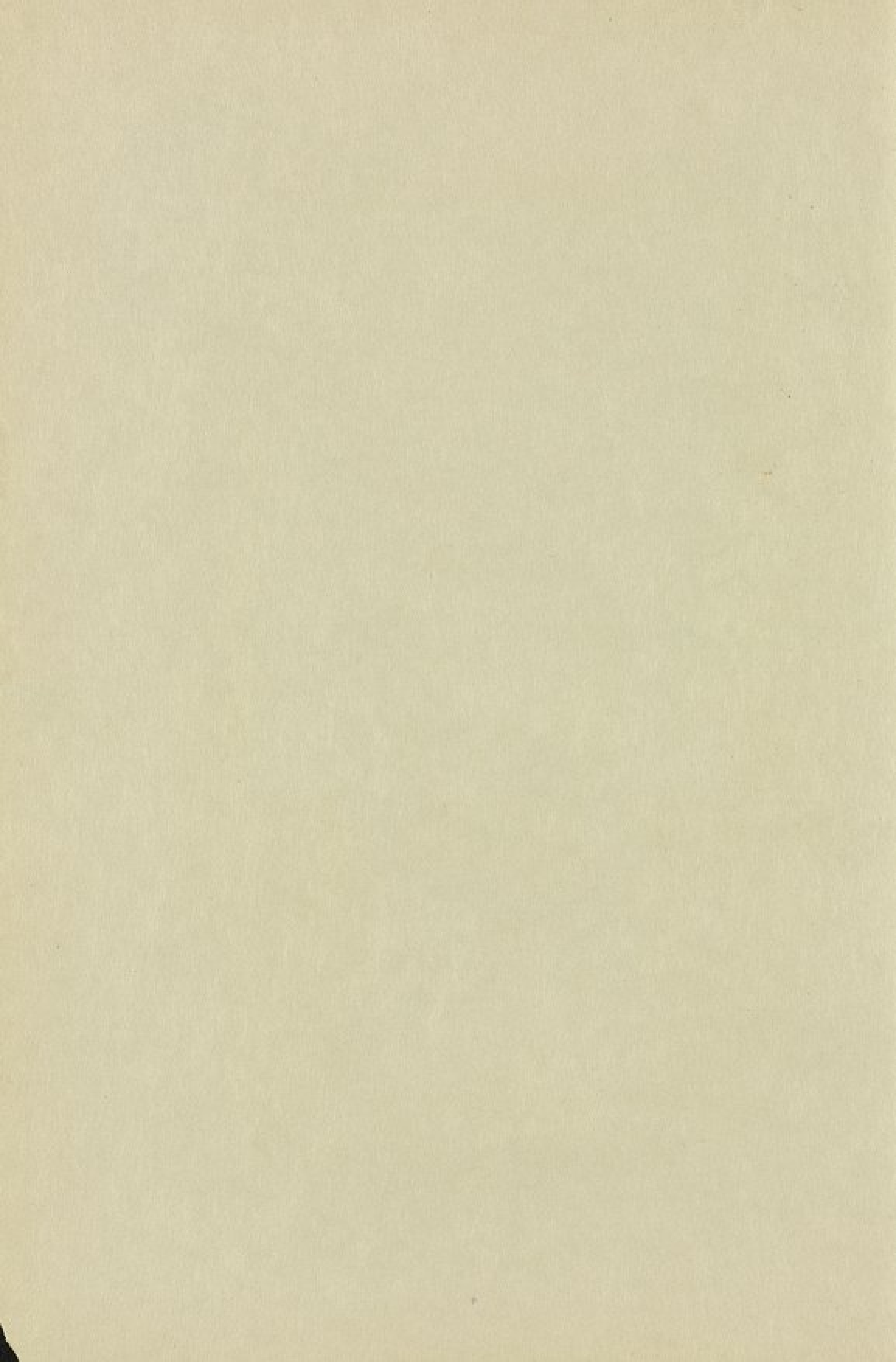
ص ١٧ ، س ٧	الاستقتاء	الاستفتاء
ص ٢٠ ، س ١٢	الجمّاح	الجِماح
ص ٢٣ ، س ١٠	مرّت	مدّت
ص ٢٣ ، س ١٧	لا تبدأ	لا تبدأ
ص ٢٩ ، س ٨	وطور	فطور
ص ٤٠ ، س ١	حسين	حسن
ص ٤٣ ، س ١٧	المحي	المحبي
ص ٤٩ ، س ١٧	الرُجَيحي	الرُجَيْجي
ص ٥٢ الحاشية الأخيرة	٣	٤
ص ٦٢ ، س ١٢	مقايسة	مقابسة
ص ٦٧ ، س ١٧	الأدب	الأرب
ص ٦٩ ، س ٧	في كلّ	كلّ
ص ٧١ ، س ٣	كفّيَ	كفّي
ص ٨٢ ، س ١٥	الذّلل	الزّلل
ص ٩٢ ،	الرقم ١٩	يجعل ٢٠ وتصحح بعد ذلك أرقام الترجمات الآتية
ص ٩٩ ، س ٥	قدْ	قد
ص ١٢٤ ، س ١١	يُقال القاضي	يُقال له القاضي
ص ١٣٢ ، س ٨	يُشَبِّهُ	يشبّهه
ص ١٣٧ ، س ١	المَصري	المِصري
ص ١٣٧ ، س ٨	الرفيق	الرقيق
ص ١٤٥ ، س ٧	تغنياً	تغنياً
ص ١٤٧ ، س ٤	العبادة	العبارة
ص ١٤٨ ، س ٢	لوْ	لوْ

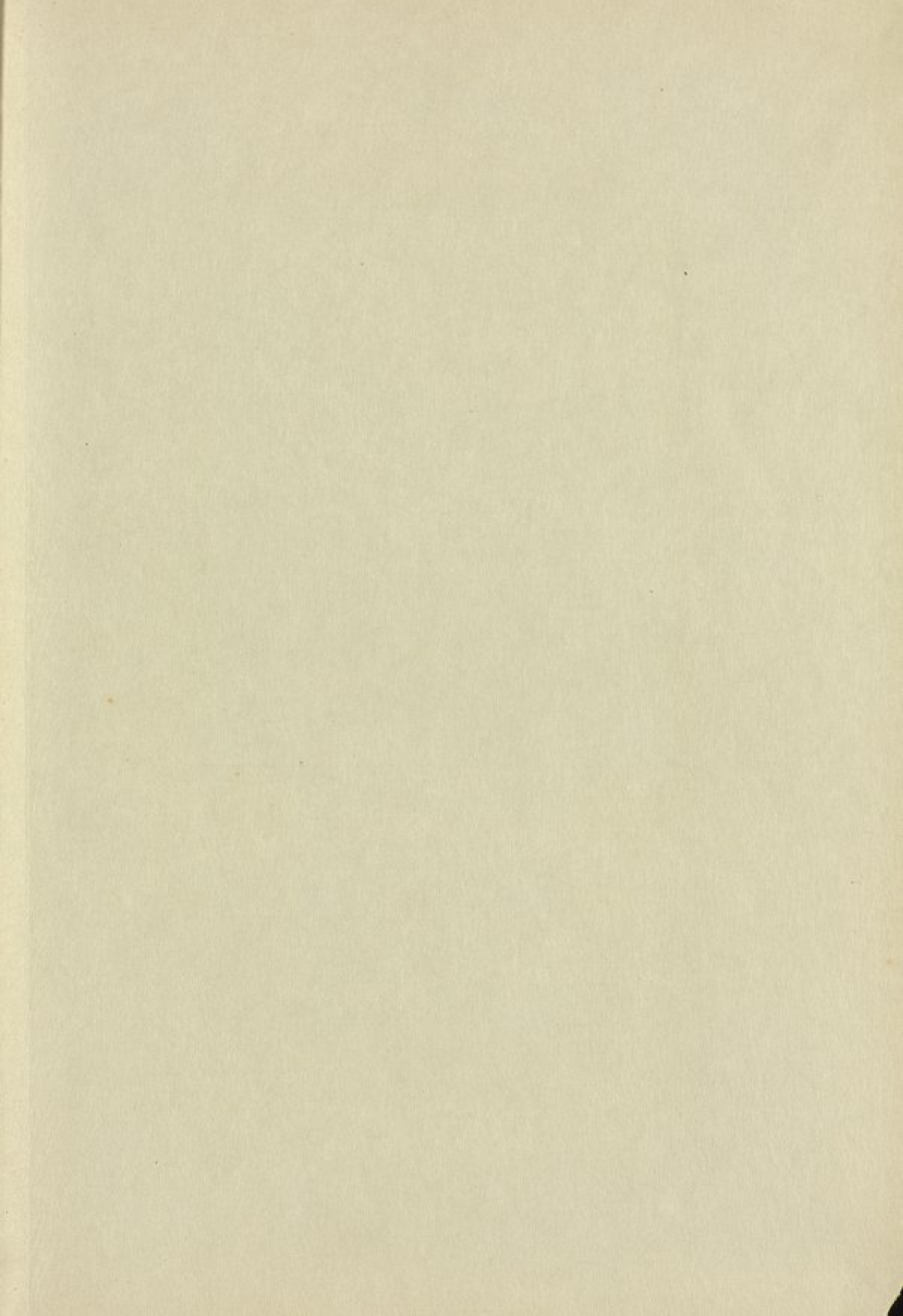
الموضع	الخطأ	الصواب
ص ١٥٤ ، س ٣	أنفك	أنفَك
ص ١٦١ ، س ١٣	عرض له	عرض لي
ص ١٦٨ ، س ١٤	فضاة	قضاة
ص ١٧٣ ، س ٨	ضماً	ضماً
ص ١٧٥ ، س ٣	النم	النما
ص ١٧٧ ، س ٣	حتم	حتما
ص ١٧٩ ، س ١١	سيء	سيئ
ص ٢١٣ ، س ١	سوفهم	سيوفهم
ص ٢١٣ ، س ٢	الطغاه	الطغاة
ص ٢١٣ ، س ٧	بالكمر	بالكفر
ص ٢١٣ ، س ٨	المواقب	المواقف
ص ٢١٣ ، س ٩	خنازر	خنازير
ص ٢١٣ ، س ١٠	لط غيتهم	لطاغيتهم
ص ٢١٣ ، س ١١	الكبير	الكبير
ص ٢١٣ ، س ١١	الجرد	الجود
ص ٢١٣ ، س ١٦	اسلاباً	اسلافاً
ص ٢١٧ ، س ١٧	المناسبة المناسبة	المناسبة
ص ٢٢١ ، س ٣	المدكور	المذكور
ص ٢٢١ ، س ١٦	شوكه	شوكتُه
ص ٢٢٣ ، س ١٧	الخقان	الخاقان
ص ٢٢٤ ، س ٧	وزده	وزيادهٌ
ص ٢٢٤ ، س ١٠	داحل	داخل
ص ٢٢٤ ، س ١٨	هية	هيبة
ص ٢٢٥ ، س ٢٤	تحالما	تحالفا

ص ٢٣٤ ، س ١	ابو زيد	أبو يزيد
ص ٢٣٨ ، س ١٠	اتنها	أنتها
ص ٢٤٢ ، س ٤	قوابين	قوانين
ص ٢٤٥ ، س ١٧	سائو	سائو
ص ٢٧٢ ، س ١٥	الشروح	المشروح
ص ٢٧٤ ، س ١٥	ابو الوفا	ابي الوفا
ص ٢٨٥ ، س ١٥	نوح	تنوح
ص ٢٨٥ ، س ١٦	عمد	عند
ص ٢٩٠ ، س ١٣	فاصعت	فأطعتُ
ص ٢٩٠ ، س ١٥	اتهمي	أتهمني
ص ٢٩١ ، س ١٤	مسظم	منتظم
ص ٣٠٢ ، س ٩	للمؤلّف	للمؤلّف
ص ٣٠٣ ، س ٢	في عدّ	في عدّ
ص ٣١٠ ، س ١٤	لم يُعطِ	لم يُعطَ
ص ٣٢٠ ، س ٢٠	أدربيجان	أذربيجان










COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0061887307

